

صَلَاةُ الْبُحْرَانِ
وَفِيهِ كَلَامُ الْفَرِيدِ

١٥٤٦

الشيخ محمد بن أبي بكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ضياء الفرقان
فی
تفسير القرآن
مجلد ۸

لِـمُؤَلِّفِهِ سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / مؤلفه محمد تقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ ج.
شابک	: دور ۷-24-978-964-8981-52-0؛ ج. ۵-978-964-8981-52-0
وضعیت فهرست نویسی	: فیفا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century :
رده بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ض ۹۸/ن ۹۸ BP
رده بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الثامن

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأولى

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

جميع الحقوق محفوظة لمؤلف

شابک: ۰ - ۵۲ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧ الجزء العاشر
٩ سُورَةُ الْاِنْفَالِ
٨٧ سُورَةُ التَّوْبَةِ
٣٧١ الجزء الحادى عشر
٤٧٣ سُورَةُ يُونُسَ
٧٠٧ سُورَةُ هُودَ
٧١٧ الفهرست

الجزء

العاشر

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ
لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا
عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْيِ الْجَمْعَانِ وَ
اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ
لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا (٤٢) لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتَةٍ وَإِنَّ
اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٣) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي
مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ
لَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٤) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ
فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَىٰ
اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
(٤٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ
اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٦)

◀ اللغة

غَنِمْتُمْ، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و في الإصطلاح تطلق
على ما أُخِذَ من الكفار مع القتال فأن كانت من غير قتال فهي في و اليه ذهبت

الإمامية و قال قوم الفئى والغنيمة واحد.

وَلِذِي الْقَرْيَةِ عَدَدْنَا هُمْ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَ عِنْدَ الْعَامَّةِ هُمْ بَنُو هَاشِمٍ.

وَالْيَتَامَى، الْيَتِيمُ مِنْ مَاتَ أَبُوهُ وَ هُوَ صَغِيرٌ.

وَأَبْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمُتَقَطِّعُ بِهِ فِي سَفَرِهِ.

وَالْمَسَاكِينِ، الْمَكْسِينَ الْمَحْتَاجِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَسْكُنَهُ الْحَاجَةُ عَمَّا

يَنْهَضُ بِهِ الْغَنَى.

يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ يَوْمَ بَدَرَ.

بِالْعُدْوَةِ بَضَمَ الْعَيْنِ شَفِيرِ الْوَادِي وَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَ هُمَا نَعْتَانِ

سِوَاءٍ.

الْقُصُوصُ بِضَمِّ الْقَافِ بِمَعْنَى الْأَقْصَى مِنْهَا إِلَى جِهَةِ مَكَّةَ.

وَالرَّكْبُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَ سَكُونِ الْكَافِ وَ الْبَاءِ جَمْعُ رَاكِبٍ.

لَفِشَلْتُمْ، الْفِشْلُ الضَّعْفُ عَنْ فَرْعٍ وَ خَوْفٍ.

فِتْنَةً بِكَسْرِ الْفَاءِ الْجَمَاعَةُ.

الإعراب

مَا عَنَّمْتُمْ مَا بِمَعْنَى الَّذِي وَ الْعَائِدُ مَحْذُوفٌ مِنْ شَيْءٍ حَالٍ مِنَ الْعَائِدِ
 الْمَحْذُوفِ تَقْدِيرُهُ مَا غَنَمْتُوهُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا فَإِنَّ لِلَّهِ يَقْرَأُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ خُمُسُهُ
 الْخُمْسُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَ سَكُونِهَا لَغْتَانِ قَدْ قَرَأَ بِهِمَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ظَرْفٌ لَأَنْزَلْنَا أَوْ
 لَأَمْتُمْ يَوْمَ اتَّخَذَ مَبْدَلٌ مِنْ يَوْمِ الْأَوَّلِ إِذْ أَنْتُمْ إِذْ بَدَلَ مِنْ يَوْمٍ أَيْضًا وَ يَجُوزُ أَنْ
 يَكُونَ ظَرْفًا تَقْدِيرًا بِالْعُدْوَةِ (وَالْعُدْوَةُ) بِضَمِّ الْعَيْنِ وَ كَسْرِهَا لَغْتَانِ وَ قَدْ قَرِئَ بِهِمَا
 الْقُصُوصُ بِضَمِّ الْقَافِ خَارِجَةٌ عَلَى الْأَصْلِ وَ أَصْلُهَا مِنَ الْوَاوِ وَ قِيَاسُ الْإِسْتِعْمَالِ
 أَنْ تَكُونَ الْقَصِيًّا لِأَنَّهُ صِفَةُ كَالدُّنْيَا وَ الْعُلْيَا، وَ فَعَلَى إِذَا كَانَتْ صِفَةً قَلْبَتِ وَاوْ هَا
 يَاءُ فَرْقًا بَيْنَ الْإِسْمِ وَ الصِّفَةِ وَ الرَّكْبُ جَمْعُ رَاكِبٍ فِي الْمَعْنَى وَ لَيْسَ بِجَمْعٍ فِي
 اللَّفْظِ وَ لِذَلِكَ تَقُولُ فِي التَّصْغِيرِ رَكْبٌ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ظَرْفٌ أَيْ وَ الرِّكْبُ فِي

بَابُ الْفُرْقَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠

المجلد الثاني

مكان أسفل منكم أي أشدّ تنقلاً والجملة حال من الظرف الذي قبله و يجوز أن تكون في موضع جرّ عطفاً على أنتم أي و اذ الركب أسفل منكم ليهلك يجوز أن يكون بدلاً من ليقضي بإعادة الحرف و أن يكون متعلقاً بيقضي أو بمفعولاً فتفشلوا في موضع نصب على جواب النهي.

التفسير

وَ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَلْنَا فِي شرح اللغات أن الغنيمة تطلق على ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بسبب القتال و هي هبة من الله تعالى للمسلمين و الفئ ما أخذ بغير قتال و هو قول الشافعي و سفيان الثوري و عطا و غيرهم و هو المروى في أخبارنا و قال قوم الفئ و الغنيمة واحدة و قالوا أن هذه الآية ناسخة للتي في الحشر: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِدَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ^(١) لأنه بين في هذه الآية أن الأربعة أحماس للمقاتلة و على القول الأول لا يحتاج الى هذا و عند أصحابنا الفئ للإمام خاصة قاله الشيخ في التبيان و قال بعض المحققين الغنيمة هي ما أخذ من دار الحرب بقتال و يرشد اليه السياق و بذلك يفرق بينهما و بين الأنفال و هو قول أكثر المفسرين و به قال كثير من الأصحاب و جعلوا ثبوت الخمس فيما عدا ذلك من الأنواع السبعة بدليل خارج.

و قال المفيد في المقنعة الغنائم كل ما أستفيد بالحرب من الأموال و ما أستيد من المعادن و الغوص و الكنوز و العنبر و كلما فضل من أرباب التجارات و الزراعات و الصناعات من المؤنة و الكفاية طول السنة على الإقتصاد و نحوه قال الشهيد في البيان و الطبرسي في مجمع البيان بل أدعى أن في عرف اللغة

يطلق إسم الغنم والغنيمة على جميع ذلك و يرشد اليه صحيحة ابن سنان قال سمعت أبا عبد الله يقول ليس الخمس إلا في الغنائم خاصة و على ذلك حملة الشيخ في الإستبصار.

و قال الطبري في تفسيره لهذه الآية و اختلفوا أهل العلم في معنى الغنيمة و الفئ فقال بعضهم فيهما معنيان كل واحد منهما غير صاحبه و قال آخرون الغنيمة و الفئ بمعنى واحد.

و قال القرطبي في تفسيره لها و أعلم أن الإتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى: **غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ** مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه القهر والغلبة و لا تقتضي اللغة هذا التخصيص على ما بيناه و لكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع و سمي الشرع الواصل اليها من الكفار من الأموال بإسمين، غنيمة، وفئاً، فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي و ايجاف الخيل و الركاب يسمى غنيمة و لزم هذا الإسم هذا المعنى حتى صار عرفاً و الفئ مأخوذ من فاءٍ ففئ إذا رجع و هو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب و لا ايجاف كخراج الأرضين و جزية الجماجم و خمس الغنائم، و قيل أنهما واحد و فيهما الخمس قاله قتادة إنتهى كلامه.

أقول الحق أن الغنيمة تطلق على جميع ذلك كما نقلناه عن المفيد تختص بما أخذ من دار الحرب بقتال و لعله الظاهر، قال في المجمع، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و اصطلاح جماعة على أن ما أخذ من الكفار مع القتال.

و قال في المنجد، غنم غنماً الشيء، فاز به و ناله بلا بدل، و الغنيمة ما يؤخذ من المحاربين عنوة، المكسب عموماً.

و عن كنز العرفان، الغنيمة في الأصل هي الفائدة المكتسبة و اصطلاح جماعة على أنها تطلق على ما أخذ من الكفار بقتال.

في تفسيره في تفسيره



و عن زبدة البيان، الغنيمة في اللّغة بل العرف الفائدة، و أمّا العامّة فقد أطلقوا الغنيمة على ما أخذ من الكفّار بقتالٍ إذا عرفت معنى الغنيمة.

فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِأَيِّتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

معناه أن ما غنمتم من شيءٍ حتّى الخيط و المخيّط فإنّ لله خمس و للرّسول أي يجب عليكم في الخمس.

ثمّ إنّ البحث حول الآية يقع في جهات:

الأولى: في بيان ما يجب فيه الخمس.

الثانية: في بيان المستحق.

الثالثة: في بيان كمّيّة القسمة.

الرابعة: في بيان كيفيّة القسمة.

أمّا الجهة الأولى: فنقول الذي يجب فيه الخمس أقسام:

الأول: الغنائم المأخوذة في دار الحرب و هو مجمع عليه و في حكمه غنيمة مال البغاة التي حواها العسكر كما قاله جماعة من الأصحاب.

الثاني: المعادن سواء كانت منطبعة كالذهب أو غير منطبعة كالياقوت أو مائعة كالقير.

الثالث: الكنوز و هو كلّ مالٍ مذخور تحت الأرض و يدّل على ذلك الإجماع و النصوص.

الرابع: ما يخرج بالغوص و يدّل عليه أيضاً الإجماع و النصوص.

الخامس: الأرباح الفاضلة عن مؤنة السنّة و وجوب الخمس فيه هو المشهور بين الأصحاب بل نقل عيه الإجماع و تواتر الأخبار.

السادس: أرض الذمي إذا اشتراها من مسلم ذكره الشّيخ و الأكثر.

السابع: الحرام المختلط بالحلال و لجميع هذه الأقسام تفاصيل و أحكام مذكورة في الكتب الفقهيّة لا نطيل الكلام بذكرها لخروجها عن موضوع الكتاب.

الثانية: في بيان المستحقّ و الأظهر أنّهم أولاد عبد المطلب خاصّة ذكوراً و أنثاً ويدلّ عليه ما رواه حمّاد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي الحسن أنّه عليه السلام قال: و هؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس هم قرابة النّبي و هم بنو عبد المطلب أنفسهم للذكر و الأنثى ليس فيهم من أهل بيوتات قريش و لا من العرب أحد و هو الظاهر من الروايات.

الثالثة: في بيان كمّيّة القسمة و قد اختلف فيه علماءنا و غيرهم. و الأشهر أنّه يقسم ستّة أقسام، ثلاثة للإمام و هي سهم الرّسول و سهم ذي القربى و ثلاثة للباقيين و هم اليتامى و المساكين و ابن السبيل كما تضمّنّت الآية و الأخبار به أيضاً كثيرة.

منها، مؤثقة عبد الله بن بكير عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السلام في قوله عليه السلام و عليه السلام و عليه السلام أنّما غنمتم قال عليه السلام: خمس الله للإمام و خمس الرّسول للإمام و خمس ذوي القربى لقرباة الرّسول الإمام و اليتامى يتامى الرّسول و المساكين منهم و أبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم الى غيرهم انتهى و منها، ما رواه الشّيخ بأسناده الى أن قال: فأما الخمس فيقسم على ستّة أسهم:

سهم لله، و سهم للرّسول، و سهم لذي القربى، و سهم لليتامى، و سهم للمساكين، و سهم لأبناء السبيل.

فالذي لله فلرسول الله فرسول الله أحقّ به فهو له و الذي للرّسول فهو لذي

القربى و الحجة في زمانه فالنصف له خاصة والنصف لليتامى و المساكين و ابن السبيل هذا هو المشهور عندنا في كمية القسمة. و قد حكى العلامة و المحقق عن بعض الفقهاء قولاً بأنه يقسم خمسة أقسام:

سهم لرسول الله و سهم لذي القربى و الثلاثة الباقية لليتامى و المساكين و ابن السبيل و الى هذا القول ذهب أكثر العامة قالوا و معنى لله خمسة و للرسول أن للرسول خمسة كقوله تعالى:

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ^(١) و المراد رسوله و الافتتاح بذكر اسم الله على جهة التبرك و التيمن لأن الأشياء كلها لله و أن من حق الخمس أن يكون متقرباً الى الله لا غير و أن قوله: لِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى الخ بيان لأن مصرفه هؤلاء فيكون من قبيل التخصيص بعد التعميم تفصيلاً لهذه الوجوه على غيرها كقوله تعالى: وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(٢) هذا و المشهور ما ذكرناه أولاً.

و قال بعض العامة أنه يقسم على أربعة أسهم:

سهم ذوي القربى لقربة النبي و الأسهم الثلاثة لمن ذكر بعد ذلك من سائر المسلمين و هو مذهب الشافعي.

و قيل أنه يقسم على ثلاثة أسهم لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته عندهم لأن الأنبياء على زعمهم لا تورث و سهم ذوي القربى أيضاً قد سقط لأن أبا بكر و عمر لم يعطياه و لم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما و هو مذهب أبي حنيفة و أهل العراق.

و منهم: من قال لو أعطى فقراء ذوي القربى سهماً و الآخرون ثلاثة أسهم

جاز، ولو جعل ذا القربى أسوة الفقراء ولا يفرد له سهم جاز، وهذه الأقاويل كلها باطلة عندنا وعند جميع العقلاء.

الرابعة: في بيان كيفية القسمة والمشهور بين الأصحاب أن للإمام النصف سهم الله وسهم رسوله بالوراثة وسهم ذي القربى بالأصالة والثلاثة الباقية لمن سمّه الله عزّ وجلّ بل نقل الشيخ على ذلك إجماع الفرقة وإستدلّ المحقق عليه السلام في المعتبر على إختصاص ذي القربى بالإمام بأنّ قوله: **وَلِذِي الْقُرْبَىٰ** لفظ مفرد فلا يتناول أكثر من واحد فيصرف الى الإمام لأنّ القول بأنّ المراد واحد غير الإمام باطل بالإجماع.

لا يقال يمكن إرادة الجنس كإبن السبيل، لأنّا نقول تنزيل اللفظ الموضوع للواحد على الجنس مجاز يحتاج في حمل اللفظ عليه الى الصّارف عن إرادة الحقيقة ولا مانع هنا من الحمل على الحقيقة وليس كذلك قوله وإبن السبيل لأنّ في إرادة الواحد هنا إخلالاً بمعنى اللفظ اذ ليس هناك واحد يمكن حمل اللفظ عليه انتهى.

و أورد عليه بأنّ إرادة الواحد من ذي القربى غير ظاهرة بل الظاهر إرادة الجنس كما في قوله: **وَإِذَا كَانَ مِنَ الْقُرْبَىٰ** ^(١) وقوله: **وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ** ^(٢) ونحو ذلك من الآيات والحق أنّ هذا اللفظ بالنظر الى وضعه يكون ظاهراً في الوحدة وبالنظر الى كثرة الإستعمال يكون ظاهراً في إرادة الجنس فالإعتداد في هذا المقام على البيان من معدن التّنزيل وقد فسّروه بما مرّ بيانه.

وفي المقام فوائد يجب التنبيه عليها:

الأولى: يعتبر في الطوائف الثلاث أعني اليتامى والمساكين وإبن السبيل إنتسابهم الى عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو المشهور بين الأصحاب وعن الكافي عن سليم بن قيس قال سمعت أمير المؤمنين يقول

في
قوله
وَأَتِذَا
الْقُرْبَىٰ
حَقُّهُ

جزء ١٠
عبد المطلب

نحن والله الذي عني بذى القُربى الذين قرّنههم الله بنفسه و نبيّه فقال: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ^(١) مِمَّا خَاصَّةٌ وَلَمْ يَجْعَلْ لَنَا سَهْمًا فِي الصَّدَقَةِ أَكْرَمَ اللَّهُ نَبِيَّهِ وَ أَكْرَمَنَا أَنْ يَطْعَمَنَا أَوْ سَاخَ النَّاسُ (ما في أيدي الناس) انتهى.

الثانية: يعتبر في الإنتساب الى عبد المطلب أن يكون بالأب فلا يعطى من أنتسب بالأُم خاصّة وبذلك قال أكثر الأصحاب وفيه بحث في موضعه.

الثالثة: لا يجب إستيعاب كل طائفة بل لو إقتصصر من كل طائفة على واحد جاز وهذا هو المعروف من مذهب الأصحاب وذلك لأنّ اللّام للجنس كما في آية الزكاة.

الرابعة: الظاهر أنّ الآية مسوقة لبيان المصرف فيجوز تخصيص النصف الذي لغير الإمام بطائفة من الطوائف الثلاثة و أمّا إختصاص النصف الآخر بالإمام فللنص عليه وهذا هو المشهور بين المتأخرين.

و قيل يجب البسط على الثلاثة بناءً على أنّ اللّام للملك أو الإختصاص والعطف بالواو يقتضي التشريك في الحكم وفيه نظر.

الخامسة: اليتيم هو الطفل الذي لا أب له و ظاهر إطلاق الآية و الروايات أنّه لا يعتبر فيه الفقر و إلّا لدخل في المساكين و لأنّ ما قبله لا يعتبر فيه ذلك فذكره في سياق ذلك بدون إعتبار وصف آخر يشعر بذلك.

السادسة: ظاهر إطلاق الآية و الروايات أنّه لا يشترط العدالة في المستحق و لم نعثر على ما يكون مقيداً لذلك وهذا هو المشهور بين الأصحاب و ربّما قيل بالإشتراط و هو مع جهالة قائله ضعيف نعم يشترط فيها الإيمان.

إِنْ كُنْتُمْ أَمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ أَتَقَى
الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

جواب الشرط هو ما تقدم أو مقدر من جنسه أي فأعلموا أن الخس لهؤلاء
و أعملوا بذلك لأنه المقصود و في تصدير الكلام بالعلم و تكرار التأكيد، بأن، و
تقييد ذلك بالإيمان بالله مبالغة في التأكيد و ما أنزله هو جبرئيل و الملائكة و
يوم الفرقان هو يوم بدر لأن الله فرّق فيه بين الحقّ و الباطل و نصر فيه جميع
المسلمين مع قاتلهم و كثرة المشركين لأنّ المسلمين كانوا ثلاث مائة و ثلاثة
عشر رجلاً و كان معهم فرس واحدة و كان المشركون تسع مائة الى ألف و كان
معهم مائتا فرس أو أربع مائة.

و روي في الخصال عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال:
الغسل في سبعة عشر موطناً ليلة سبعة عشر من رمضان و هي
ليلة يلتقي الجمعان ليلة بدر.

و في تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام
قال: في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان قلت ما معنى
قوله: يلتقي الجمعان قال عليه السلام يجمع فيها ما يُريد من تقديمه و
تأخيرهِ وإرادته وقضاءه.

و نقل أنه كان يوم الجمعة بسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان من سنته
أثنتين مضت من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهراً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ فلا تتعجبوا من نصره المسلمين على الكفار مع قلة عدد المسلمين و كثرة
عدد الكفار فإن ذلك في جنب قدرة الله حقير فهذا تفسير الآية على ما ذهب اليه
الإمامية في معنى الخمس و تقسيمه الى آخر ما ذكرناه و لا بأس بالإشارة الى
بعض ما ورد في الباب من طريق أهل البيت تميماً للكلام و توضيحاً للمرام.
فعن التهذيب بأسناده عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس عن

بَابُ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْفُرْقَانِ

جزء ١٠

بَابُ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْفُرْقَانِ

أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعته يقول كلاماً كثيراً ثم قال وأعظم من ذلك كله سهم ذي القربى الذين قال الله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ أُمَّتُمْ بِاللَّهِ قَالَ عليه السلام: نحن والله عني بذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل منّا خاصّة ولم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً أكرم الله نبيّه وأكرمنا أن يطعمنا أو ساخ أيدي الناس انتهى.

وعن الكافي بأسناده عن أبي عبد الله في قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى قَالَ أمير المؤمنين والأئمة انتهى.

وعنه بأسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى قَالَ عليه السلام هم قرابة رسول الله والخمس للرّسول ولنا إنتهى.

وعنه بأسناده عن الرضا عليه السلام قال سأل عن قول الله: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى فَقيل له عليه السلام فما كان لله فلمن هو، فقال عليه السلام لرسول الله وما كان لرسول الله ﷺ فهو للإمام عليه السلام فقيل له أرايت أن كان صنف من الأصناف أكثر وصنف أقل ما يصنع به قال عليه السلام ذلك الى الإمام أرايت رسول الله كيف يصنع أليس أنما كان يُعطي على ما يرى كذلك الإمام إنتهى.

وعن الثعلبي في تفسيره لهذه الآية عن المنهال بن عمر وقال سألت زين العابدين عليه السلام عن الخمس قال عليه السلام: هو لنا فقلت أن الله تعالى يقول واليتامى والمساكين قال عليه السلام أيتامنا ومساكيننا إنتهى.
وعن غوالي اللثائي عن علي عليه السلام أنّه قيل له واليتامى والمساكين فقال عليه السلام: أيتامنا ومساكيننا إنتهى.

و عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله قال سمعته يقول أن نجدة
الحروري كتب إلى ابن عباس يسأله عن موضع الخمس لمن هو
فكتب إليه أما الخمس فأنا نزعنا أنه لنا، و يزعم قومنا أنه ليس لنا
فصبرنا إنتهى.

و عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال سألته عن
قول الله وَ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَالَ الخمس لله و للرسول
و هو لنا إنتهى و الأحاديث في الباب كثيرة جداً^(١).

أقول هذه الأحاديث كما ترى تنادي بأعلى صوتها أن الخمس مختص بأل
رسول الله ﷺ و ليس لأحد من المسلمين فيه سهم و لا نصيب و مع ذلك
فقد أصر المخالف على مخالفته و منعه عن أهله و ليس هذا بأول قارورة
كسرت في الإسلام.

فإن القوم بعد غضبهم الخلافة غضبوا جميع حقوق أهل البيت و ليس هذا
من الظالمين ببعيد و حيث إنجر البحث إلى هنا فلا بد لنا من الإشارة إلى ما
ذهب إليه القوم في معنى الآية لتعلم صدق ما إدعيناها.

قال القرطبي و هو من أعظم أهل السنة في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:
العاشرة: و اختلف العلماء في كيفية قسم الخمس على أقوال ستة:
الأول: قالت طائفة يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة الذي
لله.

الثاني: لرسول الله.

الثالث: لذوي القربى.

الرابع: لليتامى.

الخامس: للمساكين.

في القرآن في تفسير القرآن



السادس: لإبن السبيل.

وقال بعض أصحاب هذا القول يردّ السهم الذي لله على ذوي الحاجة.
الثاني: قال أبو العالية و الزبيع تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد و تقسم الأربعة على الناس ثم يضرب بسهمه الذي عزله فما قبضوا عليه من شيء جعله للكعبة ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة سهم للنبي و سهم لذوي القربى و سهم لليتامى و سهم للمساكين و سهم لإبن السبيل.

الثالث: قال المنهال بن عمرو سألت عبد الله محمد بن علي و علي بن الحسين عن الخمس فقال هو لنا قلت لعلي أن الله يقول و أَلْيَتَامَى و أَلْمَسَاكِينَ و أَيْنِ السَّبِيلِ فقال أيتامنا و مساكينا.

الرابع: قال الشافعي يقسم على خمسة و رأى أن سهم الله و رسوله واحد و أنه يصرف في مصالح المؤمنين و الأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية.

الخامس: قال أبو حنيفة يقسم على ثلاثة، اليتامى و المساكين و إبن السبيل و يرتفع عنده حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما يرتفع حكم سهمه قالوا و يبدأ من الخمس بإصلاح القناطر و بناء المساجد و أرزاق القضاة و الجند و روي نحو هذا عن الشافعي أيضاً.

السادس: قال مالك هو موكول إلى نظر الإمام و إجهاده فيأخذ منه من غير تقدير و يُعطي منه القرابة بإجهاده و يصرف الباقي في مصارف المسلمين و به قال الخلفاء الأربعة و به عملوا و عليه يدل قوله ﷺ مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس و الخمس مردود اليكم فإنه لم يقسمه أخماساً و لا أثلاثاً و أنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع إليه.
قال الزجاج محتجاً لمالك قال الله عز وجل: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا

أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ ^(١) و
لِلرَّجُلِ جَائِزٌ بِاجْتِمَاعِ أَنْ يُتَّفَقَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ إِذَا رَأَى ذَلِكَ.

و ذكر النسائي عن عطاء قال خمس الله و خمس الرسول واحد كان رسول
الله ﷺ يحمل منه و يعطي منه ويضعه حيث شاء و يصنع به ما شاء فهذه
هي الأقوال الستة التي ذكرها القرطبي في تفسيره و نحن لا نتعجب ممَّا ذكره و
نقله عن القوم و ذلك لأنَّ كلام الله تعالى إذا فسر بالرأي فيقول كلُّ أحدٍ فيه بما
شاء و حيث أنَّ القوم لم يتمسكوا بالعتره في تفسير القرآن تبعاً لإمامهم عمر بن
الخطاب حيث قال حسبنا كتاب الله فلا محالة يصير القرآن غريباً و هذا داءٌ لا
دواء له فعلاً لأنَّهم أعرضوا عن أهل البيت الذين جعلهم الرسول عدلاً للكتاب
حيث قال: أنِّي تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي الحديث و لما كان
الأمر على هذا المنوال فما تُريد منهم في تفسير القرآن و من المعلوم أنَّ
تفسيره عند من خوطب به و أهل البيت أدري بما في البيت و عليه فلا نحتاج
إلى ردِّ ما قاله أبو حنيفة و مالك و الشافعي و من حذى حذوهم و المفروض
أنَّ أقوالهم ليست إلا من سنخ المخيلات و الوسوس النفسانية و الالتعاعات
الشيطانية ألا ترى أنَّ الله يقول: وَ أَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ وَ يَصْرَحُ بأنَّ الغنيمه لله
و لرسوله و لذي القربى الخ.

و مالك إمام القرطبي يقول هو موكول إلى نظر الإمام و إجهاده يصرفها
كيف يشاء الخ.

و أبو حنيفة يقول يبدأ بإصلاح القناطر الخ.
و الآخر يقول سهم للكعبة الخ.

و هكذا و هكذا فما نقول في جوابهم إلا أن نقول قال رسول الله من فسرَّ
القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار و محصل الكلام في المقام هو أنَّ الآية

في تفسير القرآن



المجلد الثاني

الشَّريفة نزلت لوجوب الخمس و هو مختص بمحمد ﷺ و آله الطَّاهر نصيب لأحد من أحاد الأُمَّة فيه و هذا ممَّا لا كلام فيه ثم أتى بعد ما ذكرت كلام القرطبي و قفت على ما ذكره الرَّايزي في تفسيره فرأيت أنه زاد في الطَّنْبور شيئاً آخر و هو أنه بعد نقله كلام أبي حنيفة و الشَّافعي و غيرهما قال و أعلم أنَّ ظاهر الآية مطابق لقول الشَّافعي و صريح فيه فلا يجوز العدول عنه إلاَّ لدليل منفصل أقوى منها و كيف و قد قال في آخر الآية **إِنْ كُنْتُمْ أَمْتُمْ بِاللَّهِ** يعني أن كنتم أمتم بالله فأحكموا بهذه القسمة و هو يدلُّ على أنه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة لم يحصل الإيمان بالله انتهى كلامه.

أقول و لابدَّ لنا من نقل كلام الشَّافعي على ما نقله الرَّايزي و ذلك لأختلاف النقل.

أمَّا نقل القرطبي عنه فقد ذكرناه.

و أمَّا الرَّايزي فقال عند الشَّافعي يقسم الخمس على خمسة أسهم سهم لرسول الله يصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع و السَّلاح و سهم لذوي القربى من أغنياءهم و فقراءهم يقسم بينهم للذكر مثل حظَّ الأنثيين و الباقي للفرق الثلاثة و هم اليتامى و المساكين و إبن السَّبيل انتهى.

و الشَّيْثى الَّذي قلنا أنه زاده هو قوله يقسم للذكر مثل حظَّ الأنثيين، فإنَّ هذا الكلام لم ينقله القرطبي في نقله و قد ذكره الرَّايزي و هو أدرى بما في البيت لأنَّه شافعي المذهب.

و أمَّا القُرطبي فهو حنبليّ و قيل أنه مالكي و كيف كان فكل مأموم هو أعرف بمسلك إمامه و كلامه.

و أنما قلنا ذلك لأنَّه لم يذكره أحدٌ غير الشَّافعي فإنَّه تخيَّل أنَّ هذا من قبيل الأُرث الَّذي قال الله فيه **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** ولم يعلم أنه ليس منه بل هو

حقّ لهم في الغنائم مثل الزّكوة للفقراء ولا يبعد منه أن يقول بهذه المقالة في الزّكوة بل وجميع الصدقات أيضاً فأنظروا يا أهل الإنصاف كيف أدخلوا آرائهم وأوامهم التي أوحاها الشياطين اليهم في الدين وجعلوها من الأحكام الشرعية الصادرة عن صاحب الشريعة وأعجب منه متابعة الرّازي في دينه عنه ونقله كلامه وإدعائه أنّ ظاهر الآية مطابق لقوله بل صريح فيه ولا يجوز العدول عنه إلّا لدليل منفصل وأوهن بل أضحك منه إستدلاله بآخر الآية وهو قوله: **إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ أَلْخَ** وحكمه بأنّ هذه القسمة لو لم تحصل لم يحصل الإيمان وليت شعري كيف يكون ظاهر الآية مطابقاً لقول الشافعي بل صريح فيه والآية صريحة في أنّ الأقسام والأسهام ستّة.

والشافعي يقول، أنّها خمسة وأدعى حذف سهم الله أو إدغامه في سهم الرّسول وأي دليل دلّ على صحّة ما إدعاه الشافعي مع أنّه خلاف ظاهر الآية و صريحها، وأمّا إستدلال الرّازي على مدّعه بآخر الآية وهو قوله: **إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ أَلْخَ** فهو ممّا تضحك به الثّكلى وذلك لأنّ قوله تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ شَرَطٌ** و جزائه مقدّم عليه أو مقدّر فعلى الأوّل معنى الكلام إن كنتم آمنتم بالله فأعلموا إنّما غنمتم من شيء ألخ.

وعلى الثّاني: إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللّهِ فأعملوا بهذا الحكم مثلاً وأمّا أنّه يثبت قول الشافعي فلا نفهم معناه وأظنّ أنّ الرّازي أيضاً لم يفهم ما قال بل هو من زلّات كلامه أعاذنا الله منه ولنختم الكلام في تفسير الآية في المقام ونقول:

لا أضحك الله سنّ الدهر أن ضحكت وآل أحمد مظلومون قد قهروا

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوى وَ الرِّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
العدوة بضّم العين وكسرهما شفير الوادي، والدنيا، بمعنى الأدنى الى المدينة والقصوى بمعنى الأقصى منها الى جهة مكة وأصل الدنيا الدنوّ بالواو بدلالة قولهم ودنوت الى الشيء قلبت الواو ياء ولم تقلب مثل ذلك في القصوى

فلا يقال قصياً مثلاً، وذلك لأنَّ الدُّنيا عومل معها معاملة الإِسْم في قولهم الدُّنيا والأخْرة وأن كان أصلها صفة فحَقِّقَتْ لأنَّ الإِسْم أَحَقُّ بالتَّخْفِيف وهذا بخلاف القصوى فأتَتْها بَقِيَتْ على كونها صفة، والمعنى وأذكروا إذ أنتم بالعدوة الدُّنيا أيها المؤمنون أي كنتم على شفير الوادي الَّذي كان أدنى وأقرب الى المدينة وهم يعني هؤلاء الكفَّار كانوا بالعدوة القصوى أي كانوا في جهة الأقصى أي الأبعد الى مكَّة، والرَّكْب، يعني أبا سفيان وأصحابه كانوا في موضع أسفل منكم الى ساحل البحر وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خُتِلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ المواعدة وعد كل واحدٍ من الاثنين الآخر.

و الإختلاف مذهب كل واحدٍ من الشَّيْثَيْنِ في نقيض الآخر ومنه الإختلاف في الميعاد لذهاب كل واحدٍ من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التَّقدُّم والتَّأخُّر والزَّيَاة والنَّقْصان عَمَّا إنْعَقَدَ به الميعاد وقيل إختلافهم في الميعاد بمعنى، لو تواعدتم، أيها المؤمنون على الإِجْتِمَاع في الموضع الَّذي إجتمعتم فيه ثم بلغكم كثرة عدكم مع قلة عددكم لتأخَّرتم فنقضتم الميعاد وجه آخر، لَوْ تَوَاعَدْتُمْ من غير لطف الله لكم لأختلفتم بالعوائق والقواطع فذكر الميعاد لتأكيد أمره في الإِتِّفَاق ولولا لطف الله مع ذلك لوقع على الإختلاف.

جرت الزَّيَاح على محل ديارهم فكأنَّما كانوا على ميعادٍ ذكر هذه الوجوه في التَّبيان وقيل معناه لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أنتم وأهل مكَّة على القتال لخالف بعضكم بعضاً قتلْتكم وكثرتهم.

وقال صاحب الكشاف معنى الكلام و لو تواعدتم أنتم أهل مكَّة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالف بعضكم بعضاً فشطكم قتلْتكم وكثرتهم على الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين فلم يَتَّفَقْ لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له و

لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَقْضِيَ مَتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَيْ لِيَقْضِيَ أَمْرًا
 كَانَ وَاجِبًا أَنْ يَفْعَلَ وَهُوَ نَصْرُ أَوْلِيَاءِهِ وَقَهْرُ أَعْدَائِهِ دَبَرَ ذَلِكَ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
 عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ قِيلَ لِيَهْلِكَ بَدَلُ
 مِنْهُ وَأُسْتَعِيرَ الْهَلَاكُ وَالْحَيَاةُ لِلْكَفَرِ وَالْإِسْلَامُ أَيْ لِيَصْدَرَ كَفَرٌ مِنْ كَفَرٍ عَنْ
 وَضُوحِ بَيِّنَةٍ لَا عَنْ مَخَالَجَةِ شَبْهِ حَتَّى لَا تَبْقَى لَهُ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ وَهَكَذَا يَصْدُرُ
 إِسْلَامٌ مِنْ أَسْلَمَ عَنْ يَقِينٍ وَعِلْمٌ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينَ الْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي الدَّخُولُ
 فِيهِ وَالتَّمَسُّكُ بِهِ وَالبَيِّنَةُ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ وَالبِرْهَانُ وَالمَقْصُودُ مِنْهَا فِي الْمَقَامِ هُوَ
 الْمَعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ الَّتِي وَقَعَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي حُرُوبِهِ وَغَيْرِهَا وَلَا سِيَّما
 غَزْوَةُ بَدْرٍ الَّتِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِيهَا، مِنْ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَ
 غَلَبَتِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَثْرَةِ الْكُفَّارِ وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
 لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ إِنْشَاءً إِلَى أَصْلَيْنِ:
 أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَكْلُوفَ مُخْتَارٌ فِي إِنْتِخَابِهِ غَيْرُ مُجْبُورٍ فِيهِ خِلَافًا خِلَافًا
 لِلْأَشَاعِرَةِ فَانَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرُ مُخْتَارٍ فِي الْهَدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ بَلْ هُمَا
 مَقْدَرَتَانِ لَهُ مِنَ الْأَزْلِ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَمَا عِلْمُ اللَّهِ كَانَ لَا مُحَالَةً وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
 الْعِلْمَ الْأَزْلِي لَا يَكُونُ عِلَّةً لِلْفِعْلِ خَارِجًا، وَأُنْمَا قُلْنَا أَنَّ الْآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى الْإِخْتِيَارِ
 لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى عَنْ بَيِّنَةٍ فِي الْمَقَامَيْنِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ إِذْ لَوْ كَانَ مُجْبُورًا فِي إِنْتِخَابِ
 أَحَدِهِمَا فَلَا مَعْنَى لِإِسْتِنَادِ الْحَيَاةِ وَالْكَفَرِ إِلَى الْبَيِّنَةِ بَلْ حَقُّ الْعِبَارَةِ أَنْ يَقَالَ
 لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ قَالَ: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ
 بَيِّنَةٍ وَهَكَذَا فِي الْحَيَاةِ وَتَقْرِيبِ الْإِسْتِدْلَالِ هُوَ أَنَّ الْهَلَاكَ وَالْحَيَاةَ لَيْسَا بِقَضَاءٍ
 وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ مِنْ دُونِ إِرَادَةِ الْعَبْدِ وَإِخْتِيَارِهِ بَلْ هُمَا يَحْصِلَانِ لَهُ بِإِقَامَةِ الْحُجَجِ
 وَالبِرَاهِينِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَعْدَ وَضُوحِ الْبَيِّنَةِ فَمَنْ إِيخْتَارَ الْكَفَرَ فَلَا
 يَلُومُنْ إِلَّا نَفْسَهُ وَمَنْ إِيخْتَارَ الْحَقَّ فَهُوَ أَيْضًا مِنْ إِنْتِخَابِهِ وَمَنْ يَشْكُرُ فَانَّمَا يَشْكُرُ
 لِنَفْسِهِ وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْأَصْلُ الثَّانِي وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يُوَاخِذَ الْعَبْدَ عَلَى

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

فعله و قوله إلا بعد إتمام الحجة قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ^(١) وهذا هو مقتضى العدل إذ المؤاخذه والعقاب قبل الحجة من قبيل العقاب بلا بيان و هو قبيح عقلاً و شرعاً قال الله تعالى: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(٢) ألا ترى أنَّ الله تعالى لم يؤاخذ قوماً على أعمالهم في دار الدنيا إلا بعد إقامة الحجة بإرساله الرسل و إنزاله الكتب و ظهور المعجزات على أيدي الأنبياء في كل عصر و زمان، فقد أهلك فرعون و قومه بعد ظهور المعجزات على يد موسى عليه السلام و إنكار فرعون و عناده و هكذا سائر الأمم فهذا أصل أصيل في نظام التشريع و التكوين.

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ^(٣).
قال الله تعالى: إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُم فَأَبَىٰ أَعْدَابُهُ عَذَابًا^(٤).

و الأيات كثيرة والعقل أيضاً يحكم به حكماً جازماً لا مرية فيه.

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
والتقدير أذكر يا محمد و الضمير في قوله: يُرِيكَهُمُ اللَّهُ أعني به، هم، و في قوله: أَرَايَكَهُمْ راجع الى الكفار.

قال المفسرون الخطاب للرسول ﷺ و تظاهرت الروايات على أنَّ الرسول أراه الله في منامه، الكفار قليلاً فلما إنتهى من النوم أخبر أصحابه بما رآه في النوم من قلة عدد الكفار فقويت نفوسهم و شجعت على أعداءهم.
و قال ﷺ لأصحابه إيشروا لقد نظرت الى مصارع القوم، قيل المراد

بالقلّة هنا قلّة القدر و اليأس و النجدة و أنّهم مهزومون معروفون لا قلّة العدد لأنّ ﷺ رؤياه حقّ و قد علم أنّهم ما بين تسع مائة ألف فلا يمكن حمل ذلك على قلّة العدد.

و قال الحسن معنى في منامك، في عينك التي تنام بها لأنّها مكان النّوم كما قيل للقطيفة المّنامة لأنّه ينام فيها فتكون الرّؤية في اليقظة و على هذا فسره النقاش و ذكره عن المازني انتهى.

قال صاحب الكشّاف و هذا تفسير فيه تعسّف و ما أحسب الرّواية عن الحسن و ما يلائم علمه بكلام العرب و فصاحته.

و قد فسّر الكلام الرّمخسري و قال أنّ الله عزّ وجلّ أراه أيّاهم في رؤياه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم و تشجيعاً على عدوّهم انتهى.

أقول قال بعض المحقّقين الرّؤيا على أربعة أقسام:

رؤيا من الله عزّ وجلّ و لها تأويل.

و رؤيا من وسوسة الشّيطان.

و رؤيا من غلبة الإفراط.

و رؤيا من الأفطار و كلّها أضغاث أحلام إلّا الرّؤيا من قبل الله تعالى التي هي الإلهام في المنام يتصوّر به الشّي كأنّه يرى في اليقظة.

و رؤيا النّبي ﷺ من هذا القبيل فهي بشارة له و للمؤمنين بالنّصر و الغلبة و قد وقع انتهى.

و حيث أنّ الله تعالى قد أراه في المنام قليلاً و بذلك قويت نفوس المؤمنين قال: **وَلَوْ أَرَيْكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ وَجْهه**

ظاهر فإنّ كثرة العدوّ توجب الخوف و هو يوجب الفشل و الضّعف فإنّ الخائف ضعيف قهراً و إذا وجد الفشل و الضّعف في قوم يتحقّق الاختلاف و

النزاع بينهم في المحاربة و عدمها فبعضهم يقول نحارب و الأكثر لا يقول به و

في التّفسير
القرطبي



في التّفسير
القرطبي

إذا وجد الاختلاف فلا نصر ولا غلبة هناك فَأَنَّ الاختلاف أساس الذلّة و
المقهورية يمكن معه الغلبة على العدو أصلاً.

قال الله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ
مَا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ^(١).

و أما قوله: وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فالسّلامة النّجاة
من الآفة و أسلم الإنسان إذا دخل في السّلامة من جهة الدّين قيل في هذا
الكلام إشارة الى أنّه تعالى سلم من الفشل و التّنازع و الاختلاف و قيل معناه
سلمهم الله من ذلك بلطفه لهم و إحسانه حتّى بلغوا ما أرادوه من عدوهم و
قيل و لكنّ الله سلمكم من المخالفة فيما بينكم أو سلمهم من الهزيمة يوم بدر
و أظهر أنّ المراد و لكنّ الله سلمكم من التّنازع و الاختلاف فيما بينكم و
لأجل ذلك غلبتم على أعداءكم أنّه تعالى: عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يعلم ما
يحصل فيها من الجرأة و الجبن و الصّبر و الجزع و بعد ما أشار الله تعالى في
هذه الآية أنّه أرى رسوله في منامه ما أراه ثمّ أخبر الرّسول أصحابه بما أراه الله
في منامه على ما مرّ الكلام فيه أشار الى نكته بل معجزة أخرى و هى أنّه
تعالى فعل ذلك بهم في اليقظة حين الالتقاء.

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يَقُلُّكُمُ فِيْ أَعْيُنِهِمْ
لِيُقْضَىٰ إِلَهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ
و التقدير و أذكروا أيّها المؤمنون إذ يريكموهم، فالهاء و الميم كناية عن
المشركين و الكاف و الميم كناية عن المؤمنين.

و المقصود أنّ الله تعالى أرى الكفّار قليلين في أعين المؤمنين ليشتدّ بذلك
طمعهم فيهم و جرأتهم عليهم و قلّ المؤمنين في أعين الكفّار لئلا يتأهّبوا

يستعدّوا لقتالهم ولا يكثرثوا بهم و يظفر بهم المؤمنون ولا شك أن المراد بالرؤية في المقام الرؤية بالبصر لقوله في أعينكم، إذ العين حاسة يدرك بها البصر بخلاف الرؤية في الآية السابقة فأنها كانت في المنام وهي في الحقيقة من سنخ الإلهام بالنسبة إلى النبي.

ثم قال تعالى: **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** اللام في، ليقضي، لام الغاية أو لام التعليل أي أنما فعلنا ذلك لهم ولكم ليقضي الله أي لإجراء قضاء الله وقدره فيما شاء وأراد فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن في عالم التكوين والإيجاد فأنه تعالى إذا أراد بعدد خيراً هياً له أسبابه.

قال بعض المفسرين أنما كرر قوله: **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا** في هذه الآية مع ذكره في الآية الأولى، لإختلاف الفائدة فمعناه في الآية الأولى، ولو تواعدتم لأختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً من الإلتقاء على الصفة التي حصلت عليها.

وأما في الثاني يقلل كل فريق في عين صاحبه ليقضي الله الخ من إعزاز الدين بجهادكم على ما دبره لكم وأنما قال كان مفعولاً مع أن المعنى يكون مفعولاً في المستقبل، لتحقيق كونه لا محالة حتى صار بمنزلة ما قد كان إذ قد علم الله أنه كائن لا محالة انتهى كلامه.

وقال الرازي المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل إستيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ والمقصود من ذكره هاهنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنه تعالى ذكر هاهنا أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين فبين هاهنا أنه فعل ذلك ليصير ذلك سبباً لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سبباً لإنكسارهم انتهى كلامه.

أقول والذي يختلج بالبال في الفرق بين المقامين هو أنه تعالى قوى

المسلمين و حرّصهم على القتال من طريق إخبار الرّسول و متابعتهم أيّاه في إخباره لهم بما أراه الله في منامه ففيه تقويّة من طريق القلب بسبب الاعتقاد بأنّ الرّسول ما ينطق عن الهوى و أمّا في المقام فقواهم و حرّصهم عليه من طريق الحسّ و العيان و المشاهدة بالبصر و من المعلوم أنّ اتمام الحجّة من طريق الحسّ و العيان أتمّ منه من طريق القلب و الاعتقاد إذ لا سبيل لأحد لإنكار ما يراه بالعين و محصل الكلام هو أنّ القضاء تعلّق في الأوّل بصدق إخبار الرّسول بما أراه الله في منامه.

و في المقام الثّاني تعلّق القضاء بغلبتهم بما أراهم بحاسّة البصر و الله تعالى أعلم بحقيقة كلامه.

و أمّا رجوع الأمور اليه فهو ممّا لا كلام فيه.

قال الله تعالى: **وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**^(١).

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**^(٢).

قال الله تعالى: **فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**^(٣).

و المراد برجوع الأمر اليه هو أنّه ما شاء الله و أراد فأنّه واقع لا محالة في الخارج و لن يقدر أحد على منعه تعالى أو على إيجاد شيء على خلاف مشيئته و إرادته في عالم الإيجاد

و أمّا في عالم التشريع فقدرة العبد و إختياره واسطة بين الإرادة و المراد و علّه لأجل هذه النكته الخفية قال في الآية السابقة بعد قوله: **لِيَقْضِيَ اللَّهُ الْخِ** **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**.

و أمّا في المقام قال و الى الله ترجع الأمور فأثبت في الآية السابقة علمه بما

و أمثال ذلك من الآيات الدالة على المدعى فأَنَّ الإستقامة و التَّثَبُّت في الأمور ممدوحٌ عقلاً و شرعاً بل لا يمكن الوصول الى المقصود إلا به.
و أمَّا ذكر الله أعني به التوجُّه الى المعبود قلباً و عدم الغفلة عنه فهو مرغوب فيه في جميع الأمور سواء كان في الحرب أم غيرها و قد أمرنا الله به في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا^(١).

قال الله تعالى: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٢).

قال الله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا^(٣).

قال الله تعالى: فَادْكُرُوا رَبِّي اذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونَ^(٤).

قال الله تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا^(٥).

و ليس المراد بالذكر ما أبدعته الصُّوفية من عند أنفسهم بل المراد به التوجُّه الى المعبود في الشدَّة و الرِّخاء و أن لم يكن باللسان و حيث أنَّ التَّثَبُّت في الأمور و لا سِيَّما في الأمور الشرعية ممدوحٌ مرَّغب فيه و لا سِيَّما اذا كان قريباً مع الذكر منضمّاً اليه يوجب الفلاح في الدنيا و الآخرة قال تعالى: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أي كونوا كذلك لكي تفلحوا فمورد الآية و أن كان غزوة بدر إلا أنَّ العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السَّبب و هو واضح لا خفاء فيه و الحمد لله.

١- الأحزاب = ٤١

٢- الجمعة = ١٠

٣- الشعراء = ٢٢٧

٤- البقرة = ١٥٢

٥- طه = ١٢٤

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ
 (٤٧) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
 بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٨) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
 الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ
 مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفَتَنَانِ
 نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي
 أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ (٤٩) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذِ
 يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
 وُجُوهَهُمْ وَأُدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
 (٥١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
 بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥٢) كَذَّابٌ أَلٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
 اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٣)
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى
 قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ (٥٤) كَذَّابٌ أَلٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ

أَعْرِفْنَا أَلْ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٥) إِنَّ
شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ (٥٦)

◀ اللغة

فَتَفَسَّلُوا، الفَسَّلَ ضَعُفٌ مع جبن.
رِيحُكُمْ، الرِّيحُ في الأصل على ما قيل هو الهواء المتحرك و لكن هنا
أستعير للغلبة يقال أرواح الماء اذا تَغَيَّرَتْ ريحه و إختَصَّ ذلك بالنتن.
بَطْرًا، البَطْرُ بفتح الباء و الطَّاء دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة
نوَ قَلَّةُ القيام بحَقِّها و حرفها الى غير وجهها.
رِثَاءَ النَّاسِ، الرِّثَاءُ بكسر الراء إظهار الجميل مع إبطان القبيح.
وَيَصُدُّونَ، الصَّدُّ المنع.
جَارًا، الجار هو الدَّافِعُ عن صاحبه السُّوء.
نَكَصَ النَّكُوصُ هو الرُّجُوعُ قهقري خوفاً ممَّا يرى.
كَدَّأَبٍ، الدَّأَبُ بفتح الدال الجري على طبق العادة يقال دَأَبَ يَدَأِبُ
دَأَبًا وَدُؤِبًا فهو دَائِبٌ يفعل كذا أي يجري فيه على عادة.
الدَّوَابِّ جمع دَابَّة و هي ما يَدْبُ على الأرض لكن بالعرف لا يطلق إلا
على الخيل.

في القرآن في تفسير القرآن

◀ الإعراب

فَتَفَسَّلُوا في موضع النَّصْب على جواب التَّهْيِي و كذلك وَ تَذَهَّبَ رِيحُكُمْ.
بَطْرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال وَ يَصُدُّونَ
معطوف على معنى المصدر لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ غَالِبَ هنا مَبْنِيَّةٌ و، لكم، في



الجزء العاشر

موضع رفع خبر، لا، و اليوم معمول الخبر من النَّاسِ حال من الضمير في، لكم، و لا يجوز أن يكون اليوم منصوباً بغالب و لا، من الناس، حال من الضمير في غالب لأنَّ إسم لا، اذا عمل فيما بعده لا يجوز بناء و الألف في، جار، بدل من الواو لقولك جاورته و على عَقْبِيهِ حال إِذْ يَقُولُ الْمُتَنَافِقُونَ أَي أذكروا أن يكون ظرفاً، لَزَيْنَ، أو لفعلٍ من الأفعال ممَّا يَصَحُّ به المعنى يَتَوَفَّى يقرأ بالياء و في الفاعل وجهان:

أحدهما: الملائكة ولم يؤث الفعل للفصل بينهما و لأنَّ تأنيث الملائكة غير حقيقي فعلى هذا يكون يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ حالاً من الملائكة أو حالاً، من الذين كفروا، لأنَّ فيها ضميراً يعود عليها.

الثاني: أن يكون الفاعل مضمراً أي إذ يتوفى الله، و الملائكة على هذا مبتدأ و يَضْرِبُونَ الخبر و الجملة و يقرأ بالتاء و الفاعل الملائكة.

التفسير

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا أمر الله هؤلاء المؤمنين بأن يطيعوا الله و رسوله و ذلك لأنَّ سعادة الدارين في طاعتهما كما أنَّ الشقاوة في مخالفتهما و قد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك في كثير من الآيات كما لا يخفى و لا نحتاج الى ذكرها لوضوح الأمر و أمَّا قلنا أمر الله المؤمنين مع أنه ليس في الآية منهم ذكرٌ ظاهراً لأنَّ الواو في قوله: وَ أَطِيعُوا للعطف.

و لما قال في الآية السابقة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ قال و أطيعوا الله و رسوله فصار المعنى كما قلنا و أمَّا أمر المؤمنين بالطاعة دون جميع الناس مع أنَّ طاعة الله و طاعة الرسول واجب على الجميع لأنَّ غير المؤمن لا يطيع لكفره و عناده و من يكفر بالله كيف يخاطب بالطاعة.

ثُمَّ نهاهم الله عن التنازع فقال و لا تنازعوا أي لا تختلفوا بل إتحدوا لأنَّ التنازع و الاختلاف يوجب الضعف مع الجبن و لذلك قال: فَتَفْشَلُوا أي أنَّ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ



الفشل والضعف من عوارض التنازع و يترتب عليه ولأجل هذا قال: فَتَفْشَلُوا ولم يقل و تفشلوا فأَنَّ الفاء تفيد التفرع أي أَنَّ الفشل متفرع على التنازع. وأما قوله: وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ فإختلفوا في معناه بعد إتفاقهم على أَنَّ الرِّيح أستعمل على سبيل الإستعارة و لم يرد به معناه اللغوي. فقال الزمخشري هو كناية عن الدولة يقال هبت رياح فلان اذا دالت له الدولة و نفذ أمره، و عليه قول الشاعر:

إذا هبت رياحك فإغتنمها
فأن لكل عاصفة سكوناً
و قال شاعر الأنصار:

قد عودتهم صباحهم أن يكون لهم ريح القتال وأسلاب الذين لقوا
و قال زيد بن علي، و يذهب ريحكم، معناه الرُّعب من قلوب عدوكم و منه قيل للخائف انتفخ سحره.

و قال بن زيد و غيره الرِّيح على بابها أي على معناه الأصلي و هو تحرك الهواء و ذلك لأنَّ النصر لم يكن قطَّ إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار و إستند بضعهم في هذه المقالة الى قوله ﷺ نصرت بالصبا و عليه فالمعنى فى و تذهب ريحكم يعنى الصبا إذ بها نصر محمد و أمته.

و قيل: رِيحُكُمْ أي حدتكم، و قيل جلدكم، و قيل هيبتكم و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة في التفسير والحق أَنَّ المراد بالريح القوة و الشوكة والرُّعب الذي جعله الله في قلوب الكفار لأنَّ النَّبي كان منصوراً بالرُّعب ففي الكلام إشارة الى أَنَّ الرُّعب في قلوب الكفار ثابت في صورة وحدة الكلمة بينكم و إتفاقكم على إطاعة الله و رسوله و أمّا في صورة الاختلاف فلا محالة تذهب ريحكم أي هيبتكم و سطوتكم.

وَ أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ أي و أصبروا على الشدائد و المكاره في الحرب و في غيرها فأَنَّ الله مع الصابرين.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ
 قيل أنها نزلت في أبي جهل وأصحابه و ذلك لأنهم خرجوا من مكة لنصرة
 العير بالقينات و المعازف و وردوا الجحفة فبعث خفاف الكناني و كان صديقاً
 له بهدايا مع ابنه و قال أن شئت أمدنك بالرجال وأن شئت بنفسي مع من خَفَ
 من قومي فقال أبو جهل أن لنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله
 طاقة و أن كنا نقاتل الناس فوالله أن بنا على الناس لقوة و الله لا نرجع عن قتال
 محمد ﷺ حتى نرد بداراً فنشرب فيها الخمر و تعزف علينا القينات فأَن
 بداراً مركزاً من مراكز العرب و سوقاً من أسواقهم حتى تسمع العرب فخرجنا
 فتهابنا آخر الأبد فوردوا بداراً فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر و ناحت عليهم
 النوائح مكان القينات فهي الله المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بطرين طرين
 مرائين بأعمالهم صادين عن سبيل الله والله تعالى بما يعملون محيط كما قال:
 وَيَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وفي الآية الشريفة من
 اللطائف الخفية ما لا يخفى.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ
 وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ

أي و اذكروا يا محمد إذ زين لهم الشيطان أعمالهم هكذا قالوا.
 أقول لا يبعد أن تكون كلمة للتعليل و ذلك لأنه تعالى قال في الآية السابقة
 و لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم الخ فكأنه قيل متى خرجوا أو لأي شيء
 خرجوا أو لم يخرجوا و أمثال ذلك من التباير فقال تعالى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
 الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ أي أن علة خروجهم كان هذا أو زمان خروجهم كان هذا
 بمعنى أن تزيين الشيطان لهم أعمالهم صار باعثاً على خروجهم و بعبارة
 أخرى لولا تزيين الشيطان و إغواءه إياهم لما خرجوا و لم يقع الشيطان بتزيين
 الأعمال فقط بل قال لهم لا غالب لكم اليوم أي لا يغلب عليكم أحد و الحال
 أنني جارٌّ لكم أي مدافع عنكم السوء.

فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ قِيلَ إِنَّ الشَّيْطَانَ ظَهَرَ لَهُمْ فِي صُورَةِ سَرَاقَةٍ بَنَ مَالِكُ بْنُ جَعْشَمٍ الْكِنَانِي الْمَدَلَجِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ جُنْدِهِ لَهُمْ هَذِهِ كِنَانَةٌ قَدْ أَتَيْتُكُمْ نَجْدَةً فَقَبِلُوا قَوْلَهُ وَاطْمَأْنَوْا بِهِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَا رَأَوْهُ حَقٌّ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ ظَهَرَ لَهُمْ بِصُورَةِ سَرَاقَةٍ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ فِي آيَةٍ صُورَةً شَاءَ حَتَّى الْكَلْبُ وَالْخَنْزِيرُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْصِيَاءَ، فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتْنَانِ أَيَّ فَلَمَّا تَلَاقَى الْفَرِيقَانِ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ نَكَصَ الشَّيْطَانُ عَلَى عَقْبَيْهِ.

وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ أَيُّ قَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ قَالَ ذَلِكَ حِينَ نَزَلَتْ جُنُودُ اللَّهِ لِنَصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَى أَيْنَ يَا سَرَاقَةُ فَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ أَيُّ أَنِّي أَرَى الْمَلَائِكَةَ.

قِيلَ أَنَّهُ رَأَى جَبْرِئِيلَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ وَقِيلَ حَوْلَهُ اللَّهُ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ عُلِمَ لِلنَّبِيِّ بِمَا يَخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَقِيلَ أَنَّمَا هُوَ يُوَسَّوْسُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْوِلَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ وَكَيْفَ كَانَ لَمَّا رَأَى الشَّيْطَانُ مَا رَأَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْمَرَادُ بِالْفِتْنَانِ فِتْنَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَفِتْنَةُ الْمَلَائِكَةِ نَكَصَ أَيُّ رَجَعَ إِلَى هَقَرِي خَوْفًا مِمَّا رَأَاهُ وَقَالَ مَا قَالَ مِنْ قَوْلِهِ أَنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أَقُولُ يَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَعِدُ النَّاسَ إِلَّا غُرُورًا بِمَعْنَى أَنَّهُ يَغُرُّ النَّاسَ فَلَمَّا أَوْقَعَهُمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالتَّهْلُكَةِ يَقُولُ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَيْفَ يَعْتَمِدُ عَلَى قَوْلِهِ وَوَعْدِهِ وَلِذَلِكَ حَذَرَ اللَّهُ النَّاسَ مِنْ مِتَابَعَتِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ (٢).

قال الله تعالى: يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^(١).

قال الله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَفَرِ وَالْمَيْسِرِ^(٢).

قال الله تعالى: وَلَكِنْ فَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٣).

قال الله تعالى: مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^(٤).

و أمثال ذلك من الآيات والعجب أنه مع ذلك صار إماماً لأكثر الناس والسر في ذلك أنه يدعو الناس الى أميالهم وشهواتهم وأهواءهم بخلاف الأنبياء فأنهم يدعون الناس الى خلاف شهواتهم وأميالهم ومن المعلوم أن الحركة الى الشهوات طبيعي والحركة الى خلافها قسري والطبيعي مقدم على القسري بمقتضى الطبيعة والجلبة ولهذا يكون أتباعه في كل عصرٍ وزمانٍ أكثر من أتباع الأنبياء.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

المنافقون جمع منافق وهو الذي باطنه بخلاف ظاهره فهو أعم من الكافر إذ قد يكون منافقاً ولا يكون كافراً وذلك مثل كثير من المسلمين في صدر الإسلام بل في كل عصرٍ وقد يكون كافراً باطناً ومسلماً ظاهراً وأما الكافر الخالص الذي لا يعتقد الإسلام فلا يعد منافقاً لأن ظاهره وباطنه واحد، وأما الذين في قلوبهم مرض فالظاهر عدم دخولهم في سلك المنافقين وإلا لم يحتج الى إفرادهم بالذكر بعد قوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



١- المائدة = ٩١

١- النساء = ١٢٠

٢- الإسراء = ٦٤

٣- الأنعام = ٤٣

قال بعض المفسرين المراد بقوله: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** من كان شاكاً في الإسلام مع إظهاره كلمة الإيمان و عليه فالمراد بالمرض في الآية هو الشك في الإسلام قلباً، ولقائل أن يقول هذا معنى المنافق بعينه اللهم إلا أن يقال بأن المنافق منكر الإسلام قلباً و مظهره لفظاً و ظاهراً والذي في قلبه مرض ليس بمنكر قلباً بل هو شاك قلباً و به حصل الفرق، و يحتمل أن يكون المراد بالمرض الحسد و الكبر و البخل و أمثال ذلك من الأمراض النفسانية و كيف كان روي أن جماعة خرجت مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا القول و هم قيس بن الوليد بن المغيرة و الحارث بن زمعة و العاص بن المنبه بن الحجاج و عليّ ابن أمية و هذا قول مجاهد و الشعبي.

و قال الحسن المرض الشرك فالمراد هو المشركون و قيل المنافقون هم من الأوس و الخزرج لما خرج الرسول قال بعضهم نخرج معه و قال بعضهم لا نخرج غرّ هؤلاء أي المؤمنين دينهم فأنهم يزعمون أنهم على حقّ و أنهم لا يغلبون نقل هذا عن ابن عباس و الذين في قلوبهم مرض قوم أسلموا و منعهم أقرباءهم من الهجرة فأخرجهم قريش معها كرهاً فلما نظروا الى قلة المسلمين إرتابوا و قالوا غرّ هؤلاء دينهم فقتلوا جميعاً.

و قال ابن عطية قال المفسرون أنّ هؤلاء الموصوفين بالنفاق و مرض القلب أنما هم من أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين و رأوا قلة عددهم قالوا مشيرين الى المسلمين غرّ هؤلاء دينهم أي إغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به و كني بالقلوب عن العقائد، و المرض أعمّ من النفاق إذ يطلق مرض القلب على الكفر انتهي كلام ابن عطية.

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ هذا يتضمن الرد على من قال غرّ هؤلاء دينهم فكأنه قيل هؤلاء في لقاء عدوهم كانوا متوكّلين على الله فلا محالة هم الغالبون، فإنّ من يتوكّل على الله فهو حسبه ينصره و يعزّه لأنّه تعالى عزيز لا يغالب بقوة و لا بكثرة حكيّم، يضع الأشياء مواضعها إشارة الى

أَنَّ النَّصْرَ وَالْغَلْبَةَ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِقُوَّةِ الْجَسَدِ بَلِ النَّصْرُ يَحْصِلُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَالْكَافِرُ حَيْثُ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ بَلِ يَرَى ظَاهِرَ الْأَمْرِ فَلَا مُحَالَاةَ يَحْكُمُ بِمَا يَقْتَضِيهِ وَهَمُّهُ وَخِيَالُهُ.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

لَوْ، الَّتِي لَيْسَتْ شَرْطًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَقْلِبُ الْمَضَارِعَ لِلْمَضْمَنِ فَاَلْمَعْنَى لَوْ رَأَيْتُ وَشَاهَدْتُ وَحَذَفَ جَوَابَ، لَوْ، أَيِ لَرَأَيْتُ أَمْرًا عَجَبًا وَشَأْنًا هَائِلًا وَهَذَا الْحَذْفُ جَائِزٌ بَلِغٌ يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، فَمَنْ قَرَأَ الْفِعْلَ بِالتَّاءِ أَسَدَ الْفِعْلِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ فَلَأَنَّ التَّائِيثَ فِي الْمَلَائِكَةِ غَيْرُ حَقِيقِي، وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَلَوْ تَرَى الْوَقْتَ الَّذِي تَتَوَفَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا، أَيِ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ عَلَى إِسْتِيفَائِهَا لِأَنَّ الْمَوْتَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِخْرَاجِ الرُّوحِ عَنِ الْجَسَدِ بِتَمَامِهَا، يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، أَيِ يَضْرِبُونَ الْمَلَائِكَةُ وَجُوهَ الْكَفَّارِ وَأَدْبَارَهُمْ أَيِ ظُهُورَهُمْ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، قَالُوا تَقْدِيرُهُ يَقُولُونَ يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ لِلْكَفَّارِ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَالْحَرِيقُ تَفْرِيقُ الْأَجْسَامِ الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ بِالنَّارِ الْعَظِيمَةِ هَذَا مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَاسْتَدْلَوْا عَلَى ذَلِكَ بِوُجُودِ نِظَائِرِهِ فِي الْقُرْآنِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا^(١) أَيِ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَوْ تَرَى إِذْ أُلْمِجِرْمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا^(٢) أَيِ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَهَكَذَا مَا نَحْنُ فِيهِ، أَقُولُ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ النَّظَائِرِ لَا كَلَامَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ الْمَقَامَ لَا يَقَاسُ عَلَيْهِ لَوْجُودُ الْوَاوِ فِي الْمَقَامِ وَعَدَمُهُ هُنَاكَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: وَذُوقُوا أَنْ كَانَتْ عَاطِفَةً فَأَيْنَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَقْدَمْ فِي الْكَلَامِ، قَوْلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَقَالَ بِصَحَّةِ تَقْدِيرِهِ الْقَوْلَ قَضَاءً

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

الجزء ١٠

لحكم العطف و أن كان للإستئناف فالظاهر أن قوله: وَ ذُوقُوا جملة مستأنفة لا ربط لها بالكلام السَّابِق و عليه فلا معنى للتقدير إذ لا يدل عليه دليل و مع ذلك فقد أجمع المفسرون على أن التقدير و يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق واللّه أعلم بكلامه.

قال ابن عباس، قول الملائكة لهم إنما صح لأنه كان مع الملائكة، مقامع و كلما ضربوا بها إلهبت النار في الأجزاء و الأبعاض فذاك قوله: وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ و عن الواحدي، أن هذا تقول الملائكة لهم في الآخرة.

أقول و عليه هو كلام مستأنف من الله على سبيل التفریع للكافرين، إما في الدنيا حالة الموت أي مقدمة عذاب النار و أما في الآخرة ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْغَبِيبِ^(١) ذلك إشارة الى ما تقدم ذكره من قول الملائكة لهم ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ فكأنه قيل للملائكة لم نذوق العذاب قالوا لهم ذالك بسبب ما قدمت أيديكم في دار الدنيا و أن الله تعالى: لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْغَبِيبِ يستفاد من هذا الكلام أمران:

أحدهما: أن العذاب مسبب من الأعمال.

الثاني: أن الله لا يظلم أحداً.

أما الأول: أعني كون العذاب مسبباً عن الأعمال فيدل عليه العقل و النقل، أما العقل فلأنه قد ثبت أن الله تعالى عادل لا يجوز في حكمه و لا يضع الشيء في غير محله كما هو معنى العدل و عليه فإن كان العذاب مسبباً من الأعمال فهو المطلوب و إلا يلزم الظلم منه تعالى على العبد لأن العذاب من غير سبب هو من وضع الشيء في غير محله و هو ظلم و الظلم نقيض العدل فيلزم أن يكون ظالماً غير عادل و هو خلاف ما ثبت عقلاً و اذا كان كذلك فالعذاب مسبب و معلول لشيء آخر و هذا الشيء لا يكون إلا عمل العبد فالمطلوب ثابت.

هذا مضافاً الى أنّ لكلّ شيءٍ يوجد عقاباً كان أو ثواباً علّةً و سببٌ وإلاّ يلزم وجود المعلول بلا علّةً و هو محال عقلاً و العلّة أو السبب إمّا نفس إرادة الخالق أو فعل العبد أو فعل غيره و الأوّل يستلزم الظلم و الثاني حقّ و الثالث غير معقول اذ لا تزر وازرة وزر أخرى فثبت المدعى.

و أمّا الدلائل التّقليية فهي كثيرة جداً من الكتاب و السنّة.

قال الله تعالى: **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٤).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ^(٥) والآيات كثيرة.

و أمّا السنّة فلا نحتاج الى ذكر ما ورد فيها لإثبات المدعى بعد ذكر الآيات مضافاً الى أنّ كلّ ما ورد في السنّة ناظر الى ما ذكرناه و هو واضح.

وأما الأمر الثاني: و هو أنّ الله لا يظلم أحداً فهو أيضاً قد ثبت فيما ذكرناه فلا نحتاج الى الإعادة و سيجي في موضعه أنّ الأعمال هي بعينها تنقلب الى العذاب لا أنّ العذاب شيء آخر يترتب عليها، فإنّ القول يتجسّم الأعمال يوم القيامة بصورة العذاب مشهور بين العلماء و سيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى.

كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ

٢- آل عمران = ١١٧

٤- النحل = ١١٨

١- التوبة = ٧٠

٣- يونس = ٤٤

٥- النساء = ٤٠

العامل في قوله: كَذَابٍ أَلٍ فِرْعَوْنَ الإبتداء و تقديره، دأبهم كذاب أَل فرعون، فموضعه رفع، و الذَّابُّ العادة و الطَّرِيقَةُ تقول هذا دأبه، و ليس هذا من دأبه أي من عادته و طريقته.

و المعنى أَنَّهُ جُوزِيَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ كَمَا جُوزِيَ أَلُ فِرْعَوْنَ بِالْغَرَقِ وَ كَمَا جُوزِيَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادَ وَ ثَمُودَ وَ هَكَذَا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي إِسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ هِيَ التَّمَرُّدِ وَ الْعَصِيَانِ وَ تَكْذِيبِ الْآيَاتِ وَ إِنكَارِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ تَمَامِيَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَ هَذَا الْمَلَائِكَةُ كَانَ مَوْجُوداً فِي كَفَّارٍ قَرِيشٍ فَوْقَعُوا فِيهَا وَ قَعَّ فِيهِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ. وَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ أَلْعِقَابِ إشارة بأنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْجُزُ عَنِ الْعِقَابِ بَلْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قال الله تعالى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ (١).
قال الله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ (٢).

قال الله تعالى: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا (٣).

قال الله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ (٤).

قال الله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ (٥) وَ أمثالها كثيرة.

نعم أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْذِبْ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ بَعَثِ الرَّسْلِ كَمَا قَالَ: وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٦) فمعنى الآية تشبيه حال المشركين في تكذيبهم بآيات الله التي أتى بها رسوله بحال أَل فرعون في تكذيبهم بآيات الله التي أتى

٢- الأنعام = ٦

٤- الإسراء = ١٧

٦- الشعراء = ٢٠٨

١- الأنعام = ٦٥

٣- يونس = ١٣

٥- مريم = ٩٨

بها موسى عليه السلام لأنَّ تعجيل العقاب لهؤلاء بالإهلاك كتعجيله للمشركين بالاستئصال والقتل والأسر في غزوة بدر وغيرها.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

ذلك، إشارة إلى ما تقدّم ذكره من أخذ الله الكفار بالعقاب ومحصل الكلام في معنى الآية هو أنّه تعالى بيّن فيها سبب الإهلاك والعقاب وهو أنّ تبديل النعمة بالنقمة والعذاب بسبب تغير ما في قلوبهم من الاعتقادات والأعمال وعبارة أخرى أنّ الله تعالى لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم إلا بعد تغيير نيات القوم من الخير إلى الشر فهذا هو السبب الفرد ولتوضيح الآية نقول:

لا شك أنّ الله تعالى خلق الخلق وأخرجهم من العدم إلى الوجود ولا شك أيضاً أنّ الخالق أشفق وأرفّ بخلقه من الوالد الشفيق، وهذا ممّا لا كلام فيه. ثمّ نقول أنّه تعالى جواد لا يبخل وغني لا يفقر وقوي لا يضعف وهكذا ومع ذلك نحن نرى أنّه تعالى قد يسلب النعمة عن قوم ويبتليهم بالقحط والغلاء أو يجعلهم في معيشة ضنك أو يسلط عليهم من لا يرحمهم أو يهلكهم ويفنيهم عن صفحة الوجود بنزول أنواع العذاب عليهم ممّا هو مذكور في القرآن بالنسبة إلى بعض الأمم ولا بدّ لها من علّة وسبب فأنّه تعالى أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها ولا شك عقلاً أنّ كلّ حادثّة من الحوادث لا بدّ لها من سبب وهذا هو الذي ذكره في هذه الآية صريحاً.

وحاصله أنّ النعم الإلهيّة والبركات السّماوية والألطف الرّبّانية كلّها يدور مدار النّيات والإعتقادات والأعمال فاذا كانت النّيات صادقة والأعمال الناشئة عنها صالحة والقلوب عن الأعراض القلبيّة خالية والرّأفة والعدالة في الجامعة حاکمة تكون البركات من الله عليهم نازلة والألطف والعنايات الرّبّانية لهم شاملة وهذا أصل أصيل جعل الله عليه مدار السعادة في الدارين.

وَيُغَيِّرُ مَا يَشَاءُ بِإِذْنِهِ



قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَائِمُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يُلْعَبُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ^(٤).

هذه الآيات و نظائرها كما ترى أوضحت و بيّنت ما نحن بصدد إثباته بأوضح تبين ففي الآية الأولى جعل الله فتح البركات معلّقاً على الإيمان و التقوى و العذاب على ما كانوا يكسبون من الأعمال و قال تعالى: **وَ مَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً** ^(٥) و المعيشة الضنك ليست إلّا حبس البركات و العناية و عليه.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَ أَصَحَّ لَا خِفَاءَ فِيهِ.

و أمّا قوله: **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** فهو إشارة إلى أن الله سميع أي يسمع ما يقولون و عليم أي يعلم ما يسرون و ما يعلنون لا يخفى عليه شيء و المراد بكونه سمياً يعني أنّه عالم بالمسموعات كما أنّه عالم بالمبصرات و سائر الإدراكات لا أنّه يسمع أو يبصر بجوارحه السمع و البصر كما هو فينا كذلك لتزهره عن الأعضاء و الجوارح فأنّها من شئون الأجسام.

كَذَّابٍ أَلٍ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا أَلِ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ

قيل وجه التكرار في قوله: كَذَّابٍ أَلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هو أنَّ
الآيتين مشتملتان على نوعين من العقاب ففي الآية السابقة ذكر أنه تعالى
أخذهم بذنوبهم و لم يبين كيفية الأخذ و العقاب و أمّا في هذه الآية بيّن كيفية
العذاب و أنه أهلكهم و أغرقهم.

و قال الآخر فيه تصريف القول في الذم بما كانوا عليه من قبح الفعل و
تقدير الكلام دأب هؤلاء الكفار مثل دأب أَلِ فِرْعَوْنَ.
و قال بعض المفسرين التكرير للتأكيد.

و قال ابن عطية هذا التكرير لمعنى ليس للأول و الأول دأب في أن هلكوا
لما كفروا.

الثاني: دأب في أن لم يغيّر نعمتهم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم انتهى.

و قال قوم كرّر لوجوه:

منها، أن الثاني جري مجرى التفصيل للأول لأنّ في ذلك ذكر إجرامهم و
في هذا ذكر إغراقهم.

و منها، أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت.

بالثاني: ما نزل بهم من العذاب في الآخرة.

و منها، أنه في الأول إشارة الى إنكار دلائل الإلهية و كفرهم بآيات الله.

في الثاني: بآيات ربهم، إشارة الى إنكار نعم من ربهم و دلائل تربيته و
إحسانه على كثرتها و تواليها.

و منها، في الأول اللازم منه الأخذ.

في الثاني: اللازم منه الهلاك والإغراق.

و قال صاحب الكشف في قوله: بِآيَاتِ رَبِّهِمْ زيادة دلالة على كفران
النعم و جحود الحق و في ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب انتهى.

أقول هذه الوجوه كلها إستحسانات لا بأس بها فأن لكل واحد منها وجه وجيه وقد ذكروا في المقام وجوهاً كثيرة تجدها في تفاسيرهم ولكن كلها من سنخ واحد لا يعتمد عليه والحق أن آل فرعون كانوا على أحوال مختلفة في المعصية فبين الله تعالى في هذه الآيات مشاركة هؤلاء الكفار بهم في تلك الأحوال.

وأما كيفية الغرق فقد مر الكلام فيها غير مرة وقوله: وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ فيه إشارة الى أننا لم نأخذهم ولم نغرقهم إلا لأجل ظلمهم ولولا ظلمهم ومعصيتهم ما كانوا من المعدبين والمغرقين (فأن ربك ليس بظلام للعبيد).

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
الدابة ما من شأنه أن يدب على الأرض لكن لا يطلق عرفاً إلا على الخيل ومنه قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا^(١).
وقد مر الكلام في الدابة سابقاً وقوله: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ الشَّرُّ ضد الخير، والمراد بالشر ليس الشر المطلق المعبر عنه في الفلسفة بالشر المحض، لأنه لم يوجد أبداً لأن الشر.

المحض هو بعينه عدم المحض فأن الشرور اعدام.
بل المراد به الموجود الذي يكون شرارته غالباً على خيراته وقد يعبر عنه بكثير الشر وتوضيح ذلك إجمالاً أن الموجود أما أن يكون خيراً محضاً لا شر فيه أصلاً وهو الواجب الوجود لا غيره.

وأما أن يكون خيره غالباً على شره كالأنبياء والأوصياء والصالحاء وأما أن يكون بالعكس كالشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجن وأما أن يكون متساوي الشر والخير فقليل هو مما لم يوجد وقيل عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود فلعله وجد ولا نعرفه.

وَأَمَّا قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرٌ مَحْضٌ وَلَا ثَانِي لَهُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَرَفَ الوجود و حقيقته و الوجود خيرٌ محض و أَمَّا الشُّرُورُ فَأَتَتْهَا مِنْ شُتُونِ المَاهِيَّاتِ الإِمْكَانِيَّةِ فَمِنْ لَا مَاهِيَّةَ لَهُ لَا شَرَارَةَ فِيهِ وَ هَذَا المَوْجُودُ الَّذِي مَنَزَّهُ عَنِ المَاهِيَّةِ وَ النَّقْصِ الإِمْكَانِي لَا يَكُونُ إِلَّا الواجب تَعَالَى وَ تَفْصِيلُ الكلامِ مَوْكُولٌ إِلَى محلِّهِ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فنقول:

قوله: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ المقصود من الدَّوَابِّ في المقام هو الإنسان الكافر أَمَّا أَنَّهُ مِنَ الدَّوَابِّ لِأَنَّهُ يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ كَمَا يَدْبُ عَلَيْهَا الحِمَارُ وَ البَقَرُ وَ سَائِرُ الدَّوَابِّ وَ أَمَّا أَنَّهُ شَرُّ الدَّوَابِّ فَلِأَنَّهُ أَضَرُّ وَأَظْلَمُ وَ أَحَبُّثُ مِنْهَا. وَ الوجه فيه هو أَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِهَا تَعْرِفُ خَالِقَهُ وَ لَا تُنْكِرُهُ بَلْ تَسْبِّحُهُ وَ تَقُدِّسُهُ.

قال الله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ^(١).

قال الله تعالى: سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٢).

قال الله تعالى: تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ^(٣).

هذا مضافاً إلى أَنَّ الدَّوَابَّ غَيْرُ الْإِنْسَانِ لَا ضَرَرَ لَهَا أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَفْعٌ.

وَأَمَّا الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ فَهُوَ شَرٌّ مِنْهَا لِكُفْرِهِ وَ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِخَالِقِهِ وَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَالِقَ بَلْ أَنْكَرَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ فَلَا يَسْبِّحُهُ وَ لَا يَشْكُرُهُ قِطْعاً وَ كُلٌّ مُنْصَفٍ يَحْكُمُ بَأَنَّ الْكَافِرَ أَحَبُّثُ وَ أَفْسَدُ وَ لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الدَّوَابِّ أَعْنِي بِهَا الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ إِسْتِقَامَةِ قَامَتِهِ وَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مُسْتَقِيمٌ الْقَامَةُ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ إِسْتِقَامَةَ الْقَامَةِ وَ إِحْنَاءَهَا لَا رِيبَ لَهُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّهُ بِكُفْرِهِ وَ إِحْدَاهُ مِنْ شَرِّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ، وَ قَوْلُهُ: عِنْدَ اللَّهِ لَعَلَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



أنه أي الكافر عند الله لا مقيمة و أن كان عند الناس محبوباً معززاً كما هو كذلك واقعاً ولذا لم يقل أن شرّ الدواب عند الناس.

فأن أكثر الناس من هذا القبيل و الجنس الى الجنس يميل فأن الناس الى أشباههم أميل و أما قوله: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ففيه إشارة الى أن هؤلاء الأشخاص لا يؤمنون أصلاً.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١).

و قد بيّن الله تعالى العلة في بقاءهم على الكفر.

قال الله تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^(٢).

أن قلت قوله: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ يدل على الجبر و أنتم معشر الإمامية لا تقولون به.

قلت لا دلالة فيه على الجبر أصلاً و أنما هو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم في علمه و بعبارة أخرى أن الله تعالى قد علم أنهم لا يؤمنون بسوء سريرتهم و إختيارهم لا أنه تعالى خلقهم و أجبرهم على عدم الإيمان و قد مرّ منا مراراً أن العلم الأزلي ليس بعلة أصلاً و أنما هو إنكشاف الواقع فحسب.

و أما الفعل في الخارج فهو تحت إختيار الإنسان و قدرته أن شاء فعل و إن لم يشاء لم يفعل و هو واضح.

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي
كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٧) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي
الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مَنِ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ
(٥٨) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ
عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٩) وَلَا
يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ
(٦٠) وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ
رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَ
آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ
أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ (٦١) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ
لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٢)
وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ
الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٣) وَآلَفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا
آلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ
مَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

اللغة

يَنْقُضُونَ، نقض العهد مثل نقض الوعد و هو الرجوع عما عهد اليه.
تَثْقَفَنَّهُمْ معنى، تَثَقَّفَنَ، تصادفَن و تلقين و أصله الإدراك بسرعة تقول تَقِفْ

الكلمة وثاقفه ماثقة إذا تدارك كل واحدٍ منهما أمر صاحبه و دخلت، ما، ولو لم تدخله لما حسن دخول التّون.

فَشَرَّدُ، شَرَّدَ بفتح الشّين و كسر الرّاء المشدّدة أمرٌ من التّشديد أي التّفريق على إضطراب.
خِيَانَةٌ صَدَّ الأمانة.

فَانِذُ، النَّبَذُ إلقاء الخبر الى من لا يعلمه بما يوجب أنّه حرب بنقض عهدٍ أو إقامة على بغية.

جَنَحُوا أي مَالُوا الى المسالمة يقال جنحت السفينة إذا مالت الى الوقوف و منه جناح الطائر لأنّه يميل به في أحد شقّيه و الباقي واضح.

الإعراب

الَّذِينَ عَاهَدْتَ بَدَلْ مَنْ، الَّذِينَ الأولى، و يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هم الذين، و يجوز أن يكون نصباً على إضمار أعني و مِنْهُمْ حال من العائد المحذوف فَانِذُ إِلَيْهِمْ أي عهدهم فحذف المفعول و عَلَى سَوَاءٍ حال من قُوَّةٍ في موضع الحال، من، ما، أو من العائد المحذوف في إستطعتم تُرْهِبُونَ بِهِ في موضع الحال من الفاعل في، إعدلوا، أو من المفعول لِلْسَّلَامِ يجوز أن تكون اللّام بمعنى، الى، لأنّ جنح بمعنى مال، والسّلم بفتح السّين و كسرهما لغتان، و قد قرأ بهما و هي مؤنثة و لذلك قال فأجنح لها حَسْبُكَ اللَّهُ مبتدأ و خبر و مَنْ أَتْبَعَكَ في، مَنْ، ثلاثة أوجه.

أحدها: جرّ، عطفاً على الكاف في حسبك و هذا يجوز عند البصريين لأنّ العطف على الضّمير المجرور من غير إعادة الجار لا يجوز.

الثّاني: موضعه، نصب، بفعلٍ محذوف دلّ عليه الكلام و تقديره و يكفي من إتبّعك.

الثّالث: موضعه، رفع لأنّه معطوف على إسم آله.

◀ التفسير

الَّذِينَ عَاهَدْتَ قِيلَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ لَمَّا نَقَضَتْ عَهْدَ النَّبِيِّ فِي أَنْ لَا يَحَارِبُوهُ وَلَا يَمَالُؤُوا عَلَيْهِ فَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَمَالُؤُوا عَلَيْهِ وَعَاوَلُوا قُرَيْشًا يَوْمَ الْخندق فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْهُمْ.

و قال بعضهم نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدكم الرسول أن لا يمالؤا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح و قالوا أنسينا و أخطأنا ثم عاهدوهم ثانياً فنكثوا و مالتوا معهم يوم الخندق و أنطق كعب بن الأشرف الى مكة فخالفهم.

قال البغوي من روى أنه كعب بن الأشرف قد أخطأ و وهم، بل يحتمل أنه كعب بن أسد فإنه كان سيد قريظة.

و قيل هم بنو قريظة و النضير.

و قيل نفر من قريش من عبد الدار حكاه التبريزي في تفسيره و كيف كان فلا شك أن نفراً من الكفار نقضوا عهدهم و لا يهمنّا البحث في تعيين أشخاصهم و الآية بصدد بيان هذا الأصل و من المعلوم أن نقض العهد مذموم عقلاً و شرعاً.

ثم قال تعالى في آخر الآية وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ أَي لَا أَنّ النّاقضين لعهدهم لَا يَتَّقُونَ عقاب الله أجلاً و عاجلاً.

فَإِذَا تَتَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ أَي فأن تظفر بهم في الحرب و تتمكّن منهم فشرّد بهم من خلفهم.

قال ابن عباس معناه، فنكّل بهم من خلفهم.

و قال ابن جبير أنذر من خلفهم عن قتل من ظفر به و تنكيهه فكان المعنى فأن تظفر بهم فأقتلهم قتلاً ذريعاً حتى يفرّ، عنك من خلفهم و يتفرّق و لما كان التّشديد و هو التّطريد و الإبعاد ناشئاً عن قتل من ظفر به في الحرب من المعاندين و المعاهدين النّاقضين جعل جواباً للشرط إذ هو يتسبّب عن الجواب.

و قال الزّمخشري من وراءهم من الكفرة حتّى لا يجسر عليك بعدهم أحداً
إعتباراً بهم و إتعاضاً بحالهم، و قرأ الأعمش، فشرّذ بالذال بدلاً من الدال
المهملة.

و عن الزّمخشري أنّه قال شرّذ بالذال المعجمة، بمعنى، فرّق.
و قال قطرب هو بالذال المعجمة التّنكيل و بالمهملة التّفريق و على أيّ
حالٍ أمر الله نبيّه بتشريدهم و تفريقهم بعد الظّفر عليهم في الحرب لأنّ في
التّفريق الضّعف بخلاف الإجماع فإنّ فيه القوّة و الشّوكة ألا ترى أنّ الله تعالى
نهانا عن التّفريق حيث قال: **وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا^(١)** فَمَنْ
قال معنى الكلام فإنّ تظفر بهم فأقتلهم قتلاً ذريعاً كما مرّ، لا نفهم معناه و ليت
شعري من أين أخذ هذا المعنى و ليس منه في الآية عينٌ و لا أثر، مضافاً إلى
أنّه خلاف حكم العقل فإنّ المستوجب للقتل يقتل و أمّا القتل الذّريع، و
الفجيع فالإسلام منزّه عنه.

قال رسول الله ﷺ **أَيَاكُمْ وَ الْمَثَلَةُ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ.**

و الحاصل أنّ الله تعالى أمر رسوله بتشريد الكفّار و معناه واضح.
و أمّا قوله: **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** مشدّدة معناه لكي يفكروا فيتّعظوا و ينزجروا
من الكفر و المعاصي.

**وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ** إختلفوا في ألوّاهل للعطف او للإستئناف فقال قوم هذه الآية
معطوفة على الآية السابقة و هو الظاهر عليه التكرار في كلمة، إمّا، أي فإمّا
تتقننهم في الحرب.

وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: فشرّذ بهم إلخ.

على الثاني: فأنبذ اليهم الآية و عليه فالمراد بالقوم في هذه الآية هو قوم بني قريظة الذين نزلت الآية فيهم أو غيرهم على ما نقلناه في شأن النزول و الحاصل أن المراد بالقوم من نزلت الآية في شأنه بمقتضى العطف.

و قال بعض المفسرين الواو للإستئناف و عليه فما ذكره في هذه الآية حكم آخر أمر الله نبيه به و أستدلوا على مدعاهم أما أولاً فبأن بني قريظة لم يكونوا في حد من يخاف منه خيانة لأن خيانتهم كانت ظاهرة مشهورة.

ثانياً: لأنه تعالى قال من قوم على وجه التأكيد فلو كان المراد منهم بنو قريظة لقال من القوم أو و إما تخافن منهم و لم يقل.

و قال يحيى ابن سلام، تخافن بمعنى تعلم و حكاه بعضهم أنه قول الجمهور و قيل الخوف على بابه فالمعنى أنه ليظهر منهم مبادي الشر و ينتقل عنهم أقوال تدل على الغدر فالمبادئ معلومة و الخيانة التي هي غاية المبادئ مخوفة لا متيقنة و لفظ الخيانة دال على تقدم عهد لأنه من لا عهد بينك و بينه لا تكون محاربتة خيانة فأمر الله نبيه إذ حس من أهل عهد ما ذكرناه و خاف خيانتهم أن يلقي اليهم عهدهم و هو النبذ مفعول، فأنبذ، محذوف و التقدير فأنبذ اليهم عهدهم أي أرمه و أطرحه على سؤاء قيل أي على مهل على العدل و منه قيل للوسط سواء لإعتداله الى الجهات قال الشاعر:

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد
أي في وسطه.

فأن قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة و المفروض عدم حصولها. نقول إنما فعل ذلك لظهور إمارات الخيانة التي دلت على نقض العهد و لم تشتهر ولو إشتهرت لم يجب النبذ كما حارب الرسول ﷺ أهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة و هم في ذمة النبي فلما فعلوا ذلك فعلاً ظاهراً مشهوراً أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم ولو نقضوه على خفاء لم يكن بد من نبذ العهد اليهم لئلا ينسب الى نقض العهد و الغدر.

في التفسير
في تفسير القرآن



أما قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ فالوجه فيه معلوم لأن الخيانة من أقبح الأفعال و أشنعها بل هي من المستقلات العقلية و ما كان كذلك كيف يكون محبوباً لعاقل فضلاً من الله تعالى.

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانٍ كَفُورٍ^(٢).

قال الله تعالى: وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٣).

و أما الأخبار الواردة في ذمها فكثيرة لا نحتاج الى ذكرها في المقام.

و لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ

قرأ ابن عامر و حمزة و حفص و أبو جعفر و لا يَحْسَبَنَّ بالياء و الباقون بالتاء و قرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة و الباقون بكسرها، فمن قرأ بالتاء فالخطاب للنبي.

و قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا المفعول الأول سَبَقُوا المفعول الثاني و موضعه النصب و أما من قرأ بالياء أحتمل ثلاثة أشياء:

أحدها: و لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا و هو قول أبي الحسن.

الثاني: أن يكون أضمر المفعول الأول و تقديره و لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا وإياهم سبقوا.

الثالث: أن يقدر على حذف، أن، كأنه قال و لا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا.

قال الزجاج: يقوى ذلك أن في قراءة ابن مسعود إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ بكسر الألف فعلى هذا يكون، إن سبقوا، سداً مسداً المفعولين كما أن قوله: أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا^(٤) كذلك و من فتح الهمزة في إِنَّهُمْ جعل الجملة

متعلقة بالجملة الأولى و التقدير و لا تحسبهم سبقوا، لأنهم لا يفوتون فهم يجازون على كفرهم و من كسر إستأنف الكلام إنتهى كلام الشيخ في التبيان.

و قال الزمخشري، كل واحدة من المكسورة و المفتوحة تعليل، إلا أن المكسورة على طريقة الإستئناف و المفتوحة تعليل صريح و في المقام أقوال كثيرة أشار الي بعضها الزمخشري ثم قال هذه الأقاويل كلها محتملة.

و أما نزولها فليل أنها نزلت فيمن أفلت من الكفار، في، بدر، و المعنى لا تظنهم يا محمد ناجين مفلتين فأنهم لا يعجزون طالهم بل لا بد من أخذهم قيل و ذلك في الدنيا، و لا يفوتون بل ليظفرك الله بهم و قيل في الآخرة الَّذِينَ كَفَرُوا عام قاله ابن عباس و قوله يعجزون أي يغلمون قال الشاعر:

و أعجزنا أبو ليلى طفيل
صحيح الجلد من أثر السلاح

و أما على قراءة من قرأ بالياء فالمعنى وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا أي لا يحسبن الكفار الذين سبقوا الى الحياة في غزوة بدر و لم يقتلوا و عبارة أخرى من أفلت من وقعة بدر سبقوا الى الحياة ثم إستأنف الكلام فقال، (أنهم لا يعجزون) أي لا يفوتون حتى يظفرك الله بهم و قيل يعني في الآخرة و محصل الكلام في الآية هو أن الله تعالى أعلم المسلمين و أخبرهم بأن من لم يقتل في غزوة بدر بسبب الفرار أو غير ذلك من الكفار لا يفوتون حتى يظفرك الله بهم في الدنيا أو في الآخرة فأً معني أعجزه، سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه.

في التفسير في القرآن

و في هذا الكلام إشارة الى أنه لا يمكن الفرار من حكومة الله.

قال الله تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١).

قال الله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ^(٢).



وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
أَعِدُّوا أَمْرًا مِنْ عَدٍّ يَعْنِي هَيَأُ أَمْرَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ لِلْأَعْدَاءِ
أَيَّ بِإِعْدَادِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّلَاحِ وَآلَةِ الْحَرْبِ وَالْخَيْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا
يَنْبَغِي إِعْدَادَهُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْإِعْدَادَ إِتْخَاذَ الشَّيْءِ لْغَيْرِهِ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي
أَمْرِهِ، وَلَوْ إِتْخَذَهُ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَحَبَّةً لَمْ يَكُنْ إِعْدَادًا، وَالْإِسْطَاعَةُ مَعْنَى تَنْطَاعُ بِهَا
الْجَوَارِحُ لِلْفِعْلِ مَعَ إِنْتِفَاءِ الْمَنْعِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: مِنْ قُوَّةٍ أَيَّ مِمَّا تَعْدُونَ بِهِ عَلَى
عَدُوِّهِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مِنَ الرَّمْيِ وَقَوْلُهُ: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ فَالرِّبَاطُ شَدُّ السَّيْرِ مِنَ
الْعَقْدِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْقُوَّةُ هَاهُنَا السَّلَاحُ وَالْقَسِيُّ وَنَقْلُ الْقَرْطَبِيِّ فِي
تَفْسِيرِهِ.

عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (سَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ فَلَا يَعْجِزُ
أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْا بِأَسْهَمِهِ)

وَقَالَ (كُلُّ شَيْءٍ يُلْهَوُ بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ
وَمَلَاعِبَتَهُ أَهْلُهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْحَقِّ) إِنَّتَهَى.

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ الرِّبَاطُ مِنَ الْخَيْلِ فَمَا فَوْقَهَا وَ
جَمَاعَتُهُ، رُبُطٌ، وَهِيَ الَّتِي تَرْتَبِطُ يَقَالُ مِنْهُ، رَبَطَ يَرْبِطُ، رَبَطًا، وَأَرْبَطَ يَرْبِطُ
إِرْبَاطًا وَمَرَبَطَ الْخَيْلَ وَمَرَبَطُهَا وَهِيَ إِرْبَاطُهَا بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمْرَ إِلَهِهَ بِرِبْطِهَا الْعَدُوَّ فِي الْحَرْبِ أَنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مَوْفَى
وَقَالَ الْآخَرُ:

تَلُومَ عَلَى حَبْسِ الْجِيَادِ وَرِبْطِهَا وَ أَوْصَى بِهَا إِلَهُ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا

وَرِبَاطُ الْخَيْلِ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَمَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ إِنَّتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ يَعْنِي تَخِيفُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ مِنَ
الْيَهُودِ وَقَرِيشَ وَكَفَّارِ الْعَرَبِ فَالْهَاءُ فِي، بِهِ، رَاجِعَةٌ إِلَى الرِّبَاطِ وَذَكَرَهُ لِأَنَّهُ عَلَى

لفظ الواحد و أن كان في معنى الجمع، و الإرهاب إزعاج النفس بالخوف و
 أُخْرِبْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ قِيلَ المراد بهم، فارس و الرُّوم قاله السّدي و
 قِيلَ الْجَنّ قاله الطّبري و قيل المراد بذلك كلّ من لا تعرف عداوته و قيل هم
 بنو قريظة و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة و الكلّ محتمل و لذلك قال: اللَّهُ
 يَعْلَمُهُمْ فكيف يدّعي أحد علماً بهم و مَا تُتَفَقُّوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ و أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ أي ما من شيء تنفقونه في الجهاد إلا والله
 يوفيكم ثوابه على ذلك على أحسن الوجه.

تنبية

وَأَعْلَمُ أَنَّ الغرض الأصلي من الآية هو إستعداد المسلمين في كلّ عصر و
 زمانٍ لحرب الكفّار لو إتّفقت الحرب و لازم ذلك أن لا يكونوا على غفلةٍ منها
 فَأَنَّ العدوّ يتتّهم الفرصة فإذا وجدها أخذ بها قطعاً.

و المراد بالإستعداد هو كونهم مجهزين بالسّلاح على ما ينبغي و يصلح في
 كلّ عصرٍ و زمان و من المعلوم أَنَّ السّلاح في عصرنا هذا مثلاً غير السّلاح في
 صدر الإسلام فَأَنَّ الخيول و الزّباط و القسّي في هذا الزّمان لا أثر لها و لا نفع
 فيها يعتدّ به كما هو واضح بل السّلاح المتعارف في هذا العصر شيء آخر
 فينبغي للمسلمين أن يستعدّوا للحرب بما هو المتعارف و المتداول بين النّاس
 و حيث لم يستعدّوا له فلا محالة صاروا مقهورين مغلوبين في جنب الأعداء و
 لا مناص لهم إلاّ التّسليم و الإنقياد و هذا هو الحقارة و الذلّة و ذلك لأنّهم لم
 يسمّعوا كلام الله و لم يعملوا بسنة رسول الله و غفلوا عمّا أمروا به من إعداد
 القوّة و من كان كذلك فكيف يكون عزيزاً و قد ثبت أَنَّ الإسلام يعلو و لا يغلى
 عليه و أَنَّ العزّة لله و لرسوله و للمؤمنين.

و أمّا التّغافل و التّسامح و الإشتغال بالشّهوات و الماديات و الإعراض عمّا
 فيه العزّة و المكانة فلا يورث إلاّ ما ذكرناه و رأيناه.

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
السَّلَامُ بكسر السين وفتحها لغتان، وفيه ثلاث لغات.

الفتح والكسر مع سكون اللام وفتح السين واللام معاً ومعناها المسالمة و
لذلك أتت في الآية فليل فليل لها، ولم يقل، له، والجنح الميل، فقله: وَإِنْ
جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ أي مالوا الى المسالمة والصلح ومعنى الآية أن مال الكفار الى
المسالمة وترك المحاربة فأجنح لها أي فأقبل منهم.

قيل أَنَّ الضمير يرجع الى بني قريظة والنضير وقيل على مشركي قريش و
العرب وقيل على قوم سألوا من رسول الله قبول الجزية منهم و جنح يتعدى
بالى وباللام والسلم بفتح السين وكسرهما يذكر ويؤث.

قال قتادة هي أي السلم الأمور بها موادة المشركين ومهادنتهم راجع الى
الإمام فإن رآه مصلحة فعل وإلا فلا.

وقيل نزلت في قوم سألوا الموادة فأمر الله نبيه بالإجابة إليها ثم نسخت
بقوله وقاتلوا الذين لا يؤمنون، وقيل إداء الجزية، وقال الحسن الإسلام
مجاهد نسخت بقوله: اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ.

وقال الزمخشري: والصحيح أَنَّ الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام
صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا
الى الهدنة أبداً وقال القرطبي قد اختلف في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا
فقال قتادة وعكرمة نسخها:

قال الله تعالى: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ^(١).

قال الله تعالى: وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً^(٢).

وقالا نسخت براءة كل موادة حتى يقولوا لا إله إلا الله.

وقال ابن عباس الناسخ قوله: فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وقيل ليست

بمنسوخة بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية وقد صالح أصحاب رسول الله في زمن عمر و من بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذه منهم و تركوهم على ما هم فيه و هم قادرون على إستئصالهم و كذلك صالح رسول الله كثيراً من أهل البلاد على ما يؤدونه من ذلك خير ردّ أصلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدوا النّصف قال ابن إسحاق عنى بهذه الآية قريظة لأنّ الجزية تقبل منهم فأما المشركين فلا يقبل منهم شيء.

و قال السّدي و ابن زيد معنى الآية أن دعوك الى الصّلح فأجبههم و لا نسخ فيها و قال ابن العربي و بهذا يختلف الجواب عنه و قد قال الله عزّ و جل: **فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ** ^(١) فإذا كان المسلمون على عزّة و قوّة و منعة و جماعة عديدة و شدّة شديدة فلا صلح كما قال الشاعر:

فلا صلح حتّى تطعن الخيل بالقنا و تضرب بالبيض الرّقاق الجماجم
و أن كان للمسلمين مصلحة في الصّلح لنفع يحتلبونه أو ضرر يدفعونه فلا بأس أن يبتدأ المسلمون به إذا احتاجوا إليه و قد صالح رسول الله أهل خيبر على شروطٍ نقضوها فنقض صلحهم و ما زالت الخلفاء و الصّحابة على هذا السّبيل التي شرعناها سالكة و بالوجوه التي شرحناها عاقلة إنتهى كلامه.
و قال القشيري إذا كانت القوّة للمسلمين فينبغي أن لا تبلغ الهدنة سنة و إذا كانت القوّة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين و لا تجوز الزّيادة و قد هادن رسول الله أهل مكّة عشر سنين إنتهى.

و قال الرّازي و أعلم أنّه لما بيّن ما يرهّب به العدو من القوّة و الإستظهار بيّن بعده أنّهم عند الإرهاب إذا جنحوا أي مالوا الى الصّلح فالحكم قبول الصّلح إنتهى كلامه.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

أقول هذه هي الأقوال المشهورة في تفاسيرهم المعتمدة و قد ظهر منها أن الكفار لو جنحوا و مالوا الى الصلح ينبغي للإمام إجابتهم اليه. و أما القول بالنسخ فهو عاطل باطل لا يعتمد عليه و به صرح الشيخ في التبيان و هو أعرف بمذاهب القوم و فروع المذهب. قال عليه السلام و الصحيح أنها ليست منسوخة لأن قوله أقتلوا المشركين الآية، نزلت في سنة تسع و بعث بها رسول الله الى مكة ثم صالح أهل نجران بعد ذلك على ألفي حلة، ألف في صفر و ألف في رجب انتهى كلامه رفع مقامه. و هذا هو الحق الحقيق بالإتباع عقلاً و نقلاً و ذلك لأن الله تعالى بعث أنبيائه في كل عصر و زمان لإيجاد الصلح بين الناس حتى الإمكان و أما الحرب فلا تكون إلا في صورة الإضطراب فالأصل في الدعوة الصلح.

قال الله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(١).
قال الله تعالى: أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(٢).

و إذا كان الأصل في دعوة الأنبياء و الصلح و متابعة الحق فلا معنى لنسخ الآية نعم إذا فرضنا في الكفار عدم قبول الدعوة و مخالفة الحق علناً بالقتال و الفساد في الأرض فلا محالة تقع الحرب و ذلك لقمع مادة الفساد و إيجاد الصلح و لأجل هذه الدققة لا يبعد أن يقال أن غزوات النبي صلى الله عليه وآله كانت لأجل الدفاع عن الحق و رفع الفتنة التي كانوا أوجدوها لإطفاء نور الحق و سريان الظلم و الفساد في الاجتماع و هذا ظاهر نعم.

إذا كان الكافر مخالفاً و محارباً يجب حربه و هذا أمر آخر و محصل الكلام هو أن مجرد بقاء الكافر على كفره و عدم قبوله الحق لا يوجب الحرب معه إذا

لم يكن حزياً و لكن قبل وقوع الحرب جنح الى السلم فالعقل يحكم بقبول قوله و ترك المحاربة لأن الحرب ليست مقصوداً بالإصالة و إنما هي ثابتة في صورة الإضطراب و ما على الرسول إلا البلاغ المبين و الى هذه النكتة أشار الله تعالى بقوله:

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

لما قال الله تعالى في الآية السابقة: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا حَيْثُ أَمَرَ النَّبِيُّ بِقَبُولِ الصَّلْحِ أَفَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْكُفَّارَ إِنْ قَصَدُوا بِالصَّلْحِ خَدِيعَتَكَ فَأَنْ حَسْبَكَ اللَّهُ أَيِ إِنْ اللَّهَ يَكْفِيكَ، وَ الْخَدِيعَةُ إِظْهَارُ الْمَحْبُوبِ فِي الْأَمْرِ لِلِاسْتِجَابَةِ لَهُ مَعَ إِطْطَانِ خِلَافِهِ وَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ فِي الْآيَةِ هُوَ أَنَّ الْكُفَّارَ أَنْ مَالُوا إِلَى الصَّلْحِ فَأَقْبَلَ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَنْتَهُمْ أَنْ كَانُوا صَادِقِينَ فَهُوَ وَأَنْ كَانُوا كَاذِبِينَ بِمَعْنَى أَنْتَهُمْ خَدَعُوكَ بِزَعْمِهِمْ فَلَا تَخَفْ فَأَنَّ اللَّهَ يَكْفِيكَ فَيَرِدُ عَنْكَ شَرُّ خَدَعَتِهِمْ وَ مَكْرِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ أَيِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

قيل المراد بالمؤمنين الأنصار وبتأليف قلوبهم ما كان الأوس و الخزرج من العداوة و القتال.

و قال مجاهد هو في كل متحابين في الله و إنما كان الجمع على المحبة تأليفاً بين القلوب لأنه مأخوذ من الألفة و هي الاجتماع على الموافقة في المحبة و لا يجوز في الجمع على البغضاء أن يسمي بذلك و قوله: لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ففيه إشارة الى أن قلوب الناس بيد الله و تحت قدرته إذ هو مقلب القلوب و الأبصار.

وهذا مختص به تعالى:

قال الله تعالى: **وَ أَغْصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا^(١)**.

وقال في الكفار: **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا^(٢)**.

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْتَدِينَ^(٣)**.

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ^(٤)**.

وقال في المؤمنين: **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً^(٥)**.

والحاصل أن القلوب تحت قدرة خالقها يتصرف فيها كيف يشاء والى هذا أشار في آخر الآية بقوله: **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** فقوله: **عَزِيزٌ** إشارة الى قدرته على قلب القلوب وقوله: **حَكِيمٌ** إشارة الى أنه تعالى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة وهي التي صارت سبباً للإللفة بين المؤمنين لأن فيها ظهور الحق وإعلاء كلمة التوحيد والدليل عليه ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والبغضاء ولذلك وقع بينهم ما وقع من الحروب التي لولا الإسلام لا تنقضي أبداً ولكنه تعالى من عليهم فبدل عداوتهم بالمحبة ومباغضتهم بالألفة فأصبحوا بنعمته إخواناً ونصروا الإسلام فظهرت كلمة الحق وماتت كلمة الباطل ليظهره على الذين كلّه ولو كره المشركون.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يقول له يكفيك أن يكون ناصرَك على أعدائك هو الله تعالى والذين إتبعوك من المؤمنين أعني بهم المهاجرين والأنصار وإختلفوا في موضع، من، في قوله ومن إتبعك من المؤمنين.

فقال بعضهم أن موضعها الرفع عطفاً على ما قبله و على هذا فسرّه الحسن و جماعة و عليه فالمعنى حسبك الله و المؤمنين.

و قال الآخرون موضعها النصب عطفاً على موضع الكاف لأنّ موضعها النصب على المعنى بيكفيك الله سدّت حسبك مسداً و عليه فالمعنى حسبك الله و حسب من إتبعك من المؤمنين و بعبارة أخرى حسبكم الله جميعاً.

و قال الكسائي و الفراء و الزجاج يجوز الوجهان و الذي عندي هو أن الوجه الثاني أقوى بالنظر الى المعنى و الأول بالنظر الى اللفظ

و نقل عن الواقدي أنّه قال نزلت الآية في بني قريظة و بنى النصير لما قالوا له نحن نسلم و نتبعك و الحق أن الآية بصدد بيان حكم عقلي لا ريب فيه في جميع الموارد و أن كان موردها خاصاً فإنّ خصوصية المورد لا تنافي عموم الحكم كيف و قد قال.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(١).

قال الله تعالى: قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٢).

قال الله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ^(٣).

قال الله تعالى: قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ^(٤) و غيرها من الآيات.



١- أل عمران = ١٧٣

٢- الزمر = ٣٨

١- الطلاق = ٣

٣- التوبة = ١٢٩

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ
إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٦) أَلَا نَخَفُّكَ اللَّهُ
عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ
يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٧)
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي
الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٨) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ
اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(٦٩) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ
فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي
قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَ
يَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧١) وَإِنْ يُرِيدُوا
خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ
اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧٢) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا
وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ
الَّذِينَ أَوْوَا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ
وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ

فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ
 بَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٣) وَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ
 تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٤) وَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَ الَّذِينَ أَوْوَا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
 حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٥) وَ الَّذِينَ آمَنُوا
 مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ
 مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي
 كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٦)

◀ اللغة

حَرَضَ فعل أمر من حَرَضَ تَحْرِضًا وَ التَّحْرِيزُ وَ الحِثُّ، الدُّعَاءُ الأَكِيدُ
 بتحرك النفس على أمر من الأمور وَ ضَدَّه التَّقْيِتهُ.
 خَفَّفَ فعل ماضٍ مصدره التَّخْفِيفُ وَ هُوَ التَّسْهِيلُ.
 أَسْرَى بفتح الألف جمع أسير مثل جرحى جمع جريح وَ قَتَلَى جمع قتيل.
 يُثَخِّنُ بضم الياء مضارع أَثَخَنَ وَ مصدره الإِثْخَانُ وَ الإِثْخَانُ فِي الْأَرْضِ
 تغليظ الحال بكثرة القتل وَ قِيلَ الإِثْخَانُ الْقَتْلُ وَ الثَّخَنُ وَ الْغُلْظُ وَ الْكَثَافَةُ نَظَائِرُ.
 أَوْوَا يُقَالُ أَوْوَى إِلَى كَذَا إِنْضَمَّ إِلَيْهِ وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

◀ الإعراب

لَوْلَا كِتَابٌ كِتَابٌ مَبْدَأٌ وَ سَبَقَ صِفَةٌ لَهُ وَ مِنْ اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَيْضًا
 مُتَعَلِّقًا بِسَبَقِ، وَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَي تَدَارَكُكُمْ خِيَانَتُكَ مُصَدَّرُ خَانَ يَخُونُ وَ

أصل الياء الواو فقلبت لإنكسار ما قبلها و وقوع الألف بعدها في كِتَابِ اللَّهِ في موضع نصب بأولى أي يثبت ذلك في كتاب الله.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ هَذَا أَيْضاً خطاب للنبي ﷺ يأمره الله بتحريض المؤمنين على قتال المشركين ثم قال: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ شَرْطِيتَانِ فِي ضَمْنِهِمَا الْأَمْرُ بِصَبْرِ عَشْرِينَ لِمِائَتَيْنِ وَ بِصَبْرِ مِائَةٍ لَأَلْفٍ قِيلَ وَ لِذَلِكَ دَخَلَهَا النُّسخُ إِذْ لَوْ كَانَ خَبَرًا مُحْضًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ النُّسخُ لَكِنِ الشَّرْطُ إِذَا كَانَ فِيهِ مَعْنَى التَّكْلِيفِ جَازَ فِيهِ النُّسخُ وَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ نَسَخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَا نَخَفُّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ التَّقْيِيدُ بِالصَّبْرِ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَرْطٍ لَفْظًا هُوَ مُحذُوفٌ مِنَ الثَّانِيَةِ لِذِلَالَةِ ذِكْرِهِ فِي الْأَوَّلَى وَ تَقْيِيدُ الشَّرْطِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَفْظًا هُوَ مُحذُوفٌ مِنَ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ فِي قَوْلِهِ: يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ فَانْظُرْ إِلَى فَصَاحَةِ هَذَا الْكَلَامِ حَيْثُ أَثْبَتَ قِيدًا مِنَ الْجُمْلَةِ الْأَوَّلَى وَ حَذَفَ تَطْزِيرَهُ مِنَ الثَّانِيَةِ وَ أَثْبَتَ قِيدًا فِي الثَّانِيَةِ وَ حَذَفَ مِنَ الْأَوَّلَى وَ لَمَّا كَانَ الصَّبْرُ مَطْلُوبًا أَثْبَتَ فِي أَوَّلَى جُمْلَتِي التَّخْفِيفِ وَ حَذَفَ مِنَ الثَّانِيَةِ لِذِلَالَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ ثُمَّ خَتَمَتِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ: وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

أَقُولُ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِتَحْرِيزِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ قَالَ: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا صَابِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ أَنَّ كَانُوا كَذَلِكَ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَشْرَةٍ وَ أَمَّا قَالَ تَعَالَى ذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ قُلُوبِهِمْ وَ إِزَالَةِ الْخَوْفِ عَنْهُمْ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا قَلِيلِينَ فِي جَنْبِ الْكُفَّارِ فَوَقَعَ الْخَوْفُ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَزَالَهُ اللَّهُ عَنْهَا بِذَلِكَ وَ اسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَيْ أَنَّهُمْ عَلَى جِهَالَةٍ خِلَافِ

من يقاتل على بصيرة و هو يرجو ثواب الآخرة أو لأنهم لا يعلمون ما لهم من إستحقاق الثواب بالقتال و ليس في أمره تعالى بتحريض المؤمنين على القتال دليل على ابتداء فرضية القتال كما قيل بل كان القتال واجباً قبل هذه الآية و أنما جاءت هذه حثاً على أمر واجب.

قال ابن جريح كان عليهم أن لا يفروا و يثبت الواحد للعشرة و كان رسول الله قد بعث حمزة في ثلاثين راكباً فلقى أبا جهل في ثلاث مائة راكب قيل ثم تقل عليهم ذلك و ضجوا منه و ذلك بعد مدة طويلة فنسخ و خفف عنهم بمقاومة الواحد للثنتين والى هذا المعنى أشار الله بقوله:

الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ فَخَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِمَقَاوِمَةِ الْوَاحِدِ لِلثَّانَتَيْنِ.

و قد إستفاد بعضهم عن هذه الآية أن كل مسلم بالغ و وقف بأزاء المشركين عبداً كان أو حراً فالهزيمة عليه محرمة مادام معه سلاحه يقاتل به فأن كان ليس معه سلاح فله أن ينهزم و إن قابله ثلاثة حلت له الهزيمة و الصبر أحسن انتهى. و في قوله: بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ إشارة الى أن النصر والغلبة على الكفار بأذن الله وإرادته و مع ذلك فيه ترغيب في الثبات و الإستقامة للقاء العدو و تبشيراً بأن الله تعالى يؤيد الصابرين لأنه من كان الله معه هو الغالب و الصابرين كذلك.

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ

قيل نزلت في أسرى بدر قبل أن يكثر الإسلام فلما كثر المسلمون قال الله تعالى: فَإِذَا مَنَا بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ ^(١) و المعنى ما كان لنبي أن يحبس كافراً

فبناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

للفداء والمنَّ حتَّى يثخن في الأرض والإثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل.

قال بعضهم هذه الآية نزلت يوم بدر عتاباً من الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ والمعنى ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الإثخان، ولهم هذا الأخبار بقوله: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والنبي ﷺ يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا وأما فعله جمهور مباشري الحرب فالتوبيخ والعتاب أما كان متوجهاً بسبب من أشار إلى النبي ﷺ بأخذ الفدية هذا قول أكثر المفسرين الذي لا يصح غيره انتهى.

أقول ذكر المؤرخون وأرباب السير أن القتلى كانوا ببدر سبعين والأسرى سبعين قتل منهم أمير المؤمنين عليه السلام سبعة وعشرين ولم يؤسر أحداً فجمعوا الأسارى وفرقوهم في الجمال وساقوهم على أقدامهم وجمعوا الغنائم وقتل من أصحاب رسول الله تسعة رجال فيهم سعد بن خثيمة وكان من النقباء فرحل رسول الله و نزل الأثيل عند غروب الشمس وهو من بدر على ستة أميال فنظر رسول الله إلى عقبة بن أبي معيط وإلى النضر بن الحرث بن كلفة و هما في قرآن واحد فقال النضر لعقبة يا عقبة أنا وأنت مقتولان فقال عقبة من بين قريش.

قال نعم لأنَّ محمداً ﷺ قد نظر إلينا نظرة رأيت فيها القتل، فقال رسول الله ﷺ يا علي، علي بالنضر وعقبة وكان النضر رجلاً جميلاً عليه شعر فجاء علي فأخذه بشعره فجره إلى رسول الله ﷺ فقال النضر يا محمد أسألك بالرحم بيني وبينك ألا أجرتني كرجلٍ من قريش إن قتلتهم قتلتنني وإن ناديتهم ناديتني وإن أطلقتهم أطلقتنني فقال رسول الله لا رحم بيني وبينك قطع الله الرحم بالإسلام قدمه يا علي فأضرب عنقه فقال عقبة يا محمد ألم تقل لا تصبر قريش أي لا يقتلون صبراً قال ﷺ وأنت من قريش إنما أنت

عَلَجَ مِنْ أَهْلِ صَفْوَرِيَّةَ لِأَنْتَ فِي الْمِيلَادِ أَكْبَرُ مِنْ أَبِيكَ الَّذِي تَدْعِي لَهُ لَيْسَ مِنْهَا قَدَمُهُ يَا عَلِيَّ فَأَضْرَبْ عُنُقَهُ فَقَدَّمَهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ فَلَمَّا قَتَلَ رَسُولَ اللَّهِ النَّضْرَ وَعُقْبَةَ خَافَتِ الْأَنْصَارُ أَنْ يَقْتُلَ الْأَسَارَى كُلَّهُمْ فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَتَلْنَا سَبْعِينَ وَ أَسْرْنَا سَبْعِينَ وَ هُمْ قَوْمُكَ وَ أَسَارَاكَ هَبْهُمْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ خُذْ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ وَ أَطْلِقْهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا فَأُطْلِقَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْفِدَاءَ وَ يَطْلُقُوهُمْ وَ شَرَطَ أَنْ يَقْتُلَ مِنْهُمْ فِي عَامٍ قَابِلٍ بَعْدَ مَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ فَرَضُوا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ أَحَدٌ قَتَلَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعُونَ رَجُلًا فَقَالَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي أَصَابَنَا وَ قَدْ كُنْتَ تَعْدُنَا بِالنَّصْرِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١).

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية و نقول معنى الآية ما كان لنبي أن يحبس كافراً للقداء أي ليس له ذلك حتى يثخن في الأرض، أي حتى يذب الكفر و يقل حزبه و يعز الإسلام و ليستولي أهله من أئخنه المرض إذا أثقله تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا أي حطامها بأخذ القداء وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أي يريد لكم ثوابها وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أي أن الله يغلب أوليائه على أعدائه لأنه يعلم ما يليق بكل حالٍ على أساس المصلحة.

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
أي لولا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أنه لا يعذبهم على ذلك.
و قيل معناه، لولا ما كتب الله فيه أنه يغفر لأهل بدر ما تقدم و ما تأخر.

و قال بعضهم، لولا ما كتبه الله من أن الغدية ستحلّ لهم فيما بعد ذهب اليه سعيد بن جبير و أنما قال تعالى ذلك لأنهم أخذوا الغدية قبل أن يؤذن لهم كان سبق أن الله سيحلّه لهم.

نقل عن الجبائي أنه قال و قد كان من النبي ﷺ في هذا معصية إجماعاً من غير تعيين ما هي و أظنّ أنهما في ترك قتل الأسرى ذكره الشيخ في التبيان. ثم قال ﷺ و هذا الذي ذكره غير صحيح لأنّه لا إجماع في ذلك بل عندنا لا يجوز على النبي فعل شيء من القبائح صغيراً كان أو كبيراً لما في ذلك من التّفير عنه على ما بيّناه في غير موضع و أكثر المفسّرين على أن النبي لم يقع منه خلاف لأمر الله.

و قد روي أنّه ﷺ كره أخذ الفداء حتّى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه فقال يا رسول الله هذا أوّل حرب لقينا فيه المشركين أردت أن يثخن فيهم القتل حتّى لا يعود أحد بعد هذا الى خلافك و قتالك فقال رسول الله قد كرهت ما كرهت و لكن رأيت ما صنع القوم فالمعصية في ذلك كانت من قوم من الصحابة الذين مالوا الى الدنيا و أخذ الفداء.

و قال البلخي أيضاً أن أجلاء الصحابة براء من ذلك انتهى كلامه.

و أنا أقول ما ذكره ﷺ في جواب الجبائي يكفيانا و لا نحتاج الى بيان خطأ الجبائي في المقام تفصيلاً و الذي نزيده في الجواب هو أنّه قد ثبت عصمة الأنبياء عقلاً و نقلاً فكان الجبائي لم يسمع هذا و إدعى الإجماع على تحقّق المعصية عنه ﷺ.

أليس هذا مخالفاً لعصمته ﷺ و من إنتفت العصمة في حقّه لا يعتمد على قوله و فعله و للبحث فيها مقام آخر.

قال أبو جعفر عليه السلام كان الفداء يوم بدر لكل رجل من المشركين أربعين أوقية من فضة و الاوقية أربعون مثقالاً إلا العباس بن عبد المطلب فإنّ فداءه كان مائة أوقية و كان أخذ منه حين أسر اثنين و عشرين أوقية ذهباً فقال النبي ﷺ

ذاك غنيمة ففاد نفسك وإبني أخيك عقيل و نوفل إبني الحارث بن عبد المطلب فقال العباس ليس معي فقال رسول الله ﷺ أين الذهب الذي سلمته الى أم الفضل و قلت إن حدث بي حدث فهو لك و للفضل و عبد الله و ميثم فقال العباس من أخبرك بهذا قال ﷺ الله، قال أشهد أنك رسول الله و الله ما إطلع على هذا أحد إلا الله تعالى.

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 قد أباح الله بهذه الآية أكل الغنيمة ممّا أخذه من أموال المشركين بالقهر من دار الحرب فقلوه: **فَكُلُوا** و أن كان أمراً لفظاً إلا أن المراد به الإباحة و رفع الحظر و الفرق بين الغنيمة و الفئ هو أن الغنيمة ما أخذ من دار الحرب على سبيل القهر و الغلبة و أمّا الفئ فهو ما رجع الى المسلمين و أنتقل اليهم من المشركين. و أنما قال تعالى: **حَلَالًا طَيِّبًا** ولم يقل مباحاً لأنّ الحلال من حلّ العقد في التحريم و المباح من التوسعة في الفعل و إن اجتمعا في الحلّ. و قوله: **طَيِّبًا** فالطيب المستلذ فهو شبه الحلال، و الله تعالى أباح لهم بهذه الآية الغنيمة و أمرهم بالتقوى فقال: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ** أي إتقوا معاصيه أو إتقوا عن أكل ما لا يحلّ لكم، **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَ يَعْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 قرأ أبو عمرو وحدة من السبعة و أبو جعفر، الأسارى و الباقون، الأسرى، و الأسير من أخذ من دار الحرب من أهلها و لو أخذ مسلم لكان قد فكّ أسره خاطب الله تعالى في هذه الآية نبيه و أمره أن يقول لهؤلاء الأسرى الذين كانوا تحت يده أي تحت إختياره و قدرته لأنّ من حصل في وثاقه بمنزلة ما قبض على يده بالاستيلاء عليه و لذلك يقال للملك المتنازع فيه لمن اليد، كما يقال على اليد ما أخذت حتى تؤدّيه.

والحاصل أن اليد كناية عن الإستيلاء، إِنَّ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا أَيْ
 قل لهم أن يعلم الله في قلوبهم خيراً أي إسلاماً.

و قيل خيراً في المستقبل بأن يفعلوه و الخير هو النَّفْع العظيم قالوا المراد به في المقام البصيرة في دين الله و حسن النّية في أمره **يُؤْتِكُمْ خَيْرًا** أي يعطيكم خيراً ممّا أخذ منكم من الفداء **وَيَغْفِرْ لَكُمْ** وَ **اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** أي يغفر لكم معاصيكم و يسترها عليكم فأنّه غفورٌ رحيمٌ.

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآية معطوفة على السابقة والمعنى أنَّ هؤلاء الأسارى أن علم الله في قلوبهم خيراً خلف عليهم خيراً ممَّا أخذ منهم و أن عزموا على الخيانة و نقض العهد و فعلوا خلاف ما وقع عليه العقد من تأديّة فرض الله فقد خانوا الله من قبل هذا و المعنى فقد خانوا أولياء الله و المراد بالخيانة هاهنا نقض عهد الطاعة لله و رسوله.

وَأَمَّا قَلْنَا فَقَدْ خَانُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَعَ أَنَّ اللَّهَ مُصَرِّحَةٌ بَأْتَهُمْ خَانُوا اللَّهَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِالْأَسْرَارِ وَالظُّوْهَرِ عَالِمٌ بِالشَّيْءِ كُلِّهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَخَانَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَأَمَكَنَ مِنْهُمْ فَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَمَّا خَانُوا بَأْنَ خَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ وَاقْتَلَوْا مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ أَمَكَنَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِأَنْ غَلَبُوا وَاسْرُوا فَأَنْ خَانُوا ثَانِيًا فَيُمْكِنُ اللَّهُ مِنْهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ وَالْإِمْكَانُ هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى الشَّيْءِ مَعَ رَفْعِ الْمَانِعِ.

و قال الكرمانى فى معنى الآية وأن يُريدوا يعنى الأسرى خيانتك يعنى نقض ما عهدوا معك فقد خانوا الله بالكفر والشرك قبل العهد وقيل قبل بدر.

و نقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية عن الأزهري أنّه قال مفعول الإمكان محذوف و المعنى فأمكن المؤمنين منهم أي أنّهم لما خانوا الله بما أقدموا

عليه من محاربة الرسول يوم بدر فأمكن الله منهم قتلاً وأسراً وذلك نهاية الإمكان والظفر فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال ما فعلوه ثم فإن عادوا كان التمكن منهم ثابتاً حاصلًا وفيه بشارة للرسول ﷺ بأنه يتمكن من كل من يخونه و ينقض عهده.

ثم قال والله عليم ببواطنهم و ضمائرهم حكيم يجازيهم بأعمالهم كيف يشاء على طبق المصلحة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ أَوْوُوا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إعلم أن الله تعالى قسم المؤمنين في عهد الرسول الى قسمين و ذلك لأن الرسول ﷺ بعث في مكة و دعا الناس فيها الى الإسلام فقال لهم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا فمنهم من آمن به و منهم من كفر فالمؤمنون هم الذين أجابوا دعوته و دخلوا في الإسلام و الكافرون أنكروا دعوته و بقوا على كفرهم ثم أن المؤمنين قسمهم الله تعالى أيضاً الى قسمين:

قسم منهم هاجروا مع الرسول من مكة الى المدينة و هم الذين سماهم الله المهاجرين.

و صنف آخر منهم لم يهاجروا معه و بقوا في مكة، ثم أن المؤمنين المهاجرين أيضاً على صنفين:

صنف منهم جاهدوا بأموالهم و أنفسهم بعد الهجرة مع الرسول و صنف آخر هاجروا و لكن لم يجاهدوا كذلك بل أكلوا و أنكحوا و ناموا على فراشهم منتهزين للفرصة لأنهم دخلوا في الإسلام طمعاً لا إعتقاداً اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَي فِي مَكَّةَ وَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَ جَاهَدُوا فِيهَا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ أَوْوُوا وَ نَصَرُوا، يعني النبي

والمراد بهم الأنصار في المدينة وذلك لأن الأنصار أووا و نصروا المهاجرين في بيوتهم وذلك لأن الرسول ﷺ والمهاجرين لما هاجروا من مكة الى المدينة فلولا أن الأنصار أووا و نصروا و بذلوا النفس و المال في خدمة الرسول و إصلاح مهمات أصحابه من حيث المسكن و غيره مما يحتاج اليه الإنسان في معيشته لما تم المقصود البتة و هذا هو المراد بقوله تعالى: **أَوْوَا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**.

قال صاحب الكشف أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث و كان المهاجرون و الأنصار يتوارثون بالهجرة و النصرة دون ذوي القربايات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: **وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** إنتهى كلامه. و قال القرطبي، نقلاً عن ابن عباس، أولياء بعض في الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة و كان لا يرث من آمن و لم يهاجر من هاجر فنسخه الله ذلك بقوله: **وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ** قال أخرجه أبو داود و صار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين و لا يتوارث أهل ملتين شيئاً ثم جاء قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلحقوا الفرائض بأهلها و قيل ليس هنا نسخ و أنما معناه في النصرة و المعونة انتهى.

و قال الطبري و قد قيل أنما عني بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض و أن الله ورت بعضهم من بعض بالهجرة و النصرة دون القربايات و الأرحام ثم ذكر لتأييد مقالته بعض الأخبار الواردة عن ابن عباس و غيره و بهذه المقالة قال جميع المفسرين من العامة فيما رأيناه في تفاسيرهم و لم يخالف فيها أحد و ذلك لأنهم أجمعوا على أن المراد بالولاية في قوله: **أَوْلَىٰكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ** بعض الولاية في الميراث أو المؤازرة في قول ابن إسحاق و حيث أنه متفرّد به طرده.

و قال الطبرسي رحمه الله منا و هو من أعظم المفسرين في نزول الآية ما هذا لفظه قيل نزلت في الميراث و كانوا يتوارثون بالهجرة فجعل الله الميراث للمهاجرين و الأنصار دون ذوي الأرحام و كان الذي آمن و لم يهاجر لم يرث

من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله: **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** فنسخت الآية و صار الميراث لذوي الأرحام المؤمنين و لم يتوارث أهل ملتين عن ابن عباس و الحسن و قتادة و مجاهد و السدي انتهى.

ثم قال عليه السلام عند تفسيره لقوله تعالى: **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** أي هؤلاء بعضهم أولى ببعض في النصرة وأن لم يكن بينهم قرابة من أقرباءهم من الكفار و قيل في التوارث عن ابن عباس و الحسن و قتادة و مجاهد و السدي و قيل في التناصر و التعاون و الموالاة في الدين عن الأصم و قيل في نفوذ أمان بعضهم على بعض فأول واحد من المسلمين لو آمن إنساناً فقد أمانه على سائر المسلمين انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول يظهر من كلام الطبرسي أن المسألة ليست إثنائية بل تكون خلافاً فأول قوله و قيل في التناصر و التعاون و الموالاة في الدين إلى آخر ما قال يدل على ما ذكرناه.

و قال صاحب تفسير الميزان الولاية أعم من ولاية الميراث و ولاية النصرة و ولاية الأمن فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع فالبعض من الجميع ولي البعض من الجميع كالمهاجر ولي كل مهاجر و الانصاري، و الأنصاري ولي كل أنصاري و مهاجر كل ذلك بدليل الإطلاق في الآية فلا شاهد إلى صرف الآية إلى ولاية الأثر بالمواخاة التي كان النبي جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زماناً حتى نسخت انتهى كلامه عليه السلام.

و الذي يظهر من كلامه هو عدم تخصيص الولاية في الآية بالميراث بل هي أعم منه في المقام و أن كانوا يتوارثون بها زماناً و عليه فالمراد بالولاية معناها العام الشامل لجميع الأقسام و أنت إذا تأملت في كلامه تجده موافقاً لما ذكره الطبرسي عليه السلام و الذي يظهر من كلام جميع المفسرين من العامة و الخاصة أن

التَّوَارِثَ بَيْنَهُمْ أَي بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كَانَ بَاقِيًا إِلَى أَنْ نَسَخَتِ الْآيَةُ مِمَّا لَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ وَ يُؤَيِّدُهُ مَا فِي وَرْدٍ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ.

قَالَ الْفَيْضُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الصَّافِي فِي الْمَقَامِ أَي يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْمِيرَاثِ الْقَمِيِّ لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ أَخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَ كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ يَرِثُهُ أَخُوهُ فِي الدِّينِ وَ يَأْخُذُ الْمَالِ وَ كَانَ لَهُ مَا تَرَكَ دُونَ وَرَثَتِهِ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ بَدْرٍ أَنْزَلَ اللَّهُ، **أَلَنْبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ** فَنَسَخَتْ وَ فِي الْمَجْمَعِ عَنِ الْبَاقِرِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالْمُؤَاخَاةِ الْأُولَى دُونَ التَّقَارُبِ حَتَّى نَسَخَ ذَلِكَ وَ أَوْلَا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ انْتَهَى.

وَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَقَدْ أَنْكَرَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ كَوْنَ الْوَلَايَةِ فِي الْمِيرَاثِ فَقَالَ أَنَّ لَفْظَ الْوَلَايَةِ غَيْرُ مُشْعِرٍ بِهَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُشْعِرٌ بِالْقَرَبِ وَ لَا يَفِيدُ الْأَرثَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ^(١) إِلَى أَنْ قَالَ فَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى غَيْرِ الْأَرثِ وَ هُوَ كَوْنُ بَعْضِهِمْ مَعْظَمًا لِلْبَعْضِ مَهْتَمًا بِشَأْنِهِ مُخْصِصًا بِمُعَاوَنَتِهِ وَ مُنَاصَرَّتِهِ وَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ وَ أَنْ يَكُونَ حَبٌّ كُلٌّ وَاحِدٌ لِغَيْرِهِ جَارِيًا مُجْرَى حَبِّهِ لِنَفْسِهِ وَ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمَلًا لِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ حَمْلُهُ عَلَى الْأَرثِ بَعِيدًا عَنْ دَلَالَةِ اللَّفْظِ لَا سِيَّمَا وَ هُمْ يَقُولُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ صَارَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** وَ أَيُّ حَاجَةٍ تَحْمِلُنَا عَلَى حَمْلِ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَى لَا إِشْعَارَ لِذَلِكَ اللَّفْظِ بِهِ ثُمَّ الْحُكْمَ بِأَنَّهُ صَارَ مَنْسُوخًا بِآيَةٍ أُخْرَى مَذْكُورَةٍ مَعَهُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا حَصَلَ إِجْمَاعُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ ذَلِكَ مَحْ يَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ دَعَوَى الْإِجْمَاعُ بَعِيدَ انْتِهَى كَلَامِهِ.

و لقائل أن يقول من حمل لفظ الولاية على الميراث والعجب من الزازي أنه أطال الكلام في رد من حمله على الميراث و تمسك في آخر كلامه بالإجماع أن ثبت و لم يعلم أن حمل لفظ الولاية على الميراث لا يقول به عاقل فضلاً عن هؤلاء الأعلام من الخاصة و العامة و أنما قالوا أريد بالولاية هنا هذا القسم الخاص منها أعني به الميراث لا أن الولاية بمعنى الميراث فأن لها معانٍ متكررة متعددة و إذا كان كذلك فحمل اللفظ على بعض مصاديقه دون بعض بسبب قرنية حالية أو مقالية لا إشكال فيه.

و أما قوله: وهم يقولون أن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله في آخر الآية. ففيه أنهم لم يقولوا أنه منسوخ بقوله في آخر الآية بل قالوا أن الحكم منسوخ بقوله: **وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** وهو آية أخرى في موضعها بعد ثلاث آيات و أي إشكال فيه فأن في الآيات ناسخة و منسوخة. و الحاصل أنه لم يتوجه إلى ما قال فقال ما قال و محصل الكلام من أول الآية إلى قوله: **أُولِيَاءُ بَعْضٍ** هو أن المؤمنين المهاجرين المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أعني بهم المهاجرين، و الذين أووهم و نصروهم في المدينة أعني بهم الأنصار.

أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولِيَاءُ بَعْضٍ في جميع شؤون الولاية سواء قلنا أنها بمعنى المحبة أو النصرة أو الأمن أو الميراث أو غير ذلك و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا

ففيه إخراج المؤمنين الذين لم يهاجروا مع النبي و بقوا في مكة عن حكم الولاية و لذلك قال مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا.

و يستفاد من هذا الكلام أن ولاية بعضهم على بعض مختص بالمؤمنين المهاجرين فقط فليس للجهاد بالأموال و الأنفس في إثبات الولاية حظ نصيب و الدليل عليه قوله: **حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا** و لم يقل و يجاهدوا و الخ ...

فَأَثَبَ اللَّهُ الْوَلَايَةَ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَوْلُهُ: وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ وَالْمَعْنَى: إِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ أَيْ طَلَبُوا مِنْكُمْ النُّصْرَةَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَقُوا فِي مَكَّةَ وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَعَكُمْ فِي الدِّينِ لَا فِي غَيْرِهِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ أَيْ أَنْصَرُوهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُصْرَةُ الدِّينِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَقَوْلُهُ فِي الدِّينِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النُّصْرَةَ لَا تَجِبُ فِي غَيْرِهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعَلَيْهِ فَنُصْرَةُ هَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ نُصْرَةُ الدِّينِ وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الْوَاجِبَاتِ.

ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيْ إِسْتَنْصَرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَعَهْدٌ فَلَا تَنْصَرُوهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُوجِبُ نَقْضَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَهُوَ لَا يَجُوزُ قَطْعًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ^(٣).

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا تَخْفُونَ أَوْ تُعْلِنُونَ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكافرين. وقال: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَي لَمْ** يؤمنوا بالله ورسوله بعضهم أولياء بعض والولاية بمعنى النصرة أي ينصر بعضهم بعضاً كما كان كذلك في المؤمنين، قل كل يعمل على شاكلته فأن الجنس الى الجنس يميل وقانون السنخية لا يقبل التخصيص في العقليات ثم حذرهم الله عن المخالفة وقال: **إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ**.

قل ضمير الهاء في، تفعلوه، عائدة الى معنى ما أمروا به في الآية الأولى والثانية ومخرجه مخرج الخبر والمراد به الأمر وتقديره، **إِلَّا تَفْعَلُوا** ما أمرتم به من التناصر والتعاون في قوله: **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** والبراءة من الكفار في قوله: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** تكن فتنة في الأرض وفساد كبير على المؤمنين الذين لم يهاجروا فالفتنة هاهنا المحنة بالميل الى الضلال.

وقال بعض المفسرين ظاهره إثبات المولاة بينهم كقوله في المسلمين ومعناه نهى المسلمين عن المولاة الذين كفروا وموارثهم وإيجاب مساعدتهم ومصادقتهم وأن كانوا أقارب وأن يتركوا، يتوارثون بعضهم بعضاً.

وقال الآخر لما ذكر أقسام المؤمنين الثلاثة وأنهم أولياء ينصر بعضهم بعضاً ويرث بعضهم بعضاً بيّن أن فريق الكفار كذلك اذ كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ ينادي أهل الكتاب قريشاً ويتربصون بهم الدوائر فصاروا بعد بعثته يوالي بعضهم انتهى.

وقال بعضهم أن الضمير المنسوب في تفعلوه عائد على الميثاق أي على حفظه أو على النصر أو على الإرث أو على مجموع ما تقدم أقوال أربعة.

وقال الزمخشري أي أن لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلاق بينكم وبين الكفار ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً.

و قيل المراد بالفتنة في الأرض قوّة الكفر و بالفساد الكبير ضعف الإسلام و هذه الأقوال كما ترى ترجع الى أصل واحد و أن كانت ألفاظ و التّعابير مختلفة و الجامع بينها هو أنّ المؤمنين لو لم تكن الولاية فيهم ثابتة بأن لا يكون بعضهم أولياء بعض يكون الاختلاف حاكماً عليهم لا محالة و اذا كان كذلك فلا قدرة لهم لدفع الشرور و الآفات الواصلة اليهم من ناحية الكفار فيصير الكفر قوياً و الإسلام ضعيفاً و من المعلوم أنّ الفتنة و الفساد و الظلم و أمثال ذلك من شئون الكفر و الباطل.

و أما الإسلام فقد جاء لرفع الفتنة و دفعها لا إيقاعها و إظهارها فقوله: تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ من شئون الكفر و قوته و قوّة الكفر من ضعف الإسلام و أهله و هو ظاهر.

و الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

لما أثبت في الآية السابقة الولاية للمؤمنين المهاجرين، و الذين آووا و نصروا و هم الأنصار فقال: أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ على ما مرّ بيانه أثبت في المقام لهؤلاء المؤمنين حقيقة الإيمان و المغفرة و رزق كريم، فليس في الآية تكرار لاختلاف الغاية فيهما و في قوله حقاً، إشارة الى أنّ الإيمان له مراتب في الشدة و الضعف فهو كلّياً مشكك يصدق على مصاديقه شدة و ضعفاً و لكل مرتبة منه آثار و علائم يعرف بها فقوله تعالى حقاً، أي أنّهم أدركوا حقيقة الإيمان و وصلوا الى كنهه و باطنه بخلاف غيرهم من المؤمنين الذين لم يصلوا الى هذا المقام.

و قد أشار الله تعالى الى هذا في كثير من الآيات.

منها قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ

الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ،^(١) والآيات في الباب كثيرة جداً.

و في قوله: مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ إخبار منه تعالى أَنَّ لهؤلاء المغفرة لذنوبهم في الآخرة و الرزق الكريم الواسع في الدنيا فهم في الحقيقة جمعوا بين الدنيا و الآخرة ببركة إيمانهم و من فاز بسعادة الدارين فقد فاز فوزاً عظيماً و لنعم ما قيل:
وَأخْرُ فَازَ بِكِلْتُمَا
قَد جَمَعَ الدُّنْيَا مَعَ الْآخِرَةِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

في هذه الآية إخبارٌ منه تعالى بأنَّ المؤمنين الذين هاجروا بعد هجرتهم قبل الفتح أو بعده ثُمَّ لحقوا بهم في دار الهجرة و جاهدوا معهم في سبيل الله حكمهم حكمهم في وجوب الموالاة و الموارث و النُّصرة و الى هذا المعنى أشار بقوله: فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ و ذلك لأنَّ الملاك فيهم موجود الإيمان و الهجرة و الجهاد و وجود السَّبب يلزم المسبب و التَّقَدُّم و التَّأخُّر من حيث الزَّمان لا يغيِّر المِلاك فاذا كان الملاك في ثبوت الولاية بعضهم لبعض هو الإيمان و الهجرة و الجهاد كما هو كذلك فهو قد حصل في حقِّ المؤمن المهاجر المتأخِّر أيضاً.
وَأَمَّا قوله: وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أي في حكم الله و قيل في اللُّوح المحفوظ فمعناه أَنَّ الأقرب الى الميِّت أولى من غير الأقرب في الإرث و ذلك لأنَّ الأقرب يمنع الأبعد سواء كان عصبية أم لم يكن و سواء كان له تسمية أم لا و ذلك لأنَّ الأقربية تبطل التَّسمية ثُمَّ أَنَّ هذه الآية نسخت حكم التَّوارث بالنُّصرة و الهجرة على ما مرَّ هذا على قول من ذهب أنَّ الولاية في الآية الأولى في قوله أولياء بعض ولاية الميراث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَمَّا عَلَىٰ قَوْلٍ مِّن ذَهَبٍ إِلَىٰ أَنَّهَا وَلَايَةُ النَّصْرَةِ فَلَا نَسْخَ أَصْلًا بَلْ هُمَا مُحْكَمَتَانِ وَقَوْلُهُ: **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا وَالْعِلَّةُ فِيهِ هِيَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِذَاتِهِ بَلِ الْعِلْمُ عَيْنُ ذَاتِهِ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ ذَاتَهُ عِلَّةُ لَوْجُودِ الْأَشْيَاءِ فَلِأَشْيَاءٍ مَعْلُولٍ لَهُ وَالْعِلْمُ بِالْعِلَّةِ مُسْتَلْزَمٌ لِلْعِلْمِ بِالْمَعْلُولِ تَفْصِيلاً وَلَا عَكْسَ فَهُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا سِوَاهُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

* * *

سُورَةُ التَّوْبَةِ

سورة براءة، قد تسمى بالتوبة

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
 وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ
 مُحْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ
 إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ
 بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ
 عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَ
 لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ
 إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا
 أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا
 لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ
 آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغُهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

◀ اللغة

بَرَاءَةٌ يُقال بِرِيٌّ بَرَاءَةُ الْبَرَاءَةِ معناها إنقطاع العصمة و قال الرَّاغب في المفردات التَّبري التَّقْصِي مِمَّا يكره مجاورته و لذلك قيل برأت من فلان أو برأت من المَرَضِ.

فَسَيِّحُوا أَمْرٌ مِنْ سَاحِ يَسِيحُ سَيِّحاً وَ سَيَاحَةٌ وَ السَّيْحُ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ عَلَى مَهَلٍ.

أَذَانٌ، الْأَذَانُ الْإِعْلَامُ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ النَّدَاءُ الَّذِي يَسْمَعُ بِالْأُذُنِ.
وَ لَمْ يُظَاهَرْوْا: الْمَظَاهِرَةُ الْمَعَاوَنَةُ عَلَى الْعَدُوِّ لِلظُّهْرِ عَلَيْهِ.
أَنْسَلَخَ، الْإِنْسِلَاحُ إِخْرَاجُ الشَّيْءِ مِمَّا لَا بَسَّهُ وَ مِنْهُ سَلَخَ الشَّاةُ إِذَا نَزَعَ الْجِلْدَ عَنْهَا.

أَسْتَجَارَكَ أَي طَلَبَ مِنْكَ الْجَارَ وَ قِيلَ الْمَعْنَى إِسْتَأْمَنَكَ

◀ الإعراب

بَرَاءَةٌ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: هُوَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَي هَذَا أَوْ هَذِهِ بَرَاءَةٌ وَ مِنْ اللَّهِ نَعْتُ لَهُ وَ
إِلَى الَّذِينَ مُتَعَلِّقَةٌ بِبَرَاءَةٍ.

الثَّانِي: أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ وَ مِنْ اللَّهِ نَعْتُ لَهُ وَ إِلَى الَّذِينَ الْخَبَرُ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرُ ظَرْفٍ
لِنَفْسِيحُوا أَذَانٌ مِثْلُ بَرَاءَةٍ وَ إِلَى النَّاسِ مُتَعَلِّقٌ بِأَذَانٍ أَوْ خَبَرٍ لَهُ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ هُوَ
خَبَرٌ لِأَذَانٍ، أَوْ صِفَةٌ لَهُ وَ رِسُولُهُ بِالرَّفْعِ مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ فِي بَرِيٍّ، أَوْ هُوَ
خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَوْ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ الْإِبْتِدَاءِ وَ قَدْ يَقْرَأُ رَسُولُهُ بِالنَّصْبِ

عظفاً على إسم، أن، و يقرأ بالجرّ شاذاً و هو القسم و لا يكون عطفاً على المشركين لأنه يؤدّي الى الكفر إلاّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ فِي مَوْضِعٍ نَّصَبَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ مِنَ الْمَشْرِكِينَ أَوْ أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ وَ الْخَبَرُ، فَأَتَمُّوا شَيْئاً فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ وَ إِنِ أَحَدٌ هُوَ فَاعِلٌ لِفِعْلِ مَحذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ مَا مَأْمَنَهُ مَفْعَلٌ مِنَ الْأَمْنِ مَكَانَ.

التفسير

قال صاحب الكشاف لها عدّة أسماء براءة، التوبة، المقشقة، المبصرة، المشردة، المخزية، الفاضحة المثيرة، الحافرة، المنكّلة، المدممة. و قال قد اختلف أصحاب رسول الله فقال بعضهم، الأنفال و براءة سورة واحدة.

و قال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان، و تركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة انتهى. ثم أن هذه السورة مدنية على ما قيل و قال بعضهم الأيتين من آخرها فأنهما نزلتا بمكة و هذا قول الجمهور.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

البراءة إنقطاع العصمة و منه برأت من الدين أو من فلان و هي مرفوعة على الإبتداء و قوله: إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ خبره و، من الله، صفة مسوغة لجواز الإبتداء بالتكرة و قيل براءة، مرفوعة على الخبر و المبتدأ محذوف أي هذه براءة.

و قرأ بعضهم، براءة بالنصب أي ألزموا و فيه معنى الإغرار. و قال الزمخشري أي إسمعوا براءة.

إِعلم أنَّ المفسِّرين اختلفوا في سبب سقوط البسملة من أوَّل هذه السُّورة على أقوالٍ:

الأوَّل: قيل كان من شأن العرب في زمان الجاهليَّة إذا كان بينهم وبين قوم عهد و أرادوا نقضه كتبوا اليهم كتاباً و لم يكتبوا فيه بسملة فلمَّا نزلت سورة براءة بنقض العهد الَّذي كان بين النَّبيِّ و المشركين بعث بها النَّبيُّ عليّاً عليه السلام فقرأها عليهم في الموسم و لم يسمل في ذلك على ما جرت عادتهم في نقض العهد من تركها.

الثَّاني: ما عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم الى أن عمدتم الى الأنفال، و هى من المثاني و الى، براءة و هى من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و وضعتوها في السَّبع الطَّوال فما حملكم على ذلك.

قال عثمان أنَّ رسول الله كان إذا أنزل عليه الشَّيْ يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذا في السُّورة الَّتِي فيها كذا و كذا و تنزل عليه الآيات فيقول ضعوا الآيات في السُّورة الَّتِي يذكر فيها كذا و كذا و كانت الأنفال من أوائل ما أنزل و براءة من آخر القرآن و كانت قصَّتها شبيهة بقصَّتها و قبض رسول الله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم و لم يُبين لنا أنَّها منها فظنَّنت أنَّها منها و من ثمَّ قرنت بينهما و لم أكتب بينهما سطر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

الثَّالث: روي عن عثمان أيضاً أنَّه لما سَقَط بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَعَهُ روي عن ابن عجلان أنَّه بلغه أنَّ سورة براءة كانت تُعدَّل البقرة أو قربها فذهب منها فلذلك لم يكتب بينهما البسملة و نقل ذلك عن سعيد بن جبير أيضاً.

الرَّابع: قالوا لمَّا كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه و آله و سلَّم فقال بعضهم براءة و الأنفال سورة واحدة و قال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال أنَّهما سورتان و تركت بسم الله

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معاً وثبتت حجتاهما في المصحف.

الخامس: عن ابن عباس أنه قال قلت لعليّ ابن أبي طالب لم لم يكتب في براءة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال لأنّ بِسْمِ اللَّهِ أمان و براءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان و لذلك لم يجمع بينهما فَأَنْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رحمة و براءة نزلت سخطة و مثله عن سفيان بن عيينة فأثّه قال أنما لم تكتب في صدر هذه السّورة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لأنّ التسمية رحمة و الرّحمة أمان و هذه السّورة نزلت في المنافقين و بالسيف و لا أمان للمنافقين.

و قول سادس: و هو أنّ التسمية لم تكتب لأنّ جبرئيل عليه السلام ما نزل بها في هذه السّورة قاله القيشري نقل هذه الأقوال القرطبي في تفسيره.

ثمّ قال و في قول عثمان قبض رسول الله ﷺ و لم يبين لنا أنّها منها دليل على أنّ السّور كلّها إنتظمت بقوله و تبينه و أنّ براءة وحدها ضمّت الى الأنفال من غير عهدٍ من النبي ﷺ لما عاجله من الحمام قبل تبينه لذلك و كانتا تدعيان القريبتين فوجب أن تجمعما و تضمّ إحدايهما الى الأخرى للوصف الذي لزمهما من الإقتران و رسول الله ﷺ حيّ.

قال ابن العربي هذا دليل على أنّ القياس أصل في الدّين ألا ترى الى عثمان و أعيان الصّحابة كيف لجأوا الى قياس الشّبه عند عدم النص و رأوا أنّ قصّة براءة شبيهة بقصّة الأنفال فألحقوها بها فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام انتهى كلامه.

أقول ما نقله القرطبي في المقام من الأقوال لا بأس به لأنّ نقل الأقوال صحيحاً كان أو باطلاً لا إشكال فيه و لا حرج فيه على الناقل.

و أمّا قوله في عثمان و أنّه قال أنّ رسول الله لم يبين لنا أنّها منها فهو دليل على أنّ السّور كلّها إنتظمت بقوله أي بقول عثمان و تبينه و أنّ براءة وحدها ضمّت الى الأنفال من غير عهدٍ من النبي الى قوله فوجب أن تجمعما و تضمّ

أحدايهما إلى الأخرى و رسول الله حيٌّ، فهو كلام لا يصح ولا ينبغي الإعتماد عليه إلا على قول من يقول بالقياس مع أنه أيضاً غلط لكونه مع الفارق و ذلك لأن ما فعله عثمان من ضم إحدى السورتين إلى الأخرى كما إعتترف به المستدل لا يدل على أن الرسول لو كان حياً كان كذلك و من أين ثبت للقرطبي أنه لو كان الرسول حياً رضى بذلك و مجرد عدم تبين الرسول في حياته لو ثبت لا يدل على ما إدعاه المستدل بل يدل على سكوت من بعده لقوله ﷺ **أُسْكُتُوا عَمَّا سَكَتَ اللَّهُ عَنْهُ** و من المحتمل أن يكون في عدم تبينه وجه من المصالح الخفية فإذا فرضنا أن النبي لم يضم إحدى السورتين إلى الأخرى في حياته لمصلحة خفية لا يجوز لأحد بعده ضم إحدايهما إلى الأخرى و هذا هو مقتضى الإيمان.

و أما مانقله عن ابن العربي من أن هذا دليل على أن القياس أصل في الدين و إستدلاله بأن عثمان و أعيان الصحابة لجأوا إلى قياس الشبه عند عدم النص فهو طريف جداً فكأن ابن العربي لم يعلم أن عمل عثمان و غيره من الصحابة ليس بحجة في الدين و إلا يلزم الحكم بصحة جميع ما أبدعوه في صدر الإسلام من البدع المنكرة التي لا شك في خروجها من الإسلام كتحریم عُمر المتعتين و إدخاله، الصلاة خير من النوم، و في الأذان و الإتيان بالصلاة المندوبة جماعةً.

و منع أبي بكر فاطمة الزهراء عليها السلام عن ميراثها و هكذا ما فعله عثمان و معاوية لأن الصحابة لم ينكروا عليهم على قول ابن العربي و العجب منهم أنهم يستدلون على إثبات مدعاهم بعمل عثمان و أمثاله و لا يستدلون بعمل رسول الله ﷺ في المقام و غيره أليس يقولون أن رسول الله لم يبين هذا في حياته فلو كان ما ذكروه حقاً فلم لا يتأسون به أليس السكوت منه ﷺ حجة عليهم فالقول بأن ما فعله الرسول ليس من الحجة على إثبات المدعى و أما ما فعله عثمان فهو حجة و عليه تبني صحة القياس مما لا يقول به عاقل فضلاً عن

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

فاضلٍ و أعجب منه ما فرّعه على كلامه بقوله فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام.

و لم يعلم أن الله لم يبيّن دخول القياس في تأليف القرآن أصلاً فأن بيّن ذلك أين موضعه، بل الذي أدخل دخول القياس فيه هو عثمان لو كان على ما إعترفوا به و لم يثبت أن عثمان هو الله بل هو عبد من عباد و عمل العبد لا ينسب الى الله إلا على مذهب من لا دين له هذا أولاً.

و ثانياً قياس تأليف القرآن و ترتيب السور و الآيات فيه على الأحكام قياس مع الفارق لأن تأليف القرآن و ترتيب سورة و آياته لا يحلّ حراماً و لا يحرم حلالاً و هذا بخلاف الأحكام الشرعية و عليه فلو قال قائل بصحة القياس في تأليف القرآن لا يمكنه القول بصحة القياس في الأحكام لما ذكرناه هذا كله على مسلك الخصم الذي يقول بالقياس و أما نحن فلا نقول به مطلقاً تبعاً لأهل بيت العصمة و الحمد لله رب العالمين.

و لنرجع الى تفسير الكلام فنقول.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

قالوا قد أذن الله تعالى في معاهدة المشركين أولاً فأتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ و عاهدوهم فلمّا نقضوا العهد أوجب الله تعالى النّبذ اليهم فخطوب المسلمون بما تجدد من ذلك فقبل لهم أعلموا أيها المسلمون أن الله و رسوله قد برئا عمّا عاهدتم به المشركين و لمّا كان عهد الرسول لازماً لجميع أمته حسن أن يقول عاهدتم قال مقاتل المراد بالمشركين هنا ثلاث قبائل من العرب.

خزاعة وبنو مدلج، وبنو خزيمة.

و قيل هذه الآية في أهل مكة و كان الرسول صالح قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس فدخلت خزاعة في عهد

الرَّسُولَ وَبَنُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَكَانَ لِبَنِي الدَّيْلِ مِنْ بَنِي بَكْرِ دُونَ خِزَاعَةَ فَأَغْتَنَمُوا الْفُرْصَةَ وَغَفَلَةَ خِزَاعَةَ فَخَرَجَ نَوْفَلُ بْنُ مَعَاوِيَةَ الدَّيْلِيُّ فِيمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ بَنِي بَكْرِ وَبَيْنُوا خِزَاعَةَ فَأَقْتَتَلُوا وَأَعَانَتْ قُرَيْشُ بَنِي بَكْرِ بِالسَّلَاحِ وَقَوْمٌ أَعَانُوهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَهَزَمَتْ خِزَاعَةُ إِلَى الْحَرَمِ فَكَانَ ذَلِكَ نَقْضًا لَصَلْحِ حُدَيْبِيَّةٍ فَخَرَجَ مِنْ خِزَاعَةَ بِدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَعُمَرُ بْنُ سَالِمٍ فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِمْ فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْتَغِيثِينَ وَأَنْشَدَهُ عُمَرُو فَقَالَ:

يَا رَبِّ أَنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ أَلَا تَلِدَا
كَنتَ لَنَا أَبًا وَكُنَّا وَلَدًا	ثَمَّةَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَأَنْصُرْ هَذَاكَ اللَّهَ نَصْرًا عَبْدًا	وَأَدْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّئَا	أَبْيَضَ مِثْلَ الشَّمْسِ يَنْمُو صَعْدَا
أَنْ يَسْمَ خُسْفًا وَجَهْدَ تَرِيدَا	فِي فَيْلَقِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا
أَنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدًا	وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلَّ عِدَدَا
هُمْ بَيِّتُونَا بِالْحَظِيمِ هَجْدًا	وَقَتَلُونَا رَكْعًا وَسَجْدًا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَأَنْصُرْتَ أَنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ فَتَجَهَّزْ إِلَى مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ وَتَخَلَّفَ مِنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَارْجَفُوا الْأَرَاخِيفَ فَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَاءِ عَهْدَهُمَ إِلَيْهِمْ وَأَذْنَ فِي الْحَرْبِ وَإِلَى هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ:

فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ

فَقَوْلُهُ: فَسَبِّحُوا أَمْرٌ بِإِبَاحَةٍ وَفِي ضَمْنِهِ تَهْدِيدٌ وَهُوَ الْتِفَاتٌ مِنْ غِيْبَةٍ إِلَى خُطَابِ أَيِّ قَلٍّ لَهُمْ سَيِّمُوا، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ أَنْ يَقُولَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَسَيِّمُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ آمَنِينَ وَأَنَّمَا أَحْلَهُمْ هَذِهِ الْأَشْهُرَ لِأَنَّهَا الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ مِنْ أَوَّلِ شَوَّالٍ إِلَى آخِرِ الْمُحَرَّمِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالزُّهْرِيُّ.

و نقل عن القراء أنه قال كانت المدة الى آخر المحرم لأنه كان فيهم من كان مدته خمسين ليلة و هو من لم يكن له عهداً من النبي فجعل الله ذلك له قال و معنى الأشهر الحرم المحرم وحده و أما جمعه لأنه متصل بذى الحجة و ذي القعدة فكأنه قال فاذا انقضت الثلاثة أشهر.

و قال أبو عبد الله عليه السلام الأربعة الاشهر يوم النحر و آخرها العاشر من شهر ربيع الآخر و هو قول محمد بن كعب القرطبي و مجاهد.

و قال أبو الحسن أنما جعل لهم هذه المدة لأن منهم من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فحطّ إليها و منهم من كان أقل فرفع إليها.

و قال أبو علي الجبائي كان يوم النحر لعشرين من ذي القعدة الى عشرين من ربيع الأول لأن الحج كان تلك السنة في ذلك الوقت ثم صارت في السنة الثانية في ذي الحجة و فيها حجة الوداع و كان سبب ذلك النسي الذي كان في الجاهلية انتهى ما ذكره الشيخ في التبيان.

و الأقوال فيه كثيرة مختلفة و لكن في أصل المهلة لم يختلفوا فإن جميع المفسرين ذهبوا الى أنها كانت أربعة أشهر و أما الاختلاف في تعيين الشهور و هو لا يهمنّا و لا يخلّ بالمقصود.

ثم أن قراءة البراءة كانت يوم النحر بمكة و قد قرأها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر من الله و رسوله هذا هو المشهور المسطور في التواريخ و السير أما عندنا فلا خلاف فيه لأن الأخبار الواردة فيه من أهل البيت و عند أكثر أهل السنة متظافرة لو لم تكن متواترة.

و أما عند شردمة من المعاندين المنكرين لفضائله فلا و نحن نذكر القصة.

قال ابن هشام في السيرة و هو من أعظم هل السنة لما نزلت براءة علي رسول الله ﷺ و قد كان بعث أبا بكر ليقم للناس الحج قيل يا رسول الله لو يعث بها الى أبي بكر فقال ﷺ لا يؤذي عني إلا رجل من أهل بيتي ثم دعا علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له أخرج بهذه القصة من صدر براءة و أذن في

النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا جِئْتُمْ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٍ وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَى مَدَّتِهِ فَخَرَجَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَاقَةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَضْبَاءُ حَتَّى أَدْرَكَ أَبَابَكَرَ بِالطَّرِيقِ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمِيرُ أُمِّ مَأْمُورٍ فَقَالَ بَلْ مَأْمُورٌ ثُمَّ مَضِيَ فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَالْعَرَبُ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ قَامَ بَنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَذَّنَ بِالنَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَّةِ مِنْهُ.

وَقَالَ إِبْنُ الْأَثِيرِ فِي الْكَامِلِ وَفِيهَا حَجَّ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ وَمَعَهُ عَشْرُونَ بَدَنَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِنَفْسِهِ خَمْسَ بَدَنَاتٍ وَكَانَ فِي ثَلَاثِ مِائَةِ رَجُلٍ فَلَمَّا كَانَ بِذِي الْحِلْفَةِ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَثَرِهِ عَلِيًّا وَأَمَرَهُ بِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَعَادَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزِلْ فِيَّ شَيْئًا قَالَ ﷺ لَا وَلَكِنْ لَا يَبْلُغُ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِّنِّي الْخ.

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي مَرْوَجِ الذَّهَبِ وَهُوَ مِنْ أَقْدَمِ التَّوَارِيخِ وَأَشْهَرِهَا سَنَةَ تِسْعِ حِجَّ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ وَقَرَأَ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمُ سُورَةَ بَرَاءَةٍ وَأَمَرَ أَنْ لَا يَحْجَّ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ الْخ.

وَبِهِ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ وَالْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَأَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ الْمُسَمَّى بِبَحْرِ الْمَحِيطِ.

وَالْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَالطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ جَامِعَ الْبَيَانِ، وَالسَّيْوِيُّ فِي الدُّرِّ الْمُنْتَوَرِ وَالْأَلُوسِيُّ فِي رُوحِ الْمَعَانِي وَالْحَقْفِيُّ فِي رُوحِ الْبَيَانِ وَهَكَذَا سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْهُمْ فَإِنَّ هَذَا أَيْ قِرَاءَةَ عَلِيٍّ آيَاتِ سُورَةِ بَرَاءَةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ لِأَحَدٍ وَلَمْ تَرَ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَرِيَابَ السَّيْرِ وَالتَّوَارِيخِ أَنْكَرَ قِرَاءَةَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا وَأَتَمَّ الْخِلَافَ فِي أَنَّ أَبَابَكَرَ لَمَّا رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ أَنْزِلْ فِيَّ شَيْئًا فَقَالَ ﷺ لَا وَلَكِنْ لَا يَبْلُغُ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِّنِّي.

هل رجع الى مكة أميراً على الموسم أم لم يرجع فهم يقولون بأنه رجع اليها أميراً على الموسم ونحن نقول لم يرجع وهذا ممّا لا بحث لنا فيه لأنّ الإمارة على الموسم ليس فيها كثير فضيلة حتّى يبحث عنها وأنما الفضيلة تثبت بقوله ﷺ لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني بوحى من الله تعالى كما اعترف به أكثر المفسرين وذلك لأنّه يدلّ على عدم صلاحية أبى بكر لذلك التبليغ ومن لم يكن صالحاً لقراءة بعض الآيات على الكفار فكيف يصلح للخلافة عنه ﷺ في الدين والدنيا على المؤمنين وحيث إنجر الكلام الى هنا فلا بأس بذكر ما أورده الرازي في المقام والجواب عنه.

قال الرازي واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر علياً بقراءة هذه السورة عليهم وتبليغ هذه الرسالة اليهم فقالوا السبب فيه أنّ عادة العرب أن يتولى تقرير العهد ونقضه إلا رجل من الأقارب فلو تولاّه أبوبكر لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهود فربّما لم يقبلوا فأزاحت علّتهم بتولية ذلك علياً.

وقيل لما خصّ أبابكر بتولية أمير الموسم خصّ علياً بهذا التبليغ تطبيهاً للقلوب ورعايةً للجوانب وقيل قرّر أبابكر على الموسم وبعث علياً خلفه لتبليغ هذه الرسالة حتّى يصلّي خلف أبى بكر ويكون ذلك مجرى التنبيه على إمامة أبى بكر.

و قرّر الجاحظ هذا المعنى فقال أنّ النبي ﷺ بعث أبابكر أميراً على الحاجّ وولاّه الموسم وبعث علياً يقرأ على الناس آيات من سورة براءة فكان أبوبكر الإمام وعليّ المؤتم و كان أبوبكر الخطيب وعليّ المستمع وكان أبوبكر الرافع بالموسم والسابق لهم والأمر لهم ولم يكن ذلك لعلّي.

وأما قوله ﷺ لا يبلغ عني إلا رجل مني فهذا لا يدلّ على تفضيل عليّ على أبى بكر ولكنه ﷺ عامل العرب بما يتعارفونه فيما بينهم وكان السيّد الكبير منهم اذا عقد لقوم حلفاً أو عاهد عهداً لم يحلّ ذلك العهد والعقد إلا

هو أو رجل من أقرابه القرييين منه كأخ أو عمٌ فلهذا المعنى قال النبي ﷺ ذلك القول انتهى كلام الرّازي و ما نقله عن الجاحظ بألفاظه و عباراته.

و أنا أقول أنظروا يا أهل الإنصاف الى هذه الكلمات السّخيفة الخالية عن المعنى من هذين الفحلين من علماء العامّة على إثبات فضيلة أبي بكر و ردعها عن أمير المؤمنين و اذا كان الرّازي تمسك في إثبات فضيلة لأبي بكر بهذه الكلمات التي هي أوهن من بيت العنكبوت بل هي بالافتراء على العرب في عهد الجاهليّة أشبه بالدليل على المدعى فما ظنك بأتباعه و أذنايه أمثال أبي حيان في بحر المحيط و الألويسي في روح المعاني و غيرهما من مقلّديه الذين ليست لهم قوّة التّشخيص بين الغثّ و السّمين.

فقول الرّازي أنّ عادة العرب كان كذا وكذا لا يدلّ النّقل منه على صحته ما لم يعضد بالقرائن و الإشارات المثبتة و مجرد النّقل بأنّ العرب كان كذا لا يكفي، و على فرض صحّة النّقل و أنّ العرب كان المتعارف بينهم أن ينقض العهد رجل من الأقارب فالعبّاس بن عبد المطلب كان عمّ الرّسول و هو أيضاً من أقرابه بل هو أقرب لأنّ العمّ أقرب من ابن العمّ فلم لم يأمره الرّسول بقراءة هذه السّورة على المشركين و أمر عليّاً بذلك فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ الوجه في ذلك هو كون عليّ نفس الرّسول بدليل أية المباهلة و الأخبار الواردة في الباب عنه ﷺ.

مثل قوله ﷺ: أنا وعليّ من نور واحدٍ.

وقوله ﷺ: أنا وعليّ من شجرة واحدة و سائر النّاس من شجرٍ شتّى.

و قوله ﷺ: يا عليّ حرك حربي و سلمك سلمي.

و قوله ﷺ: عليّ منّي كنفسٍ و أمثال ذلك من الأخبار.

و أمّا قوله أنّ الرّسول فعل ذلك تطبيقاً للقلوب، فهو أيضاً لا معنى له لأنّ المراد بالقلوب أن كان قلوب المسلمين فمن المعلوم أنّهم كانوا تابعين للرّسول

في قوله وفعله و لم يكن لأحدٍ منهم إعتراض على الرسول في نصبه أبى بكر على الموسم أو أي شخص شاء وأن كان المراد بالقلوب قلب علي فهو أيضاً كذلك بل هو أحق وأليق بعدم الإعتراض على الرسول.

و أما ما نقله عن الجاحظ، تأييداً لما ذكره وإدعاه فالجواب الجواب.

و أما ما نقله عن غيره وهو أنه صلى الله عليه وسلم بعث علياً خلف أبى بكر حتى يصلّي خلفه و يكون ذلك مجرى التنبيه على إمامة أبى بكر.

فالجواب أما أولاً: فبأن المستدلّ من أين علم أن علياً صلى خلف أبى بكر

في الموسم.

ثانياً: على فرض ثبوته و أنه صلى خلفه لا يثبت مدعاه لأن مجرد الصلاة خلف أبى بكر أو غيره لا يغني شيئاً و لا يدل على إمامته بعد الرسول اذ لو كان كذلك فالخليفة بعد الرسول كان ابن أم مكتوم لأن المسلمين في غيبة الرسول كانوا يصلّون خلفه بأمرٍ من رسول الله في تعيينه للإمامة هذا كله.

مضافاً الى أن العامة و منهم المستدلّ لا يشترطون العدالة في الإمامة للصلاة بل يصلّون خلف كل فاسق و فاجر فكيف تكون الإمامة في الصلاة دليلاً على صحّة الخلافة و للبحث في هذا الموضوع محلّ آخر و نكتفي بهذا القدر في المقام و لنشر الى بعض ما ورد من الأخبار في إثبات تلك الفضيلة لعليّ عليه السلام أمير المؤمنين فنقول:

في كتاب الخصال عن الحارث بن ثعلبة قال قلت لسعد، أشهدت شيئاً من مناقب عليّ عليه السلام قال: نعم شهدت له أربع مناقب و الخامسة شهدتها لئن يكون لي منهّن واحد أحبّ إليّ من حمر النعم، بعث رسول الله أبابكر ببراءة ثم أرسل علياً فأخذها منه فرجع أبوبكر فقال يا رسول الله أنزل فيّ شيء قال صلى الله عليه وسلم: لا إلا أنه لا يبلغ عني إلا رجل مني انتهى.

مخزي الكافرين، والإخزاء الإذلال بما فيه الفضيحة والخزي النكال الفاضح، فأهل الله الكفار في هذه الآية أربعة أشهر وهى أشهر الحرم على ما مرّ الكلام فيها ثم أهلكهم الله و ذلك جزاء الكافرين.

وَأَذَانُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

الأذان، الإعلام و قال بعضهم معناه النداء الذي يسمع بالإذن، والواو للعطف و أنما إرتفع، أذان، لأنه عطف على قوله، براءة و أذان من الله و رسوله يوم الحج الأكبر.

و اختلف في معنى الأكبر فقليل هو ما فيه الوقوف بعرفة و الحج الأصغر، العمرة و قيل الأكبر القرآن و الأصغر الأفراد.

و قيل في معنى يوم الحج الأكبر، ثلاثة أقوال:

أحدها: ما روي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَرَفَةٌ.

الثاني: و في رواية أخرى عن النبي ﷺ و هو المروية عن أبي عبد الله هو الحج الذي حجّ فيه المشركون و المسلمون و لم يحجّ بعدها مشرك.

الثالث: هو جميع أيام الحجّ.

و قال القرطبي نقلاً عن ابن سيرين أن الحجّ الأكبر العام الذي حجّ فيه النبي ﷺ حجة الوداع و حجّت فيه معه الأمم و قد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة و كيف كان فمعنى الآية هو أن الله تعالى أعلمهم أن الله و رسوله بريء من المشركين و أنهم أن تابوا عن الكفر و رجعوا إلى الإسلام و إتبعوا الحقّ فهو خير لهم في الدنيا و الآخرة و أن تولّوا و أعرضوا عن الحقّ و بقوا على كفرهم فأنهم غير معجزى الله أي لا يفوتون الله اذ لا يمكن الفرار من حكمته.

ثُمَّ قَالَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَي شديداً مؤلماً، جعل الإنذار
بشارة على سبيل الإستهزاء بهم، والذين كفروا، عامٌ يشمل جميع أصناف
الكفار من المشركين و عبدة الأوثان وغيرهم وفي هذا وعيدٌ عظيمٌ بهم من
حلول العقاب عليهم في صورة التوليى و عدم قبولهم الحق ثم إستثنى من
هؤلاء المشركين طائفة.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا
عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
إستثنى الله تعالى من براءته و براءة رسوله من المشركين من كان لهم العهد.
و قال القراء هذا إستثناء في موضع نصب و هو قوم من بني كنانة كان قد
بقي من أجلهم تسعة أشهر فقال الله فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم لا
تحطوهم الى الإربعة أشهر.

و قال مجاهد عني بذلك جماعة من خزاعة و مدلج.
و قال ابن عباس توجه ذلك الى كل من كان بينه و بين رسول الله عهد قبل
براءة.

أَقُولُ قال بعض المفسرين، قال قوم هذا إستثناء منقطع و التقدير، لكن
الذين عاهدتم فثبتوا على العهد و أتموا إليهم عهدهم.
و قال قوم منهم الزجاج هو إستثناء متصل من قوله: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

و عن صاحب الكشاف أنَّ المستثنى من قوله: فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ لِأَنَّ
الكلام خطاب للمسلمين و معناه براءة من الله و رسوله الى الذين عاهدتم من
المشركين فقولوا لهم سيحوا إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ
عَهْدُهُمْ و الإستثناء بمعنى الإستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين و لكن
الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم و لا تجروهم مجراهم و لا تجعلوا الوُفَى
كالغادر انتهى.

وفي قوله: ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا إشارة الى أن المستثنى ليس جميع المشركين المعاهدين بل المراد المعاهدين الذين بقوا على عهدهم و لم ينقصوكم شيئاً من العهد و لم يظاهروا أي لم يعاونوا عليكم أحداً فأن المظاهرة المعاونة على العدو للظهور عليه فهؤلاء أتموا اليهم عهدهم أن الله يحب المتقين، أي أن مراعاة العهد من علائم التقوى فمن نقض العهد ليس من المتقين الذين يحبهم الله و يحبونه.

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خَذُواهُمْ وَ أَخْضَرُوهُمْ وَ أَقْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الإنسلاخ إخراج الشيء مما لابسـه و كذلك سلخ الشاة اذا نزع الجلد عنها و المعنى اذا إنقضت الأشهر الحرم و فيها قولان:

أحدهما: أنها، رجب و ذو القعدة و ذو الحجة و محرّم ثلاثة سرد و واحد فرد.

الثانى: المراد بها الأشهر الأربعة التي جعل الله لهم أن يسيما فيها آمنين و هي عشرون من ذي الحجة، المحرم، صفر، ربيع الأول و عشر من ربيع الآخر.

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خَذُواهُمْ وَ أَخْضَرُوهُمْ وَ أَقْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ أي سواء كان في الأشهر الحرم أو غيرها و سواء في الحل أو في الحرم أمرهم الله تعالى أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم في أي مكان و زمان و أن يحضروهم أي يمنعوهم من الخروج و الفرار و أن يقعدوا لهم كل موضع يرقب فيه العدو و محصل الكلام أن الله تعالى أذن لهم أن أفئوا المشركين عن صفحة الوجود بكل طريق ممكن و ذلك لأن الحجة قد تمت عليهم و لا عذر لهم في بقائهم على كفرهم و عنادهم مضافاً الى كونهم صادين عن سبيل الله محاربين لله و رسوله و لأجل ذلك قال: فَإِنْ تَابُوا وَ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أَيُّ وَأَنْ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ، فِي تَخْصِصِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْأَحْكَامِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمَا أَكْثَرُ الشَّعَائِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَإِتْيَاءُ الزَّكَاةِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمَالِيَّةِ وَبِهِمَا تَظْهَرُ الْقُوَّةُ الْعَمَلِيَّةُ كَمَا بِالتَّوْبَةِ تَظْهَرُ الْقُوَّةُ الْعِلْمِيَّةُ عَنِ الْجَهْلِ هَكَذَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ كَذَلِكَ وَفِي قَوْلِهِ: فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ بَعْدَهُمَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عِلَامَةَ صِدْقِهِمْ فِي التَّوْبَةِ هِيَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءُ الزَّكَاةِ لَا مَبْجُودَ الْقَوْلِ وَمَعْنَى خَلُّوا سَبِيلَهُمْ، لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ وَأَقْبَلُوا قَوْلَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ لِأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ فَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

فِي هَذِهِ آيَةِ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَمْرَيْنِ خُطَاباً لِلنَّبِيِّ ﷺ:

أحدهما: أمره تعالى أَنَّهُ مَتَى اسْتَجَارَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَيَّ طَلَبَ مِنْهُ الْجَارُ فِي رَفْعِ الْأَذَى لِصَاحِبِهِ وَقِيلَ الْمَعْنَى اسْتَأْمَنَهُ أَحَدٌ، أَنْ يَقْبَلَ دَعْوَتَهُ فَأَجَارَهُ وَأَمَنَهُ حَتَّى يَسْمَعَ الْمُشْرِكَ الْمُشْتَجِرَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى.

الثاني: أَنَّهُ تَعَالَى أَمْرَ نَبِيِّهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ يَبْلُغَ الْمُشْرِكَ مَأْمَنَهُ وَهُوَ مَكَانُ الْأَمْنِ كَيْبَتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ وَالْمَقْصُودُ لَا تَوَذُّوهُ وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَبْدُونَ مِنَ الْمَدَارَةِ لِلْجَاهِلِ.

قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسَّيِّدِي هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْأَمْرِ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَقَالَ الْحَسَنُ وَمَجَاهِدٌ هِيَ مُحْكَمَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقِيلَ أَنَّ الْحُكْمَ فِيهَا ثَابِتَةٌ مَدَّةَ الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ الَّتِي ضَرَبَتْ لَهُمْ أَجْلاً، وَظَاهِرٌ أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدُوا وَأَخَذَهُمْ

حصرهم ذكر لهم حالة لا يقتلون فيها ولا يؤخذون ولا يؤسرون وتلك إذا جاء واحد منهم مسترشداً طالباً للحجة والدلالة على ما يدعوا اليه من الدين فالمعنى وأن أحد من المشركين إستجارك أي طلب منك أن تكون مجيراً له وذلك بعد إنسلاخ الأشهر لسمع كلام الله وما تضمنه من التوحيد ويقف على ما بعثت به فكن مجيراً له حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر فإنه بعد ذلك أي بعد التدبر والتأمل يجد أنه ليس من جنس كلام المخلوق فلا محالة يكون كلام الخالق وإذا ثبت له ذلك يعلم أنه أي، القرآن معجزة دالة على صدق النبي في إدعائه النبوة و لازم ذلك الإقرار بالنبوة بعد التوحيد وبعد الإقرار بهما يقربان ما جاء به النبي حق وأنه من عند الله فيجب عقلاً قبوله والعمل به ولا نعني بالدين والإيمان إلا ذلك وهذا من أتم الفوائد المترتبة على قبول إستيجار المستجير ويستفاد من هذه الآية كيفية المداراة في جلب المخالف إلى الحق في كل عصر وزمان تبعاً للنبي ﷺ فلو كان مثنياً وطريقتنا في الدعوة على هذا الأساس مع المخالف بعد النبي لكنا من الموفقين ولكن مع الأسف سلكننا غير هذا المسلك وهو كما ترى ضرره أكثر من نفعه وقبحه أكثر وأشد من حسنه.

نقل المفسرون عن ابن عباس أنه قال: أن رجلاً من المشركين قال لعلي عليه السلام إن أردنا أن نأتي الرسول بعد إنقضاء هذا الأجل لسمع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقفل فقال علي عليه السلام: لا أن الله تعالى قال: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ أَي فأمّنه حتى يسمع كلام الله انتهى.

وقال الرازي في تفسيره بعد نقل هذا الحديث ما هذا لفظه:
و تقرير هذا الكلام أن نقول أنه تعالى لما أوجب بعد إنسلاخ الأشهر الحرم قتل المشركين دل ذلك على أن حجة الله قد قامت عليهم وأن ما ذكره الرسول قبل ذلك من أنواع الدلائل والبيّنات كفى في إزاحة عذرهم وعلّتهم

يقتضي أن أحداً من المشركين لو طلب الدليل والحجة لا يلتفت اليه بل يطالب أمناً بالإسلام وأما بالقتل فلما كان هذا الكلام واقعاً في القلب لاجرم ذكر الله هذه الآية إزالةً لهذه الشبهة والمقصود منه بيان أن الكافر اذا جاء طالباً للحجة والدليل أو جاء طالباً لإستماع القرآن فإنه يجب إمهاله و يحرم قتله و يجب إيصاله الى مأمنه وهذا يدل على أن المقصود من شرع القتل قبول الدين والإقرار بالتوحيد و يدل أيضاً على أن النظر في دين الله أعلى المقامات و أعلى الدرجات فإن الكافر الذي صار دمه مهدراً لما أظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والإستدلال زال ذلك الإهدار و وجب على الرسول أن يبلغه مأمنه انتهى كلامه.

أقول ما ذكره حق لا مرية فيه فإن القتل ليس مطلوباً في نفسه بل هو مطلوب لغيره و يؤيده أن العقل لا يحكم به بما هو هو بل يحكم به اذا كان فيه صلاح و لذلك لا يقتل أحدٌ بلا جرم و علة و لو كان مطلوباً في نفسه فلا معنى لوجود المقتول من أول الأمر و ملخص الكلام أن الله تعالى لم يخلق الإنسان ليقتل بل خلقه ليبقى و يصل الى كماله المطلوب و عليه فالأصل الحياة و البقاء و اذا كان كذلك فالإمهال أمرٌ عقلي و لذلك أمر الله نبيه و قال فأجره الخ. و قال في آخر الآية بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ فهذا الكلام بمنزلة الدليل على الإمهال فكأنه قال قائل و كيف أمر الله نبيه بما أمر فقال تعالى في الجواب ما قال.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ غَاهَضْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا
فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بَيَاتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا
ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَ
أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي
الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
أَنَّ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا
 مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ
 أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ
 ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ
 الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ
 يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
 الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

◀ اللغة

لَا يَرْقُبُوا، الرُّقُوبُ هو العمل في الأمر على ما تقدّم به العهد و المراقبة و
 المراعاة نظائر والمعنى لا يراعون فيكم.

إِلَّا أَيَّ عَهْدًا و قيل هو إسم الله و قيل القربة و هو مأخوذ من الأليل البريق
 يقال أل يؤل اذا المع.

و قال الراغب في المفردات، الإل، كلّ حالة ظاهرة من عهد حلف و قرابة،
 أل يأل، يقال تألّ أي تلمع فلا يمكن إنكاره.

تَأْبَى أَي تمنع.

نَكَتُوا، النَّكَثُ نقض العهد.

هَمُّوا أَي قصدوا فَأَنَّ الهمَّ القصد

◀ الإعراب

كَيْفَ يَكُونُ إسم يكون، عهدٌ، و الخبر، كيف قَدَمَ للإستفهام و قيل،
 للمشركين، و قيل، عند الله، و للمشركين تبين أو متعلّق، بيقون و كيف، حال

من العهد فَمَا اسْتَقَامُوا قِيلَ مَا، زَمَانِيَّةٌ، وَ الْحَقُّ أَنَّهَا مُصَدَّرِيَّةٌ وَ التَّقْدِيرُ
فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ مَدَّةٌ اسْتِقَامَتُهُمْ لَكُمْ، وَ قِيلَ هِيَ شَرْطِيَّةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مَا يَفْتَحُ
اللَّهُ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ اسْتِقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَ لَيْسَتْ نَافِيَةً لِأَنَّ الْمَعْنَى يَفِيدُ
كَيْفَ وَ إِنِّ يَظْهَرُ أَنَّ الْمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ مَحْذُوفٌ وَ التَّقْدِيرُ كَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ، أَوْ
كَيْفَ تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِكَسْرِ الْأَلْفِ وَ اللَّامِ الْمَشْدُودَةِ مِنْ أَلَى يُؤَلِّ إِذَا سَاسَ أَوْ
مِنْ أَلِ يُؤَلِّ إِذَا صَارَ إِلَى آخِرِ الْأَمْرِ وَ قِيلَ إِيلاً بِمِثْلِ رِيحٍ أَبْدَلَ اللَّامَ الْأَوَّلَ بِأَءٍ
لِثِقَلِ التَّضْعِيفِ وَ كَسْرِ الْهَمْزَةِ وَ عَلَى الْوَجْهِينِ قَلَبْتَ الْوَاوَ بِأَءٍ لِسُكُونِهَا وَ انْكَسَارِ
مَا قَبْلَهَا يُرْضَوْنَكُمْ حَالٍ مِنَ الْفَاعِلِ فِي، لَا يَرْقُبُوا، عِنْدَ قَوْمٍ، وَ الْحَقُّ أَنَّهَا
مُسْتَأْنَفَةٌ فِي الَّذِينَ مُتَعَلِّقٌ بِأَخْوَانِكُمْ أَثُمَّ الْكُفْرُ جَمَعَ إِمَامٌ وَ أَصْلُهُ أَثُمَّةٌ مِثْلُ
خَبَاءٍ وَ أُخْبِيَّةٌ فَنَقَلْتُ حَرَكَةَ الْمِيمِ الْأُولَى إِلَى الْهَمْزَةِ السَّكَنَةِ وَ أَدْغَمْتُ فِي الْمِيمِ
الْأُخْرَى أَوَّلَ مَرَّةٍ مُنْصُوبٍ عَلَى الظَّرْفِ فَاللَّهُ أَحَقُّ مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرٌ أَنَّ تَخْشَوْهُ
فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ أَوْ جَرَّ أَيْ بَانَ تَخْشَوْهُ وَيَتُوبُ اللَّهُ مُسْتَأْنَفٌ.

◀ التفسير

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

قوله: كَيْفَ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ وَالِاسْتِنْكَارُ وَالِاسْتِبْعَادُ قِيلَ مَعْنَاهُ النَّفْيُ
أَيْ لَا يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ وَ هُمْ لَكُمْ ضِدٌّ وَ نَبَّهَ عَلَى عِلَّةِ انْتِفَاءِ الْعَهْدِ بِالْوَصْفِ الَّذِي
قَامَ بِهِ وَ هُوَ الْإِشْتِرَاكُ.

وَ قِيلَ فِي الْآيَةِ إِضْمَارُ أَيْ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ مَعَ إِضْمَارِ الْغَدْرِ وَ
النَّكَثِ وَ الْإِسْتِفْهَامُ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ كَثِيرًا كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَهَا ذِي سَيْوْفٍ يَا هَذِي بَنِ مَالِكٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ كَيْفَ بِالسَّيْفِ ضَارِبُ

أَيْ لَيْسَ بِالسَّيْفِ ضَارِبٌ وَ إِذَا كَانَ مَعْنَاهُ النَّفْيُ فَلَا إِسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ وَ يَجُوزُ أَنْ

يكون، الذين، في موضع خبر على البدل من المشركين لأن معنى ما تقدّم النفي أي ليس يكون للمشركين عهد إلا الذين لم ينكثوا.

قال ابن عباس و هم قريش و قيل أنّ الإستثناء منقطع أي لكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام فعلى القول بأنّ المراد بالإستفهام النفي يصير معنى الآية، لا يكون للمشركين عهد عند الله و عند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

و أما على القول بإرادة الإستفهام منه فلا بد من التقدير في الكلام فيقال كيف يكون للمشركين عهد عند الله و عند رسوله مع إضمار الغدر في عهدهم.

ثم إستثنى من ذلك قوله: **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** و كيف كان فالمقصود الأصلي من هذا الكلام هو عدم الإعتماد على المشركين في عهودهم لأنّ العهد عندهم كالعدم لأضمارهم الغدر فيه إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فأنّه يجب عليكم الوفاء به **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** أي فما إستقاموا لكم في البقاء على العهد فكونوا كذلك معهم و إلا فلا و أنما قال تعالى ذلك حيث فرّع إستقامة المؤمنين على عهد إستقامة الكفار أولاً لما ذكرناه من الوجه و هو عدم الإعتماد على قولهم و عهدهم فكانه قال للمؤمنين أيها المؤمنون أنّ المشركين أن وفوا بعدهم معكم فأوفوا أنتم أيضاً و إن نقضوا و نكثوا فأنكثوا أنتم أيضاً إذ لا ينبغي للمؤمن أن ينقض عهده في قوله: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** إشارة إلى أنّ الوفاء بالعهد من شؤون التقوى و لا شك أنّ الله يحبّ المتّقين و حيث وصف الله تعالى المشركين بما وصف في الآية و غيرها من الآيات السابقة من نقض العهد و النفاق و الغدر و أمثال ذلك.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً

و التّقدير كيف يكون لهم عهد أو كيف يعتمد على عهدهم و الحال أن يظهرنا عليكم بالغلبة لا يرقبوا فيكم، أي لا يراعون فيكم و الرّقوب هو العمل في الأمر على ما تقدّم به العهد و المراقبة و المراعاة نظائر في اللّغة فحاصل المعنى هو إن يغلبوا و يعلموا عليكم لا يراعون فيكم، إلّا، أي عهداً و قيل قرابةً و قيل الإلّ هو إسم الله، و لا ذمّة، قيل هي أيضاً العهد فمن رأى أنّ الإلّ هو العهد جعله و الذمّة لفظين لمعنى واحد أو متقاربين و على قول من رأى أنّ الإلّ غير العهد فهما لفظان متباينان و لمّا ذكر حال المشركين مع المؤمنين إن ظهروا و غلبوا عليهم ذكر حال المؤمنين مع المشركين في صورة الغلبة عليهم فقال: **يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** أي إذا صار المشركون مقهورين مغلوبين لكم فهم يرضونكم بأفواههم أي يقولون لكم ما ترضون به كما هو شأن المنافق الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه و ذلك لأنّ أكثرهم فاسقون.

و الفاسق حاله معلوم لا يبالي بما قيل أو يقال فيه فهو يتكلّم بما يشاء و يفعل ما يشاء لفسقه و من المعلوم أنّ المؤمن لا يكون كذلك لدينه و معرفته و أنّما قال و أكثرهم فاسقون و لم يقل كلّهم لأنّ كلّهم ليسوا كذلك إذ يوجد فيهم من لا يتّصف به و يظهر من قوله: **وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** أنّ الفسق ليس مرادفاً للكفر و ذلك لأنّ المشركين مع أنّهم من الكفّار بل من أظهر مصاديقهم لم يحكم في الآية بفسقهم جميعاً بل حكم بفسق أكثرهم و مفهومه أنّ قليلاً منهم ليسوا بفاسقين و إذا كان كذلك فبين الكفر و الفسق من النّسب الأربع العموم و الخصوص من وجه.

فمادّة الإجتماع الكافر الفاسق ومادّة الإفتراق الكافر الذي ليس بفاسق، و المؤمن الفاسق هذا إذا قلنا أنّ الإيمان يحصل بمجرد الاعتقاد و لا يشترط فيه العمل و إلّا فالمؤمن لا يكون فاسقاً فلا بدّ لنا من وضع المسلم مكان المؤمن في القضية و هو ظاهر.

و قال بعض المفسرين الكفر مرادف للفسق فكلّ كافر فاسق و لا عكس
 فيبينهما العموم و الخصوص المطلق لصدق الكلّية من أحد الطّرفين.
 ثمّ قال في معنى الآية أنّ المراد رؤوساءهم وأن كانوا كلّهم فاسقين.
 و لقائل أن يقول لو كان المراد رؤوساءهم لا يستقيم الكلام لأنّه يلزم أن
 يكون أكثرهم علماء أو رؤوساء و ليس كذلك و بعبارة أخرى لو كان المراد،
 بأكثرهم رؤوساءهم، يصير معنى الكلام أنّ أكثر رؤوساءهم فاسقون أيضاً ثبت
 ما ذكرناه لا ما ذكره.

**اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ**

الظاهر عود الضمير على من قبله من المشركين المأمور بقتلهم.
 و المعنى إشتروا بالقرآن و ما يدعوا اليه من الإسلام ثمنًا قليلًا و هو إتباع
 الشّهوات و الأهواء و ذلك لأنك لمّا تركت دين الله و أثرت الكفر عليه كان
 ذلك كالبيع و الشراء.

و قال مجاهد هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه.
 و قال أبو صالح هم قومٌ من اليهود و آيات الله التّوراة.
 و قال ابن عباس هم أهل الطّائف كانوا يمدّون النّاس بالأموال و يمنعونهم
 من الدّخول في الإسلام فصدّوا عن سبيله أي صرفوا أنفسهم عن دين الله و
 أعرضوا عنه.

و قال الشيخ في التّبيان معنى **اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ** استبدلوا بحجج الله و
 بيناته العظيمة، الشّأن ثمنًا قليلًا أي عرضاً قليلًا.

أقول و على هذا فالمراد هو الكفّار من أهل الكتاب.

قال أبو عليّ الجبائي نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلّت
 عليه هذه الصّفة و هذا هو الحقّ لأنّ قوله: **اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ** ثمنًا قليلًا لا

ينطبق على غير أهل الكتاب فالأمر يدور مدارهم، وحيث أنَّ تحريف الكتاب وتغييره عما كان عليه كان من دأب اليهود فلا يبعد أن يكون المراد في الآية قوم اليهود واللّه أعلم.

وكيف كان لاشكَّ أنَّ الكفار كانوا يصدّون أي يمنعون الناس عن سبيل الحقّ ومتابعته ثمّ قال تعالى: **إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** وذلك لأنّ البقاء على الكفر قبيح ومنع الغير أيضاً عن متابعة الحقّ قبيح إلا أنّ الثّاني أقبح من الأوّل وأسوأ فإنّ منشأ الأوّل العناد ومنشأ الثّاني العناد والحسد والبخل.

تَنْبِيْهٌ

وأعلم أنَّ مورد الآية و أن كان خاصّاً إلا أنّ معناها عامّ والعبرة بعموم المعنى لا بخصوص المورد و حيثُ فنقول المراد بالاشتراء الإستبدال و ليس معناه الحقيقي إذ ليست الآيات ممّا يُباع أو يشتري واقعاً كالمتاع والسّلعَة و لكن أهل التّوراة والإنجيل لمّا غيَّروا الآيات أو فسَّروها بآراءهم وأخذوا الثَّمَن من الظلمة يقال: **أَنْهُمْ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**.

وهذه السيرة الخبيثة بعد رسول الله كانت مستمرة إلى زماننا هذا. وقد نقل المؤرخون أن سمرة بن جندب أعطاه معاوية أربع مائة ألف درهم وطلب منه أن يقول لأهل الشام أنّ قوله تعالى: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**^(١) نزلت في مدح قاتل عليّ ابن أبي طالب لأنّه يقتله يقتل لا محالة فهو ممّن يشري نفسه ابتغاء مرضات الله حيث أراح الناس من عليّ و قتل به.

أليس هذا من مصاديق قوله اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً. و من المعلوم أنّ الثَّمَن الذي يأخذونه ليس قليلاً في حدّ نفسه و لكنّه قليل بالنسبة إلى الذنب العظيم وهو الإفتراء على الله.



وهكذا من قال أو يقول أن المراد بأولي الأمر من بيده زمام الأمور في كل زمانٍ بعد رسول الله وأنما قالوا ذلك لأجل الحكام والمناصب في عصر الخلفاء فحكموا بصحة خلافتهم على أساس القرآن وأنهم خلفاء الله وخلفاء الرسول وأولوا الأمر في كتاب الله فمن خالفهم يقتل لأنه خالف الله ورسوله ليس هذا من مصاديق الآية.

وهكذا من قال بأن آية التطهير لا تختص بأصحاب الكساء بل تعم جميع أقرباء الرسول وزوجاته لصدق أهل البيت عليهم فعائشة وحفصة وسائر زوجاته وأقرباء كلهم داخلون فيها وهكذا.

والحاصل أن جعل الآيات وسيلة إلى التلبي بالخطايا الدنيوية وتفسيرها على مذاق المخالف لأخذ الثمن أو التقرب إلى الظلمة أمرٌ ذائعٌ شائعٌ في جميع الأمم وقليل من عبادي الشكور.

لَا يَزُقُّونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ.

قد ظهر معنى الآية عند قوله: كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً^(١) فلا نحتاج إلى الإعادة.

أن قلت اليس هذا من التكرار.

قلت اللفظ مكرّرٌ والإعتبار متفاوت و تكرار اللفظ بإعتبار المعنى و بعبارة أخرى تكرار اللفظ لأجل المناسبات والإعتبارات المختلفة لا إشكال فيه بل هو من المحسنات والتأكيد والمقام من هذا القبيل فإن الآية السابقة نزلت بعد قوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ أَلخ.

وهذه الآية نزلت بعد قوله: أَسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ولذلك قال في آخر تلك الآية وَ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ وقال في آخر هذه الآية أُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ وذلك لأن الإعتداء هو التجاوز عن الحد والفسق هو الخروج من الشيء والفرق بينهما واضح.

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و مما ذكرنا يظهر وجه التكرار في هذه الآية أيضاً وذلك لأنه تعالى قال في
الآية السابقة فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ^(١) الى قوله فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وهكذا قال في هذه الآية والفرق بين المقامين هو أنه
جعل الغاية هناك تحلية سبيلهم وأما في المقام قال: فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ و
الفرق واضح إذا عرفت هذا فنقول شرط لهؤلاء المشركين بأنهم إن تابوا و
رجعوا عما هم عليه من الشرك الى طاعة الله والإقرار بوحدهانيته والإقرار
بالنبي وأقاموا الصلاة الخ فأنهم يكونون إخوان المؤمنين في الدين والإيمان و
ذلك لأنهم يصيرون بذلك من المؤمنين وقد قال الله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ^(٢) وفي قوله: وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إشارة الى أنه لا يتأمل
تفصيل الآيات إلا من كان من أهل العلم والفهم دون الجهال الذين لا يعلمون
عن الله.

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ

لما وصفهم الله تعالى في الآية السابقة بأنهم إخوانكم في الدين بشرط
التوبة عن الشرك وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، علّق الأخوة في هذه الآية على
الشرط ضمناً أي الأخوة بينكم وبينهم ثابتة إذا كانوا مستمرين على التوحيد و
النبوة وإقامة الصلاة الخ....

فأن نكثوا ونقضوا إيمانهم ورجعوا الى الشرك الذي كانوا فيه من بعد
عهدهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم و خص الأئمة

بَابُ
فِي تَرْجُومَةِ
الْقُرْآنِ
الْعَرَبِيِّ



بَابُ
فِي تَرْجُومَةِ
الْقُرْآنِ
الْعَرَبِيِّ

بالذكر لأنهم يحرضون الأتباع على البقاء على الكفر فالواجب قطع مادة الفساد و يظهر من الآية أنه لا يجوز تأمينه بل يجب قتله وذلك لأن الناكث لا إيمان له واقعاً ولأجل ذلك قاتل أمير المؤمنين مع أصحاب الجمل و قتلهم و إستصلهم لأنهم نكثوا عهده و نقضوا بيعته و لما قتل الزبير و طلحة وضعت الحرب أوزارها فلم يأمر أمير المؤمنين بقتل أتباع الزبير و طلحة و عائشة و ذلك لأن ذنبهم كان جهلهم و أنما الذنب في الحقيقة على الرؤساء الذين يريدون النيل الى مقاصدهم بسبب الجهال و العوام كالأنعام و ذلك داء لا دواء له و يؤيده ما ذهب اليه بعض المفسرين من أنه من أقدم على نكث العهد و الطعن في الدين صار رأساً في الكفر فهو من أئمة الكفر.

و أصرح منه ما قاله ابن عطية حيث قال لا يعني بها معين و أنما دفع الأمر بقتال أئمة الناكثين العهود من الكفرة الى يوم القيامة دون تعيين.

و أنا أقول علق القتال في الآية على النكث لا على الكفر لأنه تعالى قال: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ إِلَى أَنْ قَالَ فَقَاتِلُوا أئمة الكفر و بعبارة أخرى القتال مشروط بالنكث و هو الشرط و مقتضى القاعدة هو تحقق المشروط بعد تحقق الشرط و عليه فإذا وجد الشرط وُجد المشروط.

أَنْ قُلْتَ الشَّرْطُ أعني به نكث العهد مُقَيَّدٌ بِأَنْ صَدَرَ مِنَ الْكَافِرِ يَعْنِي أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ يَجِبُ الْقِتَالُ.

قُلْتَ الشَّرْطُ في الآية مطلق لم يُقَيَّدَ بشئٍ ومجرد نزول الآية في حق الكفار الناكثين للعهد لو ثَبَتَ، لا ينافي إطلاق الآية وشمولها لغيرهم و ذلك لأن خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى هذا كله إذا أردنا من الكُفر في قوله: أئمة الكُفر الكُفر المصطلح بمعنى رجوع الناكث الى كُفره الأصلي.

و أما إذا قلنا أن المراد بالكُفر في الآية هو الكُفر بترك ما أمر الله فالأمر واضح إذ لا فرق فيه بين الكافر و المسلم و توضيح ذلك أن الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه:

أحدها: إنكار الرّب و هو قول من يقول لا ربّ و لا جنّة و لا نار و هو قول صنفين من الزّنادقة يقال لهم الدّهريّة و هم الذين يقولون و ما يهلكنا إلا الدّهر.

الثّاني: أن يجحد الجاحد و هو يعلم أنّه حقّ كما حكى الله تعالى عنهم.

بقوله: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتُوًّا^(١).

وقال لله تعالى: وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ^(٢). فهذا تفسير وجهي الجحود.

الوجه الثّالث: من الكفر هو كفر النعم و ذلك قوله تعالى يحكي عن سليمان: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^(٣).

الوجه الرّابع: منها ترك ما أمر الله عزّ وجلّ كما قال تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ الى قوله أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ^(٤).

الوجه الخامس: كفر البراءة و ذلك قول الله عزّ وجلّ يحكي قول إبراهيم: كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ^(٥).

فهذه هي أقسام الكفر إذا عرفت هذا فنقول.

قوله: فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ ليس المراد بالكفر إنكار الرّب إذا لا دليل في الآية عليه بل الآية دلّت على أنّهم نكثوا أيمانهم فقط اللهم إلا أن يقال أنّهم كانوا كافرين قبل العهد و بعده ولم يؤمنوا بالله أصلاً ففي هذه السّورة يراد بالكفر كفر الرّب و لكن ينافيه قوله قبل هذه الآية فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ

في القرآن تفسير القرآن



المجلد الثامن

١- البقرة = ٨٩

١- النمل = ١٤

٢- البقرة = ٨٣ الى ٨٥

٣- النمل = ٤٠

٤- الممتحنة = ٤

وَأَتُوا الزُّكُوةَ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَجِهَ التَّنَافِي ظَاهِرٌ فَأَنَّ التَّائِبَ الَّذِي يقيم الصلاة لا يكون كافراً بالكفر بهذا المعنى أي كفر الرب.

أما القسم الثاني: منهما و هو الإنكار مع العلم بكون المنكر حقّ فهو محتمل لأنّ الناكث كذلك.

أما القسم الثالث: و هو كفر النعم فهو أيضاً محتمل.

أما القسم الرابع: و هو ترك ما أمر الله به فهو من أقوى الوجوه المحتملة في الآية.

أما الخامس: و هو كفر البراءة فهو بعيد و أن كان محتملاً، و حيث أن الله تعالى قال: **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ.**

ثم قال: **وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** يظهر لنا أنّ النكث تعلّق بهم أي أنّ التائبين المقيمين للصلاة الخ.

إن نكثوا بعد أيمانهم من بعد عهدهم فقاتلوهم و عليه فالآية لا تختص بالمشرّكين بل لا يبعد أن تكون منصرفة عنهم لقوله تعالى: **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ** فمن تاب و أقام الصلاة لا يكون مشركاً اللهم إلا أن يقال بأنّ الواو في قوله: **وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** ليس للعطف على الآية السابقة بل هو مستأنفة و إذا كان كذلك فالأمر أوضح إذ عليه نقول بأنّ الآية بصدد بيان حكم كليّ و هو أنّ جزاء الناكث القتل مسلماً كان أو كافراً و هذا المعنى ليس ببعيد فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ الكافر يطلق على الناكث للعهد على ما مرّ الكلام فيه لأنّه ترك ما أمره الله به من الوفاء بالعهد و الميثاق و أن كان مسلماً ظاهراً و ذلك مثل الزبير و طلحة و عائشة حيث نقضوا عهدهم و بيعتهم فيشملهم قوله تعالى: **وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** و لأجل هذا استدّل أمير المؤمنين عليه السلام على مشروعية قتالهم بهذه الآية ثمّ حلف حين قرأها أنّه ما قوتل عليها منذ نزلت حتّى اليوم، فقوله عليه السلام حتّى اليوم أدلّ دليل على ما قلناه روي أنّ الأشتر دخل على عائشة فقالت له أو ما سمعت قول النّبي أنّ المسلم لا يقتل إلاّ عن كفرٍ

بعد إيمانٍ أو زنى بعد إحصانٍ أو قتل النفس التي حَرَّمَ الله قتلها فقال الأشر لها على أحد الثلاثة قاتلناه ثم أنشد:

أعائش لولا أنني كنت طاوياً ثلاثاً لألقيت ابن أختك هالكاً
عشية يدعوا والزجال تجوزه بأضعف صوت أقولوني ومالكاً
و عن تفسير علي بن إبراهيم، وأما قوله: وَإِنْ نَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ فَأَنْهَا نَزَلَتْ
في أصحاب الجمل.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل ما قاتلت هذه الفئة الناكثة إلا بآية من كتاب الله يقول الله: وَ إِنْ نَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةً الْكُفَرِ.

و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله يقول دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة و الزبير فقلت لهم، كانا من أئمة الكفر، أن علياً يوم البصرة لما صف الخيول قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني و بين الله عز وجل و بينهم فقام اليهم فقال يا أهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم الله قالوا لا قال عليه السلام مخيفاً في قسم قالوا لا قال عليه السلام فرغبت في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكتهم بيعتي قالوا لا، قال عليه السلام فأقمت فيكم الحدود و عطلتها عن غيركم قالوا لا قال عليه السلام فما بال بيعتي تنكث و بيعة غيري لا تنكث أني ضربت الأمر أنفه و عينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف ثم ثنى على أصحابه فقال أن الله تبارك و تعالى يقول في كتابه: وَ إِنْ نَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةً الْكُفَرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ
فقال أمير المؤمنين عليه السلام و الذي فلق الحبة و برئ النسمة و أصطفى محمداً بالنبوة أنهم لأصحاب هذه الآية و ما قوتلوا منذ نزلت إنتهى.

وعن آمالي الشيخ بأسناده الى أبي عثمان البجلي مؤذن بني أقصى قال بكير أذن لنا أربعين سنة قال سمعت علياً عليه السلام يقول: وَ إِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ثُمَّ حَلَفَ عَلَيْهِ حِينَ قَرَأَهَا أَنَّهُ مَا قُوتِلَ أَهْلُهَا مِنْذُ نَزَلَتْ حَتَّى الْيَوْمِ قَالَ بَكِيرُ فَسَمِعْتُ عَنْهَا أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ صَدَقَ الشَّيْخُ هَكَذَا قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَكَذَا كَانَ إِنْتَهَى.

و عن تفسير العياشي عن أبي الطفيل قال: سمعت علياً يوم الجمل و هو يحضّ النَّاسَ على قتالهم يقول و الله ما رمي أهل هذه الآية بكنانة قبل اليوم قاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون فقلت لأبي الطفيل ما الكنانة قال السهم يكون موضع الحديد فيه عظم تسميته بعض العرب الكنانة.

و عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب على هذا المنبر و ذلك بعد ما فرغ من أمر طلحة و الزبير و عائشة صعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه و صلى على رسول الله ﷺ ثُمَّ قَالَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا قَاتَلْتُ هَؤُلَاءِ إِلَّا بِآيَةٍ تَرَكْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَ إِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

و قال يا علي لَتَقَاتِلَنَّ الْفِئَةَ الْبَاغِيَّةَ وَ الْفِئَةَ النَّاكِيَّةَ وَ الْفِئَةَ الْمَارِقَةَ) إِنْتَهَى.

و عن أبي عثمان مولى بني أقصى قال: سمعت علياً يقول (عذرني الله من طلحة و الزبير بايعاني طائعين غير مكرهين ثُمَّ نَكَا ببيعتي من غير حدثٍ أَدْحَثْتَهُ وَ اللَّهُ مَا قُوتِلَ أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْذُ نَزَلَتْ حَتَّى قَاتَلْتَهُمْ وَ إِنْ نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) (١).

أقول الأحاديث بهذه المعنى كثيرة في كتب الأخبار وفيما مقلناه كفاية لمن كان له قلب، ويظهر منها أنَّ الآية وإن نزلت في عهد رسول الله ﷺ إلا أنَّ الرسول ﷺ ما قاتل المشركين بهذه الآية ويؤيده أن القتال معلق على وجود شرطه وهو النكث وليس في الآية ما يدل عليه وبعبارة أخرى الآية لا تدل على أنَّ النكث ونقض العهد وقع من المشركين بل دلت على أنَّ النكث أن وقع فحكمه كذا.

و حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام واللَّه ما قوتل على هذه الآية منذ نزلت حتَّى قاتلتهم فلا يبقى شك في صدق ما إدَّعينا ومحصَّل الكلام هو أنَّ القتال إمَّا على التنزيل وهو مختص بالرسول وأما على التأويل وهو مختص بالوَصِي و حيث لم يثبت القتال على الأوَّل فالثاني ثابت قطعاً في حرب الجمل فالمراد بأئمة الكفر هو طلحة والزبير وعائشة ومن حذى حذوهم من رؤوساءهم وهذا هو الحقُّ الحقيق بالإتباع ولا سبَّما تصريح أمير المؤمنين عليه السلام بذلك وهو في رأس العترة التي جعلهم الله عدلاً للكتاب فقال إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي الخبر.

و العجب أنَّ مفسري العامة لم يتَّعرضوا في تفاسيرهم لذلك أصلاً والوجه فيه أنَّهم يقولون بأنَّ الزبير وطلحة من العشرة المبشرة على لسان النبي بقول أبي هريرة وأمثاله وإذا كان كذلك فكيف يقال بأنهم أئمة الكفر.

و لم يعلموا أنَّ الرسول ﷺ لم يقل ذلك أصلاً ولكن المنافقين نسبوه إليه ﷺ فالحديث في زمرة المجعولات الى رسول الله و نظائره كثيرة هذا مضافاً الى أن العقل السليم يكذِّبه اذ كيف يجوز له ﷺ عقلاً أن يقول ذلك وهو يوجب التجري في الاعتقاد والعمل و للبحث فيه موضع آخر.

أَلَا تَفَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ألا، كلمة، موضوعة للتخفيف على الفعل وأصلها لا، دخلت عليها ألف الإستفهام فصارت تخفيفاً كما أنها دخلت على، ليس، صارت تقريراً، وألا، موافقة للتخفيف بالإستقبال و، أليس، أنما هي للحال، فإذا قيل، ألا تقاتلون، كان معناه التخفيف على قتالهم كما في الآية وإذا قيل: **أَلَا تُقَاتِلُونَ** كان تأنيباً، فقوله: **أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ** فيه حضٌّ وتحريض من الله تعالى للمؤمنين على قتال الناكثين الذين نكثوا عهدهم وهموا، أي قصدوا بإخراج الرسول من مكة **وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**.

فقال الطبري بدءوهم بخروجهم الى بدر لقتالهم.

و قال الزجاج أي بدءوا حلفاء النبي بالقتال من خزاعة بعد عهد الحديبية و من المعلوم أنَّ البادي أظلم و اذا كان كذلك فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله تصدمونهم بالشَّر كما صدموكم و نجَّهم بترك مقاتلتهم و حضَّهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحضَّ عليها و تقرر أنَّ من كان مثل صفاتهم من نكث العهود و إخراج الرسول و البدء بالقتال من غير موجبٍ حقيق بأن لا تترك مصادقته و أن يؤخَّر من فرط فيها.

قال ابن عطية، أول مرة قيل يريد أفعالهم بمكة بالنبي ﷺ و بالمؤمنين **أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ أَلَا أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** الإستفهام قيل أنه إنكار أي لا تخشوهم و قيل للتوبيخ، و قيل، أتحشونهم تقرير للخشية منهم و توبيخٌ عليها، و الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و الخشية نوع من الخوف و ذلك لأنَّ الخوف عبارة عن تألم القلب و إحتراقه بسبب توقعٍ مكروهٍ في الإستقبال مشكوك الوقوع ثم أنه على نوعين:

مذمومٌ و هو الذي لم يكن من الله و لا من معاصي العبد و جنائياته.

و ممدوحٌ و هو الذي كان من الله تعالى، و من عظمته و كبرياءه و هذا هو المسمى بالخشية و الرَّهبة في عرف أرباب القلوب.

و أما اذا كان من جنابة العبد بإقترانه المعاصي فلا يسمّى بالخشية كان من الخوف من الله سبحانه و عظمته موقوفاً على المعرفة به فمن لا يعرف الله لا يخشى منه و لأجل ذلك قالوا في تعريفها.

الخشية خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه و أن شئت قلت الخوف عامّ و الخشية تختصّ بالعلماء و الى هذه الدقيقة أشار الله تعالى بقوله:

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ^(٢).

قال الله تعالى: سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ^(٣).

قال الله تعالى: إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ^(٤).

قال الله تعالى: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ^(٥).

قال الله تعالى: فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ أَحْشَوْنِي وَ لَا تَمِمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ^(٦) و الآيات في الباب كثيرة.

و أما قال تعالى: أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ و لم يقل أتخافونهم فالله أحق أن تخافوه، لأنهم كانوا عالمين بحال المشركين و أنهم لا يقدرّون على شيء كما كانوا عالمين بأن أزمة الأمور بيد الله و هو على كلّ شيء قدير و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا وجه للخشية منهم دون بل ينبغي أن يكون الأمر بالعكس و لذلك علّق الحكم على إيمانهم فقال أن كنتم مؤمنين و الإيمان لا يكون إلا عن علم و معرفة.

بَابُ الْخَشْيَةِ

جزء ١٠

بَابُ الْخَشْيَةِ

٢- النازعات = ٢٦

١- فاطر = ٢٨

٤- سورة فاطر آية ١٨

٣- الأعلى = ١٠

٦- البقرة = ١٥٠

٥- الزمر = ٢٣

و قيل أن كنتم مصدّقين بثوابه وعقابه وهو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه لأنّ التّصديق عبارة عن العلم بإذعان النّسبة و بعد ذلك أمرهم الله بقتال الكفار فقال:

فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِيهِمْ وَ ينْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ، وَ يَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أمر الله المؤمنين بقتال هؤلاء النّافقين للعهد البادئين بقتال حلفاء النّبي من خزاعة و وعدهم بأن يعذب الله النّافقين للعهد بأيديهم بالقتل و الأسر و يخزيهم بالذلّة و المقهوريّة و ينصر المؤمنين عليهم بالظفر و الغلبة و يشف صدور قوم مؤمنين و يذهب غيظ قلوبهم بسبب هذه الذلّة و الإنكسار و هذه الأمور كلّها لا يحصل إلا بالقتال و الاستقامة في طريق الحقّ فمن جلس في بيته ولم يقاتل صار ذليلاً قهراً و لأجل ذلك صار الجهاد واجباً لازماً.

و في قوله: يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ إشارة الى أنّ مَنْ تاب من هؤلاء النّافقين و رجع الى ما كان عليه من العهد فالله يتوب عليه و الله عليمٌ حَكِيمٌ، أي عالمٌ بجميع الأمور و حَكِيمٌ أي يضع الأشياء في مواضعها و فيها دلالة على صحّة نبوة النّبي لأنّه تعالى وعده النّصر فكان الأمر على ما قال و من المعلوم أنّ الله لا يخلف الميعاد وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً^(١).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ قال الزّمخشري، أم، في قوله، أم حسبتم، منقطعة و معنى الهمزة فيها التّوبيخ على وجود الحسبان و المعنى أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتّى

يَتَّبِعِينَ الْخَلَصَ مِنْكُمْ وَ هُمُ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَوَجْهَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَّخِذُوا وَلِجَّةً أَوْ بَطَانَةً مِنَ الَّذِينَ يَصَادُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَ الْمُؤْمِنِينَ انْتَهَى.

و قال الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّانِ، أَمْ حَسِبْتُمْ مِنَ الْإِسْتِفْهَامِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ الْكَلَامِ فَيَجْعَلُ بَأَمٍ، لِيَفْرُقَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْإِسْتِفْهَامِ الْمَبْتَدَأِ الَّذِي لَمْ يَتَّصِلْ بِكَلَامٍ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْإِبْتِدَاءِ لَكَانَ إِمَّا بِالْأَلْفِ وَ بَهْلٍ، كَقَوْلِهِ: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ وَ الْمَعْنَى ظَنَنْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا وَ الظَّنَّ وَ الْحِسَابَانَ نَظَائِرَ انْتَهَى.

و كيف كان فالمعنى حسبتم أو ظننتم أن تتركوا:

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا^(١).

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً^(٢).

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ^(٣).

قال الله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ^(٤).

و محصّل الكلام فيها أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَكْلَفَ لَا بَدَلَ لَهُ مِنَ الْإِخْتِبَارِ وَ الْإِمْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا:

قال الله تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ^(٥).

و أيضاً أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتْرَكَ بِحَالِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ بِمَعْنَى عَدَمِ تَرْتَبِ الْجُزْءِ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُذًى^(٦) وَ هَذِهِ سِيرَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ مِنْ بَدْوِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَبْلَ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٠

المجلد الثاني

٢- الجاثية = ٢١

١- العنكبوت = ٤

٤- آل عمران = ١٤٢

٣- البقرة = ٢١٤

٦- القيامة = ٣٦

٥- العنكبوت = ٢

لإمتحان لا يعرف نفسه ولذلك كثيراً ما يدّعي مالميس له ولذلك نقول أنّ الإبتلاء و الإمتحان لايزيد على علم الله بحال عبده و هو تعالى لم يجعل الإمتحان فيهم لأجل أن يعرفهم لأنّ الخالق لا يخفى عليه شيء من حالات مخلوقه.

و أنّما جعله فيهم لأن يعرف كلّ إنسان قدره و لا يدّعي أكثر منه و هذا ممّا لا كلام فيه و قد سبق ممّا البحث فيه مفصّلاً إذا عرفت هذا.

فَاعْلَمُ أنّ هذه الآية و نظائرها ناظرة الى ذلك الأصل و ذلك لأنّ المؤمنين في عهد الرّسول كانوا يدّعون الإيمان بالله و رسوله حقّاً فقال تعالى لهم ليس الأمر كما زعمتموه ظننتم أنّ تتركوا و لا تختبركم بالجهاد مع أعداء الدّين يعني أن صدقتم فيما تدّعون فجاهدوا في سبيله و لا تتخذوا من دون الله و رسوله وليجة أي الكفر و النفاق و أنّما قال تعالى فيهم ذلك لأنّهم كانوا يتخذون بطانة يغشون بهم أسرارهم و لا نعني بالنفاق إلّا هذا و في الآية دلالة على أنّه لا يجوز أن يتخذ من الفساق وليجة لأنّ في ذلك تأليفاً بالفسق مع أنّ الواجب معاداة الفساق و البراءة منهم.

والوليجة كلّ شيء أدخلته في شيء و ليس منه، ففي الآية طعنٌ على المنافقين الذين يتخذوا الولائج لا سيّما عند فرض القتال و أيضاً يظهر من الآية أنّ الجهاد لا بدّ له من الإخلاص خالياً عن النفاق و الرّياء و التّودد الى الكفار و في قوله: **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** إشارة الى أنّ الله يعلم ما في قلوبكم خبير بما تضمرونه في أنفسكم فضلاً عن أعمالكم.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ

قرأ ابن كثير و أبو عمرو مسجد الله على التّوحيد و الباقر على الجمع فمن قرأ على التّوحيد أراد به المسجد الحرام و به قال الجبائي و من قرأ بالجمع أراد جميع المساجد.

قال بعضهم من قرأ على التَّوْحِيدِ يحتمل أن يكون أراد المساجد كلها لأنَّ لفظ الجنس يدلُّ على القليل والكثير.

و من قرأ على الجمع أيضاً يحتمل أن يكون مراده المسجد الحرام لأنَّ كلَّ موضع منه مسجد يسجد عليه و القراءتان متناسبتان و الأصل في المسجد هو موضع السَّجود و في العرف يعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّه ليس لمشرك أن يعمر مسجد الله و العمارة أن يجدد منه ما استمر من الأبنية شاهدين على أنفسهم بالكُفْرِ أي لا يجوز لهم ذلك و الحال أنَّهم يشهدون على أنفسهم بالكفر فالمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافسين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله و عبادته و معنى شاهدين على أنفسهم بالكفر و هو ظهور كفرهم و أنَّهم نصبوا أصنامهم حول البيت و كانوا يطوفون عراة و يقولون لا تطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي و كلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها و قيل هو قولهم لبيك لا شريك لك.

و قيل قد أقبل المهاجرون و الأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك ففطق علي ابن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله و قطيعة الرِّحم و أغلظ له في القول فقال العباس تذكرون مساوينا و تكتمون محاسنا فقال أو لكم محاسن قالوا نعم و نحن أفضل منكم أجراً أنا لنعمر مساجد الله (المسجد الحرام) و نحجب الكعبة و نسقي الحجيج و نفك العاني فنزلت الآية ذكره صاحب الكشاف.

و عليه فقوله تعالى بعد ذلك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إشارة الى أنَّ أعمالهم لا تنفع لهم في حال كفرهم و أنَّما هي تنفع اذا صدرت عن الإيمان و الخلوص و ذلك لأنَّ الكفر يسترها و يحبطها بالكلية فلا جرم هم في النَّار.

أقول الذي يظهر لنا من الآية هو أن المسجد الحرام كان في أيدي المشركين قبل الإسلام فلا محالة كان يعتمر المسجد والبيت أيضاً بيد المشركين ولما ظهر الإسلام أمر الله رسوله والمؤمنين أن يمنعوه عن تعمير المسجد بل عن الدخول فيه وهم على كفرهم لنجاستهم:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا^(١)**.

ثم أشار الله تعالى الى من يصلح لتعمير المسجد فقال:

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ كلمة، أنما، تفيد الحصر أي لا يكون تعمير المساجد إلا لمن كان واجداً لهذه الشروط خمسة:

أحدها: الإيمان بالله وهو يتحقق بالاعتقاد القلبي والإقرار اللساني والعمل بالأركان على مسلك الحق.

ثانيها: الإيمان باليوم الآخر وهو القيامة.

ثالثها: إقامة الصلاة بشرائطها.

رابعها: إعطاء الزكاة.

خامسها: الخشية من الله ثم فرّع على الشروط المقررة إصابة الحق فقال: **فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** فالإهداء متفرّع على وجود الشرائط فبإتقانها وإتفاء بعضها لا يحصل الإهداء وهذه الآية عامة لجميع المساجد وليس المراد من الحصر عدم قدرة الكافر على التعمير بل المراد به أن الكافر اذا فعل ذلك فهو كالعدم.

وإِعلم أنَّ تعمير المسجد يتَّصور على نوعين:

أحدهما: تعمير البناء في الظاهر.

ثانيهما: تعمير المسجد بإقامة الصَّلاة فيها.

أَمَّا الأوَّل: فلا خفاء فيه فإنَّ بناء المسجد أو تعميره من علائم الإيمان إلا أنَّ التَّعمير لا يختصَّ به فأنَّا نرى في زماننا هذا مساجد كثيرة مزينة بأنواع الزينة والتَّجمل إلا أنَّها خالية عن المصلَّى مع أنَّه قد ورد لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد (في مسجده) وقد ورد في الباب أحاديث كثيرة.

فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: شكت المساجد إلى الله تعالى الذين لا شهدونها من جيرانها فأوحى الله إليها وعزَّتي وجلالي لا قبلت لهم صلاة واحدة ولا أظهرنَّ لهم في النَّاس عدالة ولا نالتهم رحمتي ولا جاوروني في جنَّتي انتهى^(١).

وفيه أيضاً عن جعفر عن أبيه أنَّ عليّاً كان يقول ليس لجار المسجد صلاة إذا لم يشهد المكتوبة في المسجد إذا كان فارغاً صحيحاً انتهى^(٢).

و بأسناده عن عليّ عليه السلام قال: من إختلف إلى المساجد (المسجد) أصاب إحدى الثَّمان، أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو أية محكمة، أو يسمع كلمة تدلُّ على الهدى (هدى) أو رحمةً منتظرةً، أو كلمة تردده عن ردئي، أو يترك ذنباً خشيةً أو حياءً انتهى^(٣).

فهذه الأحاديث ناظرة إلى تعمير المسجد واقعاً وللبحث فيه مقام آخر يأتي إن شاء الله تعالى.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

١- وسائل الشيعة ج ٣ كتاب الصَّلاة ص ٤٧٩

٣- ص ٤٨٠

٢- ص ٤٧٩

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً
 عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ
 رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا
 نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
 أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
 آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ
 عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَ
 إِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
 اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ
 مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ
 رَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ
 اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

◀ اللغة

سِقَايَةَ بكسر السين مصدر يقال سَقَى وسقايةً وهي آلة تَخَذُ لسقي الماء.
 اقْتَرَفْتُمُوهَا، الإقتراف مصدر قولك إقترف إقترافاً ومعناه الإكتساب و
 الإقتراف و الإقتراف في الأصل إقتراف الشيء عن مكانه إلى غيره.

فَتَرَبَّصُوا أَمْرًا مِّن تَرَبَّصٍ وَ التَّرَبُّصُ التَّثَبُّتُ فِي الشَّيْءِ حَقَّ يَجِيئُ وَقْتُهُ كَالْتَنْظَرِ وَ التَّوَقُّفِ.

◀ الإعراب

سِقَايَةَ الْحَاجِّ الْجُمْهُورِ عَلَى سِقَايَةِ بَالِيَاءٍ، وَ قَرَأَ سِقَاةَ الْحَاجِّ وَ عَمَّارِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، عَلَى أَنَّهُ جَمَعَ سَاقَ وَ عَامَرَ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ مُسْتَأْنَفٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ وَ الثَّانِي وَ يَكُونُ التَّقْدِيرُ سَوَّيْتُمْ بَيْنَهُمْ فِي حَالِ تَفَاوُتِهِمْ.

◀ التفسير

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَ آيَوْمِ الْآخِرِ
 قيل نزلت الآية في عليٍّ عليه السلام و العباس.

و روى الطبري بأسناده عن ابن عباس أنها نزلت في العباس حين قال يوم بدر إن سبقتونا إلى الإسلام و الهجرة لم تسبقونا إلى سقاية الحاج و سدنة البيت.

و روى أيضاً بأسناده عن الحسن أنها نزلت في عليٍّ عليه السلام و العباس و عثمان و شيبة و قال الشعبي نزلت في عليٍّ و العباس و به قال ابن وهب و السدي.

و قال القرطبي ظاهر هذه الآية أنها مبطللة قول من إفتخر من المشركين بسقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كما ذكره السدي قال إفتخر عباس بالسقاية و شيبة بالعمارة و عليٍّ عليه السلام بالجهاد فصَّدقَ الله علياً و كذَّبهما و أخبر أنَّ العمارة لا تكون بالكفر و أئما تكون بالإيمان و العبادة و أداء الطاعة و هذا بين لا غبار عليه انتهى.

و قال الرّازي، قيل أنّ عليّاً قال للعبّاس بعد إسلامه يا عمّي ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله فقال أأست في أفضل من الهجرة أسقي حاج بيت الله و أعمار المسجد الحرام فلمّا نزلت هذه الآية قال ما أراني إلا تارك سقايتهما فقال رسول الله ﷺ أقيموا على سقايتهما فإنّ لكم فيها خيراً.

و قيل إفتخر طلحة بن شيبه و العبّاس و عليّ عليه السلام فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ولو أردت بئ فيه و قال العبّاس أنا صاحب السّقاية و القائم عليها و قال عليّ عليه السلام أنا صاحب الجهاد فأنزل الله تعالى هذه الآية انتهى كلامه.

أقول بعد التّفحص في تفاسير العامّة وجدنا أنّهم إنّفقوا في هذه المسألة و إن نقلوا أقوالاً أخر أيضاً.

و أمّا عندنا فلا كلام لأحد فيه و جميع المفسّرين من الخاصّة قالوا نزلت الآية في عليّ و العبّاس حين إفتخر بسقاية الحاج فنزلت الآية ففي تفسير عليّ ابن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: نزلت في عليّ و حمزة و العبّاس و شيبه قال العبّاس أنا أفضل لأنّ سقاية الحاج بيدي شيبه أنا أفضل لأنّ حجابة البيت بيدي و قال حمزة أنا أفضل لأنّ عمارة البيت بيدي و قال عليّ عليه السلام أنا أفضل فأني أمنت قبلكم ثمّ هاجرت و جاهدت فرضوا برسول الله ﷺ حكماً فأنزل الله أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ إِلَى قَوْلِهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ انتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و قد ذكر الحاكم الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسمّى بشواهد التّنزيل لقواعد التّفصيل كثيراً من الأخبار الواردة بطرق العامّة في الباب أن شئت الإطلاع عليها فعليك بمراجعة الكتاب و من جملة ما نقله فيه.

بأسناده عن أبي بريدة عن أبيه، قال: بينما شيبة و العباس يتفاخران اذ مرَّ بهما عليّ بن أبي طالب فقال لهما فيماذا تفاحران فقال العباس يا عليّ لقد أُوتيتا من الفضل ما لم يؤت أحد فقال عليّ وما أُوتيت يا عباس قال أُوتيت سقاية الحاجّ فقال عليّ ما تقول أنت يا شيبة قال قد أعطيت عمارة المسجد الحرام فقال لهما عليّ استحييت لكما يا شيخان فقد أُوتيت على صغري ما لم توتيتما فقالا وما أُوتيت يا عليّ قال عليّ ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى أمنتما بالله و رسوله فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على رسول الله ﷺ فقال له النبي ما وراءك يا عباس فقال أما ترى الى ما استقبلني به هذا قال ﷺ و من ذاك، فقال عليّ ابن أبي طالب فقال ﷺ أدعوا لي عليّاً فدعى فقال رسول الله يا عليّ ما الذي حملك على ما استقبلت به عمّك فقال يا رسول الله صدمته بالحقّ إن غلظت له أنفاً فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض اذ نزل جبرئيل فقال يا محمّد أنّ ربّك يقرأوك السّلام و يقول أتّل عليهم هذه الآية أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ الْعَبَّاسُ أَنَا قَدْ رَضِينَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ انْتَهَى^(١).

و قد نقل المجلسي رحمه الله في المجلّد التاسع من بحار الأنوار أحاديث كثيرة من العامة و الخاصّة و قال في آخرها نزولها في أمير المؤمنين ممّا أجمع عليه عامة المفسّرين من المتّقدين و متّعصبي المتأخّرين كالبيضاوي و الزّمخشري و الرّازي و غيرهم و سيأتي الأخبار في باب شجاعته و يدلّ على أنّ مناط الفضل و الفخر الإيمان و الجهاد و لا ريب في سبقه فيهما على سائر الصّحابة

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

كما سيأتي تفصيلهما فهو أولى بالخلافة والإمامة لقبج تفضيل المفضل كما يشهد به الباب ذوي العقول انتهى كلامه رفع مقامه.

إذا عرفت نزول الآية و أنها فيمن نزلت و في أي شيء نزلت فلنرجع الى تفسير الآية فنقول قوله: **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** الإستفهام للإنكار أي ليس الأمر كذلك و لذلك قال تعالى: **(لَا يَسْتَوُونَ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** أي تقاسون هذا بذاك بل تفتخرون بالسقاية و العمارة (لا يستون) بل بينهما بون بعيد و **اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** يظهر من هذا الكلام في آخر الآية أن من قاس سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام بالإيمان بالله و اليوم الآخر و الجهاد في سبيل الله فهو ظالم. أما لأنه أنكر الحق فهو ظالم.

و أما أن سقاية الحاج و عمارة المسجد من الكافر و المشرک ليس على ما ينبغي لقوله تعالى: **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ** ^(١) و حيث أن الكفر من أعظم الذنوب فصدور الفعل الذي يشترط فيه الإيمان.

منه أيضاً كفر و ظلم لأنه وضع الشيء في غير محله و لا نعني بالظلم إلا هذا. و في قوله: **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** إشارة الى أن الكافر المعاند للحق بعد تمامية الحجة إذا بقى على كفره فإن الله تعالى يكله الى نفسه هو المراد بقوله: **لَا يَهْدِي** و الألهادية بمعنى إرانة الطريق بتوسط الأنبياء ثابتة في حق الكل ثم أنه تعالى أثبت في هذه الآية لأمر المؤمنين. أوصافاً ثلاثة لا مزية لأحد فوقها:

أحدها: الإيمان و هو الأصل في جميع الأعمال كما هو واضح و لا شك أن أمير المؤمنين أول من آمن بالله و رسوله ولم ينكره أحد و من المعلوم أن

الفضل لمن سبق و قد تواترت الأخبار و اتفق أرباب السير و أجمع المورخون على أنَّ أول من آمن من الرجال أمير المؤمنين و من النساء خديجة و هذا فضل أي فضل و منقبة أئمة منقبة و هذا كان من المشهورات في صدر الإسلام عند الكل حتّى الأعراب في البوادي فعلى منكره لعنة الله.

قال في المناقب أستفاضت الرواية أنَّ أول من أسلم عليّ ثمّ خديجة ثمّ جعفر ثمّ زيد ثمّ أبودر ثمّ عمرو بن عتبة السلمي ثمّ خالد بن سعيد بن العاص ثمّ سمّية أمّ عمّار ثمّ عبيدة بن الحرث ثمّ حمزة ثمّ خبات بن الأرت و هكذا و هذا ممّا لا كلام فيه و كفى في ذلك ما رواه السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ^(١) سابق هذه الأمة عليّ بن أبي طالب قال النطنزي في الخصائص العلوية بالأسناد عن المأمون عن الرّشيد عن المهدي عن المنصور عن جدّه عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطّاب يقول، قال رسول الله ﷺ: يا عليّ أنت أول المسلمين إسلاماً و أول المؤمنين إيماناً.

و في حديث ابن عباس، قال رسول الله ﷺ عليّ عليه السلام أول من آمن بي و صدّقني، و عن أربعين الخطيب بأسناده عن ابن عباس و فضائل أحمد و كشف الثعلبي بأسنادهم الى عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال إنّ النّبي قال أن سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا طرفة عين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، و صاحبه ياسين و مؤمن آل فرعون فهم الصّديقون و عليّ أفضلهم.

و لنكتفي بهذا المقدار من النّصوص في الباب مع أنّه ليس بالنسبة الى فضائله إلا كقطرة من البحور و قد روي عنه عليه السلام في بعض احتجاجاته أنّه قال:

ضياء القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

صَدَّقْتُهُ وَ جَمِيعَ النَّاسِ فِي بِهِمْ
وَقَالَ الْحَمِيرِي:

مَنْ فَضَّلَهُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ
سَنِينَ سَبْعٍ وَأَيَّامَ مُحَرَّمَةٍ
وَأَيْضاً قَالَ:

مَنْ كَانَ وَحْدَ قَبْلِ كُلِّ مُوَحِّدٍ
مَنْ كَانَ صَلَّى الْقَبْلَتَيْنِ وَ قَوْمِهِ
وَقَدْ رَوَى الْمُخَالِفُونَ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ
لَوْ وَزَنَ إِيمَانُ عَلِيٍّ بِإِيمَانِ أُمَّتِي وَ فِي رِوَايَةٍ، وَ إِيمَانُ أُمَّتِي لَرَجَحَ
إِيمَانُ عَلِيٍّ عَلَى إِيمَانِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى.
وَلَنَعَمْ مَا قَالَ الْعَبْدِي:

أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ قَالَ لَنَا
لَوْ أَنَّ إِيمَانَ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِمَّنْ
يَجْعَلُ فِي كِفِّهِ مِيزَانٍ لَكِي
يُوفِي بِإِيمَانِ عَلِيٍّ مَا وَفَى
وَلَنَخْتَمُ الْكَلَامَ فِي الْوَصْفِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ الْإِيمَانُ فَتَبَتْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مُضَافاً إِلَى سَبْقِهِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ كَانَ إِيمَانُهُ عَلَيْهِ أَثْقَلُ
مِنْ إِيمَانِ الْجَمِيعِ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ السَّبْقَ بِالْإِيمَانِ شَيْءٌ وَ كَوْنُهُ أَثْقَلُ وَ أَحْكَمُ مِنْ
إِيمَانٍ غَيْرِهِ شَيْءٍ آخَرَ وَ لَا مِلَازِمَةَ بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُمَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي الْوَصْفِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ قَوْلُهُ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ.
وَ أَمَّا الْوَصْفُ الثَّانِي وَ هُوَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَهُوَ مِنْ شُؤْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ
لَوَازِمُهُ إِذْ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ كَامِلاً فِي إِيمَانِهِ بِاللَّهِ وَ هُوَ لَا يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَ عَلَيْهِ فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّكَلُّمِ فِيهِ كَيْفَ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ
الْمُتَّقِينَ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ^(١) وَالْآيَاتُ فِيهِ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الوصف الثالث وهو قوله: وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(٢) فهو أيضاً من
المسلّمات في حقه عليه السلام ولم يخالف فيه أحد إلا المكابر الذي لا ينبغي
الالتفات إليه.

فنقول: اجتمعت الأمة ووافق الكتاب والسنة إن لله خيرة من خلقه وأن
خيرته من خلقه هم المتّقون.

قال الله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى^(٣).

وَأَنَّ خيرته من المتّقين المجاهدون:

قال الله تعالى: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى
الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً^(٤).

وإن خيرته من المجاهدين السابقون إلى الجهاد:

قال الله تعالى: لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ^(٥).

وإن خيرته من المجاهدين أكثرهم عملاً في الجهاد وإتفقت الأمة على أن
السابقين إلى الجهاد هم البدريون وأن خيرة البدرين علي عليه السلام لإجماع
المؤمنين على أن الفتح في يوم بدر كان بسبب جهاده إذ هو الذي قتل أبطال
المشركين واحداً بعد واحد بشهادة التاريخ فلم يزل القرآن يصدق بعضه بعضاً
بإجماعهم حتى دلّوا بأن علياً خير هذه الأمة ولنعم ما قيل:

ولو يستوي بالتهوؤ الجلوس لمّا بيّن الله فضل الجهاد

قال بعض المحققين المعروفون بالجهاد، علي، حمزة، جعفر، عبيدة بن
الحارث، الزبير، طلحة، أبو دجانة، سعد بن أبي وقاص، البراء بن عازب، سعد
بن معاذ ومحمد بن مسلمة.

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

٢- البقرة = ٢١٨

١- البقرة = ٤

٤- النساء = ٩٥

٣- الحجرات = ١٣

٥- الحديد = ١٠

وقد اجتمعت الأمة على أنّ هؤلاء لا يقاسوا بعليّ في شوكته وكثرة جهاده.

فأمّا أبو بكر وعمر فقد تفحصنا كتب المغازي فما وجدنا لهما فيه أثر ألبتة انتهى. ولنعم ما قال الزّاهي:

أيجعل سيّد الثّقلين شبهاً
لي من قطّ لم يهزم شجاعاً
ولما يرتضيه له غلاماً
ولم يجعل بقبضته حساماً

وقال آخر:

أيّا ناصر المصطفى أحمد
وناصبت نصابه عنوة
تعلّمت نصرته من أبيكا
فلعنة ربي على ناصبيكا

وقال آخر:

إذا فاخر العباس عمّ المصطفى
بعمارة البيت المعظم شأنه
فأتى بها جبريل عن ربّ السماء
أجعلتم سقي الحجيج وما يرى
كالؤمنين الضّاربي هام العدى
وقال الآخر:

يا قارئ القرآن مع تأويله
أعمارة البيت المحرّم مثله
أم مثلي التمي أم عدوتهم
لا والذي فرض عليّ وداده
وقال الآخر:

وقال جعلتم السّقيّا كمن لا
يزال مجاهداً لا يستونا

والمقصود من ذكر الأشعار بعد الإخبار هو أنّه ما كان عند الأوائل في صدر الإسلام شكّ في أنّ الآية نزلت فيما ذكرناه وأثبتت لأمر المؤمنين على فضيلة

لم يسبقه إليها أحد و آية فضيلة أحسن مما نص عليه القرآن الكريم و الحمد لله رب العالمين.

الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ

لما ذكر الله تعالى في الآية السابقة أنَّ الملاك في الفضيلة هو الإيمان و الجهاد في سبيل الله لا سقاية الحاج و عمارة المسجد أكد ما ذكره بهذه الآية و قال: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ هَاجَرُوا مَعَهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جَاهَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أُولَئِكَ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ وَ حِلَاوَةِ النَّشَاطَيْنِ وَ فِي قَوْلِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ، إشارة إلى أنَّ الجهاد في سبيل الله لا يختص بالسيف و السلاح بل الجهاد بالأموال في موارده مثل الجهاد بالأنفس من حيث الفضيلة و ذلك مثل جهاد خديجة عليها السلام فأنها بذلت أموالها في سبيل الله كما لا يخفى على أحد فهي تكون من أعظم مصاديق الآية بالنسبة إلى الجهاد المالي كما أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام يكون من أعظم مصاديقها في الجهاد بالنفس.

و أمَّا غيرهما من المسلمين الذين جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فلكل واحد منهم شأن و فضيلة على حسب مراتبهم و هذا ظاهر و المخالف معاند بشهادة الأئمة.

و الحق أنَّ هذه الآية أيضاً تنطبق على أمير المؤمنين عليه السلام إنطباقاً لا يساويه أحد من أفراد الأمة أمَّا الإيمان فهو أول من آمن بالله و رسوله إيماناً حقيقياً لا يشوبه شك و لا نفاق أصلاً كما اعترف به رسول الله في كثير من الأحاديث و كفى في إثبات المدعى ما قال الرسول فيه حيث قال لو وزن إيمان عليّ بإيمان أمتي لرجح إيمانه على إيمان أمتي إلى يوم القيامة.

و أما الهجرة و الجهاد بقسميه فهو أيضاً واضح لا نحتاج الى بسط الكلام فيه فاذاً هو أعظم درجة عند الله من جميع أفراد الأمة و لذلك كان عليه من أظهر مصاديق الفائزين، لأنه ولد في بيت الله الحرام و فاز الى الشهادة أيضاً في بيت الله و لا فوز أعلى من ذلك و أما في الآخرة فهو قسيم الجنة و النار و ساقى الكوثر و بالجملة لا يقاس به أحد بعد رسول الله وليست درجة أعظم أشرف من هذه الدرجة عند الله قطعاً فالمطلوب ثابت.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ
 أَي أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَرَّ ذِكْرُهُمْ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُهَاجِرُونَ
 الْمُجَاهِدُونَ يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ، أَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ مِنَ
 اللَّهِ إِنْعَامٌ وَ إِفْضَالٌ وَ مِنَ الْأَدْمِيمِينَ رَقَّةٌ وَ تَعَطُّفٌ وَ إِذَا وَصَفَ بِهَا الْبَارِي فَلَا يَرَادُ
 بِهِمَا إِلَّا الْإِحْسَانُ الْمَجْرَدُ دُونَ الرِّقَّةِ وَ هَذَا الْإِحْسَانُ الْمَجْرَدُ فِي الدُّنْيَا يَعْمَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ لِقَوْلِهِ: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ^(١).

و أما في الآخرة فهو مختص بالمؤمنين و الى هذا أشار بقوله: فَسَأَكْتُبُهَا
 لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ^(٢) تنبيهاً على أَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الدُّنْيَا عَامَّةٌ وَ فِي الْآخِرَةِ خَاصَّةٌ
 بِالْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: بِرَحْمَةٍ مِنْهُ إِشَارَةٌ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ،
 فَكَلِمَةُ، مِنْهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الَّتِي يَبَشِّرُهُمْ بِهَا رَبُّهُمْ لَيْسَتْ مِنْ أَنْعَامِهِ
 الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا بَلْ هِيَ مِنْهُ تَعَالَى خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ.

و أما الرِّضْوَانُ فعلى ما فَسَّرَهُ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ، الرِّضَا الْكَثِيرُ، وَلَمَّا كَانَ
 أَكْثَرُ الرِّضَا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى خَصَّ لَفْظَ الرِّضْوَانِ فِي الْقُرْآنِ بِمَا كَانَ مِنَ اللَّهِ
 تَعَالَى وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرِّضَا الْكَثِيرَ أَعْنَى بِهِ رِضَى اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ النِّعَمِ وَ أَفْضَلِ
 الْقُرْبِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ جَنَّاتٍ جَمْعُ جَنَّةٍ يَعْنِي الْبَسَاتِينَ الَّتِي يَخْفَهَا الشَّجَرُ.

قال الرَّاغِبُ الجَنَّةُ كُلُّ بستانٍ ذي شَجَرٍ يسترُ بأشجاره الأرضَ و أما قوله: **لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ** أي لهؤلاء الموصوفين بالأوصاف المذكورة في الجنة نعيمٌ مُقيمٌ فالنَّعيمُ لين العيش اللَّذِيذِ و هو مُستَقٌّ من النِّعْمَةِ و هى اللِّينُ و أما النِّعْمَةُ بكسر النُّونِ فهى منفعةٌ ليستحقَّ بها الشُّكْرُ، و المقيم الدائم بخلاف الرَّاخِلِ فكأنَّه قال المقيم أبداً.

تنبيه

وإِعلمُ أَنَّهُ تعالى قال في هذه الآية يَبشِّرُهُم رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ و رضوانٍ، و لم يقل بِالرَّحْمَةِ و الرِّضْوَانِ، و ذلك لأنَّ التَّنْكِيرَ يفيد التَّوَعُّبَ بخلاف التَّعْرِيفِ و حيث أَنَّهُ تعالى أَراد نوعاً خاصاً من الرَّحْمَةِ و الرِّضْوَانِ و لا علم للمخاطب بها نَكَّرَهُما أي يَبشِّرُهُم رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ و رضوانٍ لا علم لكم بهما لأنَّهما نوعان خاصَّان.

ألا ترى أَنَّكَ اذا قلت مررت برجلٍ أو رأيت رجلاً بالتَّنْكِيرِ لا يعلم المخاطب من هو و أما اذا قلت مررت بالرجل مثلاً فهو يعلم أنَّ الألف و اللام كناية عن الرجل المعهود بين المتكلم و الخاطب و حيث أَنَا لا نعلم من رحمته إِلاَّ العامَّةَ منها و كذا الرِّضْوَانُ فقال تعالى قال أي أَنَّهُما ليسا من سنخ ما تعلمون و هذه نكتته خفيَّةٌ دقيقة الدَّالة على عظم الرَّحْمَةِ و الرِّضْوَانِ الَّذِينَ بَشَّرَهُمُ اللَّهُ بهما.

في تفسير القرآن



المجلد الثاني

ثم أَكَّدَ ما قال بقوله: **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ و الخلود في العرف الدَّوامُ في الشَّيْءِ، و الأبد الزَّمانُ المُستقبلُ من غير آخرٍ كما أَنَّ، قَطُّ، للماضي و حاصل هذا الكلام هو أَنَّ المؤمنين بتلك الصِّفَاتِ المُبَشِّرِينَ بِالرَّحْمَةِ و الرِّضْوَانِ و جَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خالدين فيها أبداً أي دائماً أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ أي كبير متضاعف لا تبلغه نعمة غيره من الخلق.

قال بعضهم أَنَّ الأبد قطعةٌ من الدهر متتابعة في اللّغة ومنه قول الشاعر:
 أهّاج عليك الشّوق أطلال ذمينةٍ بناصفةٍ البردين أو جانب الهجل
 أتى أبداً من دون حدثان عهدا وجرت عليها كلّ نافلةٍ شمل
 وقالت صفية بنت عبد المطلب:
 وخالجت أباد الدهور عليكم وأسماء لم تشعر بذلك أيماً
 فلو كان زبر مشركاً لعذرته ولكن زبراً يزعم الناس مسلم
 وأما الخلود فليس في كلام العرب ما يدلّ على أنّه بقاء لا غاية له وأنما
 يخبرون به عن البقاء الى مدّة ولأجل هذا قال تعالى خالدين فيها أبداً.

نقل بعض المفسّرين عن ابن عبّاس أنّه قال:
 قوله تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ الى قوله: أَجْرٌ عَظِيمٌ نزل في شأن المهاجرين
 خاصّة ولم يذكر مأخذاً ومستنداً عليه من الآثار وعليه لا دليل على صحّة قول
 ابن عبّاس لوضح التّقلّ و ذلك لأنّ الآية ناظرة الى سابقتها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ
 قال بعد ذلك يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ الْخ.

و ظاهر التعليق يشعر بأنّ الموصوفين بالأوصاف المذكورة يشملهم التبشير
 من الله سواء فيه المهاجرين و الأنصار و كلّ من كذلك الى يوم القيامة و ذلك
 لأنّ الله تعالى أثبت التّبشير، للمؤمنين، و المهاجرين و المجاهدين بأموالهم و
 أنفسهم و غير المجاهدين من الأنصار و المؤمنين و المجاهدين و أن لم
 يهاجروا من مكّة الى المدينة و لكنهم آمنوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم هذا
 إذا قلنا بأنّ المراد بالهجرة الهجرة من مكّة الى المدينة.

و أمّا إذا عمّمنا معناها فنقول المراد بالهجرة من الكفر الى الإيمان أو
 الهجرة من الوسواس الشيطانيّة الى الله تعالى بالعبوديّة و الطاعة و عليه
 فيدخل الجميع في الآية.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى أَسَدَ التَّبَشِيرِ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِأَنَّ مَالَكُمْ أَمْرَهُمْ وَالنَّازِرَ فِي مَصَالِحِهِمْ هُوَ الَّذِي يَبَشِّرُهُمْ وَلَمَّا كَانَتِ الْأَوْصَافُ الَّتِي تَحُلُّوْا بِهَا وَصَارُوا بِهَا عِبِيدَهُ حَقِيقَةً هِيَ ثَلَاثَةٌ، الْإِيمَانُ، وَالهَجْرَةُ، وَ الْجِهَادُ بِالْمَالِ وَ النَّفْسِ قَبُولُوا فِي التَّبَشِيرِ بِثَلَاثَةِ، الرَّحْمَةِ، وَ الرِّضْوَانِ، وَ الْجَنَّاتِ، فَبَدَأَ بِالرَّحْمَةِ لِأَنَّهَا الْوَصْفُ الْأَعْمَ النَّاشِئُ عَنْهَا تَيْسِيرُ الْإِيمَانِ لَهُمْ، وَ ثَنَّى بِالرِّضْوَانِ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ مِنْ إِحْسَانِ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ وَ هُوَ مُقَابِلُ الْجِهَادِ إِذْ هُوَ بِذَلِكَ النَّفْسِ وَ الْمَالِ، وَ قَدَّمَ عَلَى الْجَنَّاتِ لِأَنَّ رِضَا اللَّهِ عَنْ الْعَبْدِ أَفْضَلُ مِنْ إِسْكَانِهِ الْجَنَّةَ وَ أَتَى ثَالِثًا بِقَوْلِهِ: وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ أَي دَائِمٌ لَا يَنْقُطُ وَ هَذَا مُقَابِلُ لِقَوْلِهِ: وَ هَاجَرُوا لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا أَوْطَانَهُم الَّتِي نَشَأُوا فِيهَا وَ كَانُوا فِيهَا مُنْعَمِينَ فَاتَّزَعُوا الْهَجْرَةَ عَلَى دَارِ الْكُفْرِ إِلَى مُسْتَبَقَرِ الْإِيمَانِ وَ الرِّسَالَةِ فَقَبُولُوا عَلَى ذَلِكَ بِالْجَنَّاتِ ذَوَاتِ النَّعِيمِ الدَّائِمِ فَجَاءَ التَّرْتِيبُ فِي أَوْصَافِهِمْ عَلَى حَسَبِ الْوَاقِعِ الْإِيمَانِ ثُمَّ الْهَجْرَةَ ثُمَّ الْجِهَادَ فِي الْمُقَابِلِ عَلَى حَسَبِ الْأَعْمِ ثُمَّ الْأَشْرَفِ ثُمَّ التَّكْمِيلِ هَذَا.

مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ فِي الْآيَةِ وَلَا بِأَسَاسٍ بِهِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

قِيلَ فِي نَزُولِهَا، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطَبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ حَيْثُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ
بِخَبَرِ النَّبِيِّ حِينَ أَرَادَ فَتْحَ مَكَّةَ ذَكَرَهُ الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّنِ رَاوِيًا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَ أَبِي
عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ تَبَعًا لِصَاحِبِ الْكَشَافِ كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ مِنْ أَمْنٍ لَمْ
يَتِمَّ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِأَنْ يَهَاجِرَ وَ يَصَارِمَ أَقَارِبَهُ (يَصَادِمُ خ) الْكُفْرَةَ وَ يَقْطَعُ مَوَالِيَهُمْ
فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ إِعْتَزَلْنَا مَنْ يَخَالِفُنَا فِي الدِّينِ قَطَعْنَا آبَاءَنَا وَ أَبْنَاءَنَا وَ
عَشَائِرَنَا وَ ذَهَبَتْ تِجَارَتُنَا وَ هَلَكْتَ أَمْوَالُنَا وَ خَرِبَتْ دِيَارُنَا وَ بَقِينَا ضَائِعِينَ

فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه إبنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم بعد ذلك، و قيل نزلت في التسعة الَّذِينَ إرتدوا ولحقوا بمكة فنهى الله موالاتهم انتهى أقول لا يهمننا شأن النزول و أنما المهم ما يستفاد من الآية عموماً أو خصوصاً، فالحق أن الآية خطاب للمؤمنين كافة وهي باقية الحكم الى يوم القيامة ولا تختص بطائفة خاصة أو بزمان خاص أمر الله المؤمنين أن لا يتخذوا آباءهم أو إخوانهم أولياء أن أستحبوا الكفر على الإيمان فالنهي عن الإلتخاذ مشروط لا مطلق وذلك لأن الأب أو الأخ أو غيرهما من الأقارب إذا إختاروا الكفر على الإيمان لا فرق بينهم وبين الكافر الذي ليس من الأقارب لأن المانع هو الكفر وهو موجود فيهم على الفرض وقد نهى الله تعالى في كثير من الآيات عن إلتخاذ الكفار أولياء.

قال الله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

قال الله تعالى: فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(٢).

قال الله تعالى: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عِنْدَهُمُ الْعُرَّةَ فَإِنَّ الْعُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا^(٣).

قال الله تعالى: وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ^(٤).

والآيات في النهي عن ذلك كثيرة وإذا كان إلتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء منهياً عنه فهو ثابت الى يوم القيامة وفي قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إشارة إلى أَنَّ تَوَلَّى الكافر ظلمَ لَأَنَّهُ من وضع الشَّيْءِ في غير محلِّه بقى في المقام بحثان لا بدَّ لنا من التَّنبيه عليهما:

أحدهما: أَنَّ النَّهْيَ في قوله: لَا تَتَّخِذُوا نَهْيَ تنزيه أو تحريم فقال بعض المفسرين أَنَّ النَّهْيَ للتنزيه أي ترك الإِتِّخَاذِ أولى من فعله والحقُّ أَنَّهُ للتحريم بدليل قوله في آخر الآية وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ومن المعلوم أَنَّ الظُّلْمَ حرام فمن إِتَّخَذَ الكُفَّارَ أولياء فعل حراماً لَأَنَّهُ ظالم. ثانيهما: أَنَّ كلمة أولياء جمع ولي، والولي يطلق على معانٍ في القرآن. الأول: جاء بمعنى المعين والنَّاصر ومنه:

قال الله تعالى: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ^(١).

يعني ولم يكن له صاحب يتصر به من ذلِّ أصابه:

قال الله تعالى: وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا^(٢) يعني صاحب مرشداً.

الثاني: جاء بمعنى الولد ومنه:

قال الله تعالى: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا^(٣) يعني ولداً.

الثالث: جاء بمعنى القريب من حيث النسب أو السَّبب ومنه:

قال الله تعالى: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٤) أي قريب ينفعكم و ناصر ينصركم.

الرابع: جاء بمعنى الرَّبِّ ومنه:

قال الله تعالى: قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْكَ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٥) يعني أَتَّخِذُ رَبًّا.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



٢- الكهف = ١٧

١- بني إسرائيل = ١١١

٤- العنكبوت = ٢٢

٣- مريم = ٥

٥- الأنعام = ١٤

و قال الله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ أَوْلَىٰ^(١) يعني الرب.

الخامس: جاء بمعنى الله و منه:

قال الله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ^(٢) يعني الآلهة.
و قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ^(٣) يعني الآلهة.

السادس: جاء بمعنى الناصح و منه:

قال الله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^(٤) يعني في المناصحة.

و قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^(٥) يعني النصيحة.

و قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ^(٦) يعني النصيحة إذا عرفت هذا.

فنقول قوله: لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ يحتمل أن يكون بالمعنى الأول و هو المعين و الناصر أي لا تستعينوا بهم و لا تستنصروا منهم و أن كانوا أقرباء لأنهم حيث إستحبوا الكفر على الإيمان فليسوا بمعتمدين فأَنَّ الكافر عدو المسلم و أن كان من الأقرباء.

و يمكن أن يكون بمعنى القريب و هو الثالث من الأقوال و عليه فالمعنى لا تتخذوا الكفار و أن كانوا من أقرباءكم من الأقرباء الذين ينفعونكم ينصرونكم و بعبارة أخرى لا تعدوهم من الأقرباء و النافعين بحالكم لأنهم بإختيارهم رجعوا الكفر على الإيمان كأنهم خرجوا من ربة القرابة.

بجاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

٢- العنكبوت = ٤١

٤- آل عمران = ٢٨

٦- الممتحنة = ١

١- الشورى = ٩

٣- الشورى = ٦

٥- النساء = ١٢٤

و يمكن أن يكون بمعنى النَّاصِح وهو السَّادس منها و المعنى لا تَتَّخِذُوهُمْ ناصحين مشفقين و هذه الإحتمالات الثلاثة في معنى الولي لا إشكال فيها غيرها فلا يناسب المقام لأنَّهم لا يَتَّخِذُوا آبَاءَهُمْ وَأَخْوَانَهُمْ أولياء يعني أرباباً أو آلهة أو أولاداً و هو ظاهر فالآية لا تدل على عدم جواز معاشرتهم و مجالستهم و مؤانستهم و مراودتهم و لا سيَّما إذا كانوا أقرباء بل نقول أنَّ الآية و أمثالها لا دلالة لها على عدم جواز المحبة و الإعانة لهم إذا كانوا محتاجين فإنَّ صلة الأرحام مرغوب فيه شرعاً فلو كان الأب كافراً و الولد مسلماً يجب على الأولاد مراعاة حال الأباء و الأمهات و الأخوان و جميع الأقرباء لأجل كفرهم بل لأجل قرابتهم هذا بالنسبة إلى الأقرباء ممَّا لا كلام فيه فأنَّه من مصاديق صلة الأرحام التي أمر الله أن يوصل مسلماً كان أو كافراً.

و أمَّا بالنسبة إلى غيرهم من أصناف الكفار فليس الأمر كذلك إلا في صورة الاضطرار و هو أمر آخر.

أن قلت فعلى ما ذكرت يصير معنى الآية لا إشكال في إتخاذ الأقرباء أولياء.

قلت كلا و ذلك لأنَّ الآية تدل على عدم جواز إتخاذ الأقرباء أولياء في أمور دينكم بمعنى عدم الإعتماد على نصائحهم و بعبارة أخرى لا تستعينوا بهم قبلوا قولهم، فقله تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ معناه من جعل أباه أو أخاه ولياً لنفسه فهو ظالم لأنَّ الكافر لا يكون ولياً للمؤمن.

قال الله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا.

قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (١).

و هذا هو السبب الأصلي في عدم جواز الكفار أولياء لأنَّهم من أتباع الشيطان و من إتخذ الشيطان و من تابعه ولياً لنفسه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً.

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

لَمَّا نَهَى اللَّهُ تعالى المؤمنين من أن يتخذوا آباءهم وأخوانهم أولياء على ما مرّ بيانه خاطب رسوله في هذه الآية وأمره أن يقول لهم أن كان آباءكم الآية وجه الربط بين الأيتين هو أن إتخاذ الآباء والأخوان أولياء من دون الله مع كفرهم لا يكون إلّا ناشئاً عن محبة المؤمنين أيّاهم إذ لولا المحبة والعلاقة لا يحصل المقصود فأَنْ من لم يكن محبوباً كيف صار وليّاً فقال تعالى في هذه الآية ما حاصله أن المؤمن ينبغي أن لا يحب الكافر بحيث لا يرجحه على الله ورسوله فيجعله وليّاً دونه.

ثم فصل الكلام فقال ما قال وقد ذكر في هذه الآية، الآباء أولاً والأبناء ثانياً والأخوان ثالثاً والأزواج رابعاً والعشيرة وهي القبيلة أو مطلق الأقرباء سبباً ونسباً، خامساً والأموال المكتسبة سادساً، والتجارة وهي البيع والشراء سابعاً، والمسكن وهي جمع مسكن وهو مكان السكونة ثامناً، فهذه الأمور الثمانية هي أصول العلائق في عالم الطبيعة ومدار الإعاشة فيها والجامع لهما هو الأقرباء والأموال ومن المعلوم أن وجود أحدهما بدون الآخر مصيبة وعدمهما من أعظم المصائب ولما كان كذلك فهي محبوبة لكل إنسان قهراً وطبعاً وبعبارة أخرى محبة الإنسان بالمال والأولاد والأقرباء غريزة فطرية لا يمكن سلبها منه إذ الشيء لا يقبل الرفع إلّا بعد قبوله الوضع فما لا يكون قابلاً للوضع والجعل لا يكون قبلاً للرفع وحيث أن المحبة بها غريزة فطرية وليست بجعل جاعل ووضع واضع فهي غير قابلة للرفع فلا يعقل أن يقال لأحد من أفراد الانسان يجب عليك أن لا تحب المال والأقرباء مثلاً كما لا

يعقل أن يقال له ذلك بالنسبة إلى حياته وصحته وعزته والسّر في الجميع ما ذكرناه اذا عرفت هذا فنقول:

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لم يَمْنَحْهم عن أصل المحبة ولذلك لم يقل محبوباً اليكم بدل قوله: أَحَبَّ إِلَيْكُمْ اذ لو قال محبوباً اليكم كان التكليف بالمحال اذ لا يمكن لأحد أن يبغض ماله وأولاده وأقرباءه وهكذا وما لا يمكن فهو غير مقدور والأمر والنهي لا يتعلقان به، ولذلك قال أَحَبَّ اليكم، فلم يكلفهم بنفي المحبة رأساً بل كلفهم بأمر مقدور وهو عدم ترجيح حبهم على حب الله ورسوله وتوضيح الكلام إجمالاً هو أَنَّ المؤمن يحب ماله وأولاده كذلك يحب الله ورسوله إلا أَنَّ الأول فطري قهري والأخر كسبي يحصل له بسبب الإيمان فاذا دار الأمر في بعض الموارد بين إختيار أحدهما وترك الآخر فالمؤمن يختار رضا الله ورسوله وبعبارة أخرى يرجح حبهما على حب أولاده والكافر والمنافق بالعكس فالآية بصدد بيان هذه النكتة فكأنه تعالى قال أَنِّي لا أقول لم تحبّونهم أو لا ينبغي أن تحبّوا هؤلاء المذكورات في الآية رأساً بل أقول لا ترجحوا حبهم على حب الله ورسوله فاذا دار الأمر بين أحدهما فإختاروا حب الله والجهاد في سبيل الله وأتركوا تلك العلائق هذا ما فهمناه من الآية.

وأما تخصيص الجهاد بالذكر في الآية في قوله: وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فالوجه فيه واضح لأنهم كانوا متخلفين عن الهجرة والجهاد حباً لأموالهم وأقرباءهم فوَبَّخَهُم الله عليه هذا اذا قلنا أَنَّ الآية خطاب إلى المؤمنين الذين تخلفوا من الهجرة.

وأما اذا قلنا بأن الآية خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة فالوجه فيه أَنَّ في الجهاد مظنّته القتل أو الجرح وفي البقاء مع الأقرباء وعدم الدّخول في الجهاد مظنّة الحياة والسلامة ولا شك أَنَّ المؤمن الحقيقي يختار الأول اذ فيه رضا الله ورسوله، وأما غير المؤمن فلا.

فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

فالتربص، التثبت في الشيء حتى يجي وقته، و بعبارة أخرى هو الإنتظار أمرهم الله به حتى يأتي الله بأمره من عقوبة عاجلة أو أجلّة فإن الله تعالى لبالمرصاد والله لا يهدي القوم الفاسقين، أي لا يهديهم الى الثواب والجنة لأنه تعالى قد هداهم الى الإيمان:

قال الله تعالى: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعِغْيَ عَلَى الْهُدَى^(١)

و أنما عبّر عنهم بالفاسقين و لم يقل الكافرين، لأنهم كانوا من المؤمنين بالله و رسوله ظاهراً ولكنهم لم يطيعوا أمر الله و رسوله فصاروا بذلك من الفاسقين أعادنا الله منه.



لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ
 إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ
 ضَاقتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ
 مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ
 وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ
 عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)
 ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ
 اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا
 الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
 بَعْدَ غَائِمِهِمْ هَذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)
 قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا
 يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

◀ اللغة

حُنَيْنٍ بضم الحاء وفتح النون و سكون الياء و التّون إسم وادٍ بين مكّة و
 الطائف في قول قتادة و قال عروة هو وادٍ الى جانب ذي المجاز فلذلك صرف.
 فَلَمْ تُغْنِ الإعناء إعطاء ما يرفع و الفعل مجزوم، بلم.
 رَحِبَتْ، الرَّحْب السّعة في المكان و قد يكون في الرزق.
 مُدْبِرِينَ، الإِدبار الذّهاب الى جهة الخلف.

جزء ١٠

المجلد الثامن

سَكِينَتُهُ، السَّكِينَةُ بفتح السين و كسر الكاف الرَّحمة التي تسكن اليه النفس ويزول معها الخوف.

نَجَسَ بفتح النون والجيم و سكون السين كلَّ شَيْءٍ مستقذر و يقع على الذكر و الأنثى سواء.

عَيْلَةً تقول عال يعيل اذا إفقر، العيلة الفقر.
صَاعِزُونَ الصَّغار الذَّل و النكال الذي يصغر قدر صاحبه.

الإعراب

وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ معطوف على موضع في موطن واذا بدل من يوم دينَ الْحَقِّ يجوز أن يكون مصدر، يدينون، و يجوز أن يكون مفعولاً به، و يدينون بمعنى يعتقدون عَنْ يَدٍ في موضع الحال أي يعطوا الجزية أذلة.

التفسير

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ

قيل اللام في قوله: لَقَدْ للقسام أقسم الله تعالى في هذه الآية بأنه نَصَرَ المؤمنين في موطن كثيرة والمواطن مقامات الحرب و مواقفها و قيل مشاهد الحرب وهذه المواطن التي نصرهم الله فيها وقعت بدر و قريظة و النضير و الحديبية و خيبر و فتح مكة و أما وصفت المواطن بالكثرة لأنَّ المؤرَّخين وأصحاب المغازي نقلوا أنها كانت ثمانين موطناً و الله تعالى قد نصرهم في كلِّها و منها غزوة حنين التي خصَّها الله تعالى بالذكر في هذه الآية و قلنا أنه وادٍ بين مكة و الطائف قريب من ذي المجاز.

و إجمال القصَّة هو أنه لما أذن أمير المؤمنين عليه السلام بمكة أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك العام جرعت قريش جزءاً شديداً و قالوا ذهبت تجارتنا و ضاعت عيالنا و خربت دورنا فأنزل الله عزَّ وجلَّ قل يا محمد أن كان أباءكم أو أبناءكم الآية.

و أما سبب غزوة حنين أنه لما خرج رسول الله ﷺ الى فتح مكة أظهر أنه يريد هوازن و بلغ الخبر هوازن فتهاؤا و جمعوا الجموع و السلاح و اجتمع رؤساء هوازن الى مالك بن عوف النَّضري فرأسوه عليهم و خرجوا و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و مرّوا حتّى نزلوا بأوطاس و كان دريد بن الصّمة الجشمي في القوم و كان رئيسهم (رئيس جشم) و كان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فلمس الأرض بيده فقال في أيّ وادٍ قالوا بوادي أوطاس قال نعم مجال خيل لا حزن خرس و لا سهل دهس، مالي أسمع رعاء البعير و نهيق الحمير و خوار البقر و ثغاء الشاة و بكاء الصّبي فقالوا له أن مالك بن عوف ساق مع النَّاس أموالهم و نساءهم و ذراريهم ليقاتل كلّ إمري عن نفسه و ماله و أهله فقال دريد راعي الضّأن و ربّ الكعبة ماله و للحرب ثمّ قال أدعوا لي مالكم فلمّا جاء قال له يا مالك ما فعلت قال سقت مع النَّاس أموالهم و نساءهم و أبناءهم ليجعل كلّ رجلٍ أهله و ماله وراء ظهره فيكون أشدّ لحربه فقال يا مالك أنك أصبحت رئيس قومك و أنك تقاتل رجلاً كبيراً و هذا اليوم لما بعده ولم تضع في تقدّمة بيضة هوازن الى نحور الخيل شيئاً ويحك و هل يلوي المنهزم على شيء أردد بيضة هوازن الى عليا بلادهم و ممتنع محالّهم و أبق الرّجال على متون الخيل فأثّه لا ينفكك إلّا رجل بسيفه و درعه و فرسه فأن كانت لك لحق بك من وراءك و أن كانت عليك لا تكون قد فضحت في أهلك و عيالك فقال له مالك أنك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك فلم يقبل من دريد فقال دريد ما فعلت كعب و كلاب قالوا لم يحضر منهم أحد قال غاب الجدّ و الحزم لو كان يوم علا و سعادة ما كانت تغيب كعب و لا كلاب قال فمن حضرها من هوازن قالوا عمرو بن عامر و عوف بن عامر قال ذاك الجذعان لا ينفعان و لا يضرّان ثمّ تنفّس دريد و قال حرب عوان ليتني فيها جنح أحبّ فيها واضع أقود و طفاء الزمّع كأنّها شاة صدع و بلغ رسول الله ﷺ إجتماع هوازن بأوطاس فجمع القبائل و رغّبهم في الجهاد و وعدهم النّصر و أن الله قد وعده

وَبِ
الْقُرْآنِ
فِي
بَيْتِ
الْقُرْآنِ



أن غنيمة أولادهم ونساءهم و ذراريهم فرغب الناس و خرجوا على راياتهم و عقد اللواء الأكبر و دفعه الى أمير المؤمنين عليه السلام وكل من دخل مكة براية أمره أن يحملها و خرج في اثني عشر ألف رجل ممن كانوا معه و فى رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال و كان معه من بني سليم ألف رجل رئيسهم عباس بن مرداس السلمي و من مزينة ألف رجل قال فمضوا حتى كان من القوم على مسيرة بعض ليلة و قال مالك بن عوف لقومه ليصير كل رجل منكم أهله و ماله خلف ظهره و أكسروا جفون سيوفكم و أكمنا في شعاب هذا الوادي و فى الشجر فإذا كان فى غلس الصبح فأحملوا حملة رجل واحد و هداوا القوم فان محمدًا لم يلق أحدًا يحسن الحرب فلما صلى رسول الله الغداة انحدر فى الوادي و هو واد له إنحدر بعيد و كانت بنو سليم على مقدمة فخرجت عليها كتائب هوازن من كل ناحية فأنهزمت بنو سليم و إنهزم من وراءهم و لم يبق أحد إلا إنهزم و بقى أمير المؤمنين عليه السلام يقاتلهم فى نفر قليل و مر المنهزمون برسول الله لا يلوون على شيء و كان العباس أخذ بلجام بغلة رسول الله عن يمينه و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره فأقبل رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه ينادي يا معشر الأنصار الى أين المفر ألا أنا رسول الله فلم يلو أحد عليه و كانت نسيبته بنت كعب المازينة تحثوا التراب فى وجوه المنهزمين و تقول أين تفرون عن الله و رسوله و مر بها عمر فقالت له وملك يا عمر ما هذا الذى صنعت فقال لها هذا أمر الله فلمأ رأى رسول الله الهزيمة ركض يحوم على بغلته و قد شهر سيفه فقال يا عباس أصد هذا الطرب (الفرس) و ناد يا أصحاب البقرة و يا أصحاب الشجرة الى أين تفرون هذا رسول الله ثم رفع رسول الله يده فقال اللهم لك الحمد و اليك المشتكى و أنت المستعان فنزل جبرائيل فقال يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى حين فلق الله له البحر و نجاه من فرعون ثم قال رسول الله لأبي سفيان بن الحارث ناولني كفاً من حصي فناوله فرماه فى وجوه المشركين ثم قال شأهت الوجوه

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَمْ تَعْبُدْ وَأَنْ شِئْتَ أَنْ لَا تَعْبُدَ لَا تَعْبُدْ، فَلَمَّا سَمِعَتْ الْأَنْصَارُ نِدَاءَ الْعَبَّاسِ عَظَفُوا وَكَسَرُوا جَفُونَ سِيوفِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ لَبَيْكَ وَمَرَّوْا بِرَسُولِ اللَّهِ وَأَسْتَحْيُوا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَلِحَقْوَا بِالرَّايَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِلْعَبَّاسِ مِنْ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا الْفَضْلِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْآنَ حَمَى الْوُطَيْسُ وَنَزَلَ النَّصْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَانْهَزَمَتْ هَوَازِنُ فَكَانُوا يَسْمَعُونَ قَمْقَعَةَ السَّلَاحِ فِي الْجَوِّ وَانْهَزَمُوا فِي كُلِّ وَجْهِ وَغَنِمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْوَالَهُمْ وَنَسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَقُولُ نَقَلْنَا الْقِصَّةَ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُمِّي (١).

إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ

فقد ظهر معناه ممَّا ذكرناه و ذلك لأنَّ عدَّة المسلمين كانت إثني عشر ألف رجل و هذه الكثرة هي الَّتِي كانت أعجبتهم و أيقنوا أنَّ النَّصر معهم و هذا العجب صار سبباً لانهزامهم و ضيق الأرض عليهم فرَّجحوا الفرار على القرار و في هذا الكلام إشارة إلى أنَّ الأمور بيد الله فالْمُؤْمِنُ المسلم ينبغي أن يتوكَّل عليه في جميع أموره مع الثَّبات و الإستقامة و لا يَغْتَرَّ بالأسباب و الإمكانيات الظَّاهريَّة و كانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أو في شَوَّال سنة ثمان.

في القرآن في تفسير القرآن

ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أُنْزِلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا

جزء ١٠

أي ثُمَّ بعد ذلك أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ وَ هي الرِّحمة الَّتِي تسكن إليها النَّفس و يزول معها الخوف حتَّى رجعوا إليهم و قاتلوهم و هزمهم الله بأنَّ أُنْزِلَ النَّصْر و

المجلد الثاني

أَنْزَلَ السَّكِينَةَ هِيَ الطَّمَأْنِينَةُ وَالْأَمْنَةُ وَقِيلَ هِيَ الْوَقَارُ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْأَنْصَارَ أَنْهَزُوا فِي بَدْءِ الْأَمْرِ وَمِنْشَأُ الْإِنْهَزَامِ الْخَوْفُ أَيْ خَافُوا فَأَنْهَزُوا، ثُمَّ رَجَعُوا وَكَسَرُوا جَفُونَ سَيُفْهِمُ وَهُمْ يَقُولُونَ لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْنِي بِالسَّكِينَةِ إِلَّا هَذَا إِذْ لَاشْكُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْقُلُوبِ لَا غَيْرُهُ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِإِنْزَالِ السَّكِينَةِ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** فففيه إحداهما:

أحدهما: أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرَوْهَا إِذَ الْمَلِكُ لَا يَرَى بِالْعَيْنِ الْمَلَكِي الْعَنْصَرِي وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: **لَمْ تَرَوْهَا** خُطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ لَا لِلنَّبِيِّ لِأَنَّ النَّبِيَّ يَرَى الْمَلِكَ كَمَا يَرَى غَيْرَهُ لِأَنَّهُ بَرَزَ بَيْنَ الْمَلَكُوتِ وَالْمَلِكِ، وَ الْإِحْتِمَالُ الثَّانِي أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْجُنُودِ غَيْرَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى جُنُودًا كَثِيرَةً لَا يَعْلَمُ عَدْدُهَا إِلَّا هُوَ كَمَا فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ وَالْأَقْوَى الْأَوَّلُ كَمَا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ السَّكِينَةَ وَالْجُنُودَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** أَمَّا عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ ظَهَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَغْلُوبِيَّتِهِمْ وَمَقْهُورِيَّتِهِمْ وَ سَبْيِ نِسَائِهِمْ وَ ذَرَارِيهِمْ وَ أَخْذِ أَمْوَالِهِمْ وَ أَيُّ عَذَابٍ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ مِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ فِي حَيْنٍ فَأَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا نَادِمِينَ خَاذِلِينَ بَلْ مَقْتُولِينَ أَوْ مَجْرُوحِينَ وَ بِالْجُمْلَةِ ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ بِالْفَقْرِ وَ الْإِسْتِثْصَالِ وَ الدَّلَّةِ بَعْدَ مَا كَانُوا مُتَنَعِّمِينَ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ نِعْمَةِ الْمَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ الْعَشِيرَةِ وَ غَيْرِهَا وَ أَيُّ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَكْتَنِفَةِ بِالشَّدَائِدِ وَ الْمَصَائِبِ وَ الْآلَامِ الرُّوحِيَّةِ وَ الْجَسْمِيَّةِ وَ فَقَدَ الْأَحْبَةَ وَ الْأَعَزَّةَ هَذَا إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْعَذَابِ الْمَشَارِ إِلَى هِيَ الْآيَةُ هُوَ الْعَذَابُ الدُّنْيَوِيُّ وَ أَمَّا أَنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْعَذَابُ الْآخِرِيُّ فَهُوَ أَشَدُّ وَ أَعْظَمُ مِنَ الْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ بِمَرَاتِبٍ بَلْ لَا يَقَاسُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ لِأَنَّ الْعَاجِلِيَّ يَفْنَى وَ الْآجِلُ يَبْقَى هَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى الْكَيْفِيَّةِ وَ أَمَّا الْكَمِّيَّةُ فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ عَلَى عِبَادِهِ قَالَ تَعَالَى: **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ**

لِلْغَيْبِ^(١) بل الله تعالى يريد الخير و الصّلاح من عباده و لأجل ذلك بعث اليهم أنبياء و جعل لهم التكاليف و لم يتركهم سدى و مع ذلك هو أرحم الراحمين بالنسبة الى العصاة و لأجل ذلك جعل التوبة لهم.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 هاهنا تفيد العطف و إنّما حسن عطف المستقبل على الماضي لأنّه مشاكله فإنّ الأوّل تذكير بنعمه و الثّاني وعدّ بنعمه.

والتّوبة بفتح الثّاء هي النّدم على ما مضى من القبيح و العزم على أن لا يعود الى مثله في الجني أو في القبح فشرط النّدم بالعزم لأنّ النّدم إنّما هو الماضي و العزم على ما يستقبل فلو لم يجتمعا لم تكن توبة و المراد بهما في المقام أنّه تعالى يقبل التّوبة من بعد هزيمة من إنهمز و رجوعه الى الحق المراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب و يرجع الى طاعة الله و الإسلام و يندم على ما فعل من القبيح على من يشاء قال بعضهم و إنّما علّقها بالمشيئة لأنّ قبول التّوبة و إسقاط العذاب عندها تفضّل منه تعالى على التّائب و لو كان ذلك و اجباً لما جاز تعلّق ذلك بالمشيئة و أمّا من خالفنا في ذلك و لم يقل بالتّفضّل فهو قال إنّما علّقها بالمشيئة لأنّ منهم من له لطف يؤمن عنده فالله تعالى يشاء أن يلطّف له مع صرف العمل في ترك التّوبة الى الله و قوله: **وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** معناه أنّه ستارٌ للذنوب لا يفضح أحداً على معاصيه في الدّنيا و الآخرة بل يسترها عليه في النّشأتين و هو رحيمٌ بعباده لأنّ رحمته سبقت غضبه و إنّما قال الله تعالى ذلك في المقام ليرغب المنهزمين و المغلوبين الى التّوبة و الرجوع الى الإسلام.

بعبارة أخرى أعلم الله تعالى أنّه لم ينسّد عليهم باب التّوبة بعد كفرهم و قتالهم و هو من أكبر النّعم و لذلك رجع بعض المنهزمين من الكفّار الى الإسلام

و حسن إسلامهم بعد ذلك منهم مالك بن عوف النَّضري رئيس هوازن فأثَّه و من معه من قومه أسلموا جميعاً.

و روي أنَّ ناساً جاءوا فبايعوا على الإسلام و قالوا يا رسول الله أنت خير النَّاس و أبر النَّاس و قد سبي أهلونا و أولادنا و أخذت أموالنا، و كان سبي يومئذ ستة آلاف نفس و أخذ من الإبل و الغنم ما لا يخفى فقال رسول الله ﷺ أنَّ خير القول أصدقه إختاروا أمَّا ذراريكم و نساءكم و أمَّا أموالكم فقالوا ما نعدل بالأحساب شيئاً و تمام الحديث أنَّهم أخذوا نساءهم و ذراريهم إلا امرأة وقع عليها صفوان بن أمية فحملت منه فلم يردها.

و قد نقل بعض العامة في تفسيره^(١) لهذه الآية عن رجل كان يكنى بأبي حرد، قال لما كان يوم حنين أسرنا رسول الله فيينا هو يميز بين الرجال والنساء و ثبت امرأة حتَّى قعدت بين يديه أذكره حيث نشأ و شبَّ في هوازن أَرْضَعُوهُ فَأَنْشَأَتْ تَقُول:

أَمَنْتُ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَأَنْتَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَسْتَنْظُرُ
أَمَنْتُ عَلَى بَيْضَةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ مَفْرُقٌ شَمَلَهَا فِي دَهْرَهَا غَيْرُ
أَبَقْتُ لَنَا الْحَرْبَ هَتَافاً عَلَى حَزَنِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْغَمَاءُ وَالْغَمِيرُ
إِنْ لَمْ تَدَارِكْهُمْ نَعْمَاءُ تَنْشُرُهَا يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْماً حِينَ يَخْتَبِرُ
أَمَنْتُ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فَوْكٌ يَمْلَأُوهَا مِنْ مَخْضِهَا الدُّرُورُ
إِذْ كُنْتُ طِفْلاً صَغِيرًا كُنْتَ تَرْضَعُهَا وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ
يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحَتْ كَمْتُ الْجِيَادِ بِهِ عِنْدَ الْهِيَاجِ إِذَا مَا اسْتَوْقَدَ الشَّرَرُ
لَا تَجْعَلُنَا كَمَنْ شَأَلَتْ نُعَامَتَهُ وَلِئِبْقَ مَنَا مَعْشَرُ زَهْرُ
إِنَّا نَوْمِلُ عَفْوَاً مِنْكَ نَلْبِسُهُ هَذِي الْجَبْرِيةُ إِنْ تَعَفَوْا وَتَسْتَنْصِرُوا
إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَى وَقَدْ كَفَرْتُ وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مَدَّخِرُ
فَأَلْبَسَ الْعَفْوَ مِنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ مِنْ أَمْهَاتِكَ أَنَّ الْعَفْوَ مَشْتَهَرُ
وَأَعْفُ عَفَى اللَّهُ عَمَّا أَنْتَ رَاهِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ يَهْدِي لَكَ الظَّفَرُ

فلما سمع النبي ﷺ هذا الشعر قال ﷺ ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وقالت قريش ما كان لنا فهو لله ورسوله وقالت الأنصار ما كان لنا فهو لله ورسوله وفي رواية أخرى فقال رسول الله ﷺ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فله و لكم وقالت الأنصار ما كان لنا فله و لرسوله فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال انتهى.

أقول أنظروا يا أهل الإنصاف الى رحم النبي ﷺ وعدله، أما رحمه فلاته ﷺ قد عفى عن سهمه وسهم أقرباءه الذين هم بمنزلة نفسه ولم يعف عن سهم القريش والأنصار فقال أما ما كان لي ولبني عبد المطلب.

ثم أن قريشاً والأنصار قد إقتدوا بنبيهم في العفو وتركوا ما بأيديهم نكتته لابد من المسلمين من التوجه اليها الى يوم القيامة وهى أن العفو والإغماض من المسلم بالنسبة الى الخاطي والعاصي اذا ندم من فعله أمرٌ مرغوبٌ فيه كما أن الله تعالى يعفو عن المذنب التائب وبذلك أمر جميع أنبياءه وأوصيائه ومن حذى حذوهم وهذا مما لا كلام في حسنه ولكن المسلمين ولا سيما حكامهم تركوا بعد رسول الله هذه السنة المرضية التي توجب جلب العاصي الى الطاعة الخاطي الى الإنقياد والكافر الى الإسلام ولم يعلموا أن الإسلام دين الرأفة والرحمة لا دين الخشونة والانتقام وهذا أي ترك هذه الطريقة المرضية صار باعثاً لركود الإسلام وإنتشار أحكامه في الأفاق كما لا يخفى على أحد.

وأما مسألة العدالة فهي التي بنى الإسلام عليها واقعاً فاذا كان الرسول ﷺ وهو يقول في كلامه أما ما كان لي مثلاً فهو لكم ولا يقول ما كان لجميع المسلمين فهو لكم فما تفهم من هذا الكلام، هذا، مع أنه ﷺ مضافاً الى مقام ولايته على الأموال والنفوس لقوله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ^(١) كان يعلم أنه لو رد جميع الأموال والسبايا لم يخالف فيه أحد كما

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

الجلد

رَأَيْتَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ حَيْثُ قَالُوا مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا هَذَا الْمَنْوَالِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ عَالِمًا بِهِ مَضَافًا إِلَى مَقَامِ وَلَايَتِهِ فَلَمْ يَلَمْ يَقُلْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ مَا كَانَ لِي وَلِلْمُسْلِمِينَ فَهُوَ لَكُمْ جَمِيعًا.

لَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّ أَسَاسَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْعَدْلِ وَهُوَ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لَا يَحِلُّ مَالٌ إِمْرًا إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسِهِ، وَ قَالَ تَعَالَى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ** ^(١) وَقَالَ ﷺ النَّاسُ مَسْلُطُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَهَكَذَا وَحَيْثُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَاتَلُوا الْكُفَّارَ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ مَا أَخَذُوا تَحْتَ عُنْوَانِ الْغَنِيمَةِ فَصَارُوا مَالِكِينَ لَهَا قَهْرًا بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَالْحُكْمُ بِأَنَّهُ لَاحِقٌ لَهُمْ فِيهَا مُخَالَفَ لِلْعَدْلِ وَهَذِهِ النِّكْتَةُ أَيْضًا مِمَّا غَفَلَ عَنْهُ السَّمْلَمُونَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ فَأَنَّ وَلَا تَهْمُ وَحُكْمُهُمْ حُكْمُوا فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَفْسِهِمْ بِمَا شَاءُوا وَأَرَادُوا وَهَذِهِ الرُّؤْيَا الرَّدِيئَةُ وَالطَّرِيقَةُ الْقَبِيحَةُ الْخَبِيثَةُ سَرَتْ مِنْهُمْ إِلَى أَحَادِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا نَرَى فِي زَمَانِنَا هَذَا وَأَقْبَحُ مِنْهُ إِنْتِحَالُهُمُ الْحُكْمَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَصْبَحَ الْإِسْلَامُ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَرِيبًا لَا يَجَابِ دَعْوَتَهُ وَأَمْثَالُهُ يَذُوبُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ مَتَابَعَةِ الْأَهْوَاءِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ غَامِهِمْ هَذَا

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِنَجَاسَةِ الْمُشْرِكِينَ، النَّجَاسَةُ الْقَذَرَةُ وَذَلِكَ ضَرِبَانِ:

ضَرْبٌ يَدْرِكُ بِالْحَاسَةِ وَهُوَ جَمِيعُ الْقَاذُورَاتِ الْمَحْسُوسَةِ مِثْلُ الْبَوْلِ وَالْمَنِيِّ وَالْدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَلَا كَلَامَ لَنَا فِيهَا فَعَلًا.

وَضَرْبٌ لَا يَدْرِكُ بِالْحَاسَةِ بَلْ يَدْرِكُ بِالْبَصِيرَةِ وَهَذَا هُوَ الْمَرَادُ فِي الْمَقَامِ ذَلِكَ كَالْكَفْرِ فَأَنَّهُ مِنْ أَنْجَسِ الْأَنْجَاسِ وَلَا يُطَهَّرُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّوْبَةِ.

و أما في اللغة فكل شيء مستقذر فهو نجس بفتح النون و كسر الجيم فاذا أستعمل مفرد قيل نجس بفتحهما و يقع على الذكر و الأنثى سواء و ظاهر الآية أن الكفار أنجاس و اذا ثبت ذلك بحكم الآية فيتفرع عليه أمور:

منها، عدم جواز دخولهم المساجد لأن شركهم أجرى مجرى القذر الذي يجب تجنّبه و على هذا من باشر يده يد كافرٍ مع الرطوبة يجب على المسلم أن يغسل يده و الأحكام المترتبة عليه كثيرة ليس المقام من مواضع ذكرها.

أما الكلام في دخولهم المساجد و قد أجمع الفقهاء على عدم جوازه و حيث أن الموضوع من أهم المسائل فلا بد لنا من التكلّم فيه بحسب ما يقتضيه المقام فنقول:

المتبادر من الشُّرك هنا أنه الذي أثبت له تعالى شريكاً أي اعتقد إلهاً غيره فالمشرك هو غير الموحّد فيه و بذلك قال بعض علماءنا و بعض العامة و يرشد اليه.

قال الله تعالى: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ^(٢).

قال الله تعالى: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ^(٣).

كيفية الاستدلال بها أن الله تعالى عطف المشركين على الكفار بالواو و هو يقتضي المغايرة.

و من الأخبار مرسلة الوشا عن أبي عبد الله عليه السلام: أَنَّهُ كَرِهَ سُئُورَ وَلَدِ الزَّنا و اليهودي و النصراني و المشرك و كلّ من خالف الإسلام و كان أشدّ ذلك عنده سُئُورُ النَّاصِبِ و يدلّ على ذلك رواية سعد بن صدقة قال سمعت أبا عبد الله و قد سأل عن الكفر و الشُّرك أيهما



أقدم فقال الكفر أقدم و ذلك أَنَّ ابليس لعنه الله أوّل من كفر وكان كفره غير شركٍ لأنّه لم يدع الى عبادة غير الله و أنّما دعا الى ذلك بعد فأشرك انتهئ.

و في الحسن عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: فيه من عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً ومن عبد الإسم والمعنى فقد شرك و عبد اثنين و من عبد المعنى دون الإسم فذلك التّوحيد انتهئ.

فهذه الآيات والأخبار قد دلّت على أَنَّ الكفر غير الشّرك و يتفرّع عليه أَنَّ المشرك لا يجوز دخوله المسجد الحرام و أمّا غيره من أصناف الكفّار فلا و حيث أَنَّ اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالإتفاق فهم موحّدون لا مشركون فلا منع من دخولهم المسجد الحرام هذا ملخص كلامهم في الباب.

و قال أكثر علماءنا أَنَّ المراد بالمشركين في الآيات هنا ما يعمّ عبّاد الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى وإضرابهم لأنّه تعالى قد سمّاهم مشركين بقوله عزّ من قائل: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الى قوله اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(١).

و هذه الآية المذكورة في سياق الآية المذكورة المتضمنة لوصفهم بالنجاسة فدلت على التعميم، و قال في المدارك بعد نقله لذلك نمنع هذه المقدّمة إذ المتبادر من معنى الشّرك هو من اعتقد آلهاً مع الله و قد ورد في أخبارنا أَنَّ معنى إتخاذهم الأخبار والرّهبان أرباباً دون الله إمتثالهم أوامرهم و نواهيهم لا إعتقاد أنّهم آلهة انتهئ.

قال مؤلف آيات الأحكام بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه.

أقول في حسنة أبي بصير و قد سأل أبو عبد الله عن هذه الآية فقال عليه السلام أما والله ما دعوهم الى عبادة أنفسهم ولو دعوهم الى عبادة أنفسهم لما أجابوا أحلوا لهم حراماً و حرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون.
و مرسله ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام من أطاع رجلاً في معصيته فقد عبده انتهى.

و في رواية إسحاق عن أبي عبد الله في قول الله عزّ وجلّ:
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ^(١). قال يُطِيع الشَّيْطَانُ مِنْ
حيث لا يعلم فيشرك.

و عنه عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ قال عليه السلام شرك طاعة و ليس شرك عبادة.

و في رواية عميرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول أمر
الناس بمعرفتنا والرّد الينا والتّسليم لنا ثمّ قال عليه السلام: و أن صاموا
وصلّوا و شهدوا أن لا إله إلا الله و جعلوا على أنفسهم أن لا يرّدوا
اليّنا كانوا بذلك مُشركين.

و عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: والله أن الكفر لأقدم من
الشّرك و أحبّ قال عليه السلام ثمّ ذكر كفر إبليس حين قال له أسجد لأدم
فأبى أن يسجد فالكفر أعظم من الشّرك فمن إختار على الله عزّ
وجلّ و أبى الطّاعة و أقام على الكبائر فهو كافر و من نصب ديناً
غير دين المؤمنين فهو مُشرك انتهى.

و في رواية يزيد بن خليفة قال: قال أبو عبد الله: كلّ رياءٍ شرك أنّه
من عمل للناس كان ثوابه على الناس و من عمل لله كان ثوابه على
الله انتهى.

و الأخبار الدالة على إطلاق الشُّرك على من يفعل بعض المعاصي و أن كان من المؤمنين كثيرة و قد يظهر من مجموع الأخبار الواردة في الباب إطلاق الشُّرك على بعض طوائف الكفار.

و على بعض المنتسبين إلى الإسلام بل على جميع المخالفين و على المرائي و بعض العصاة من المؤمنين و لا يجوز أن يكون الحكم بالنجاسة ثابتاً لكل فتعين صرف إطلاق الآية الكريمة إلى المشرك الذي جعل معه تعالى إلهاً إقتصاراً على موضع اليقين دون المشرك بحسب الطاعة أو يقال بثبوت الحكم لكل من إتصف بذلك إلا من قام الدليل على خروجه فيكون من قبيل العام و الخاص انتهى ما ذكره رحمته.

و أنا أقول لابد لنا من تحقيق معنى الشُّرك أولاً ثم التكلّم في الآية ثانياً.

و أعلم أنّ الشُّرك بكسر الشين مصدر قولك شرك شركاً و هو في الأصل يطلق على الشُّركَة والمشاركة بخلط الملكين و قيل هو أن يوجد شيء لأثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشيء أو معنى كمشاركة الإنسان و الفرس في الحيوانية و مشاركة فرس و فرس في الكمة والذهمة يقال شركته و شار كته و تشاركوا و إشتركوا و أشركته في كذا كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام وأشركه في أمري و في الحديث اللهم أشركنا في دعاء الصالحين و من المعلوم أنّ الشُّرك بهذا المعنى من الأمور المتعارفة بين الناس و ليس المراد من المشرك في الآيات هذا المعنى و أتما المراد به فيها هو الشُّرك في الدين و هذا هو الذي يحكم بنجاسته و هو على قسمين:

أحدهما: الشُّرك العظيم و هو إثبات شريك لله تعالى يقال أشرك فلان بالله و ذلك أعظم كفر قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ^(١).

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

الثاني: الشُّرك الصَّغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرِّياء والتَّفَاق المشار اليه بقوله: **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** وغيرها من الآيات ولا شك أنَّ الشُّرك بالمعنى الثاني أعني به الشُّرك الصَّغير أيضاً خارج عن مورد البحث إذ لا يحكم بنجاسته قطعاً فبقى في المقام قسم واحد الشُّرك العظيم الَّذي لا يغفر وهذا هو المراد في الآية وقد قَسَم بعض المحقِّقين الشُّرك على أقسام ثلاثة بحسب الآيات:

أحدها: الشُّرك بالله وهو الشُّرك الأعظم.

الثاني: الشُّرك في الطَّاعة.

الثالث: الشُّرك بمعنى الرِّياء والتَّفَاق انتهى.

ولا شك أنَّ مورد البحث في الآية هو الأوَّل إذا عرفت هذا.

فنقول المشرك يطلق على معانٍ:

أحدها: من جعل لله شريكاً في إستحقاق العبادة وذلك كمشركي العرب و امثالهم فأنهم بعد علمهم بأنَّ صانع العالم واحد كانوا يشركون الأصنام في عبادته حيث حكى الله عنهم:

قال الله تعالى: **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى^(١)**.

قال الله تعالى: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ^(٢)**.

قال الله تعالى: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ^(٣)**.

الثاني: من جعل له شريكاً في خالقِيته و صانِعِيته و ذلك كالثنوية، القائِلين بالتَّور و الظَّلْمة فجعلوا التَّور فاعل الخيرات و الظَّلْمة فاعل الشرور.



الثالث: من نسب اليه تعالى في صفاته الذاتية ما لا يليق بذاته المقدسة كالأشاعة القائلين بزيادة صفاته على ذاته و أن العباد مجبورون في أفعالهم و غير ذلك من المقالات السخيفة، و كالكرامية القائلين بإتصافه تعالى بالصفات الموجودة الحادثة و كالتصاري القائلين بأنه تعالى جوهر واحد من ثلاث أقانيم هي الوجود، و العلم و الحياة، المعبر عندهم بالأب و الأبْن و روح القدس و يقولون الجوهر القائم بنفسه و الأقنوم الصفة ثم قالوا، الكلمة و هي أقنوم العلم إتحدت بجسد المسيح و تدرّعت بناسوته بطريق الإمتزاج كالخمر بالماء عند الملكائية و بطريق الإشراف كما تشرق الشمس من كور على كور عند النطورية و بطريق الانقلاب لحماً و دماً بحيث صار الإله هو المسيح عند اليعقوبية و منهم من قال ظهر الألهوت بالناسوت كما يظهر الملك في صورة البشر و قيل ترّكب الألهوت و الناسوت كالتنفس مع البدن و قيل أن الكلمة قد تداخل الجسد فيصدر عنه خوارق العادات و قد تفارقه فتحلّه الآلام.

و كمذهب الغلاة قالوا لا يمتنع ظهور الروحاني بالجسماني كجبرئيل في صورة دحية الكلبي و كبعض الجن في صورة الأناسي فلا يبعد أن يظهر الله في صورة بعض الكاملين و أولى الناس بذلك أمير المؤمنين عليه السلام و أولاده الذين هم خير البرية في الكمالات العلمية و العملية فلهذا كان يصدر عنهم من العلوم و الأعمال ما هو فوق الطاقة البشرية و نحو ذلك من المذاهب الباطلة، فيصدق على أهل هذه المذاهب أنهم مشركون لأن معبودهم الذي يعبدونه ليس هو المعبود الذي ليس كمثله شيء الذي لا تدركه الأبصار و لا يحيطون به علماً.

الرابع: من نسب اليه تعالى النقص في أفعاله كالعجز و الظلم و ترك اللطف و نحو ذلك كقول اليهود **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** فأن معبودهم ليس هو المعبود بالحق هذا تمام الكلام في معاني الشرك و إطلاق المشرك و من المعلوم المسلم عند الكل أن النجاسة ثابتة للقسم الأول و الثاني فأن مشركي العرب و الثنوية

القائلين بالنُّور والظُّلْمَة داخلون في هذا الشُّرك بلا كلام ولا خلاف في نجاستهم أيضاً.

وأما القسم الثالث والرابع فمختلف فيه فمنهم من قال أو يقول بنجاستهم ومنهم من لا يقول بها بعد إلتحاقهم على كفرهم وخروجهم عن ربة المؤمنين وللبحث فيه مقام آخر ومقتضى القاعدة العقلية هو الأخذ بالمتقين وترك المشكوك. والمتيقن هو القسم الأول والثاني من معنى المشرك في الآية لإلتحاق الكل على شركهم ونجاستهم شرعاً سواء كان المراد بالنجاسة هو خبث باطنهم و سوء إعتقادهم على ما قيل أو يكون المراد بها نجاسة ظواهرهم بالنجاسات العارضة لأنهم لا يغتسلون من الجنابة كما هو قول الآخرين والذي عليه علماءنا هو أن المراد بها نجاسة ذواتهم بالنجاسة الشرعية كالكلاب والخنازير وهو المنقول عن ابن عباس وهو مذهب الرّازي و جماعة منهم أيضاً الظاهر المتبادر لغةً وعرفاً.

ثم أن علماءنا قد أطبقوا على نجاسة ما عدا اليهود والنصارى من أصناف الكفار وأما هذان الصنفان فالمشهور عندهم أيضاً النجاسة وخالف في الحكم ابن الجيند وابن عقييل والمفيد وجمع من المتقدمين والمتأخرين فأفتوا بطهارة أهل الكتاب والبحث فيه موكول إلى الفقه إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية فنقول:

أخبر الله تعالى رسوله والمؤمنين بأن المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام الفاء للتفريع أي أن النهي متفرع على نجاستهم والقرب كناية عن دخولهم المسجد والمستفاد من الآية هو أن المانع نجاستهم وهو كذلك.

قال بعض المحققين المراد بالمسجد تمام الحرم من تسمية الشيء بإسم أجزائه وقيل المراد نفس المسجد والنهي عن القرب للمبالغة كقوله تعالى: وَلَا تَقْرُبُوا الرِّثَا، وَلَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وهذا أمر للمؤمنين بأن لا يمكنهم ذلك كما يدل عليه صدر الآية.

في التفسير
القرآن في تفسير القرآن



و قال أبو حنيفة النّهي عن الحجّ و العمرة خاصّة دون المسجد، و ليس بشئٍ لأنّه خلاف المتبادر و أمّا قوله: **يَعْدَ غَامِهِمْ هَذَا** فالمراد بالعام سنة تسع من الهجرة لأنّ في هذه السّنة بعث النّبي أبا بكر بسورة براءة ثمّ أمر الله برّده و أن لا يقرأها إلّا هو أو أحد من أهل بيته فبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّاً عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَام فقرأها على أهل الموسم على ما مرّ تفصيله و قيل هي سنة حجّة الوداع.

وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قيل أنّ المؤمنين خافوا العيلة و هي الفقر بسبب إنقطاع المشركين و ذلك لأنّ أمر التّجارة كان بأيديهم فقال الله تعالى: **وَ إِنْ خِفْتُمْ أَتْيَهَا الْمُؤْمِنُونَ** العيلة و الفقر فسوف يغنيكم الله من فضله بسبب الجزية و غيرها فإنّ الرّازق هو الله تعالى و أنّما علّقه على المشيئة لأنّ منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به لأنّه يجوز أن يموت قبله في قول أبي عليّ.

و القول الآخر، أي لتقطع الأمال الى الله تعالى كما قال:

لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْأَحْرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ^(١)

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** دمعه أنّه تعالى عالم بمصالحكم حكيم في منع المشركين من دخول المسجد الحرام.

تنبيه

يستفاد من الآية أحكام:

أحدها: نجاسة المشرك فيتفرّع عليه نجاسة ما باشره برطوبة و تحليل طعامهم قد عرفت معناه.

الثاني: كون نجاستهم من جهة الشّرك فلا تحصل لهم الطّهارة ما دام هذا الوصف ولو غسلوا أبدانهم بالماء فلا تطهر إلّا بالإسلام.

الثالث: عدم دخولهم المسجد الحرام بل مطلق المساجد كما يفهم من تعليق الحكم على كونهم نجساً بل يفهم منه عدم جواز إدخال مطلق النجاسة الى المسجد وأن لم تكن متعدية.

الرابع: عدم جواز التمكن من إدخالها اليها و قد يفهم وجوب إخراجها وإزالتها عن المساجد و تفصيل البحث في الفقه.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ

قيل نزلت الآية حين أمر الرسول بغزو الروم و غزا بعد نزولها تبوك و قيل نزلت في قريظة و النصير فصالحهم و كانت أول جزية أصابها المسلمون.

أقول هذه الآية دالة على وجوب قتال أهل الكتاب و قد وصفهم الله بصفات أربع كل واحدة منها موجبة لقتالهم.

الأولى: كونهم لا يؤمنون بالله في نفس الأمر و أن كانوا متظاهرين بالتوحيد و الى هذا أشار الله تعالى بقوله: **الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** و أنما قلنا في نفس الأمر و أن كانوا متظاهرين به لأن أهل الكتاب مؤحدون ظاهراً و مع ذلك أمر الله في هذه الآية بقتالهم لأنهم يعتقدون أن معبودهم على صفة يستحيل أن يكون الموصوف بها هو الله سبحانه كقولهم عزيز ابن الله و المسيح ابن الله و نحو ذلك مما أشرنا اليه في الآية السابقة عند قوله: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**

الثانية: كونهم لا يؤمنون باليوم الآخر أي لا يؤمنون بالبعث و النشور.

الثالثة: كونهم لا يحرمون ما حرّم الله كمنكاح المحرّمان و أكل لحم الخنزير و نحو ذلك و اليهما الإشارة بقوله: **وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** و المراد بالرسول نبينا ﷺ و يتحمل موسى و عيسى عليهما السلام حيث أخبرا بالنبى و بدينه و أمرا بإتباعه فحرّفوا و خالفوا.

الرابعة: كونهم ولا يدينون دين الحق أي الإسلام الذي هو ناسخ للأديان و هم لا يعتقدون صحته وإليه الإشارة بقوله: وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ. وقوله: مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يشمل المجوس أيضاً ويدل عليه.

ما رواه ابن بابويه في الصحيح عن ابن عمير عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ أَنَّ ذِمَّةَ الْمَجُوسِ مِثْلُ ذِمَّةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَقَالَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ

أَنْ قُلْتُ كَيْفَ يَحْكُمُ بَأَنْ دِينِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَيْسَ دِينُ الْحَقِّ وَالْمَفْرُوضُ أَنَّ دِينَهُمْ كَانَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ مُوسَى وَعِيسَى عليهما السلام وَهَكَذَا نَبِيُّ الْمَجُوسِ بِنَاءً عَلَى كَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ أَدْيَانِهِمْ وَدِينِ الْإِسْلَامِ وَالْمَفْرُوضِ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

قلت أتما حكم ببطلان دينهم في عهد رسول الإسلام لا مطلقاً وذلك لأن أديانهم بعد مجيئ الإسلام صارت منسوخة وما كان كذلك فهو باطل من حيث عدم جواز العمل به بعد نسخه ولو كان قبل النسخ حقاً هذا أولاً.

ثانياً: أَنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ قَدْ غَيَّرُوهُمَا وَبَدَّلُوهُمَا وَحَرَّفُوهُمَا بِأَيْدِيهِمْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَجُوزُ التَّدِينُ بِهِ وَالْعَمَلُ بِأَحْكَامِهِ لِأَنَّ الْمَوْجُودَ لَيْسَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا لَا يَنَافِي كَوْنَهُ حَقًّا فِي الْأَصْلِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ فَهُوَ غَايَةُ لِقَاتِلِهِمْ فَدَلَّ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِيهِمُ الْقَتْلُ أَوْ الْجِزْيَةُ.

أَمَّا الْقَتْلُ فَلِقَوْلِهِ: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا الْجِزْيَةُ فَلِقَوْلِهِ: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أَيَّ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى حَصَلَتِ الْغَايَةُ وَيَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ مَفْهُومًا أَنَّ مَنْ زَالَتْ عَنْهُ الصِّفَاتُ الْمَذْكُورَةُ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ فَلَا يَقْتُلُ وَلَا تَوَخَّذَ مِنْهُ الْجِزْيَةُ وَهُوَ كَذَلِكَ.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: القتال قتالان قتال لأهل الشُّرك لا ينفر عنهم حتّى يسلموا أو يؤدّوا الجزية عن يدٍ و هم صاغرون و قتال لأهل الزَّيغ لا ينفر عنهم حتّى يفيتوا الى الله أو يقتلوا وقد يفهم من الإطلاق أنّ من ضربت عليه الجزية فأسلم سقطت عنه الجزية و أن كان ذلك بعد حلول وقت أجل الجزية و بذلك قال جماعة منهم المفيد في المقنعة و الشَّيخ في النّهاية و قيل اذا كان الإسلام بعد حلول الأجل لا يسقط.

وإعلم أنّه يشترط مع قبولهم الجزية شروط:

أحدها: أن لا يؤذوا المسلمين في أنفسهم وأموالهم ونساءهم.

ثانيها: أن لا يتظاهراً بشيء من المحرّمات في دين الإسلام كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير و ضرب النّاقوس و إحداث البيع و الكنائس. ثمّ أنّ الجزية منوطة برأي الإمام كمّاً و كيفاً و عليه دلّت الأخبار خلافاً للعامة، و لا تؤخذ الجزية من النّساء و لا من الصّغير و لا من المعتوه و لا من الفقير و لا من الشَّيخ القاني.

و يجوز أخذ الجزية من أثمان المحرّمات كثمن لحم الخنزير و ثمن الخمر و غير ذلك و أمّا قوله: **عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ** فقد اختلفوا في المراد باليد في المقام.

فقال قوم معناه نقداً لا نسيئةً من قولهم **يَعْتُهُ يَدًا بَيْدًا**، و قيل معناه أنّهم يعطونها و يسلمونها بأيديهم لا على يد نائبٍ و وكيلٍ لأنّه أنسب بالصّغار و الدّلة.

و قيل عن قهرٍ و قدرةٍ لكم عليهم، و قيل اليد هنا بمعنى النّعمة فيعطونها على وجهٍ يرون أنّ لكم عليهم النّعمة بإقرارهم على دينهم و قبولكم منهم الجزية و قوله و هم صاغرون، جملة حالية من ضمير يعطوا.

روي في الفقيه في الصحيح عن حريز عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله ما حدّ الجزية على أهل الكتاب و هل عليهم في ذلك شيء مؤظف لا ينبغي أن يجوز الى غيره فقال ^{عليه السلام}: ذلك الى الإمام يأخذ من كلّ إنسان منهم ما شاء على قدر ماله و ما يطيق أنما هم قوم فدوا أنفسهم أن لا يستعبدوا أو يقتلوا فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يأخذهم به حتّى يسلموا قال الله عزّ وجلّ: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ وَ هو لا يكثرث لما يؤخذ منه حتّى يجد ذلاًّ لما أخذ منه فيألم لذلك فيسلم انتهى.

أقول يظهر من الرواية أنّ الصغار يحصل بمجموع شيئين:

أحدهما: عدم تقديرها بقدر ليبقى غير مؤظف نفسه على شيء.

الثاني: إلزامهم بما يراه محققاً بهم بالنسبة الى أحوالهم و بذلك تحصيل لهم الخوف و الإضطراب المفضي الى الذلّة.

و قال ابن إدريس اختلف المفسرون في الصغار و الأظهر أنّه إلزام أحكامنا و إجرائها عليهم و أن لا تقدر الجزية بل بحسب ما يراه الإمام و هو قول الشيخ في الخلاف و المبسوط.

و قيل هو أن تؤخذ الجزية منه قائماً و المسلم جالس و يقال له أدّ الجزية و أنت صاغر و يصفع على قفاه صفعة و قيل هو أن يدفع و يقهر بحيث تظهر ذلّته.

و نقل عن المفيد هو أن يأخذهم الإمام بما لا يطيقون حتّى يسلموا هذا تفسير الآية على ما هو الحقّ عندنا.

و أمّا العامة فقد سلكوا مسلكاً آخر في تفسير الآية.

فقال القرطبي في قوله: فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنَّ اللَّهَ أَمْرٌ بِمَقَاتِلَةِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ لِإِصْفَاقِهِمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ وَ خَصَّ

أهل الكتاب بالذِّكر إكراماً لكتابهم و لكونهم عالمين بالتَّوحيد و الرُّسل و الشَّرائع و الملل و خصوصاً ذكر مُحَمَّد ﷺ و ملته أمته فلَمَّا أنكروه أَكَدَتْ عليهم الحِجَّة و عظمت منهم الجريمة فنبَّه على محلَّهم ثمَّ جعل للقتال غاية إعطاء الجزية بدلاً عن القتل و ساق الكلام الى أن قال إختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية.

قال الشَّافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصَّة عرباً كانوا أو عجماً لهذه الآية فأنَّهم هم الَّذِينَ خَصَّوا بِالذِّكر فتوجَّه الحكم اليهم دون من سواهم لقوله عزَّ و جلَّ: **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**^(١) و لم يقل حتَّى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب و تقبل من المجوس بالسنة و به قال أحمد و أبو ثور و هو مذهب الثُّوري و أبو حنيفة و أصحابه.

و قال الأوزاعي تؤخذ الجزية من كلِّ عابِدٍ و ثنيٍّ أو نارٍ أو جاحِدٍ أو مكذِّبٍ و كذلك مذهب مالك فإنَّه رأى أنَّ الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشُّرك و الجحد كائناً من كان إلا المرتد.

و قال ابن القاسم و أشهب و سحنون تؤخذ الجزية من مجوس العرب و الأمم كلَّها و أمَّا عبدة الأوثان فلم يستنَّ الله فيهم جزية ثمَّ ذكر في المقام أقوالاً كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و التَّعرض لها لأنَّهم قالوا ما قالوا من عند أنفسهم و لم يستندوا أقوالهم و آراءهم الى ركنٍ وثيقٍ فقالوا ما شاءوا في تفسير كلام الله و لم يخافوا في ذلك لومة لائم.

و قال القرطبي أيضاً في مقدار الجزية ما لفظه الرابعة لم يذكر الله سبحانه و تعالى في كتابه مقدراً للجزية المأخوذة منهم و قد إختلف العلماء فيه فقال عطاء ابن أبي رباح لا تَوَقَّيت فيها و أنما هو على ما صولحوا عليه و به قال يحيى بن آدم و أبو عبيد و الطَّبْري إلا أنَّه أي الطَّبْري قال أقلُّه دينار و أكثره لا

حدّ له و قد أطال الكلام في نقل الأقوال التي لا فائدة فيها لا علماً و لا عملاً أن شئت الإطلاع عليها فعليك بمراجعة كتابه فأَنَّ العمر أعزّ و أشرف من صرفه حول هذه الموهومات التي تفوّها بها، و من يحيى ابن آدم و أبو عبيد و ابن القاسم و أشهب و سحنون و أمثالهم حتّى ينقل كلماتهم في تفسير كلام الله و الله من وراء القصد.



وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرَ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
 يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ
 أَتَى يَوْمَهُمُ الْيَوْمُ (٣٠) اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
 أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا
 أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا
 نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ
 وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
 الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْآخِبَارِ وَالرُّهْبَانِ
 لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَ
 لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
 (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا
 جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ
 لَا تَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

◀ اللغة

يُضَاهَوْنَ أي يشابهون ومنه قولهم امرأة ضهاء التي لا تحيض ولا يخرج
 ثدياه أي أشبهت الرجال.

يُؤْفَكُونَ، الْإِفْكَ الكذب و المعنى يصرفون عن الحقّ.
أَحْبَارُهُمْ و هو جمع حبر و هو العالم الَّذي صناعته تحبير المعاني بحسن
البيان.

رُهبَانُهُمْ، الرُّهْبَان بضمّ الرَّاء جمع راهب و هو الخاشي الَّذي يظهر عليه
للنّاس الخشية و قد كثر إستعماله في متنسكي النّصارى.
يُطْفِئُوا، الإطفاء إذهاب نور الثّار ثمّ أستعمل في إذهاب كلّ نور.
يَكْزِبُونَ أصل الكنز كبس الشّيء بعضه على بعض و منه قولهم كنز الثّمر و
الطّعام.

يُحْمَى بضمّ الياء بصيغة المجهول و الإحماء جعل الشّيء حاراً في
الإحساس و هو فرق الإسخان و ضده التّبريد.
فَتَكْوَى بضمّ التّاء أيضاً بصيغة المجهول، و الكّي إلصاق الشّيء الحار
بالعضو من البدن.

جِبَاهُهُمْ جمع جبهة و هي صفحة أعلى الوجه فوق الحاجبين.
جُنُوبُهُمْ جمع جنب و هو الضّلع.
ظُهُورُهُمْ جمع ظهر و هو الصّفحة العليا من الخلف

◀ الإعراب

عَزِيزٌ أَبْنُ اللَّهِ مبتدأ و خبر ولم يحذف التّنوين من عزيز إيذاناً بأنّه مبتدأ و
أنّ ما بعده خبر وليس بصفة و يقرأ بحذف التّنوين أيضاً و فيه ثلاثة أوجه:
أحدها: أنّه مبتدأ و خبر أيضاً و أنّما حذف التّنوين لإلتقاء السّاكنين.
الثّاني: أنّ عزيز خبر مبتدأ محذوف تقديره نبينا أو صاحبنا أو معبودنا و
إبن، صفة أو يكون عزيز مبتدأ و، إبن، صفة و الخبر محذوف و تقديره عزيز
إبن الله صاحبنا.

الثّالث: أنّ إبناً بدل من عزيز أو عطف بيان.

ذَلِكَ مُبْتَدَأٌ وَقَوْلُهُمْ خَبِرَهُ وَبِأَفْوَاهِهِمْ حَالٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ الْقَوْلُ يُضَاهِيهِ
الْجُمْهُورُ عَلَى ضَمِّ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَالْأَصْلُ، ضَاهِي، وَالْأَلْفُ مُنْقَلَبَةٌ عَنْ يَاءٍ وَ
حُذِفَتْ مِنْ أَجْلِ الْوَاوِ وَقَرِئَ بِكسْرِ الْهَاءِ وَهَمْزَةٍ مُضْمُومَةٍ بَعْدَهَا وَهُوَ ضَعِيفٌ وَ
الْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ لُغَةً فِي ضَاهِيٍّ وَ لَيْسَ مُشْتَقًّا مِنْ قَوْلِهِمْ إِمْرَأَةً ضَهِيَاءَ لِأَنَّ الْيَاءَ
أَصْلٌ وَالْهَمْزَةُ زَائِدَةٌ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْيَاءُ زَائِدَةً إِذْ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ فَعِيلٌ يَفْتَحُ
الْفَاءَ وَالْمَسِيحَ أَيْ وَأَتَّخَذُوا الْمَسِيحَ رَبًّا فَحُذِفَ الْفَعْلُ وَاحِدَ الْمَفْعُولَيْنِ وَ
يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ وَعَبَدُوا الْمَسِيحَ وَالَّذِينَ يَكْتَبُونَ مُبْتَدَأٌ وَالْخَبَرُ يَوْمٌ
يُحْمَى يَوْمَ ظَرْفٍ عَلَى الْمَعْنَى أَيْ يَعَذِّبُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقِيلَ تَقْدِيرُهُ عَذَابُ
يَوْمٍ وَقِيلَ التَّقْدِيرُ، أَذْكَرَ عَذَابُ يَوْمٍ يَحْمَى، وَعَلَيْهَا فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ لِقِيَامِهِ
الْفَاعِلُ.

التفسير

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ شَرَحَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَقَالَ قَالَتِ الْيَهُودُ كَذَا وَالنَّصَارَى قَالَتْ كَذَا، وَ
تَقْرِيرُهُ أَنَّ مَنْ أَثْبَتَ ابْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْكَرٌ لَهُ وَدَاخِلٌ فِي زِمْرَةِ
الْمُشْرِكِينَ فَأَنَّ طَرُقَ الشُّرْكِ كَثِيرَةٌ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ الصَّنَمَ وَمَنْ يَعْبُدُ
الْمَسِيحَ وَغَيْرَهُ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلشُّرْكِ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا فَإِذَا
حَصَلَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَدْ حَصَلَ الشُّرْكَ بَلْ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ كُفْرَ النَّصَارَى
أَوْ الْيَهُودِ أَشَدُّ مِنْ كُفْرِ عَابِدِ الْوَثْنِ لِأَنَّ عَابِدَ الْوَثْنِ لَا يَقُولُ بِأَنَّ الْوَثْنَ خَالِقُ الْعَالَمِ
أَوْ أَنَّ الْخَالِقَ إِتَّحَدَ مَعَ الْوَثْنِ بَلْ جَعَلَ الْوَثْنَ مِمَّا يَتَّقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ وَأَمَّا الْيَهُودُ
وَالنَّصَارَى فَأَنَّهُمْ يَثْبُتُونَ الْحُلُولَ وَالْإِتِّحَادَ وَذَلِكَ كُفْرٌ قَبِيحٌ جَدًّا فَثَبَّتَ أَنَّهُ لَا فَرْقَ
بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْحُلُولَةِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ وَأَنَّمَا خَصَّصَهُمْ بِقَبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ
لِأَنَّهُمْ فِي الظَّاهِرِ أَلْصَقُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُوسَى وَعِيسَى وَأَدَّعَوْا أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

حِزْءُ ١٠
المجلد الثاني

بالتَّوْرَةِ وِ الْإِنْجِيلِ فِقْبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ أَنْمَا هُوَ لِأَجْلِ تَعْظِيمِ هَٰذَيْنِ الرَّسُولَيْنِ الْمَغْطَمَيْنِ وَ تَعْظِيمِ كِتَابَيْهِمَا وَ تَعْظِيمِ أَسْلَافِ هَٰؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى بِسَبَبِ أَنْهُمْ كَانُوا عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْهُ.

ثُمَّ أَنَّ الْمَفْسِّرِينَ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْقَانِلِينَ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ السَّخِيفَةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْضُهُمْ بَلْ قِيلَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِسْمُهُ فُغَاصُ بْنُ عَازُورَاءَ وَ قَدْ نَقَلُوا عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ أَتَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَ هُمْ سَلَامُ بْنُ مَشْكَمٍ وَ النَّعْمَانُ بْنُ أَوْفَى، وَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ وَ قَالُوا كَيْفَ نَتَّبِعُكَ وَ قَدْ تَرَكْتَ قَبْلَتَنَا تَزْعُمُ أَنَّ عَزِيرَ إِبْنِ اللَّهِ فَتَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَ عَلَى هَٰذَا فَالْقَانِلُونَ بِهَٰذَا الْمَذْهَبِ بَعْضُهُمْ لَا جَمِيعُهُمْ إِلَّا أَنَّ نِسْبَةَ الْقَوْلِ إِلَى الْجَمِيعِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي إِيقَاعِ إِسْمِ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْوَاحِدِ، وَ أَنْتَ تَرَى أَنَّ إِطْلَاقَ إِسْمِ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْوَاحِدِ لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَمَّا عَلَى الْأَكْثَرِ فَلَا إِشْكَالَ فِيهِ فَلَا يَعْقِلُ أَنَّ يَكُونَ الْقَانِلُ شَخْصاً وَاحِداً مِنَ الْيَهُودِ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ وَ قَالَتِ الْيَهُودُ، بَلْ يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى أَنَّ أَكْثَرَ الْيَهُودِ كَانُوا قَانِلِينَ بِهَا وَ هَكَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّصَارَى وَ أَمَّا وَجْهُ بَطْلَانِ مَقَالَتِهِمْ فَلَأَنَّ إِثْبَاتَ الْأَبْنِ لَهُ تَعَالَى يَوْجِبُ إِدْخَالَهُ فِي الْمَحْدَثَاتِ لِأَنَّ التَّوَالِدَ وَ التَّنَاسُلَ مِنْ شُؤْنِ الْحَادِثِ.

وَ أَمَّا الْقَدِيمُ فَلَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ الْحَادِثِ وَ تَوْضِيحُ ذَلِكَ إِجْمَالاً هُوَ أَنَّ الْبَنُوَّةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ الْوِلَادَةِ لِأَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَادِ بِغَيْرِ الْوِلَادَةِ لَا يَكُونُ إِبْنًا بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ لَخَالِقِهِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَ إِذَا كَانَ الْأَبْنُ لَا يَوْجَدُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْوِلَادَةِ فَلَا يَدَّ لَهُ مِنَ الْأَمِّ وَ لَازِمُ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ يَكُونَ لَهُ تَعَالَى صَاحِبَةً ثُمَّ الْمُضَاجَعَةُ وَ لَا يَحْصُلُ الْمَطْلُوبُ إِلَّا بِبَرَكَةِ الشَّهْوَةِ الْجَنَسِيَّةِ وَ هِيَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا فِي الْأَجْسَامِ الْمُرَكَّبَةِ إِذِ الْمَوْجُودُ الْبَسِيطُ لَا شَهْوَةَ لَهُ فَيَلْزَمُ مِنَ الْقَوْلِ بِالْبَنُوَّةِ هَذِهِ الْمَحَاضِيرُ كُلُّهَا وَ لَا شَكَّ أَنَّهَا مِنْ شُؤْنِ الْمَخْلُوقِ الْحَادِثِ فَيَلْزَمُ أَنَّ يَكُونَ مِنَ الْمَحْدَثَاتِ.

ثانياً: قد ثبت أن الله تعالى غني بالذات عن جميع ما سواه وحينئذ فنقول أن كان غنياً عن الأبن فالمطلوب ثابت و أن كان محتاجاً اليه فكل محتاج ممكن و كل ممكن يجوز عليه العدم و المفروض أنه واجب الوجود الذي يستحيل عليه العدم و هو كما ترى.

ثالثاً: لاشك أنه تعالى واجب الوجود و أمّا الإبن فأن كان ممكناً فهو مثل غيره من الممكنات و أن كان واجباً يلزم تعدد القديم مضافاً الى عدم إمكان كونه قديماً لأن المفروض وجوده بعد وجود الواجب فهو حادث و كل حادث ممكن و محصل الكلام هو أن إثبات الإبن له تعالى كفر محض ينكره العقل السليم و لا يقول به إلا مخبط مجنون و لا كلام لنا معه و لعله لأجل هذه الدقيقة و هي أن العقل السليم لا يقبل تلك المقالة و أمثالها قال تعالى: ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَأَنْقَضَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَلَهُمْ نَسُوا حَظًّا فَمَا لِلْكَافِرِينَ فِي كَيْدِهِمْ خِزْيٌ عَظِيمٌ يَذَلُّ عَلَى عَدَمِ اعْتِقَادِ هَؤُلَاءِ أَيْضاً بِمَا يَقُولُونَ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ سَنَخِ الْمَجَانِينِ ظَاهِراً وَ الْعَاقِلِ لَا يَعْتَقِدُ بِمَا يَنْكَرُهُ الْعَقْلُ وَ أَنَّ تَقْوَاهُ بِهِ ظَاهِراً وَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ^(١) وَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللِّسَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا شَاءَ وَ الْعَقْلُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ فَأَنَّهُ إِذَا أَدْرَكَ شَيْئاً وَ أَعْتَقَدَ الْإِنْسَانُ صِحَّتَهُ فَلَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَعْقِلَ خِلَافَهُ مِثْلًا إِذَا حَكَّمَ الْعَقْلُ أَنَّ الْوَاحِدَ نِصْفَ الْإِثْنَيْنِ فَلَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ أَنَّ الْوَاحِدَ ضَعْفُ الْإِثْنَيْنِ وَ لَعَلَّهُ لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ يَقُلْ بِقُلُوبِهِمْ مِثْلًا وَ نَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْمَحَاوِرَاتِ فَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.

إن قلت أن كان الأمر كما ذكرت فلم يحكم بكفرهم و المفروض أنهم لم يعتقدوا ذلك.

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِهِ

جزء ١٠

الجلد الثالث

قلت مدار الحكم بالكفر والإيمان على اللسان دون القلب فمن أنكر التوحيد والثبوت بلسانه يحكم بكفره وأن أعتقد بقلبه خلاف ما ذكره باللسان ومن أقر بهما يحكم بإسلامه وأن كان في القلب منكراً وهكذا في المقام حكم الله بكفر اليهود والنصارى لقولهم بأن عزير ابن الله والمسيح ابن الله ألا ترى أنه تعالى قال بعد ذلك: **يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** ولم يقل إعتقاد الذين كفروا مثلاً ففيه إشارة إلى أن الملاك في نسبة الكفر أو الإيمان هو القول باللسان فقط وكيف يعقل أن يقول عاقل بهذه المقالة السخيفة الباطلة وفي قوله: **يُضَاهُونَ** حيث شبه قول اليهود والنصارى بقول الكفار الذين أنكروا وجوده تعالى رأساً، إشارة إلى عدم الفرق بين القولين واقعاً وأن كان بينهما فرق ظاهراً لأن الكفار أنكروا وجوده تعالى هؤلاء لم ينكروا وجوده بل أثبتوه إلا أنهم قالوا ولد: وذلك لأن الإله الذي له ولد فهو ليس بإله بل هو مخلوق محدث كغيره فأبى فرق بين هذا الإله الممكن وبين من أنكر وجوده رأساً فكما يحكم بكفر المنكر يحكم بكفر من أثبت الإله الذي له ولد **فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ** أي لعنهم الله وقيل، قتلهم الله أني يؤفكون، أي كيف يصرفون عن الحق إلى الإفك الذي هو الكذب والحق وهو ظاهر لا خفاء فيه.

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم أي واتخذوه أيضاً رباً والحال أنهم كانوا مأمورين بعبادة الله الواحد الذي لا إله إلا هو الذي مَنَزَّه عن الشُّرك

أن قلت كيف اتخذوا المخلوق رباً وهم عقلاء وعاقل يعلم أن المخلوق لا يكون خالقاً.

قلت ليس المراد بالرَّب في قوله: أَحْبَابَهُمْ وَرُحَبَانَهُمُ الرَّبَّ بمعنى الخالق كما في قوله: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بل المراد منه في الآية أَنَّهُمْ كانوا مطيعين لأحبارهم و رهبانهم في جميع الأمور و أمّا بالنسبة الى المسيح فالظاهر أَنَّهُمْ كانوا يقولون بالالوهية و عليه فالرَّب في المعطوف و المعطوف عليه يفترق من حيث المراد و توضيحه أَنَّ كلمة الرَّبَّ في الأصل بمعنى التربية إنشاء الشيء حالاً فحالاً الى حدِّ التَّمام يقال رَبَّه و رَبَّاهُ و رَبَّه يُقال لِأَنَّ يَرْبِي رَجُلٌ مِنْ قَرِيشٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ يَرْبِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ فالرَّبَّ مصدر للفاعل و لذلك لا يقال الرَّبَّ مطلقاً إِلَّا لِلَّهِ تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات:

قال الله تعالى: بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبِّ غَفُورٌ^(١).

قال الله تعالى: وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢).

قال الله تعالى: أَمَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٣).

قال الله تعالى: رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ^(٤).

قال الله تعالى: عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^(٥).

قال الله تعالى: وَ اجْزُ دَعْوِيهِمْ أَنْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٦).

قال الله تعالى: فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٧).

وأمثال ذلك من الآيات التي أطلقت فيها كلمة الرَّبَّ على الله تعالى كثيرة جداً و أمّا إطلاق الرَّبَّ على المخلوق أيضاً كثير.

قال الله تعالى: قُلْ أَعِزُّ إِلَهِهِ أَتَبَعِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ^(٨).

و حكاية عن يوسف عليه السلام:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

١- سبأ = ١٥

٢- الأعراف = ١٠٤

٣- الأعراف = ١٢١

٤- الأعراف = ١٢٢

٥- التوبة = ١٢٩

٦- يونس = ١٠

٧- الشعراء = ١٦

٨- الأنعام = ١٦٤

قال الله تعالى: يَا ضَاجِبِي السَّجْنِ أَمَا أَخَذُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا^(١).

قال الله تعالى: فَأَنْسِيَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ^(٢).

و حكاية عن فرعون.

قال الله تعالى: قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا^(٣).

و يقال رَبُّ الدَّارِ وَ رَبُّ الْفَرَسِ قال عبد المطلب عليه السلام أنا رَبُّ الْإِبِلِ وَ اللَّيْلِ رَبًّا، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَاقُولْ قَوْلَهُ تَعَالَى: اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ أَرْبَابًا لَيْسَ الْمَرَادُ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً بَلِ الْمَرَادُ بِالرَّبِّ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي أَعْنِي بِهِ الرَّئِيسَ وَ الزَّعِيمَ وَ الْمُطَاعَ وَ أَمْثَالُ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بَأَنَّ الْحَبِيرَ هُوَ اللَّهُ أَوْ الرَّاهِبَ هُوَ اللَّهُ وَ هُوَ مَعْلُومٌ لَا خِلَافَ فِيهِ.

و قد روي التَّعَلُّبِيُّ - في تفسيره بِأَسْنَادِهِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَدِيُّ أَطْرَحَ هَذَا الْوِثْنَ عَنْ عُنُقِكَ فَطَرَحْتَهُ ثُمَّ أَتَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ مِنْ سُورَةِ بَرَاءَةِ هَذِهِ الْآيَةِ: اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا حَتَّى فَرَعَ مِنْهَا فَقُلْتُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ وَ يَحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَحْلُونَهُ قَالَ فَقُلْتُ بَلَى قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَتَلَكَ عِبَادَتُهُمْ إِنْتَهَى.

و في أصول الكافي بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَالَ عليه السلام: أَمَا وَاللَّهِ مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ لَمَا أَجَابُوهُمْ وَلَكِنْ أَحْلَوْا حَرَامًا وَ حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

و بأسناده عنه عليه السلام قال: من أطاع رجلاً في معصية الله فقد عبده إنتهى.

و في تفسير العياشي: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قال عليه السلام: أما والله ما صاموا لهم ولا صلُّوا ولكنهم أحلُّوا لهم حراماً وحَرَّموا عليهم حلالاً فَاتَّبَعُوهُمْ إنتهى.

و في خبر آخر عنه عليه السلام ولكنهم أطاعوهم في معصية الله. و عن جابر عنه عليه السلام قال سئلت عن قول الله عزَّ وجلَّ: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قال عليه السلام: أما أنتم لم يتَّخِذُوهم آلهة، إلاَّ أنتم أحلُّوا حراماً وحَرَّموا حلالاً فأخذوا به فكانوا أربابهم من دون الله تعالى إنتهى ^(١).

و في تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ قال عليه السلام: أمَّا المسيح فعصوه وعظَّموه في أنفسهم حتَّى زعموا أنه إله و أنه ابن الله و طائفة منهم قالوا ثالث ثلاثة و طائفة منهم قالوا هو الله و أمَّا أَحْبَارُهُمْ وَ رُهْبَانُهُمْ فَأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُ و أخذوا بقولهم و أتَّبَعُوا ما أمروهم به و دانوا بهم بما دعوهم اليه فَاتَّخَذُوهم أَرْبَابًا بطاعتهم لهم و تركهم ما أمر الله و كتبه و رسله فنبذوه وراء ظهورهم و ما أمرهم به الأحبار و الرُّهبان إتَّبَعُوهُ و أطاعوه و عصوا الله و إنَّمَا ذَكَرَ هَذَا فِي كِتَابِنَا لِكِي نَتَّعِظَ بِهِمْ فَغَيَّرَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَنَعُوا يَقُولُ اللَّهُ: وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ إنتهى ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أقول يستفاد من هذه الأخبار ولا سيما الأخير منها تفسير الآية بأوضح بيان ومحصل الكلام هو أن الأرباب في قوله: **إِتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُءُوبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** أطاعوهم فيما أمرهم به ونهوهم عنه و يستفاد أن الإطاعة بلا قيد و شرط مخصوصة بالله تعالى و أما غيره كائناً من كان فالإطاعة منه مشروطه بكون المطاع أمراً بما أمر الله به و ناهياً عما نهى الله عنه و أما إذا قال من عند نفسه ما شاء و أراد و إن إنتحلته الى الله فلا يجب طاعته بل تحرم لأن طاعته طاعة الشيطان بعينه.

و أما قوله: **وَ أَلْمَسِيحَ** فإطلاق الرّب عليه ليس من سنخ إطلاقه على الأخبار و الرّهبان بل الرّب هنا بمعنى الإله على ما ذكره الإمام في الحديث الأخير و قد تكلمنا فيه سابقاً و قلنا أن كثيراً بل أكثرهم لولا كلهم قالوا بأن المسيح ابن الله أو هو الله و أمثال ذلك من الأباطيل، و هذا كفر محض نعوذ بالله منه و أما قوله: **وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**.

فالوجه فيه واضح لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا مأمورين بتبليغ هذا الحكم قال رسول الله ﷺ: **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا**.

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه.

قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ^(٢)**.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ^(٣)**.

قال الله تعالى: **قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ^(٤)**.

قال الله تعالى: **قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(٥)**.

والآيات كثيرة.

كيف وقد قال الله تعالى: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ^(١).

وأما قوله: **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ففيه إشارة الى تنزهه تعالى عما نسبوه اليه من الشرك وذلك لأن نسبة الشرك اليه تعالى من أعظم الظلم وأقبحه قال تعالى حكاية عن لقمان حيث قال:

يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ^(٢).

وذلك لأن إثبات الشريك له تعالى مساوق للمخلوقية فالمشرك جعل الله مخلوقاً من حيث لا يشعر والمخلوق لا يستحق أن يعبد وأى ظلم أقبح وأشنع منه هذا ما فهمناه في تفسير الآية وبقي في المقام شيء لا بأس بالإشارة اليه إجمالاً وهو قول أبي جعفر الباقر عليه السلام في الخبر الذي روينا عن تفسير علي بن إبراهيم حيث قال عليه السلام (وأما ذكر هذا في كتابنا لكي نتعظ بهم فغير الله بني إسرائيل بما صنعوا) الخ.

يظهر من هذا الكلام أن إتخاذهم الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله، بالمعنى الذي ذكره عليه السلام ليس مختصاً بقوم اليهود والنصارى بل هو سيرة مستمرة في جميع الأمم قل أو كثر والمراد بقوله نتعظ به، هو أن لا نكون مثلهم.

فإن حكم الأمثال واحد فإذا كان المسلم في دينه تابعاً لشخص خاص في جميع أوامره ونواهيهِ طابق قوله الشرع أم لا فلا فرق بينه وبين اليهود والنصارى وذلك لأن الأحرارية والرهبانية وأمثال ذلك من الألفاظ المستعملة في كل زمان لا توجب تغيير أصل الحكم الموجب للتغيير ونحن نرى جريان هذا الأصل في المسلمين طابق النعل بالنعل فإن أكثرهم نبذوا الكتاب وراء ظهورهم وتركوا سنة رسول الله ﷺ وأخذوا بما أمروا أو نهوا عنه من قبل زعماءهم ولأجل ذلك ظهرت في الإسلام بدعاً كثيرة وللبحث فيه مقام آخر.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ
كَرِهَ الْكَافِرُونَ

الإطفاء إذهاب نور النار ثم إستعمل في إذهاب كل نور أخبر الله تعالى في هذه الآية أنَّ هؤلاء الكفار يريدون إطفاء نور الله و المراد بالنور الإسلام، بأفواههم الأفواه جمع فوه فحذفت الهاء و أبدلت من الواو ميم لأنه حرف صحيح من مخرج الواو و مشاكل لها ثم أبدلت الضمة الفتحة فصارت الكلمة، فم، ولو كره الكافرون من إتمام نوره فأَنَّ الله يتم نوره قطعاً و في هذه الآية مسائل:

الأولى: أنَّ مخالفة أتباع الباطل للحق أمرٌ قهريٌّ لا مناص عنه لأنَّ الباطل ضدَّ الحقِّ و لكلٍّ واحدٍ منهما أشياع و أتباع فإذا ظهر الحق لا مجال لظهور الباطل و بالعكس و لذلك فكل طائفةٍ منهما يريد ظهور مطلوبه و محبوبه يوجب بروز الاختلاف بينهما و هذه سيرة مستمرة من البدو الى الختم و لا إختصاص لها بزمانٍ دون زمانٍ و اذا كان الأمر على هذا المنوال فبعد ظهور الإسلام أراد أتباع الباطل إطفاء نور الحق كما كانوا كذلك في الأمم السالفة أيضاً و هذا ممَّا لا شك فيه.

الثانية: أنَّ الله تعالى أخبر في هذه الآية و أمثالها أنَّهم أي أتباع الباطل لا يقدرُونَ على ذلك لأنَّ الحق ثابت لا يتغير و الباطل ليس كذلك.

نعم يمكن تضعيف الحق إمَّا إطفاءه و إماتته بالكلية فلا لأنَّ الحق لا سبيل للبطلان اليه و يؤيده العقل أيضاً لأنَّ الله تعالى على كل شيء قدير عقلاً و نقلاً فإذا أراد القادر المطلق شيئاً فمن يقدر على منعه و رده.

و المفروض أنَّه أراد إعلاء كلمة التوحيد بوساطة أنبياءه و رسله و وعدهم بذلك أيضاً فهو يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قال الله تعالى: **كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ** ^(١).

قال الله تعالى: **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ** ^(٢).

قال الله تعالى: **كَتَبَ اللَّهُ لِلَّهِ لَأُعْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي** ^(٣).

قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** ^(٤).

قال الله تعالى: **فَعُذِّبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ** ^(٥).

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ^(٦).

قال الله تعالى: **وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ^(٧).

فهذه الآيات ونظائرها تدل على إثبات المدعى وهو أن الله يتم نوره ولو كره الكافرون.

الثالثة: أنه تعالى عبّر عن الإسلام بالنور وذلك لأن النور على ما قيل في تعريفهما ظاهرة بذاتها مظهره لغيرها كما هو تعريف الوجود أيضاً.

و المقصود من كون النور كذلك هو أن نورانية النور ذاتية لها وليست بجعل جاعلٍ و أما غيرها فظهوره بها وهذا كما نرى أن النور في الظلمات توجب ظهور الأشياء بها.

و الإسلام أيضاً كذلك لأن الإسلام حقٌّ و حقايقه ليست بجعل جاعلٍ فالحق حق بذاته لا بشئٍ آخر لأنه من قبيل تحصيل الحاصل فهو كالسراج في الظلمات في طريق السلوك الى الله فكما أن الإنسان في الظلمة الحسية لا يقدر على رؤية الأشياء و لا يجد الطريق في سلوكه كذلك في ظلمات الكفر و الجهل لا يقدر على تشخيص الطريق و تحصيل الكمال و كسب السعادة إلا بالدين و العمل بأحكامه فالدين نورٌ و الكفر و الجهل ظلمات.

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد العاشر

- | | |
|------------------|-------------------|
| ١- المائدة = ٦٤ | ٢- الصَّف = ٨ |
| ٣- المجادلة = ٢١ | ٤- آل عمران = ١٦٠ |
| ٥- الأعراف = ١١٩ | ٦- يوسف = ٢١ |
| ٧- الصافات = ١٧٣ | |

الزبابة: قوله تعالى: **يَأْفُوهُمْ** فيه إشارة الى أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَطْفِئُوا نورَ اللَّهِ، ليست لهم حِجَّة قاطعة على صِحَّة قولهم و **أَمَّا قَالُوا** ما قالوا بمجرد اللَّفْظ و ذلك لا يكفي في حصول مطلوبهم، و يمكن أن يكون قوله: **يَأْفُوهُمْ** إشارة الى أَنَّ الْكُفَّارَ يَرِيدُونَ إطفاء الحقِّ بسبب الكذب و الافتراء الذي يظهر على ألسنتهم لتضعيف الحقِّ و لم يعلموا أَنَّ هذا لا يغنيهم و كيف كان فإضافة الإطفاء الى الأفواه في الآية من أحسن الاستعارات فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس و هذا من عجب البيان مع ما فيه من تصغير شأن الكفار و المخالفين للحقِّ و تضعيف كيدهم و ذلك لأنَّ النَّفْخَ يؤثر في الأنوار الضَّعيفة دون الأقباس العظيمة.

و نور الله تعالى من أعظم الأنوار و الأقباس فكيف يمكن لهم إطفاءها بمجرد الألفاظ الخالية عن المعنى و الافتراءات التي ليس لها أصل و الدليل على ما ذكرناه هو أَنَّ الْكُفَّارَ و الجاحدين للحقِّ لم يقدرُوا على ذلك و هو واضح لمن تدبَّر و أمعن النَّظْرَ في التاريخ.

فعن كتاب الغيبة لشيخ الطائفة عليه السلام بأسناده عن محمد بن سنان قال ذكر علي بن حمزة عند الرضا عليه السلام فلعله ثم قال عليه السلام: أَنَّ عَلِيَّ بْنَ حَمْزَةَ أَرَادَ أَنْ لَا يَعْبُدَ اللَّهَ فِي سَمَاءِهِ وَ أَرْضِهِ وَ يَأْبَى اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نوره و لو كره اللعين المشرك.

قلت، المُشْرِك قال عليه السلام نَعَمْ وَاللَّهِ رَغْمَ أَنْفِهِ كَذَلِكَ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ** و قد جرت فيه و أمثاله أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَطْفِئَ نورَ اللَّهِ انتهى.

و بأسناده الى الصادق عليه السلام و الحديث طويل يقول فيه و قد ذكر شقَّ فرعون بطون الحوامل في طلب موسى عليه السلام كذلك بنو أمية و بنو العباس لما أن وقفوا على أَنَّ زوال ملكة الأمر و الجبابرة منهم على

يدي القائم ناصبونا العداوة و وضعوا سيوفهم في قتل أهل بيت رسول الله و إبادة نسله طمعاً لهم في الوصول الى قتل القائم فأبى الله ن يكشف أمره لواحدٍ من الظلمة إلا أن يُتمّ نوره ولو كره المشركون انتهئ.

و عن تفسير العياشي عن أحمد بن محمد قال وقف علي أبو الحسن الثاني عليه السلام في بني زريق فقال لي و هو رافع صوته يا أحمد قلتُ لبيك قال أنه لما قبض رسول الله ﷺ جَهد النَّاسُ على إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتمّ نوره بأمر المؤمنين عليه السلام انتهئ.

تنبيه

يظهر من تفاسير العامة أن الآية نزلت في الكفار من اليهود و النصارى و غيرهم حيث أنهم أنكروا نبوة نبينا و جحدوا بها مع أن أهل الكتاب منهم قد علموا أن محمداً ﷺ رسول الله و هو الذي بشر به موسى و عيسى و قد ذكر الله تعالى في التّورة و الإنجيل من أوصافه ﷺ ما يدل على صدقه في إدعاءه النبوة و الأوصاف المذكورة في التّورة و الإنجيل لا تنطبق على غيره ﷺ إلا أنهم أي علماء اليهود و النصارى حرّفوا كتابهم إطفاءً منهم لنور الله و لكن الله تعالى قد أتمّ نوره على رغم أنوفهم و أظهر الحق ولو كره المشركون.

و نحن نقول لا كلام لنا فيما ذكره فإنه حق لا مرية فيه إلا أن تخصيص الآية به بعيد عن الإنصاف مع أنه لا دليل عليه و لو فرضنا نزول الآية فيما ذكره فهو لا ينافي إرادة العموم منها من حيث المعنى و ذلك لما مرّ منّا مراراً أن خصوصية المورد لا تنافي عموم المعنى فلا يجوز لنا أن نقول أن الآية لا مصداق لها فعلاً فالحق أن الآية بصدد بيان حكم كلّي في كلّ عصرٍ و زمانٍ فلو كان الكفار أنكروا نبوة الرسول و لم يقدروا على إطفاء نور النبوة والذين فقد

أنكر المسلمون بعد رسول الله ﷺ خلافة أوصيائه وأَيَّ فرقٍ بين الإنكارين فكما أنَّ الكفار لم يصلوا الى ما أرادوا كذلك السقيفة وأصحابها و أذنبها من خلفاء الجور لم يصلوا الى ما شاءوا وأرادوا وكما أنَّ منكري النبوة لم يقصروا في إيذاء النبي كذلك الخلفاء لم يقصروا في إيذاء أوصيائه وأهل بيته بل أنهم فعلوا بأهل البيت من الظلم بأنواعه ما لا يخفى على أحد.

و لو قلنا بأنَّ ظلم المسلمين على بيت نبيهم كان أضعاف ظلم الكفار على رسول الله لم نقل جزافاً ولكن الله تعالى بما وعد رسوله في الآية فقد ومن أصدق من الله قليلاً فأظهر الحق على رغم أنوف المعاندين المنافقين في الإسلام كما أظهره على رغم الكفار بالنسبة الى رسوله.

والحاصل أنَّ خلفاء المسلمين بعد رسول الله ﷺ و أتباعهم و أذنبهم لم يألوا جهداً في إيذاء أهل بيت رسول الله ﷺ و قتلهم و هتكهم و سبهم بل و سبي نساءهم و ذرايرهم كل ذلك لإطفاء نور الحق و أن شئت قلت عداوة لله و لرسوله فإن لم يكن لذلك فلماذا فعلوا ما فعلوا و المفروض أنَّ أهل البيت لم يذنبوا ذنباً أصلاً و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه هو الذي أرسل رسوله الى الخلق و هذا نص على رسالة الرسول و أنه جاء من عند الله لا من قبل نفسه و قوله: بِالْهُدَىٰ يعني بالحجج و البينات و البيان لما يؤدّيهما العمل به الى أبواب الجنة، و دين الحق، هو الإسلام و قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ معناه ليعلى دين الإسلام على جميع الأديان بالحكم و القهر و الغلبة لهم.

هكذا قيل و عليه فالألف و اللام في قوله: عَلَى الدِّينِ للجنس أو الاستغراق حتى يشمل الجميع و قوله: وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ إشارة الى كراهة الكفار من ذلك.

و من المعلوم أنّ المشرك لا يرضى بإعلاء كلمة التوحيد و ظهور الحقّ و لكنّ الله يتمّ نوره على ما مرّ بيانه في الآية السابقة.

قالوا و في الآية دلالة على صدق نبوته ﷺ لأنّها تضمّنت الوعد بظهور الإسلام على جميع الأديان و قد صحّ ظهور عليها.

و قال أبو جعفر عليه السلام أنّ ذلك يكون عند خروج القائم عليه السلام و قال ابن عباس أنّ الهاء في ليظهره عائدة الى الرسول ﷺ أي ليعلمه الله الأديان كلّها حتّى لا يخفى عليه شيء منها ذكره الشيخ في التبيان.

أقول أمّا ما ذهب اليه ابن عباس من أنّ الضمير عائدة الى الرسول فهو بعيد عن مساق الآية و الحقّ أنّها عائدة الى الذين كما عليه جمهور المفسرين.

و أمّا قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ إِلَى الْآنَ وَنَعْلَمُ أَيْضاً أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى صَدَقَ وَحَقٌّ وَهُوَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ فَلَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَ إِلَّا يَلْزَمُ كَذِبُ الْآيَةِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَ بِذَلِكَ نَحْكُمُ بِصَحَّةِ مَا رَوَى عَنْ أَيْمَنَّا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَثَارِ.

منها، ما رواه في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بأسناده الى أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: في قوله: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ تَأْوِيلُهَا حَتَّى يَخْرُجَ الْقَائِمُ فَإِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ لَمْ يَبْقَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَ لَا مُشْرِكٌ بِالْإِمَامِ إِلَّا كَرِهَ خُرُوجَهُ حَتَّى لَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُشْرِكًا فِي بَطْنِ صَخْرَةٍ لَقَالَتْ يَا مُؤْمِنُ فِي بَطْنِي كَافِرٌ فَأَكْسِرْنِي وَ أَقْتَلْهُ انْتَهَى.

و بأسناده الى سليط قال: الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام منّا أثنى عشر مهدياً أولهم أمير المؤمنين عليه السلام علي بن أبي طالب و آخرهم التاسع من ولدي و هو القائم بالحقّ يحيي الله به الأرض بعد موتها و يظهر به الدين الحقّ على الدين كلّ و لو كره المشركون انتَهَى.

و بأسناده الى محمد بن مسلم الثَّقفي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام محمد بن علي عليه السلام يقول القائم منّا منصور بالرُّعب مؤيد بالنصر تطوي له الأرض و تظهر له الكنوز يبلغ سلطانه المشرق و المغرب و يظهر الله عزّ و جلّ دينه على الدّين كلّه ولو كره المشركون فلا يبقى في الأرض خرائب إلّا عمر و ينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلي خلفه و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

و في أصول الكافي بأسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال قُلْتُ هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ الآية قال هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه و الولاية هي دين الحقّ قلت ليظهره على الدّين كلّه قال عليه السلام: يُظهر على جميع الأديان عند قيام القائم قال يقول الله: وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ قال ولاية القائم ولو كره الكافرون بولاية عليّ قلت هذا تنزيل قال عليه السلام نعم هذا الحرف فتنزيل و أمّا غيره فتأويل و الحديث طويل إنتهى.

و في تفسير العياشي عن أبي المقدام عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يكون أن لا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمد صلّى الله عليه وآله إنتهى (١).

أقول هذا الذي ذكرناه في تفسير الآية لا كلام له عندنا و أمّا العامة فسلكوا مسلكاً آخر و ذلك لأنهم يمعزل عمّا نعتقه من ظهور المهدي من أهل البيت على الوجه المقرّر في أخبارنا و لذلك وقعوا في تفسير الآية في تزلزل و اضطراب و لم يعلموا ما قالوا و ما يقولون فمثلهم كمثل الغريق يتشبّث بكلّ حشيش و هذا إمامهم الرّازي و هو عندهم يقول ما هذا لفظه.

إعلم أنّه تعالى لمّا حكى عن الأعداء أنّهم يحاولون إبطال أمر محمد صلّى الله عليه وآله و بيّن أنّه يأبى ذلك الإبطال و أنّه يتمّ أمره بيّن كيفيّة ذلك الإتمام

فقال: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ وَاعْلَمْ أَنَّ كَمَالَ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَحْصِلُ إِلَّا بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ:

أولها: كثرة الدلائل والمعجزات وهو المراد من قوله: أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ.
ثانيها: كون دينه مشتملاً على أمورٍ يظهر لكلٍّ أحدٍ كونها موصوفة بالصواب والصّلاح ومطابقة الحكمة وموافقة المنفعة في الدّنيا والآخرة المراد من قوله: وَدِينِ الْحَقِّ.

ثالثها: سيرورة دينه مستعلياً على سائر الأديان عالياً عليها غالباً لأضدادها قاهراً لمنكريها وهو المراد من قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

ثم قال و اعلم أَنَّ ظهور الشّيء قد يكون بالحجّة وقد يكون بالكثرة والوفور وقد يكون بالغلبة والإستيلاء ومعلوم أَنَّهُ تعالى بشرّ بذلك ولا يجوز أن يبشّر إلاّ بأمرٍ مستقبل غير حاصل وظهور هذا الدّين بالحجّة مقرر معلوم فالواجب حمّله على الظهور بالغلبة.

فإن قيل ظاهر قوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ كونه غالباً لكلّ الأديان وليس الأمر كذلك فإنّ الإسلام لم يصّر غالباً لسائر الأديان في أرض الهند والصّين والرّوم وسائر أراضى الكفرة قلنا جابوا عنه من وجوه:

الأول: أَنَّهُ لا دين بخلاف الإسلام إلاّ وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليه في بعض المواضع وأن لم يكن كذلك في جميع مواضعهم فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشّام وما والاها الى ناحية الرّوم وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عبّاد الأصنام على كثيرٍ من بلادهم ممّا يلي التّرك والهند وكذلك سائر الأديان فثبت أنّ الَّذِي أخبر الله عنه في هذه الآية وقع وحصل وكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

الوجه الثّاني: في الجواب أن نقول روي عن أبي هريرة أَنَّهُ قال هذا وعدٌ من الله بأنّه تعالى يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان وتام هذا أمّا يحصل عند خروج عيسى عليه السلام.

و قال السُّدي ذلك عند خروج المَهدي لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أَدَّى الخراج.

الوجه الثالث: المراد ليظهر الإسلام على الدِّين كُلِّهِ في جزيرة العرب حصل ذلك فأنَّه تعالى ما أبقي فيها أحداً من الكفَّار.

الوجه الرابع: أن المراد من قوله: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** أن يوقفه على جميع شرائع الدِّين و يطلعه عليها بالكلية حتَّى لا يخفى عليه منها شيء.

الخامس: أن المراد من قوله: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** بالحجَّة و البيان إلَّا أنَّ هذا الوجه ضعيف لأنَّ هذا وعدٌ بأنَّه تعالى سيفعله و التَّقوية بالحجَّة و البيان كانت حاصلة من أوَّل الأمر و يمكن أن يجاب عنه بأنَّ في مبدأ الأمر كثرت الشُّبهات بسبب ضعف الاسلام و إستيلاء الكفَّار و منع الكفَّار سائر النَّاس من التَّأمل في تلك الدَّلائل.

أمَّا بعد قوَّة دولة الإسلام عجزت الكفَّار فضعفت الشُّبهات فقوي ظهور دلائل الإسلام فكان المراد من تلك البشارة هذه الزيادة انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

نحن نقول أصل الإشكال في الآية لا خفاء فيه و ذلك لأنَّه تعالى قال: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** أي على الأديان كلِّها لأنَّ اللام في قوله: **عَلَى الدِّينِ** للجنس أو الإستغراق و هذا ممَّا لم يخالفه أحد و من المعلوم أنَّ ما وعده لم يقع بل نرى إستيلاء الكفر على الإسلام في زماننا هذا و هكذا كان بعد رسول الله فإنَّ الإسلام لم يظهر على الأديان كلِّها من أوَّل البعثة الى زماننا هذا و هذا ممَّا لا يخفى على أحدٍ و الرَّازي أيضاً اعترف بما ذكرناه من الإشكال إلَّا أنَّه عبَّر عنه بقوله فأن قيل، ثم أجاب عنه بوجوهٍ ضعيفة باطلة نشير الى وجهه ضعفها إجمالاً.

أما الوجه الأول: فضعفه بل بطلانه ظاهر لا يحتاج الى الجواب لأنَّ التَّاريخ يحكم بكذب ما قاله الرَّازي و كان على المستدل أن يذكر في إستدلاله و نقله

زماناً ظهر المسلمون على الكفار بحيث لم يبق من الكفار وأديانهم أثراً في وجه الأرض كما هو مقتضى الآية بدليل قوله: **كُلِّهِ** و مجرد غلبة المسلمين على اليهود أو النصارى في جزيرة العرب أو بعض البلاد مع أن الغلبة كانت على طائفة قليلة منهم لا على كل الكفار لا يسمى بغلبة الإسلام بقول مطلق و ظهوره على الأديان كلها كما هو مفاد الآية و بعبارة أخرى المدعى ظهور الإسلام على جميع الأديان كلها بحيث لا يبقى كافر على وجه الأرض و هو لم يحصل قطعاً.

أما الوجه الثاني: و هو ما نقله عن أبي هريرة فيه أن الله تعالى وعد نبيه بذلك فقال: **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى** و لازم ذلك أن يكون الإظهار بتوسط النبي أو وصيه و خليفته الذي هو كنفس الرسول بحيث صرح ما نسب إليه ما نسب الى الرسول و أما عيسى عليه السلام فهو رسول آخر و قد نسخ دينه بعد الإسلام فالقول بأن دين محمد صلى الله عليه وسلم يظهر على الأديان بتوسط عيسى لا نفهم معناه.

و المفروض أن رسالة عيسى قد إنقضت مدته فلو ظهر أو نزل عيسى في آخر الزمان لا يكون إلا مطيعاً و تابعاً للإسلام متقاداً لوصى رسول رب العالمين الذي به يظهر الإسلام على الأديان كما دلّت عليه أخبارنا المروية عن أئمة أهل البيت و يدل على ما ذكرناه أنه يصلي خلف القائم عليه السلام.

أما الوجه الثالث: فهو من أوهن الوجوه و أضعفها و ذلك لأن الآية تقول ليظهره على الدين كله و لا تقول في جزيرة العرب مع أنه أيضاً لم يحصل بشهادة التاريخ و العجب من قوله فإنه تعالى ما أبقى فيها أحد من الكفار بلغ وقوفه و إطلاعه على التاريخ بهذا المقدار و لم يعلم أن الكفار في عهد النبي و عهد الخلفاء بعده كانوا كثيرين و مع ذلك يقول أنه ما أبقى فيها أحد من الكفار فلا كلام لنا معه.

أما الوجه الرابع: وهو أنَّ المراد أن يوقفه على جميع الشرائع و يطلعه عليها فهو أيضاً خلاف ظاهر الآية لأنَّ الوقوف والإطلاع على جميع الأديان يرجع الى العلم بها و هو لا يعدّ ظهور الدّين ضرورة وجود الفرق بين العلم بالدّين و ظهوره على الأديان و هو واضح.

أما الوجه الخامس: فلا يحتاج الى الجواب لأنّه أجاب عنه بنفسه و أمّا ذكره في آخر كلامه بقوله و يمكن أن يجاب عنه فهو كما ترى خارج عن مورد البحث فإنّ إظهار الدّين و غلبته على جميع الأديان لا ربط له بوجود الشُّبهات و عدمه و كثرتها و قلّتها.

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّه لا يمكن رفع الإشكال من الآية إلا بما ذكرناه تبعاً لأثار أهل البيت و قد أشرنا الى بعض ما وُرد في الباب فقد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ تأويل الآية يحتاج الى ظهور القائم الذي يملأ الله الأرض به قسطاً و عدلاً كما ملأت ظلماً و جوراً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ
الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
هذا خطاب للمؤمنين يعلمهم الله تعالى أنّ كثيراً من أخبار اليهود و
علماءهم و كثيراً من رهبان النصارى لياكلون أموال الناس بالباطل.

قال بعضهم أنّهم كانوا يأخذون الرّشا في الأحكام، و لا شكّ أنّه من أكل المال بالباطل، و قيل أنّهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم باسم الكنائس و البيع.
و قيل أنّهم كانوا يملكون أموال الناس من الجهات التي يحرم منها أخذه و
قبل غير ذلك و الجامع بين الأقوال كلّها هو أخذ أموال الناس من غير طريق
الشّرع و قد نهى الله تعالى في كلّ الأديان قال رسول الله لا يحلّ مال إمريء إلا
بطيب نفسه.

قال الله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تَذُلُوا بِهَا إِلَى
الْحُكَّامِ**^(١).

قال الله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**^(٢).

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**^(٣).

و الحاصل أن أكل المال بالباطل ممنوع شرعاً و عقلاً و حيث أن علماء اليهود و النصارى كانوا يأخذون أموال الناس بأنواع الحيل و الخدعة أو بعنوان الرِّشَاء أو بغير ذلك من الوجوه المحرمة غيرهم الله في هذه الآية.

و أعلم المسلمين أيضاً بقبح ذلك و أنما خاطب المؤمنين بذلك مع أن الأفعال صدرت من علماء اليهود و النصارى دون المسلمين لأن حكم الأمثال واحد ففيه إشارة الى أن المؤمن لو فعل ما فعله اليهود و النصارى من أكل أموال الناس بالباطل فهو مثلهم و حيث أنهم استحقوا التعبير بما فعلوه فأنتم أيها المؤمنون لو أكلتم أموال الناس بالباطل فأنتم مثلهم و هو كذلك لأن الأصول في جميع الأديان محفوظة و هذا منها.

و أما قوله: **يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ففيه إشارة الى أن علماءهم قصدوا بذلك إضلال الناس و إنحرافهم عن طريق الحق و ذلك لأن العوام في جميع الأديان و المذاهب يتبعون علماءهم و ليس عقل يميزون به الحق عن الباطل كما إشتهر أن العوام عقولهم في أعينهم لا في رؤسهم أي ليست لهم قدرة التفكير و لا سيما في أمور دينهم و إذا كان كذلك فالذنب ثابت على العلماء أولاً و عليهم ثانياً فالعالم الفاسد يصد عن سبيل الله من حيث لا يشعر قال رسول الله إذا فسد العالم فسد العالم، و الحق أن هذه الموعظة و التذكير من الله تعالى لم يؤثر في المسلمين فأن علماءهم تابعوا اليهود و النصارى في

نبأ القرآن في تفسير القرآن



أعمالهم الشنيعة وأكلهم أموال الناس بالباطل كأنهم لم يعلموا أن القرآن، من قبيل إِيَّاكَ أَعْنِي وَأَسْمِعِي يا جارة، بمعنى أَنَّ الآيات الواردة في الكتاب وأن كانت في الظاهر في حَقِّ اليهود والنصارى وأمثالهم إِلَّا أَنَّ الغرض الأصلي من حكاية أحوالهم وأقوالهم هو أن نتعظَّ بها ولنعم ما قال أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال ما أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَأَقَلَّ الْإِعْتِبَارَ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الدَّقِيقَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْأَفْصَةَ أَلَمْ يَخُفْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كَنْزِ الْأَمْوَالِ وَهَذَا الْحُكْمُ عَامٌ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ.

أَنْ قُلْتَ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ نَهْيٌ وَإِنَّمَا الْأَخْبَارُ فَقَطْ.

قُلْتُ الْإِخْبَارُ هُنَا فِي قُوَّةِ النَّهْيِ حَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي آخِرِهِ: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فَكَأَنَّهُ قَالَ لَا تَكْنُزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَأَنْ فِيهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

قال الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّانِ الْمَذِينِ يَخْبُتُونَ أَمْوَالَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرِجُوا زَكَاتَهَا لِأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوا زَكَاتَهَا وَكَتَبُوهَا كَتَبُوا مَا بَقِيَ لَمْ يَكُونُوا مَلُومِينَ بِلَا خِلَافٍ.

أقول و على ما ذكره الشيخ رحمته فاللهي و العذاب مختصان بما عنى الزكاة و
لعل قوله: **وَلَا يَتَفَقَّوْنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** يدل على ذلك إذا قلنا أن المراد
بالإنفاق في سبيل الله هو الزكاة لوجوب هذا الإنفاق، و أما أن قلنا أن المراد
مطلق الإنفاق في سبيله فالآية على العموم.

و قال كثير من العلماء الكَنْز هو المال الذي لا تؤدى زكاته و أن كان على وجه الأرض فأما المال المدفون إذا خرجت زكاته فليس بكنز.

قال رسول الله ﷺ كل ما أدّيت زكاته فليس بكنزٍ و قال الجبائي و غيره، و الذين يكنزون الآية نزلت في مانعي الزكاة من أهل الصلاة، و قال قوم نزلت في المشركين و الأقوال كثيرة و الذي نقول في المقام هو أنّ المال الذي أخرجت زكاته لا دليل على حرمة كنهه فلا يترتب عليه العذاب الموجود في الآية إلا في موارد الضرورة و الإضطّار كما إذا فرضنا إحتياج الناس اليه في

عام القحط و الشدة و هو خارج عن مورد البحث و إنما قلنا ذلك لأنَّ النَّاسَ مسلَّطون على أموالهم خرج عنه ما خرج بالدليل الشرعي و بقي ما بقي تحت الأصل.

أَن قُلْتُ روي في تفسير علي بن إبراهيم و غيره من الآثار المروية من طريق العامة و الخاصة و الحديث مشهور بين الفريقين أنَّ عثمان بن عفان سأل كعب الأحبار و قال له يا أبا إسحاق ما تقول في رجل أذى زكاة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء فقال لا، و لو إتخذ لبننة من ذهب و لبننة من فضة ما وجب عليه شيء فرفع أبوذر رضي الله عنه عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له يا بن اليهودية الكافرة ما أنت و النضر في أحكام المسلمين قول الله أصدق من قولك حيث قال: **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ**. قُلْتُ أَمَا أَوَّلَ هذا الحديث و أن كان مشهوراً بين النَّاسِ إلاَّ أنَّه ربَّ شهرة لا أصل له إذ لم ينقل في موثق يعتمد عليه.

ثانياً: على فرض صحة سنده لا يكون حجة لأنَّ أباذر و أن كان من كبار الأصحاب و قد صدَّقه الرسول في أقواله إلاَّ أنَّه لم يكن من المعصومين ليكون فعله حجة لنا و عليه فما قاله أبوذر في جواب كعب الأحبار أو عثمان مربوط بشخصه.

ثالثاً: لعلَّ غرضه أنَّ عثمان كان عالماً بأنَّ أباذر أعلم و أصلح و أتقى من كعب الأحبار و أمثاله و هو كان حاضراً في المجلس و هو الذي أنكر على عثمان تصرفاته في أموال المسلمين و إنفاقها على أقربائه من بني أمية و منعه المسلمين عن حقوقهم المالية الموجودة في بيت المال و لما كان الأمر على هذا المنوال فسؤال عثمان عن كعب الأحبار في محضر أباذر و عثمان يعلم أنَّه أي كعب الأحبار لا يخالفه قطعاً لم يرد به إلاَّ تكذيب أباذر في أنظار المسلمين و أنَّ ما يفعله في أموال النَّاسِ مطابق للشرعية الحقَّة و لأجل ذلك أنكر أباذر على كعب الأحبار و هكذا من الإحتمالات التي أوجبت لنا أن نقول تلك قضية

شخصية وقعت في صدر الإسلام على فرض صحتها و الحاضر يرى ما لا يراه الغائب و كيف كانت فليست لنا بحجة و لا برهان هذا كله مع أنه لم يكن لعثمان مال و لا درهم و دينار و لا غيره و ما نقله أهل السنة في هذا الباب و أنه كان ممن أنفق أمواله في سبيل الله من الأكاذيب و إذا كان كذلك فغرضه من السؤال ما ذكرناه و مع ذلك كله فنحن نشير الى بعض ما ورد في الباب.

في آمال الشيخ رحمته الله بأسناده لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: (كُلِّ مالٍ تَوَدَّى زَكَاتِهِ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَّ أَنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ وَّ كُلِّ مَالٍ لَا تَوَدَّى زَكَاتِهِ فَهُوَ كَنْزٌ وَّ أَنْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ) إنتهى.

و في مجمع البيان - و روي عن علي عليه السلام (ما زاد على أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدها و ما دونها فهي نفقة فبشرهم بعذاب أليم) إنتهى.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ فَأَنْ اللَّهَ حَرَّمَ كَنْزَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ أَمَرَ بِإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إنتهى.

و قال الطبري في تفسيره لهذه الآية، و اختلف أهل العلم في معنى الكنز فقال بعضهم هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته قالوا و عنى بقوله: وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لا يؤدّون زكاتها ثم ذكر بأسناده عن ابن عمر أنه قال كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز و أن كان مدفوناً و كل ما لم تؤد زكاته فهو كنز و إن لم يكن مدفوناً.

و بأسناده عن عكرمة قال، ما أدّيت زكاته فليس بكنز، و بأسناده عن السدي قال أما الذين يكنزون الذهب و الفضة فهؤلاء أهل القبيلة و الكنز ما لم تؤد زكاته و أن كان على ظهر الأرض و أن قلّ، و أن كان كثيراً قد أدّيت زكاته

فليس بكنزٍ والأحاديث التي نقلها كثيرة ثم قال الطبري في آخر كلامه وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكر عن ابن عمر من أن كل مال أديت زكاته فليس بكنزٍ يحرم على صاحبه إكتنازه وأن كثروا أن كل مالٍ لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب مستحق وعيد الله إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وأن قلّ إنتهى موضع الحاجة منه.

أقول بعد التخصّص التام فيما بأيدينا من التفاسير لم نر مخالفاً في المسئلة بل جميع المفسرين من العامة والخاصة إتفقوا على ذلك و يظهر من كلام الرّازي التّرديد ونحن ننقل كلامه بعين ألفاظه و عباراته قال في الآية مسائل.

المسئلة الأولى: في قوله: **وَالَّذِينَ** احتمالات ثلاثة لأنه يحتمل أن يكون المراد بقوله، الذين أولئك الأحرار والرهبان و يحتمل أن يكون المراد كلاماً مبتدأ على ما قال بعضهم المراد منه مانعوا الزكاة من المسلمين و يتحمل أن يكون المراد منه كل من كنز المال و لم يخرج منه الحقوق الواجبة سواء كان من الأحرار و الرهبان أو كان من المسلمين فلا شك أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذه الوجوه الثلاثة و روي عن زيد بن وهب قال مررت بأبي ذر.

فَقُلْتُ يا أباذر ما أنزلك هذه البلاد فقال كُنْتُ بالشَّامِ فقرأتُ و الذين يكتنزون الذهب و الفضة الآية فقال معاوية هذه الآية نزلت في أهل الكتاب فقلت أنها فيهم و فيها.

فصار ذلك سبباً للوحشة بيني وبينه فكتب الى عثمان أن أقبل إلي فلما قدمت المدينة إنحرف الناس عني كأنهم لم يروني من قبل فشكوت ذلك الى عثمان فقال لي تتح قريباً فقلت أني و الله لن أدع ما كنت أقول إنتهى موضع الحاجة من كلامه ثم ساق الكلام الى أن قال.

و أعلم أن الطريق الحق أن يقال الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير إلا أنه لم يمنع عنه في ظاهر الشرع فالأول محمول على التقوى و الثاني على ظاهر الفتوى إنتهى و هو متين جداً.

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِدُونَ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

يوم يُحْمَى، متعلق بقوله فبشروهم بعذاب أليم في يوم يحمى عليها، معناه أنه يدخل الذهب والفضة في النار فيوقد عليها يعني على الكنوز التي كنزوا فالهاء في قوله: عَلَيْهَا عائدة على الكنوز أو الفضة، والإحماء جعل الشيء حاراً في الإحساس وهو فوق الإسخان وضده التبريد، والكَيّ الصاق الشيء الحار بالعضو من البدن ومنه قولهم آخر الداء الكَيّ، لفظ أمره كقطع العضو إذا عظم فسادة قالوا ومعنى الآية أَنَّ الله يحمي هذه الكنوز بالنار ليكوي بها جباه من كنزها ولم يخرج حق الله منها وجنوبهم وظهورهم فيكون ذلك أشد لعذابهم وأعظم لخزيهم وقوله هذا ما كنزتم لأنفسكم أي أذخرتموه لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون أي فأطمعوا أجزاء ما كنتم تدخرونه من منع الزكوات و الحقوق الواجبة في أموالكم وعلى ما ذكرناه في الآية السابقة ظهر لك تفسير هذه الآية أيضاً وأنها نزلت في حق مانعي الزكوة وغيرها من الحقوق الواجبة وقد ورد في حديث طويل في كتاب من لا يحضره الفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام حيث يذكر فيه الكبائر قال عليه السلام ومنع الزكاة المفروضة لأن الله عز وجل يقول : يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ واستدلال الإمام عليه السلام بها دليل على أنها نزلت في منع زكاة ماله وهو المطلوب.

و عن صحيح البخاري وصحيح مسلم، الوحيد الشديد لمانع الزكاة.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي
 كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا
 أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
 أَنْفُسَكُمْ وَفَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
 يُفَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ
 (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا
 لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ
 زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا
 قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقَلْتُمْ إِلَى
 الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا
 مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا
 تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ يَسْتَبَدِلُ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ
 يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
 سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ
 كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
 الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

◀ اللغة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِدَّةَ بَكْسَرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الدَّالِ الْمَشْدَدَةِ مُصَدَّرٌ مِثْلُ الْعَدَدِ وَ الشُّهُورُ بِضَمِّ الشَّيْنِ جَمْعُ شَهْرٍ قِيلَ وَ هُوَ مَأْخُذٌ مِنْ شَهْرَةٍ أَمْرُهُ لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ وَ مُحَلٌّ دِيُونِهِمْ وَ حَجَّهْمُ وَ صَوْمُهُمْ وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمُ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّرِيعَةِ.

كَأَفٍّ هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ كَفَّةِ الشَّيْ وَ هِيَ طَرَفُهُ وَ أَنْمَا أَخَذَ مِنْ أَنَّ الشَّيْ إِذَا أَنْتَهَى إِلَى ذَلِكَ كَفَّ عَنِ الزِّيَادَةِ وَ هِيَ لَا يَثْنَى وَلَا يَجْمَعُ. النَّسِيءُ عَلَى وَزْنِ فَعِيلٍ وَ هُوَ مُصَدَّرٌ يَقَالُ نَسَأْتُ الْأَبْلَ فِي ظَمْنِهَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ وَ مَعْنَاهُ التَّأْخِيرُ.

لِيُؤَاظُمُوا الْمَوَاطَاةَ مُوَافَقَةً أَمْرُ التَّوْطُّةِ أَيْ لِيُؤَافِقُوا. أَنْفِرُوا أَمْرٌ مِنَ النَّفْرِ وَ هُوَ الْخُرُوجُ أَيْ أَخْرَجُوا. آثَاقَلْتُمْ التَّثَاقُلُ تَعَاطَى إِظْهَارُ ثَقُلِ النَّفْيِ وَ مِثْلُهُ التَّبَاطُيُ وَ ضَدُّهُ التَّسْرَعُ.

◀ الإعراب

عِدَّةَ الشُّهُورِ عِدَّةَ مُصَدَّرٌ مِثْلُ الْعَدَدِ وَعِنْدَ مَعْمُولٍ لَهُ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ صِفَةٌ لِأَثْنَى عَشَرَ وَ لَيْسَ بِمَعْمُولٍ لِعِدَّةٍ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ إِذَا أَخْبَرَ عَنْهُ لَا يَعْمَلُ فِيْمَا بَعْدَ الْخَبَرِ وَ يَوْمَ خَلَقَ مَعْمُولٌ لِكِتَابٍ مِنْهَا أَرْبَعَةُ الْجُمْلَةِ صِفَةٌ لِأَثْنَى عَشْرًا تَكُونُ حَالًا مِنْ إِسْتِقْرَارٍ وَ أَنْ تَكُونُ مُسْتَأْنَفَةً مِنْهُنَّ ضَمِيرُ الْأَرْبَعَةِ إِثْنِي عَشَرَ كَأَفٍّ مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْمُشْرَكِينَ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي قَاتَلُوا إِنْمَّا النَّسِيءُ يَقْرَأُ بِهَمْزَةٍ بَعْدَ الْيَاءِ وَ هُوَ فَعِيلٌ مُصَدَّرٌ مِثْلُ التَّنْذِيرِ وَ التَّنْكِيرِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَيْ أَنْمَا الْمَنْسُوءُ وَ قَدْ يَقْرَأُ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ عَلَى قَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءٌ وَ يَقْرَأُ بِسُكُونِ الشَّيْنِ وَ هَمْزَةٌ بَعْدَهَا وَ هُوَ مُصَدَّرٌ نَسَأْتُ يُحْلُوهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْسَرًا لِلضَّلَالِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مَوْضِعٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا آثَاقَلْتُمْ الْمَاضِي هُنَا بِمَعْنَى الْمُضَارِعِ أَيْ مَالِكُمْ تَتَنَاقَلُونَ وَ مَوْضِعُهُ نَصَبُ أَيْ

أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِي التَّنَاقُلِ أَوْ فِي مَوْضِعٍ جَزَّ عَلَى رَأْيِ الْخَلِيلِ مِنَ الْآخِرَةِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ ثَانِيًا أَتَيْنِي هُوَ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ أَيْ أَحَدُ اثْنَيْنِ إِذَا هُمَا ظَرَفٌ لِنَصْرِهِ لِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ إِذَا الْأُولَى إِذَا يَقُولُ بَدَلٌ أَيْضًا سَكَبَتْهُ هِيَ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى فَعَلَةٌ أَيْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَا يَسْكُنُهُ كَلِمَةً اللَّهُ بِالزَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَهِيَ الْعُلْيَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ وَقَرِيٌّ بِالنَّصْبِ أَيْ وَجَعَلَ كَلِمَةَ اللَّهِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جَدًّا.

التفسير

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِعلم أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا عِيشَ لَهَا إِلَّا مِنَ الْغَارَاتِ وَأَعْمَالِ سَلَامِهَا فَكَانَتْ إِذَا تَوَالَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْبَعَةُ الْحَرَمُ صَعِبَ عَلَيْهِمْ وَأَمْلَقُوا وَكَانَ بَنُوا فَقِيمٌ مِنْ كُنَانَةِ أَهْلِ دِينَ وَتَمَسَّكُ بِشَرْعِ إِبْرَاهِيمَ فَأَنْتَدَبَ مِنْهُمْ الْقَلَمْسُ وَهُوَ حَذِيفَةُ بْنُ عُبَيْدٍ بَنٍ مَقِيمٍ فَنَسَأَ الشُّهُورَ لِلْعَرَبِ ثُمَّ خَلَفَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُهُ عِبَادٌ ثُمَّ ابْنُهُ قَلْعٌ ثُمَّ ابْنُهُ أُمَيَّةٌ ثُمَّ ابْنُهُ عَوْفٌ ثُمَّ ابْنُهُ جَانِدَةُ بْنُ عَوْفٍ وَ عَلَيْهِ قَامَ الْإِسْلَامُ وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا فَرِغَتْ مِنْ حَجَّهَا جَاءَ إِلَيْهِ مِنْ شَاءَ مِنْهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَقَالُوا أَنْسْنَا شَهْرًا أَيْ أَضْرَعْنَا حَرَمَةَ الْمُحَرَّمِ فَأَجْعَلْهَا فِي صَفَرٍ فَيَحِلُّ لَهُمُ الْمُحَرَّمُ فَيُغَيِّرُونَ فِيهِ وَيُعِيشُونَ ثُمَّ يُلْزَمُونَ حَرَمَةَ صَفَرٍ لِيُؤَافِقُوا عِدَّةَ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ وَيَسْمُونَ ذَلِكَ الصَّفَرَ الْمُحَرَّمِ وَيَسْمُونَ رِبْعًا الْأَوَّلَ صَفْرًا وَرِبْعًا الْآخَرَ رِبْعًا الْأَوَّلَ وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الشُّهُورِ يَسْتَقْبِلُونَ نَسِيئَهُمْ فِي الْمُحَرَّمِ الْمَوْضُوعِ لَهُمْ فَيَسْقِطُ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ الْمُحَرَّمِ الَّذِي حَلَّ لَهُمْ وَتَجِي السَّنَةُ مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ شَهْرًا أَوَّلُهَا الْمُحَرَّمُ ثُمَّ الْمُحَرَّمُ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ صَفَرٌ ثُمَّ اسْتِقْبَالَ السَّنَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَالَ مُجَاهِدٌ ثُمَّ كَانُوا يُحْتَجُّونَ فِي كُلِّ عَامٍ شَهْرَيْنِ وَلَاءٌ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَبْدُلُونَ فَيُحْتَجُّونَ عَامَيْنِ وَلَاءٌ ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَتْ حَجَّةُ أَبِي بَكْرٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ حَقِيقَةً وَهُمْ يَسْمُونَهُ ذَا الْحَجَّةِ ثُمَّ حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ سَنَةَ عَشْرِ فِي ذِي الْحَجَّةِ

وَيَسْمُونَهُ ذَا الْحَجَّةِ

جزء ١٠
المجلد الثاني

حقيقةً فذلك قوله ﷺ أَنَّ الزَّمانَ قد إستدار كهيئة يوم خلق الله السَّموات و الأرض السَّنة إثني عشر شهراً أربعة حرم ذو القعدة و ذى الحجة و المحرم و رجب هكذا قيل.

و أعلم أَنَّ مناسبة الآية لما قبلها هو أَنَّهُ تعالى لَمَّا بَيَّنَّ فيها أنواعاً من قبائح أهل الشُّرك و أهل الكتاب ذكر في هذه الآية نوعاً آخر منه و هو تغيير العرب أحكام الله تعالى لأنَّهُ تعالى حكم في وقتٍ بحكم خَاصٍ فإذا غَيَّرُوا ذلك الوقت فقد غَيَّرُوا حكم الله و الشُّهور جمع كثرة لَمَّا كانت أَزيد من عشرة بخلاف الاشهر في قوله: **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** حيث جاء بلفظ جمع القلَّة و المعنى شهور السَّنة القمريَّة لأنَّهم كانوا يُورِّخون بالسَّنة القمرية لا شمسيَّة توارثوه عن إسماعيل و إبراهيم و معنى، عند الله، أي في حكمه، و قال الرازي في تفسيره.

إِعلم أَنَّ السَّنة عند العرب كانت عبارة عن إثني عشر شهراً من الشُّهور القمريَّة و الدليل عليه هذه الآية و أيضاً:

قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَ النَّجْمِ** (١).

فجعل تقدير القمر بالمنازل علةً لِلَّيْلِ و الحساب و ذلك أَنَّمَا يَصَحُّ إذا كانت السَّنة معلَّقة بسير القمر و أيضاً:

قال الله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ** (٢).

و كانت السَّنة عند سائر الطوائف عبارة عن المدة الَّتِي تدور الشَّمس فيها دورة تامة و السَّنة القمريَّة أَقلُّ من السَّنة الشمسية بمقدارٍ معلوم و بسبب ذلك النِّقصان تنتقل الشُّهور القمرية من فصلٍ الى فصلٍ فيكون الحجُّ واقعاً في الشَّتاء مرَّة و في الصيف أخرى و كان يشقُّ الأمر عليهم بهذا السبب و أيضاً إذا

حضرُوا الْحَجَّ حضروا للتجارة فربما كان ذلك الوقت غير موافق لحضور التجارة من الأطراف فهذا السَّبب أقدموا على عمل الكبيسة على ما هو معلوم في علم الزيجات وأعتبروا السَّنة الشمسية وعند ذلك بقي زمان الْحَج مختصاً بوقت واحد معين موافق لمصلحتهم فهذا النَّسِي وإن كان سبباً لحصول المصالح الدُّنيوية إلاَّ أَنَّهُ لَزِمَ منه تَغْيِيرُ حَكَمِ اللَّهِ و ذلك لِأَنَّهُ لَمَّا خَصَّ الْحَجَّ بِأشهر معلومة على اليقين وكان بسبب ذلك النَّسِي يقع في سائر الشهور تَغْيِيرُ حَكَمِ اللَّهِ و تكليفه فالحاصل أَنَّهُم لرعاية مصالحهم في الدُّنيا سعوا في تَغْيِيرِ أَحكامِ اللَّهِ ولهذا استوجبوا الذَّمَّ العظيم في هذه الآية انتهى كلامه.

أقول هذا ما ذكره في المقام و يظهر منه أَنَّهُم غَيَّرُوا السَّنة و الشهور لأجل منافعهم و قوله تعالى: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا أَنَّهُم جَعَلُوهَا أَكْثَرَ مِنْهَا و لذلك ردَّ اللَّهُ عليهم في هذه الآية، و هو كذلك لأنَّ السَّنة الشمسية كانت أَزِيدَ من السَّنة القمرية فجمعوا تلك الزيادة فإذا بلغ مقدارها إلى شهر جعلوا تلك السَّنة ثلاثة عشر شهراً فأنكر الله عليهم و قال: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ.****

قال ابن عباس أَنَّهُ اللُّوحُ المحفوظ الذي كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها و هو الأصل الكتب الذي أنزلها الله على جميع الأنبياء. و قيل أَنَّ المراد بالكتاب القرآن، و قيل في كتاب الله أي فيما أوجبه و حكم به فالكتاب في هذا الموضع هو الحكم و الإيجاب.

قال الله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ^(١).**

قال الله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِضَاصُ^(٢).**

قال الله تعالى: **كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ^(٣) و أمثال ذلك.**

ضياء القرآن في تفسير القرآن



و المشهور بين المفسرين هو القول الأول.

و أما قول من قال أن المراد به الحكم فهو بعيد عن مساق الكلام مضافاً الى أنه مستلزم للمجاز و فى قوله: **يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** إشارة الى مبدء خلق العالم أي من أول الأمر كان كذا ثم أن الشهور القمرية شرعوها من المحرم و ختامها ذو الحجة، و هكذا، محرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادي الأول، جمادي الثاني، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.

و أما قوله: **مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** فهي رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم قيل المراد بالدين القيم هو القضاء المستقيم، و قيل العدد الصحيح، و قيل الشرع القويم إذ هو دين إبراهيم.

و قيل الحساب الصحيح هو الدين القيم لا ما كانت عليه العرب من النسبي. و قيل معناه ذلك الدين هو الدين القيم، و قال بعضهم الدين القيم الذي لا يبدل و لا يغير فالقيم هاهنا بمعنى القائم بالحق الذي لا يزول و هو الدين الذي فطر الناس عليه، **فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** الفاء للتفريع أي إذا كان الدين القيم هو هذا فلا تظلموا فيهن، أي فى الأشهر الحرم أو فى الشهور الأثني عشر أنفسكم و المقصود لا تعصوا الله فيهن، أي فى السنة و لا سيما فى الأشهر الحرم و فى قوله: **أَنْفُسَكُمْ** إشارة الى أن تبعات الظلم ترجع اليكم لا الى الله تعالى و أظن أن قوله: **فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ** معناه المنع من القتال فيهن و أن كان ترك جميع المعاصي أولى **و قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً و أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** أمرهم الله بقتال المشركين كافة، أي جميعاً و فيه قولان:

أحدهما: أن يكون المراد قاتلوهم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم بهذه الصفة.

الثاني: قال ابن عباس قاتلوهم بكلتيهم ولا تجادلوا بعضهم بترك القتال كما أنهم يستحلون قتال جميعكم و **أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** لمعاصيهم يؤدي الى عقابه ويكون معهم بالنصرة والولاية دون الاجتماع في مكان أو محل لأنه تعالى لا يجوز عليه ذلك فهو من قبيل قوله: **هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** (١) فالمعية معية العناية والولاية.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ غَامًا
قد ذكرنا وجوه القراءة في النسئ عند شرح اللغات والإعراب صدر الآية بكلمة، أنما، التي تفيد الحصر فقال أنما النسئ أي التأخير زيادة في الكفر والمراد بالتأخير تأخير حرمة شهر الى شهر ليست له تلك الحرمة فيحرمون بهذا التأخير ما أحل الله و يحلّون ما حرّم الله المعلوم أن نفس تأخير الشهر ليس زيادة في الكفر و أنما الزيادة في تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر ليست له تلك الحرمة.

قال أنهم كانوا قد وكلّوا قوماً من بني كنانة يقال لهم بنوا فقيم و كانوا يؤخرون المحرم و ذلك نساء الشهور لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعات العرب للموسم فينادي مناد أن إفعلوا ذلك لحاجة أو الحرب و ليس كل سنة يفعلون ذلك فأن أرادوا أن يحلّوا المحرم نادوا هذا صفر و أن المحرم الأكبر صفر و ربّما جعلوا صفرأ محرماً مع ذي القعدة حتّى يذهب الناس الى منازلهم إذا نادى المنادي بذلك و كانوا يسمّون المحرم صفرأ و يقدمون صفرأ سنة و يؤخرونه.

و قال أبو علي كانوا يؤخرون الحج في كل سنة شهراً و محصل الكلام هو أن النسئ المنهي عنه في الآية هو تأخير الأشهر الحرم عمّا ربّها الله و كانوا في الجاهلية يعملون ذلك و كان الحج يقع في غير وقته و اعتقاد حرمة الشهر في

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

غير أوانه و لذلك بيّن الله تعالى أنّ ذلك زيادة في الكفر و الى هذا المعنى أشير بقوله: **يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ أَيِ الْحِجِّ عَاماً و يَحْرَمُونَهُ كَذَلِكَ و من المعلوم أنّ هذا يوجب الإضلال هذا بناءً على قراءة، يُضِلُّ، في الآية الشريفة بضمّ الياء كما هو المشهور و عليه المصاحف فعلاً و أمّا على قراءة الفتح فالمعنى أنّهم سبب النسيّ يضلّون عن طريق الحقّ و المآل واحد لأنّ المضلّ لغيره فهو ضالّ في نفسه فحاصل المعنى أنّ الكفار أقدموا على ضلالتهم و ضلالة غيرهم بسبب النسيّ لأنّه أوجب تحريم الحلال و تحليل الحرام و ما يلزم منه الكفر فهو كفر في نفسه و أنّما فعلوا ذلك ليوافقوا عدّة ما حرّم الله كما قال تعالى: **لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ**. روي أنّ رجلاً من كنانة يقال له أبو ثمامة كان يقول للناس في منصرفهم من الحجّ أنّ ألّهتكم قد أقسمت لنحرّمّن و ربما قال لتحلّن هذا الشهر يعني المحرّم فيحلّونه و يحرمّون صفرأ و أن حرّموه أحلّوا صفرأ و كانوا يسمّونهما الصّفرين فهذا إضلال من هذا المنادي زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ و المزيّن لهم هو أنفسهم و الشيطان و التزيين يكون بمعنى الفعل له و يكون بمعنى تقبّل الطّبع و أنّما سمّي إنساءهم زيادة في الكفر لأنّهم كانوا يعتقدون صحّته فلذلك كان كفراً.**

و قوله: **وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** معناه أنّه لا يهديهم الى طريق الجنّة أو أنّه تعالى بكلّ الكفار الذين لا يتبعون الحقّ الى أنفسهم و أنّما قلنا ذلك لأنّ الله تعالى يهدي الكلّ قال تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً^(١)**.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقَلَّتْكُمْ إِلَى الْأَرْضِ

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

هذا خطاب من الله تعالى لجماعة من المؤمنين الذين تقاعدوا عن الجهاد في سبيل الله فقال لهم ما لكم، أي أي شيء لكم و ما الذي صار سبباً لهذا التقاعد و التناقل عن الجهاد.

أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ

قيل في وجه ذلك لما أمر الله رسوله بغزاة تبوك و كان زمان جذب و حريق شديد و قد طابت الثمار عظم ذلك على الناس و أحبوا المقام فنزلت الآية عتاباً لمن تخلف على هذه الغزوة و كانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام غزاً فيها الرّوم في عشرين ألفاً من راکب و راجل و تخلف عنه قبائل من الناس و رجال من المؤمنين كثير و منافقون و خصّ الثلاثة بالعتاب الشديد بحسب مكانهم من الصّحبة إذ هم من أهل بدر و ممّن يقتدي بهم و كان تخلفهم لغير علة و لما شرح معاتب الكفار رغب في مقابلتهم وقوله: **وَمَا لَكُمْ إِسْتِفْهَامَ** معناه الإنكار و التّقرّيع.

و قوله: **قِيلَ الْقَائِلُ هُوَ الرَّسُولُ لَمْ يَذْكُرْ إِغْلَظاً وَ مَخَاشَنَةً لَهُمْ وَ صَوْناً لِدُكْرِهِ** و أمّا الإستفهام في قوله: **أَرْضَيْتُمْ** فهو أيضاً نوع من الإنكار و التّعجب أي أرضيتم بالنّعيم العاجل في الدّنيا بدل النّعيم الأجل الباقي في الآخرة فقوله: **مِنَ الْآخِرَةِ** أي بدل الآخرة لإجماع المفسرين على أنّها بمعنى بدل في هذا المقام و ذلك كقوله: **لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً** ^(١) أي بدلاً منكم و منه قول الشّاعر:

فليست لنا من ماء زمزم شربة
أي بدلاً من ماء زمزم و أمّا أنّ متاع الحياة الدّنيا بالنّسبة الى الآخرة قليل فلا شكّ فيه لمن له عقل و ذلك لوجوه:

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

أحدها: أَنَّ متاع الدُّنْيَا وحياتها فانية و حياة الآخرة و متاعها باقية المعلوم أَنَّ الباقي خير من الفاني و الدَّائم من الزَّائل.

الثاني: أَنَّ الدُّنْيَا و ما فيها من النِّعم محفوفة بالألام الجسمانيَّة و الرُّوحانيَّة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام الدُّنْيَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَبِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةٌ الخ. و هذا بخلاف الآخرة فَأَنْتَاهَا مشحونة بالسُّرور و الصِّحَّة و ليس هناك بلاء مرض و لا شَكُّ أَنَّ الحياة إذا كانت مصونة عن البلايا و الآلام فهي خير من الحياة المحفوفة بها.

الثالث: أَنَّ متاع الحياة الدُّنْيَا حَسْبِيَّ و متاع الآخرة عقلي و ذلك لأنَّ الإنتفاع بالدُّنْيَا يظهر بالحواس.

و أمَّا متاع الآخرة يظهر للعقل و الإدراك العقلي خير من الحسِّي. **الرابع:** أَنَّ الدُّنْيَا و ما فيها من النِّعم لا تختصُّ بالمؤمن بل حظُّ الكافر فيها منها أكثر و أوفر من حظُّ المؤمن منها و هو دليلٌ على ذنابها و رداءتها بخلاف الآخرة اذ لا نصيب للكافر من نعمها و لذاتها إلاَّ العذاب.

و من المعلوم أَنَّ الله تعالى يحبُّ المؤمن و يبغض الكافر فلو كانت الدُّنْيَا و نعمها و لذاتها تزن عند الله بقدر جناح بعوضة لما سقى منها الكافر شربة ماء و حيث نرى الأمر بالعكس نستكشف منه أَنَّهُ لا قيمة لها عنده.

و أمَّا الآخرة فقد جعلها الله لأوليائه الصالحين الَّذِينَ يَحِبُّهُمْ و يَحِبُّونَهُ و أين هذا من ذاك.

إِلَّا تَتُفَرِّوْا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

لَمَّا و بخهم في الآية السابقة على التَّنَاقُل و التَّقَاعَد عن الجهاد في سبيل الله حذرهم في هذا الآية و قال: **إِلَّا تَتُفَرِّوْا يُعَذِّبْكُمْ** الله عذاباً أليماً أي مؤلماً و هذا سخطٌ من الله عليهم أو عدهم بعذابٍ مطلق يتناول عذاب الدَّارين و أَنَّهُ

يهلكهم و يستبدل قوماً آخرين خيراً منهم و أطوع و أنه غني عنهم في نصره دينه لا يقدح ثناقلهم فيها شيئاً واللّه قادر على ذلك أي على إهلاكهم و إستبدال قومٍ آخر و على نصره دينه بأحسن وجه و الضمير في قوله: لَا تَضُرُّوهُ يرجع إلى الله لأنه غني بنفسه عن جميع الأشياء و يتحمل رجوعه إلى النبي لأن الله عصمه من جميع الناس و الأول أحسن.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ أَمْنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ وَ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ.

قال الله تعالى: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً^(٢).

قال الله تعالى: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً^(٣).

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدُهُمْ بَجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

هذا أيضاً خطاب للمتأقلين عن الجهاد و نصره النبي فإنه تعالى بعد التوبيخ و الإيعاد خاطبهم بذلك و قال لهم إن لا تنصروا النبي فقد نصره الله الخ.

نساء القرآن في تفسير القرآن



٢- آل عمران = ١٧٦

١- آل عمران = ١٤٤

٣- المائدة = ٤٢

و في الآية مسائل لابد لنا من البحث فيها فأنها معركة الأراء بين العامة و الخاصة لمسألة الغار و حيث أنهم لم يجدوا لأبي بكر في الإسلام فضيلة إلا مسألة الغار مع أنها أيضاً ليست فضيلة فقالوا فيها ما قالوا.

المسألة الأولى: قوله: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** فيه إشارة الى أن الله تعالى قد نصر أنبياءه في جميع الموارد و ذلك لأن الله تعالى بعثهم الى خلقه و أكثر الخلق كانوا من أعداء الأنبياء و ما أمن معهم إلا قليل فلولا نصره الله إياهم لم يقدروا على إعلاء كلمة التوحيد و هذا أمر لا يحتاج الى الإثبات لوضوحه و منهم نبي الإسلام و هو أكملهم و أشرفهم و أفضلهم لكونه خاتم الأنبياء و سيد المرسلين و العلة الغائية لجميع الخلق الذي بدينه نسخت الأديان و بأحكام شريعته بطلت الأحكام في جميع الأديان و لذلك قال: **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**^(١) فهو **رَسُولُ اللَّهِ** أولى، بالنصرة من الله من غيره لأن دينه يبقى الى يوم القيامة و الى هذا المعنى أشار بقوله: **لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ** و فيه أن وفاة خديجة كانت بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام و قيل بعد شهر فتتابعت على رسول الله المصائب بموت خديجة و أبي طالب.

روي عن عبد الله بن ثعلبة قال لما توفي أبو طالب و خديجة اجتمعت على رسول الله مصيبتان فلزم بيته و أقبل الخروج و نالت منه قريش ما لم تكن تنال و لا تطمع فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه و قال يا محمد إمض لما أردت و ما كنت صانعاً اذا كان أبو طالب حياً فأصنعه لا واللات لا يوصل اليك حتى أموت هذه السنة خرج الى الطائف و معه زيد بن حارثة و ذلك في ليال بقرين من شوال سنة عشر من النبوة فأقام بها عشرة أيام فأذوه و رموه بالحجارة فانصرف الى مكة.

و روي أنه لما أنصرف من الطائف عمد الى ظل حبله من عنب فجلس فيه و قال اللهم أني أشكو اليك ضعف قوتي و قلة حيلتي و هواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين و أنت ربّي الى من تكلمي الى بعيد يتجهمني أو الى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي و لكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات و صلح عليه أمر الدنيا و الآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لكن لك العتبى حتى ترضى و لا قوة إلا بك.

و لما دخل مكة كان يقف بالموسم على القبائل فيقول يا بني فلان أني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً و كان خلفه أبو لهب يقول لا تطيعوه.

و في سنة إحدى عشرة من نبوته كان بدو إسلام الأنصار روي أن رسول الله خرج في الموسم يعرض نفسه على القبائل كما هو كان دأبه بعد ما أمر بإظهار الإسلام فيينا هو في العقبة إذ لقي رهطاً من الخزرج فقال ﷺ من أنتم فقالوا من الخزرج قال ﷺ أفلا تجلسون أكلّمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الإسلام و تلى عليهم القرآن و كان أولئك يسمعون من اليهود أنه قد أظّل زمان نبي يبعث فلما كلمهم قال بضعهم لبعض واللّه أنه للنبي الذي يعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه و أنصرفوا راجعين الى بلادهم و قد آمنوا و كانوا ستة أنفس أسعد بن زرارة، و عون بن الحرث و رافع بن مالك بن عجلان و قطبة بن عامر بن حديدة و عقبة بن عامر و جابر بن عبد الله فلما قدموا المدينة على قومهم ذكروا لهم رسول الله و دعوهم الى الإسلام حتى فشى دينهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا و فيها ذكر رسول الله.

و في سنة اثنتي عشرة من نبوته كان المعراج و في هذه السنة كانت بيعة عقبة الأولى و ذلك أن رسول خرج الى الموسم و قد قدم من الأنصار اثني عشر رجلاً فلقوه بالعقبة و هي العقبة الأولى فبايعهم رسول الله.

فيه القرآن في تفسيره



المجلد الثاني

و في سنة ثلاثة عشرة كانت بيعة العقبة الثانية و ذلك أن رسول الله خرج الى الموسم فلقبه جماعة من الأنصار فواعدوه العقبة من أوسط أيام التشريق و كانوا سبعين رجلاً و معهم، إمرأتان من نساءهم نسيية بنت كعب أم عمار و أسماء بنت عمرو بن عدّي قال كعب بن مالك فبايعنا و جعل علينا رسول الله إثني عشر نقيباً منّا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس ثم أمر رسول الله أصحابه بالخروج الى المدينة و أقام هو بمكة ينتظر أن يؤذن له قال في المتنفى كانت الهجرة سنة أربع عشرة من المبعث و هي سنة أربع و ثلاثين من ملك كسرى پرويز و سنة تسع لهرقل و أول هذه السنة المحرم و كان رسول الله مقيماً بمكة لم يخرج منها و قد كان جماعة خرجوا في ذي الحجة و قال محمد بن كعب القرطبي إجتمع قریش على بابه و قالوا أن محمداً يزعم لكم أن بايعتموه كنتم ملوك العرب و العجم ثم بعثتم بعد موتكم فجعل لكم جنان كجنان الأرض وإن لم تفعلوا كان لكم منه الذبح ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون بها فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب ثم قال ﷺ نعم أنا أقول ذلك فنثر التراب على رؤسهم و هو يقرأ يس، الى قوله: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ^(١) فلم يبق منهم رجل وضع على رأسه التراب إلا قتل يوم بدر ثم أنصرف الى حيث أراد فاتاهم آت فقال ما تنتظرون هاهنا قالوا محمداً قال و الله قد خرج محمد عليكم ثم ما ترك رجلاً إلا و قد وضع على رأسه التراب و أنطلق لحاجته فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب ثم جعلوا يطيعون فأروا علياً على الفراش متشحاً ببرد رسول الله فيقولون أن هذا لمحمد نائم عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي من الفراش فقالوا والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا به.

و روي الواقدي و هو من أعيان العامة عن أشياخه أنّ الذين كانوا ينتظرون رسول الله تلك الليلة من المشركين، أبو جهل، و الحكم بن أبي العاص، و عقبة ابن أبي معيط، و النضر بن الحرث و أمية بن خلف و ابن الغيطلة و زمعة بن الأسود و طعمة بن عدي و أبولهب و أبي بن خلف و بني و منبه ابنا الحجاج فلما أصبحوا قام عليّ من الفراش فسألوه عن رسول الله فقال لا علم لي به.

و روي أنهم ضربوا علياً و حبسوه ساعة ثم تركوه.

و أورد الغزالي في كتاب إحياء العلوم و هو من أكابر العامة و هو الذي سمّي بحجة الإسلام عندهم قال أنّ الليلة التي بات عليّ على فراش رسول الله أوحى الله تعالى الى جبرئيل و ميكائيل أنّي أخيت بينكما و جعلت عُمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيتكما يؤثر صاحبه بحياته فإختار كل منهما الحياة و أحباها فاوحى الله تعالى اليهما أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب أخيت بينه و بين محمد فبات عليّ ^{عليه السلام} عليّ فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة إهبطا الى الأرض فأحفظاه من عدوّه فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجله و جبرئيل ينادي بخّ بخّ من مثلك يابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله عزّ وجلّ: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ** ^(١).

أقول و ساق حديث الغار الى أن قال كان رسول الله حين أتى الغار دعا الشجرة فأنته فأمرها أن تكون على باب الغار و بعث الله حمامتين فكانتا على فم الغار و نسج العنكبوت على فم الغار ثم أقبل فتیان قريش و كان أبو جهل قد أمر منادياً ينادي بأعلى مكة و أسفلها من جاء بمحمدٍ أو دلّ عليه فله مائة بعيرٍ أو جاء يابن أبي قحافة أو دلّ عليه فله مائة بعير فلما رأوا الحمامتين و نسج العنكبوت على فم الغار إنصرفوا.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



الجلد العاشر

و روي أرباب السِّير أنه اجتمعت قريش في دار الندوة و كان لا يدخلها إلا من أتى عليه أربعون سنة فأدخلوا فيها أربعين رجلاً من مشايخ قريش و جاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البَّواب من أنت قال أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم مني رأي صائب أني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل فخبثت لأشير عليكم فقال أدخل فدخل إبليس فلما أخذوا مجلسهم قال أبوجهل يا مشعر قريش أنه لم يكن أحد من العرب أعزَّ منَّا نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرَّتين و يكرمونا و نحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتَّى نشأ فينا محمد بن عبد الله فكنا نسَميه الأمين لصلاحه و سكونه و صدق لهجته حتَّى اذا بلغ ما بلغ و أكرمناه.

إدعى أنه رسول الله و أن أخبار السماء تأتيه فسفه أحلامنا و سبَّ ألهتنا و أفسد شبَّاننا و فرَّق جماعتنا و زعم أنه من مات من أسلافنا ففي النار فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا و قد رأيت فيه رأياً قالوا و ما رأيت قال رأيت أن ندسَّ إليه رجلاً منَّا ليقته فأن طلب بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديات فقال الخبيث هذا رأيي خبيث قالوا و كيف ذاك قال لأنَّ قاتل محمد مقتول لا محالة فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم فأنه اذا قتل محمد تعصبت بنو هاشم و حلفاءهم من خزاعة و أن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الأرض فيقع بينكم الحروب في حرمكم و تتفاوتوا.

فقال آخر منهم فعندي رأيي آخر قال و ما هو قال نلقيه في بيت و نلقي إليه قوته حتَّى يأتي عليه رب المنون فيموت كما مات زهير والتَّابغة و إمرو القيس فقال إبليس هذا أخبث من الآخر قال و كيف ذاك قال لأنَّ بني هاشم لا ترضى بذلك فاذا جاء موسم العرب إستغاثوا بهم و اجتمعوا عليكم فأخرجوه.

قال آخر منهم و لكنَّا نخرجه من بلادنا و نتفرغ نحن لعبادة ألهتنا قال إبليس هذا أخبث من الرَّاين المتقدِّمين قالوا و كيف.

قال لأنكم تعمدون الى أصبح الناس وجهاً و أنطق الناس لساناً و أفصحهم لهجةً فتحملوه الى بوادي العرب فيخذعهم و يسحرهم بلسانه فلا يفجأكم إلا و قد ملأها عليكم خيلاً و رجلاً فبقوا حائرين.

ثم قالوا للإبليس فما الرأي يا شيخ قال ما فيه إلا رأيي واحد قالوا و ما هو قال يجتمع من كل بطن من بطون قريش و قبائل العرب ما أمكن و يكون معهم من بني هاشم رجل يأخذون سكينه أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه و قد شاركوه فيه فأن سألوكم أن تعطوهم الدية فأعطوهم ثلث ديات فقالوا نعم و عشر ديات ثم قالوا الرأي رأي الشيخ النجدي فاجتمعوا فيه و دخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي فنزل جبرئيل على رسول الله و أخبره أن قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك و قال له جبرئيل خذ على طريق ثور و هو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور فدخل الغار و كان من أمره ﷺ ما كان فلما أصبحت قريش و ثبوا الى الحجرة و قصدوا الفراش فوثب علي في وجوههم و قال ما شأنكم قالوا له أين محمد قال أجعلتموني عليه رقيباً أستم قلتهم نخرجه من بلادنا فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبي لهب يعيرونه و يقولون أنت تحدعنا منذ الليلة فتفرقوا في الجبال و كان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفوا الأثار.

فقالوا يا أبا كرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول الله فقال هذه قدم محمد والله لأنها لأخت القدم التي في المقام و كان أبو بكر إستقبل رسول الله فقال أبوكرز و هذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ثم قال و هاهنا غير ابن أبي قحافة فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال ما جوازوا هذا المكان إما أن يكونوا صعدوا الى السماء أو دخلوا تحت الأرض و بعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار.

ثم قال ما في الغار أحد فتفرقوا في الشّعاب وصرّفهم الله عن رسوله ثمّ أذن لنبيّه في الهجرة.

وعن أنس ابن مالك قال لما توجه رسول الله الى الغار ومعه أبو بكر أمر النبي علياً أن ينام على فراشه ويتّغشى ببردته فبات عليّ عليه السلام موطئاً نفسه على القتل وجاءت رجال قريش من بطونها يريدون قتل رسول الله فلمّا أرادوا أن يضعوا عليه أسياهم لا يشكون أنّه محمّد فقالوا أيقظوه ليجد ألم القتل و يرى السيوف مأخذه فلمّا أيقظوه وأوه علياً تركوه وتفرّقوا في طلب رسول الله فأنزّل الله عزّ وجلّ: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ^(١).

روي عن مجاهد أنّه قال فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله في الغار فقال لها عبد الله بن شدّاد بن الهاد وأين أنت من عليّ بن أبي طالب حيث نام في مكانه وهو يرى أنّه يُقتل فسكتت ولم تحر جواباً انتهى.

أَقُولُ إذا عرفت هذا فقد ظهر لك تفسير قوله: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** وعلمت أنّ الكفار كيف اجتمعوا على قتله صلى الله عليه وآله وسلم وأنما ذكرنا قصّة الغار بتفصيلها بطرق مختلفة لئلا تحتاج الى مراجعة التواريخ وكتب السّير فهذا الذي ذكرناه من مصاحبة أبي بكر لرسول الله ونوم عليّ عليه السلام على فراشه ممّا اتّفق عليه جميع المؤرّخين وأرباب السّير والمفسّرين ولم يختلف فيه أحد أنما الاختلاف بين العامة والخاصّة في أنّ النّوم على فراش رسول الله أفضل أو مصاحبته في الغار.

وقد أطنب الكلام في الباب بعض علماء العامة من مؤرّخيههم ومفسّريهم على أنّ أبا بكر أفضل من عليّ لكونه من أصحاب الغار وقد قال الله تعالى: **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**

و حيث أنّ الموضوع له ربطٌ بمسألة الإمامة و الآية معركة الآراء بين الباحثين و بها أوقعوا الشُّبه في أذهان العوام و ذلك لأنهم لم يجدوا بعد الفحص الكامل في التواريخ و السير و كتب الأخبار فضيلةً لأبي بكر الذي قالوا فيه أنّه خليفة رسول الله حقاً فلا جرم تمسكوا بهذه الآية و جعلوا كونه في الغار مع النبي فضيلة له بل من رؤوس الفضائل فلا بدّ لنا من التكلّم في الآية إجمالاً و أن كان خارجاً عن موضوع كتابنا و ذلك لأنّ الدّفاع عن حريم العترة كالّدفاع عن حريم الكتاب لكون العترة عدلاً له قال رسول الله أنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي.

فنقول مستعيناً بالله و متوكلاً عليه قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

السادسة: قوله تعالى **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** هذه الآية تضمّنت فضائل الصّديق عليه السلام.

روي أصبغ و أبو زيد عن أبي القاسم عن مالك ثانياً **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** هو الصّديق فحقّق الله تعالى قوله له بكلامه و وصف الصّحبة في كتابه.

قال بعض العلماء من أنكر أن يكون عمر و عثمان أو أحد من الصّحابة صاحب رسول الله فهو كذابٌ مبتدع و من أنكر أن يكون أبو بكر عليه السلام صاحب رسول الله فهو كافر لأنّه ردّ نصّ القرآن و معنى، أنّ الله معنا، أي بالنّص و الرّعاية و الحفظ و الكلاءة.

روي الترمذي والهارث ابن أبي أسامة قالاً حدّثنا عفان قال حدّثنا همام قال أخبرنا ثابت عن أنس أنّ أبا بكر حدّثه قال قلت للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ونحن في الغار لو أنّ أحدهم نظراً لي قدّمه لأبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك بأثنين الله ثالثهما

قال المجاسي يعني معهما بالنصر والدفاع لا على معنى ما عمَّ به الخلائق فقال ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. فمعناه العموم أنه يسمع و يرى من الكفار والمؤمنين.

السابعة: قال ابن العربي قالت الإمامية قبحها الله حزن أبي بكر في الغار دليل على جهله ونقصه وضعف قلبه وخرقه.

و أجاب علماءنا عن ذلك بأن إضافة الحزن اليه ليس بنقص كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه:

نَكِرْهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْخَفْ^(١).

و لم ينقص موسى قوله:

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قُلْنَا لَا تَحْخَفْ^(٢).

و في لوط:

و لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَ أَهْلَكَ^(٣).

فهؤلاء العظماء عليهم السلام قد وجدت عندهم التّقية نصّاً و لم يكن ذلك طعناً عليهم و وصفاً لهم من نقص ثم هي عند الصّديق احتمال فأنه قال لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا.

جواب ثان: إنّ حزن الصّديق أنما كان خوفاً على النبي ﷺ أن يصل اليه ضرر ولم يكن التّبي في ذلك الوقت معصوماً و أنما نزل عليه وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^(٤) بالمدينة انتهى.

الثامنة: قال ابن العربي قال لنا أبو الفضائل العدل قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم قال موسى عليه السلام كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَپِّي سَيَهْدِينِ^(٥) و قال في محمّد لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا لاجرم لما كان الله مع موسى وحده إرتد أصحابه بعده

فرجع من عند ربّه ووجدهم يعبدون العجل ولَمَّا قال في محمّد و لا تحزن أنّ الله معنا، بقي أبو بكر مهتدياً موحّداً عالماً جازماً قائماً بالأمر و لم يتطرّق اليه إحتلال.

التاسعة: خرج الترمذي من حديث نبيط بن شريط عن سالم بن عبيد له صعبة، قال أغمي على رسول الله، الحديث.

و فيه و إجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا إنطلقوا بنا الى أخواننا من الأنصار ندخلهم في هذا الأمر معنا فقالت الأنصار منّا أمير و منكم أمير فقال عمر، من له مثل هذه الثلاث، **ثَانِي أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.**

من هما قال ثمّ بسط يده فبايعه و بايعه النَّاسُ بيعَةً حسنةً جميلةً. **قُلْتُ** و لهذا قال بعض العلماء في قوله: **ثَانِي أَتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ما يدلّ على أنّ الخليفة بعد النّبي ﷺ أبو بكر الصّديق لأنّ الخليفة لا يكون أبداً إلاّ ثانياً و سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول إنّما إستحقّ الصّديق أن يقال له ثاني إثنين لقيامه بعد النّبي بالأمر لقيام النّبي به أولاً أنّ النّبي لمّا مات إرتدت العرب كلّها و لم يبق الإسلام إلاّ بالمدينة و مكة و جواثا، فقام أبو بكر يدعو النَّاسَ الى الإسلام و يقاتلهم على الدّخول في الدّين كما فعل النّبي فاستحقّ من هذه الجهة أن يقال له ثاني إثنين.

قُلْتُ و قد جاء في السّنة أحاديث صحيحة يدلّ ظاهرها على أنّه الخليفة بعده و قد إنفقد الإجماع على ذلك و لم يبق منهم مخالف و القادح في خلافته مقطوع بخطأه و تفسيقه و هل يكفر أم لا يختلف فيه و الأظهر تكفيره و سيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في سورة الفتح إنشاء الله و الذي يقطع به الكتاب و السّنة و أقوال علماء الأمة و يجب أن تؤمن به القلوب و الأفئدة فضل الصّديق على جميع الصّحابة و لا مبالاة بأقوال أهل التشيع و لا أهل البدع فأتهم بين مكفر تضرب عنقه و بين مبتدع مفسق لا تُقبل كلمته ثمّ بعد الصّديق عمر الفاروق ثمّ بعده عثمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١٠
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روي البخاري: عن ابن عمر قال كُنَّا نَخِيرُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ فَنَخِيرُ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ عِثْمَانَ وَ اُخْتَلَفَ أئِمَّةُ أَهْلِ السَّلَفِ فِي عِثْمَانَ وَعَلِيٍّ فَالْجُمْهُورُ مِنْهُمْ عَلِيٌّ تَقْدِيمَ عِثْمَانَ.

و روي عن مالك أَنَّهُ تَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ.

و روي عنه أَنَّهُ رَجَعَ إِلَى مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ وَ هُوَ الْأَصَحُّ إِنْشَاءَ اللَّهِ إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ بِالْفَافِظَةِ وَ عِبَارَاتِهِ.

وَ إِنَّمَا نَقَلْنَاهَا بِطَوْلِهَا مَعَ عَلَمِنَا بِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهَا لِأَنَّ مَا ذَكَرَهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ وَ النَّقْلِ وَ إِنَّمَا هُوَ مَجْرَدُ أَوْهَامٍ وَ خَيَالَاتٍ، حَفْظًا لِلْأَمَانَةِ.

وَ نَحْنُ نَقُولُ، أَمَّا مَا ذَكَرَهُ فِي أَوَّلِ الْبَحْثِ مِنْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ صَاحِبَهُ فِي الْغَارِ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى الْإِثْبَاتِ وَ ذَلِكَ لِدَلَالَةِ نَصِّ الْكِتَابِ عَلَيْهِ إِلَّا إِنَّا نَقُولُ أَنَّ مَجْرَدَ كَوْنِهِ فِي الْغَارِ مَعَ النَّبِيِّ لَا يَثْبُتُ لَهُ فَضِيلَةٌ وَ عَلَى الْمُدَّعِي الْإِثْبَاتُ إِذْ كَلِمَةٌ، صَاحِبٌ، لَيْسَتْ فِيهَا فَضِيلَةٌ وَ لَا شَأْنٌ.

وَ أَمَّا نَقْلُهُ عَنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ مِنْ أَنَّ قَوْلَهُ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا لَا يَدُلُّ عَلَى النِّقْصِ وَ إِسْتِدْلَالِهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْأَيَّاتِ الْحَاكِئَةِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ لُوطَ وَ أَنَّ الْإِمَامِيَّةَ قَالَتْ أَنَّ الْحَزْنَ يَدُلُّ عَلَى الْجَهْلِ وَ النِّقْصِ الْخ.

فَفِيهِ أَنَّ الْحَزْنَ ثَابِتٌ بِصَرِيحِ الْآيَةِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: لَا تَحْزَنْ وَ أَمَّا أَنَّهُ نَقْصٌ وَ جَهْلٌ، فَهُوَ أَيْضًا لَا إِشْكَالَ فِيهِ إِذِ الْمَخْلُوقُ كَانَتْ مِنْ كَانَ فَهُوَ نَاقِصٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَ الْكَامِلُ بِالذَّاتِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْحَزْنَ نَقْصٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَدَمِهِ فَمَا نَقْلُهُ مِنْ ابْنِ الْعَرَبِيِّ عَنْ الْإِمَامِيَّةِ.

مِنْ أَنَّ الْحَزْنَ يَدُلُّ عَلَى الْجَهْلِ وَ النِّقْصِ عَلَى فَرْضِ صَحَّتِهِ كَلَامٌ مُطَابِقٌ لِلْأَصْلِ وَ لَا إِخْتِصَاصَ لَهُ بِأَبِي بَكْرٍ وَ كَأَنَّهُ أَيُّ ابْنِ الْعَرَبِيِّ، لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْحَزْنَ نَقْصٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ كَيْفَ دَخَلَ فِي الْمَعْقُولَاتِ.

وَ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ، فَلَمْ نَفْهَمْ مَا أَرَادَ مِنْ كَلَامِهِ لِأَنَّهُ أَشْبَهَ شَيْئًا بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ وَ أَقْبَحَ مِنْهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ وَ بَقِيَ أَبُو بَكْرٍ مَهْتَدِيًا مَوْحَدًا

عالمًا الخ و لم يبين كيف صار مهتدياً موحداً عالمًا جازماً قائماً بالأمر وهل يجوز لقائل أن يقول لما قال لا تحزن أن الله معنا، فصار أبو بكر كذا وكذا وأبي رطب بين قوله ﷺ لا تحزن أن الله معنا وبين كونه أي أبو بكر مهتدياً موحداً الخ.

و أمّا مانقله في المسألة التاسعة عن الترمذي وغيره الى أن قال فقال عمر من له مثل هذه الثلاث الخ فنقول كلام عمر ليس حجة ولا برهاناً على إثبات المدعى وهو واضح لأن عمر كان بمنزلة الروح في جسد أبي بكر فلو لم يثبت عمر لأبي بكر ما أثبت أبو بكر له ما أثبت بعده الم يعلم القرطبي وأمثاله أن شهادة أبي بكر لعمر أو شهادة عمر لأبي بكر كانت لأجل المصلحة فتلك الشهادات أنما صدرت عن كل واحد منهما بعوض معلوم.

و أمّا قول القرطبي بأن قوله ثاني اثنين، لقيامه بعد النبي بالأمر كقيام النبي به أولاً.

ففيه أن الكلام خرج مخرج المصادرة بالمطلوب وذلك لأنه يصح لو كان قيام أبي بكر بعده بأذنه وتصريحه وهو أيضاً لا يدعي ذلك ومجرد القيام ولو بغير إذنه لا يدل على أنه ثاني اثنين.

و أمّا قوله إرتدت العرب كلها بعد موت النبي فهو أول الكلام وعلى المدعى الإثبات نعم لو أراد القرطبي بالإرتداد رجوعهم الى القهقري بعد موت النبي بسبب أعمال الخلفاء أو لأنهم لم يرضوا بخلافته لأنها كانت من غير مشورة وأمثال ذلك فله وجه والعجب منه حيث يدعي أن أبا بكر قام بالأمر وهو يدعوا الناس الى الإسلام ويقاثلهم على الدخول في الدين كما فعل النبي ﷺ فاستحق من هذه أن يقال في حقه ثاني اثنين.

إذ يلزم على ما ذكره أن يكون أبو بكر مبعوثاً بعد النبي لدعوة الناس بالدخول في الإسلام وذلك لأن دعوة النبي قد زالت بموته على الفرض ولم يبق منها عين ولا أثر لإرتداد العرب كلها فلو لم يقم أبو بكر بعده ولم يدعوا

النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَقَاتِلْهُمْ عَلَى الدَّخُولِ فِيهِ كُنَّا مِنَ الْكَافِرِينَ وَعَلَيْهِ فَحَقُّ أَبِي بَكْرٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ النَّبِيِّ وَلاَ يَزِمُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ وَجُودُ الرَّسُولِ بِلَا فَائِدَةٍ فَكَانَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَبْعَثَ أَبَا بَكْرٍ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ وَلاَ أَظُنُّ مَنْ يَقُولُ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ إِلَّا الْمَلْحِدَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَفَوَاتِ الشَّيَاطِينِ.

وَأَمَّا مَا قَالَ وَادَّعَى أَنَّهُ جَاءَ فِي السَّنَةِ الصَّحِيحَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ وَانْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ ذَلِكَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخَالَفٌ.

فَيَقَالُ لَهُ إِذَا كَانَتِ السَّنَةُ الصَّحِيحَةُ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ فِيهِ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ تَابِعَ لِلسَّنَةِ الصَّحِيحَةِ وَلَكِنْ عَلَى الْمَدَّعِي إِثْبَاتُ مَا قَالَ فَإِنَّ السَّنَةَ الصَّحِيحَةَ مَا ثَبَتَ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ أَدْرَى بِمَا فِي الْبَيْتِ. فَالسَّنَةُ لَا تَتَّخِذُ إِلَّا مِنْهُمْ وَأَمَّا أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْكَذَّابِينَ فَلَا تَثْبِتُ بِقَوْلِهِمُ السَّنَةَ.

وَأَمَّا انْعِقَادُ الْإِجْمَاعِ وَقَوْلُهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخَالَفٌ، فَهُوَ مِمَّا تَضَحَّكُ بِهِ الثَّكَلِيُّ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَى الْإِجْمَاعِ وَلَوْ عَلِمَ كَانَ عِنَادُهُ وَتَعْصِبُهُ مَانِعًا عَنْ بَيَانِ الْحَقِّ وَإِلَّا كَيْفَ يَدَّعِي الْإِجْمَاعَ وَرُؤُوسَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كَانُوا مُخَالَفِينَ لِمُخَالَفَةِ أَبِي بَكْرٍ وَبَعْدَهُ عُمَرُ وَتَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهِ خَارِجٌ عَنْ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ وَلاَ مَبَالَاةَ بِأَقْوَالِ أَهْلِ التَّشْيِيعِ وَأَهْلِ الْبِدْعِ فَأَنْتَهُمُ بَيْنَ مَكْفَرٍ تَضْرِبُ عُنُقَهُ وَبَيْنَ مُبْتَدِعٍ مَفْسُوقٍ لَا تَقْبَلُ كَلِمَتَهُ فَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الدَّلَائِلِ عَلَى صِحَّةِ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَلاَ دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى إِثْبَاتِ مَدَّعَاهُمْ أَقْوَى مِنْهُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَجَزَ عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ يَتَشَبَّثُ بِهَذِهِ الْأَقَاوِيلِ أَعْنِي بِهَا التَّكْفِيرُ وَضَرْبُ الْأَعْنَاقِ وَالرَّقْيُ بِالْبِدْعَةِ وَالْإِضْلَالُ كَمَا كَانَ قِيَامُ أَبِي بَكْرٍ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ وَمِنْ يَشَابِهِ أَبَدَ فَمَا ظَلَمَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَبَعْدَهُ عُمَرُ وَبَعْدَ عُثْمَانَ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ فَلَا بَحْثَ لَنَا فِيهِ فَعَلًا وَلِلْبَحْثِ فِيهِ مَقَامٌ آخَرُ.

و محصّل الكلام هو أنّ القرطبي لم يقدر على إثبات مدّعه و أنّما هو كالغريق يتشبّث بكلّ حشيش و سنجيم الدلائل العقلية و النّقلية على أنّ المصاحبة لا تدلّ على الفضيلة أصلاً، إن شاء الله تعالى.

و ممّن تكلم في الآية و أثبت بزعمه الفضيلة لأبي بكر هو الفخر الرّازي في تفسيره لهذه الآية فأنّه قد أطال الكلام في المقام و كلّ من جاء بعده من مفسري العامة أخذوا ما أخذوا منه و ذلك لاتفاهم على ان الرّازي أعلمهم و أقواهم في إقامة الدليل لتبحره في الفلسفة و الكلام و نحن لا بدّ لنا من التعرّض لدلائله و الجواب عنها مع مراعاة الإيجاز و الاختصار و إن كانت هذه المباحث خارجة عن موضوع الكتاب فنقول قال الرّازي:

المسألة الثالثة: ذكروا أنّ قريشاً و من بمكة من المشركين تعاقدوا على قتل رسول الله فنزل و **إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ^(١) فأمره الله تعالى أن يخرج هو و أبوبكر أوّل اللّيل إلى الغار و المراد من قوله: **أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** هو أنّهم جعلوه كالمضطر إلى الخروج و خرج رسول الله و أبوبكر أوّل اللّيل إلى الغار و أمر علياً أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السّواد من طلبه حتّى يبلغ هو و صاحبه إلى ما أمر الله به فلمّا و صلا إلى الغار دخل أبوبكر الغار أولاً يلتمس ما في الغار فقال له النّبي ما لك فقال بأبي أنت و أمّي الغيران مأوى السّباع و الهوام فأن كان فيه شيء كان بي لا بك و كان في الغار حجر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي الرّسول فلمّا طلب المشركون الأثر و قربوا بكى أبوبكر خوفاً على رسول الله فقال **وَاللّهِ لَأَكُونَنَّ** ^{صلى الله عليه} لا تحزن أنّ الله معنا فقال أبو بكر أنّ الله لمعنا فقال الرّسول نعم فجعل يمسح الدّموع عن خدّه و يروي عن الحسن أنّه اذا ذكر بكاء أبي بكر بكى و إذا ذكر مسح الدّموع مسح هو الدّموع عن خدّه.

في تفسير القرآن



المجلد الثامن

و قيل لما طلع المشركون فوق الغار أشفق أبوبكر على رسول الله فقال أنتصب اليوم دين الله فقال رسول الله ما ظنك، بأثنين الله ثالثهما لما دخل الغار وضع أبوبكر ثمامة على باب الغار فبعث الله حمامتين فباضتا في أسفله و العنكبوت نسجت عليه و قال رسول الله الله أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار و لا يرون أحداً انتهى كلامه في هذه المسألة.

أقول أصل دخولهما الغار لا كلام لأحد فيه و لكن يلوح من نقله أثار الوضع و أنهم أضافوا الى قصّة الغار ما شاءوا و أرادوا ليثبتوا بذلك ما أرادوه من الفضيلة بزعمهم و أن لم تكن فضيلة واقعاً و نحن نشير الى الإضافات إجمالاً.

منها، قوله دخل أبوبكر الغار أولاً يلتمس ما في الغار، فأنه من المجموعات إذ من أخبر الرازي و أمثاله بذلك و المفروض أنه لم يكن معهما أحد فأن كان المخبر بذلك هو أبوبكر نفسه فهو من قبيل الإدعاء فأين الدليل لأن من كان بصدد إثبات الفضيلة لنفسه فيقول ما يشاء و العقل يحكم بعدم صحته و أن كان المخبر غير أبي بكر فمن هو و المفروض أنه لم يكن هناك أحد و أعجب بل أضحك منه ما نقله من أن أبابكر بكى و النبي مسح الدموع عن خده و ليت شعري من أخبر الرازي بهذه الأخبار من داخل الغار أنظروا يا أهل الإنصاف هذا الرجل من أعلم علماءهم و هو ممن كان يدعي التوغل في الفلسفة و المطالب العقلية فما تظنون بأمثال القرطبي و الألوسي و البيضاوي و غيرهم.

و أما قوله فقال رسول الله ما ظنك بأثنين الله ثالثهما فيقال له و أي فضيلة في ذلك و هذا يجري في جميع الموارد و بعبارة أخرى كل اثنين سواء كانا مؤمنين أم كافرين فلا محالة الله ثالثهما، فأن الله مع كل أحد و هو معكم أينما كنتم و الحاصل أنه لا شك في كون أبي بكر مع النبي في الغار.

و أما إثبات الفضيلة فهو شيء آخر ثم شرع الرازي في إثبات مدعاه و قد أقام على ذلك إثني عشر دليلاً و نحن نشير الى كل واحد منها و نجيب عنه بحوله تعالى و قوته.

قال الرّازي المسألة الرّابعة: دلّت هذه الآية على فضيلة أبي بكر من وجوه.
الأول: أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا ذهب إلى الغار لأجل أنّه كان يخاف الكفّار من أن يقدموا على قتله فلولا أنّه كان قاطعاً على باطن أبي بكر بأنّه من المؤمنين المحقّقين الصّادقين الصّديقين لما أصبح نفسه في ذلك الموضع لأنّه لو جوّز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره لخافه من أن يدلّ أعداءه عليه و أيضاً لخافه من أن يقدم على قتله فلمّا إستخلصه لنفسه في تلك الحالة دلّ على أن كان قاطعاً بأنّ باطنه على وفق ظاهره انتهى.

أقول ليس في هذا الدّليل إثبات فضيلة لأبي بكر بل أثبت الرّازي بذلك أنّ باطنه كان موافقاً لظاهره و بعبارة أخرى أنّه لم يكن منافقاً، و هذا غير ما نحن بصدد إثباته من إثبات فضيلة له ليست لغيره لأجلها صار من أصحاب الغار فغاية ما يستفاد من دليله هو أنّ أبابكر كان من المؤمنين كغيره من آحاد المؤمنين و لم يكن منافقاً و من المعلوم أنّ هذا المعنى على فرض ثبوته أو إثباته لا يجعله ممتازاً بين المؤمنين و لا بحث لنا فيه فعلاً و أنما البحث في إثبات فضيلة لم تكن لغيره و أنّى له بإثباته.

الثّاني: و هو أنّ الهجرة كانت بإذن الله تعالى و كان في خدمة الرّسول جماعة من المخلصين و كانوا في النّسب إلى شجرة رسول الله أقرب من أبي بكر فلولا أنّ الله تعالى أمره بأن يستصحب أبا بكر في تلك الواقعة الصعبة الهائلة و إلاّ لكان الظّاهر أن لا يخصّه بهذه الصّحبة و تخصيص الله أيّاه بهذا التّشريف دلّ على منصب عالٍ في الدّين انتهى.

أقول أمّا أنّ الهجرة كانت بإذن الله فهو حقّ لا كلام لنا فيه.

و أمّا أنّ جماعة من المخلصين كانوا في خدمته من أقرباءه فهو أيضاً لا بحث فيه و أمّا أنّ الله تعالى أمر رسوله بأن يستصحب أبابكر فلا دليل عليه و من أين ثبت للمستدلّ هذا المعنى و على فرض ثبوته فلعلّه كان لغرض آخر غير ما زعمه الرّازي فمجرد كون أبي بكر مصاحباً له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار لا يدلّ

على أنه تعالى أمر رسوله بهذه الصّحبة لصفاء أبي بكر وإيمانه وإمتيازه عن غيره وهو واضح.

الثالث: أن كل من سوى أبي بكر فارقوا رسول الله ﷺ أما هو فما فارق رسول الله كغيره بل صبر على مؤنسته وملازمته وخدمته عند هذا الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد وذلك يوجب الفضل العظيم انتهى.

أقول كان على المستدل أن يبين من الذين فارقوا رسول الله. وأما أنه ما فارقه كغيره بل صبر الخ.

فهذا على فرض ثبوته يدل على أن أبابكر كان مؤمناً بالله ورسوله ولم يرتد عن دينه فهو كغيره من المؤمنين الذين بقوا على عهدهم ونصروا رسوله شك أنه أمر مستحسن ممدوح.

وأما قوله أنه صبر على الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد وذلك يوجب الفضل العظيم فنقول له مصاحبة أبي بكر في الغار كان أشد خوفاً أو نوم علي عليه السلام في فراشه بين السيوف والرماح فأقضى ما أنت قاض، هذا أولاً.

وثانياً، لو سلمنا ما قال نقول له ليس البحث في إثبات الفضيلة بل البحث في إثبات الأفضلية وأن أبابكر كان أفضل من غيره لأجل الغار والدليل على فرض تماميته لا يثبت المدعى ولو كان مجرد المصاحبة دليلاً على الأفضلية لكان أنس بن مالك أفضل الصحابة لكونه بواباً على باب الرسول ومصاحباً له أكثر من غيره وهكذا بلال المؤذن وزيد بن الحارثة وإبنة أسامة بل وزوجات النبي ولا يقول به عاقل.

الرابع: أنه تعالى سمّاه ثاني اثنين فجعل ثاني محمد حال كونهما في الغار والعلماء أثبتوا أن كان ثاني محمد في أكثر المناصب الدينية فأنه ﷺ لما أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر ثم ذهب وعرض الإسلام على طلحة والزبير وعثمان وجماعة آخرين من أجله الصحابة والكّل آمنوا على يديه ثم أنه جاء بهم إلى رسول الله بعد أيام قلائل فكان هو

ثاني إثنتين في الدَّعوة الى الله و أيضاً كلمًا وقف رسول الله في غزوة كان أبوبكر يقف في خدمته و لا يفارقه فكانوا ثاني إثنتين في مجلسه و لمّا مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في إمامة النَّاس للصَّلاة فكان ثاني إثنتين و لمّا توفى ﷺ دفن بجنبه فكان ثاني إثنتين هناك أيضاً و طعن بعض الحمقى من الرّوافض في هذا الوجه و قال كونه ثاني إثنتين للرّسول لا يكون أعظم من كون الله تعالى رابعاً لكلّ ثلاثة في قوله: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ^(١) ثمّ أنّ هذا الحكم عام في حقّ الكافر و المؤمن فلمّا لم يكن هذا المعنى منه تعالى دالّاً على فضيلة الإنسان فلان لا يدلّ من التّبي على فضيلة الإنسان كان أولى و أجاب عنه فقال.

الجواب أنّ هذا تعسّف بارد لأنّ المراد هناك كونه تعالى مع الكلّ بالعلم و التّدبير و كونه مطلعاً على ضمير كلّ أحدٍ

أمّا هنا فالمراد بقوله تعالى: ثَانِي اثْنَيْنِ تخصّيصه بهذه الصّفة في معرض التّعظيم و أيضاً قد دلّلنا بالوجوه الثلاثة المتقدمة على أنّ كونه معه في هذا الموضوع دليل قاطع على أنّه ﷺ كان قاطعاً بأنّ باطنه كظاهره فأين أحد الجانبيين من الآخر انتهي.

أقول أمّا قوله أنّه تعالى سمّاه ثاني إثنتين فجعله ثاني محمّد حال كونها في الغار.

ففيه إشارة أنّ التّسمية بذلك لا يدلّ على أنّه ثاني محمّد و ذلك لأنّه لم يكن في الغار إلّا إثنان فقال تعالى ثاني إثنتين فلو كان هناك ثلاثة لا محالة يقول ثلاث ثلاثة مثلاً.

و ملخص الكلام هو أنّ التّعبير بغيره لا يمكن أصلاً و بذلك لا يصير الإنسان ثاني محمّد ﷺ و أمّا قوله و العلماء أثبتوا أنّه ثاني محمّد ﷺ في أكثر المناصب الدّينية ثمّ ذكر منها موارد.

في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

منها أنه آمن بالرسول بمجرد عرض الإسلام عليه و هو عرض الإسلام على طلحة و الزبير و عثمان و غيرهم فكأن الرازي كان غافلاً أو متغافلاً عما ذكره المؤرخون و أرباب السّير في الباب و من أراد الإطلاع على كذبه فعليه بالمراجعة الى مظانها و ذلك لأنه بحث تاريخي لا ربط له بما نبحت فيه فعلاً. و على فرض ثبوته هو لا يدل على أنه ثاني إثنين في الدّعوة لا غيره فأئ جميع المسلمين بعد إسلامهم دعوا أقرباءهم و أحبّاءهم و أفراد القبائل بالإسلام و لم يكن هذا مختصاً بأبي بكر و أن شئت قلت جميع المسلمين كانوا ثاني إثنين في الدّعوة.

و أمّا قوله كلّما وقف رسول الله في غزوة كان أبوبكر يقف في خدمته يفارقه فكان ثاني إثنين في مجلسه.

فنقول ما ذكره في المقام في إثبات الأفضلية كان بالذّم أشبه منه بالمدح إذ لقائل أن يقول لم كان أبوبكر يقف في خدمته و لم يفارقه في الغزوات ألم يكن الجهاد واجباً عليه فأئ كان واجباً عليه و تخلف عنه فهو عاصٍ و أن لم يكن واجباً عليه لمريض أو جنونٍ أو سفهٍ أو غير ذلك فلا كلام لنا فيه و أن كان تقاعده عن القتال خوفاً من القتل فهو ناش عن ضعف إيمانه فالمستدلّ الذي اعترف بأنّ أبابكر كان في خدمة الرسول و لم يفارقه كان واجباً عليه أن يبين علة القعود عن الجهاد الذي هو فرض على جميع المسلمين في حضور الإمام فمن كان معرضاً عما يجب عليه لا يكون ثاني إثنين في مجلسه.

و أمّا مسألة إمامته للناس في الصّلاة فهي ممّا إدّعه المستدلّ و أمثاله دليل له و لهم على اثبات ذلك و الحقّ أنّ أبابكر لم يكن إماماً للناس في صلاتهم عند مرض النبي و لولا خوف الإطالة لأشبعنا الكلام فيه و هذه الأخبار المروية بطرقهم من مجعولات الكذّابين الرّضاعيين في صدر الإسلام لإثبات دعاويهم الباطلة و كم له من نظير و مع ذلك لو سلّمنا ما ذكره فهو لا يثبت مدّعه و هو أنه ثاني إثنين و ذلك لأنّ الإمامة في غيبة الرسول لو كانت دليلاً على ما قاله لكان

إبن أم مكتوم أيضاً ثاني اثنين بل هو أعظم من أبي بكر لأن نيابته للرّسول كانت ثابتة لم يختلف فيه أحد و أمّا أبو بكر فلا.

و أمّا قوله لما توفى دفن بجنبه فكان ثاني اثنين، فهو غريب لأننا نقول:

أما أولاً: فهذا مما لا يثبت به شيء أصلاً ولا فضيلة فيه أبداً.

ثانياً: من دفنه بجنب الرّسول فإن قالوا أن الرّسول أوصى بذلك مثلاً فهذا كذب صريح بل تهمة على الرّسول وإن قالوا دفنه هناك عُمر و كان حاكماً و لم يقدر أحد على منعه فهو حقّ إلا أنّه بذلك لا يصير ثاني اثنين بل يكون غاصباً ظالماً لو رضي به و إلا فوزره على من فعل ذلك و الحساب على الله.

فإن قالوا دفنه بجنب النّبي بأذن عائشة ففيه أن البيت لم يكن لعائشة لأنهم قالوا أن الأنبياء لا يورث و على فرض ثبوت الإرث كما نحن نقول به فعائشة أيضاً لم تكن صاحب البيت بل لها التسع من الثمن و في الكلّ تصرف و للبحث فيه أيضاً موضع آخر.

و أمّا ما طعن به على الرّوافض و عبّر عنهم بالحمقى ثم ردّ عليهم بزعمه فهو لا يليق بمقامه أن كان من أهل العلم و إلا فهو أليق به و العجب ممّن يدّعي العلم و هو يقول، أن قوله: **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ** أن المعية فيه بالعلم و التدبير.

و أمّا في قوله أن الله معنا فالمراد به هو تخصيص أبي بكر بهذه الصّفة، ليس هذا من قبيل قول القائل بآنك يجزّ و بائي لا يجزّ.

و ما الفرق بين المقامين و مجرد الإدّعاء لا يكفي في الاستدلال فإن قال قائل بعدم الفرق و طالب الدليل على وجود الفرق يعدّ من الحمقى و من يدّعي الفرق من غير دليل و لا برهان يعدّ من العقلاء فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الخامس: قال من التمسك بهذه الآية ما جاء في الأخبار أن أبا بكر لما حرّز قال عليه الصّلاة و السّلام ما ظنك بأثنين الله ثالثهما و لا شك أن هذا منصب عليّ و درجة رفيعة.

في الفرق بين الرّوافض و النّجاشية



الجليل الثاني

و الجواب عنه قد مرَّ و قلنا أنَّ الله تعالى ثالث كلِّ اثنين كافرين أو مسلمين و ليست فيه فضيلة أصلاً.

ثمَّ نقل عن والده شيئاً يشعر بأنَّه كان مجنوناً أو جاهلاً عامياً.

قال و اعلم أنَّ الرِّوافض في الدِّين كانوا اذا حلفوا قالوا و حق خمسة سادسهم جبرئيل و أرادوا به أنَّ الرِّسول و عليّاً و فاطمة و الحسن و الحسين كانوا قد إحتجبوا تحت عباءة يوم المباهلة فجاء جبرئيل و جعل نفسه سادساً لهم فذكروا للشيخ الإمام الوالد أنَّ القوم هكذا يقولون.

فقال الوالد لكم ما هو خيرٌ منه يقوله ما ظنَّك بأثنين الله ثالثهما المعلوم بالضرورة هذا أفضل و أكمل انتهى.

أقول كان والده لم يعلم أنَّ جبرئيل إفتخر بكونه سادساً منهم و الله تعالى لم يفتخر بكونه معهم فأنَّه مع جميع مخلوقه و الفرق بينهما أبعد من بين السماء و الأرض هذا مضافاً إلى أنَّ هذه النسبة إلى الشيعة أيضاً كذب و إفتراء إذ لم يقل أحد و حق خمسة و سادسهم جبرئيل فأنَّ الشيعة تقول بأفضلية الخمسة من جميع ما سوى الله فلا نحتاج في حلفه بهم إلى ضمِّ جبرئيل اليهم و هو من خدامهم و خدام شيعتهم و لذلك إفتخر به.

السادس: أنَّه تعالى وصف أبابكر صاحباً للرِّسول و ذلك يدلُّ على كمال الفضل قال الحسين ابن الفضيل البجلي من أنكر أن يكون أبوبكر صاحب رسول الله كان كافراً لأنَّ الأمة مجمعة على أنَّ المراد من قوله إذ يقول لصاحبه هو أبوبكر و ذلك يدلُّ على أنَّ الله تعالى وصفه بكونه صاحباً له.

إعترضوا و قالوا أنَّ الله تعالى وصف الكافر بكونه صاحباً للمؤمن:

قال الله تعالى: **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ^(١)**

و الجواب أن هناك وإن وصفه بكونه صاحباً له ذاكراً إلا أنه أردفه بما يدل على الإهانة والإذلال قوله أكفرت أما هاهنا فبعد أن وصفه بكونه صاحباً له ذكرنا ما يدل على الإجلال والتعظيم وهو قوله: لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَيَّ مناسية بين البابين لولا فرط العداوة انتهت.

و الجواب أنه لا شك أن الله وصف أبابكر بكونه صاحباً له وأما أنه يدل على كمال الفضل فيحتاج إلى الإثبات لأن الصاحب في لغة العرب لم يجيء بمعنى الفضل فضلاً عن كماله.

وأما قول البجلي أن منكر كون أبي بكر صاحباً لرسول الله كافر فهو غلط محض اللهم إلا أن يرجع الإنكار بإنكار الآية وهو بإنكار القرآن وهو أمر آخر مضافاً إلى أن الموضوع لا يحتاج إلى فتوى البجلي وغيره وذلك لأن جميع المسلمين اعتقدوا بذلك لوجود النص في الكتاب إلا أن البحث في أن المصاحبة تدل على الفضيلة أولاً وهو بحث آخر.

وأما جوابه عن الآية المذكورة فباطل عاطل لأن البحث في كلمة الصاحب وأن هذه الكلمة تدل على المدعى أم لا لا في مورد إستعمالها وأنت تعلم أن معنى الكلمة في الموردين واحد وبعد اللتيا والتي ما ذكره لا يثبت مدعاه. وأما قوله لولا فرط العداوة فكلام يدل على جهل قائله أو عناده اذ لا عداوة في البين أصلاً.

السابع: في دلالة هذه الآية على فضل أبي بكر قوله: لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ولا شك أن المراد من هذه المعية المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة وبالجملة فالرسول ﷺ شرك بين نفسه وبين أبي بكر في هذه المعية فأن حملوا المعية على وجه فاسد لزمهم إدخال الرسول فيه وأن حملوها على محمل رفيع شريف لزمهم إدخال أبي بكر فيه ونقول بعبارة أخرى دلت الآية على أن أبابكر كان الله معه وكل من كان الله معه فإنه يكون

من المتقين المحسنين لقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ^(١) والمراد منه الحصر والمعنى أَنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا لا مع غيرهم وذلك يدل على أَنَّ أبا بكر من المتقين المحسنين انتهى.

والجواب أَنَّ المراد بالمعية آية معية كانت هو أَنَّ اللَّهَ تعالى مع رسوله أي أَنَّ اللَّهَ يحفظه و يحرسه و يعينه أو ما شئت فسمه وهذا لا كلام لنا فيه.

و اذا كان اللَّهَ حافظاً لنبيه في الغار فهو حافظ لمن كان معه أيضاً فيه سواء كان أبوبكر أم غيره و بعبارة أخرى أَنَّ اللَّهَ حافظ رسوله بالإصالة و حافظ صاحبه بالتبع فاللَّهُ خير و هذا مسلم و لكن يبقى السؤال و هو أَنَّهُ آية فضيلة فيه و قد ثبت أَنَّ اللَّهَ حافظ عبده و ناصره و معينه و هذا لا اختصاص له بفرد دون فرد.

قال اللَّه تعالى: **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**^(٢).

قال اللَّه تعالى: **وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**^(٣)

قال اللَّه تعالى: **وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ**^(٤)

قال اللَّه تعالى: **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ**^(٥).

و غيرها من الآيات و ما نحن فيه من هذا القليل

و أما إستدلالة بالآية الشريفة فطريف من الكلام جداً فكأنه لم يسمع مثل المشهور، ثبت العرش ثم أنقش، فَأَنَّ الآية قد صرحت به إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ فجعل اللَّه تعالى لإثبات المعية شرطين:

أحدهما: التقوى لقوله: مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا.

الثاني: كونه محسناً لقوله و الَّذِينَ هم محسنون فعلى المستدل إثبات وجود الشرطين في أبي بكر أولاً ثم الإستدلال بكون اللَّه معه و مجرد كونها موجودين في الرسول لا يكفي أبا بكر.

و العجب من شكل قياسه حيث قال دَلَّتْ الآية على أبا بكر كان الله معه و كل من كان الله معه فأنه من المتقين ينتج أن أبا بكر من المتقين.
ولا نعلم أن الرازي بصدد إثبات التقوى لأبي بكر أو بصدد إثبات فضيلة خاصة و من المعلوم أن قياسه على فرض تماميته يثبت أنه من المتقين و أي ربط بينه و بين ما نحن بصدد هذا أولاً.

ثانياً: أن القياس لا يتم و لا يصح لأن كل من كان الله معه فأنه من المتقين، هو أول الكلام و ذلك لأن الله قال في كتابه: **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**^(١) و لا شك أن الخطاب عام يشمل الكل و لازم ذلك أن يكون جميع الناس من المتقين، إذ لكل أحد أن يقول، أن الله معي، و كل من كان الله معه فهو من المتقين فأننا من المتقين و لا يقول به عاقل و الحاصل أن المتقين كان الله معهم أي ينصرهم و يحفظهم و يتوجه اليهم و لا عكس فهذا القياس الذي رتبته بالمغالطة أشبه.

و أما قوله و المراد منه الحصر فهو أيضاً لا دليل عليه و هو واضح.
الثامن: أن قوله: **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** يدل على كونه ثاني إثنين في الشرف الحاصل من هذه المعية كما كان ثاني إثنين إذ هما في الغار و ذلك منصب في غاية الشرف انتهى.

أقول قد ظهر جوابه مما ذكرناه سابقاً فأن دلائله في بعض الموارد من المكررات و هذا منها و أي شرف في هذه المعية و كونه ثاني إثنين حتى يقال أنه منصب عالي.

التاسع: أن قوله: **لَا تَحْزَنْ** نهى عن الحزن مطلقاً و النهي يوجب الدوام و التكرار و ذلك يقتضي أن لا يحزن أبوبكر بعد ذلك البتة قبل الموت و عند الموت و بعده انتهى.

و الجواب أَنَّ النَّهْيَ كالأمر لا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى الطَّبِيعَةِ وَ الْمَرَّةِ وَ التَّكَرُّارِ خَارِجَانِ عَنْهَا كَمَا ثَبَتَ فِي الْأَصُولِ وَ الْفَرْقُ أَنَّ الْأَمْرَ طَلَبُ إِيجَادِ الطَّبِيعَةِ وَ النَّهْيُ طَلَبُ تَرْكِهَا وَ قَدْ فَرَعْنَا عَنِ الْبَحْثِ فِي الْأَمْرِ وَ النَّهْيِ فِي الْأَصُولِ وَ أَمَّا قَوْلُهُ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّ لَا يَحْزَنُ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَلَامَ كَذِبٍ وَلَوْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ حَيًّا لَمَّا رَضِيَ بِهِ إِذْ كَيْفَ يُقَالُ أَنَّهُ لَمْ يَحْزَنَ قَبْلَ الْمَوْتِ وَ عِنْدَهُ وَ بَعْدَهُ وَ هَذَا مِنَ الرَّازِي عَجِيبٌ كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ وَ قَدْ ثَبَتَ حَزْنُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَ قَبْلَهُ وَ بَعْدَهُ حَتَّى يُقَالَ كَذَا.

العاشر: قوله: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ الخ.**

أَقُولُ بِأَنِّي الْكَلَامَ فِي إِنْزَالِ السَّكِينَةِ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا وَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى الرَّسُولِ لَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ كَمَا زَعَمَهُ هُوَ وَ غَيْرُهُ.

الحادي عشر: مِنَ الْوُجُوهِ الدَّالَّةُ عَلَى فَضْلِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِنْطِبَاقُ الْكَلِّ عَلَى أَنَّ أَبِي بَكْرٍ هُوَ الَّذِي اشْتَرَى الرَّاحِلَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَ عَلَى أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ هُمَا اللَّذَانِ كَانَا يَأْتِيَانِ بِالطَّعَامِ.

رَوَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَ صَاحِبِي فِي الْغَارِ بَضْعَةَ عَشْرِ يَوْمًا وَ لَيْسَ لَنَا طَعَامٌ إِلَّا التَّمْرُ وَ ذَكَرُوا أَنَّ جَبْرِئِيلَ أَتَاهُ وَ هُوَ جَائِعٌ فَقَالَ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَدْ أَتَتْ بِحَيْسٍ فَفَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ وَ أَخْبَرَ بِهِ أَبِي بَكْرٍ وَ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ أَظْهَرَهُ لِأَبِي بَكْرٍ فَاتَى ابْنَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ يَشْتَرِي جَمْلَيْنِ وَ رَحْلَيْنِ وَ كَسَوَتَيْنِ وَ يَفْضِلُ أَحَدَهُمَا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ وَصَلَ الْخَبَرَ إِلَى الْأَنْصَارِ فَخَرَجُوا مَسْرِعِينَ فَخَافَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الرَّسُولَ فَالْبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ثَوْبَهُ لِيَعْرِفُوهُ فَلَمَّا دَنَوْا خَرُّوا لَهُ سَجْدًا فَقَالَ لَهُمْ إِسْجُدُوا لِلرَّبِّكُمْ وَ أَكْرَمُوا أَخَا لَكُمْ أَنَاخَتْ نَاقَتُهُ بَبَابَ أَبِي أَيُّوبَ رَوَيْنَا هَذِهِ الرُّوَايَاتِ مِنْ تَفْسِيرِ أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمِّ انْتَهَى.

أَقُولُ مَا نَقَلَهُ فِي هَذَا الْوَجْهِ كُلِّهِ كَذِبٌ مُحَضٌّ فَهَذِهِ التَّوَارِيخُ الْمَعْتَبَرَةُ مِنَ الْعَامَّةِ وَ السَّيَرِ وَ كُتُبِ الْأَخْبَارِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ كُلِّهَا يَشْهَدُ بِكَذِبِهِ فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ إِلَى

الآن ولم نر في كتاب أو تفسير أنَّ الرسول ﷺ كان في الغار بضعة عشر يوماً بل الكل متفقون على أنَّ الرسول كان في الغار ثلاثة ليال أو أيام و عليه جميع المفسرين و أرباب السير.

و أمّا قوله: فلمّا دنوا خرّوا سجّداً له فقال لهم أسجدوا لرّبكم الخ.
فهذا أيضاً كذب و إفتراء على الأنصار إذ كيف خرّوا له سجّداً، و هم كانوا مسلمين و المسلم لا يسجد لغير الله ثمّ كيف لم ينههم النبي عن السجدة و أبوبكر نهاهم عنها و هكذا ما ذكره في هذا الوجه و لعله هو أيضاً علم كذبه حيث قال في آخر كلامه روينا هذه الروايات من تفسير أبي بكر الأصم فكانّه قال العهدة على الراوي و نحن لا نعرف أبابكر الأصم والله أعلم.

و الذي نقول للرزاي و أمثاله أن يجتنبوا من نقل هذه الموضوعات التي يحكم العقل بطلانها و الأخبار الصحيحة أيضاً تنكرها و محصل الكلام هو أنَّ ما ذكره خارج عن موضوع البحث إذ ليس البحث في أنّه من كان يأتيهما بالطعام و الشراب بل البحث في شيء آخر و هذه الأباطيل لا تثبت مدّعاهم لو كان لهم عقل.

الثاني عشر: أنَّ رسول الله حين دخل المدينة ما كان معه إلا أبوبكر و الأنصار ما رأوا معه ﷺ إلا أبابكر و ذلك يدل على أنّه كان يصطفيه لنفسه من بين أصحابه في السفر و الحضر و أنَّ أصحابنا زادوا عليه و قالوا لمّا لم يحضر معه في ذلك السفر أحد إلا أبوبكر فلو قدرنا أنّه توفى رسول الله في ذلك السفر لزم أن لا يقوم بأمره إلا أبوبكر و أن لا يكون وصيه على أمته إلا أبوبكر و أن لا يبلغ ما حدث من الوحي و التنزيل في ذلك الطريق الى أمته إلا أبوبكر و كلّ ذلك يدل على الفضائل العالية و الدرجات الرفيعة لأبي بكر انتهى.

أقول أمّا ما ذكره من أنَّ رسول الله حين دخل المدينة ما كان معه إلا أبوبكر فهو أيضاً خلاف ما نقله أرباب السير فإنّ الرسول لم يدخل المدينة إلا بعد

مجئ أمير المؤمنين و ذلك لأنه ﷺ تَوَقَّفَ خارج المدينة و قال لا أدخلها حتى يأتي علي بن أبي طالب و من معه من أهل بيت الرسول.
و لو سلمنا أنه دخلها مع أبي بكر وحده فهو أيضاً لا يثبت المدعى و أما قوله أنه يدل على أن الرسول إصطفاه لنفسه فهو أيضاً عجيب إذ لازم ذلك أن القادم من السفر مع غلامه يدل على أن المولى إصطفى الغلام لنفسه فهو أفضل من غيره أليس لقائل أن يقول لعل المولى إختاره لخدمته فكيف يدل هذا على فضيلته.

و أما قوله أن أصحابنا زادوا عليه و قالوا كذا و كذا فنقول في جوابه الوصاية و الخلافة للرسول تتصور على قسمين:
أحدهما: أن يكون ذلك بالشورى وبيعة أهل الحل و العقل كما يقول به الرازي و من تبعه.

ثانيهما: بالنص من رسول الله على شخص معين كما نقول به و هو علي بن أبي طالب و على التقديرين لو قدرنا أنه ﷺ تَوَفَّى في ذلك السفر لا تصل الخلافة و الوصاية لأبي بكر لعدم النص على مذهبنا و عدم وجود الشورى على مذهبهم فكيف يقول الرازي لو كان كذا كان كذا و أي عاقل لو مات شخص في السفر يقوم مقامه صاحبه منه و أعجب من الكل إدعاء أنه لو مات الرسول لا يبلغ الوحي الى أمته إلا أبو بكر و نحن نشكر الله على أنه ﷺ لم يمت في ذلك السفر و إلا كان أبو بكر نبينا بزعمه هذا ما ذكره الرازي في تفسيره.

و الجواب عنه و الكلام في المقام طويل و لكن أعرضنا عن ذكر سائر المقالات مراعاة للإختصار و أن لا يخرج الكتاب عن موضوعه و لنرجع الى تفسير بقية الألفاظ في الآية فنقول: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا** مر الكلام في معنى السكينة عند شرح اللغات و قلنا أنها عبارة عما تسكن به القلوب يقول الله: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** و اختلفوا في مرجع

الضَّمير و أنه الى من يعود فأكثر المفسرين على أنه يعود على رسول الله أي فأنزل الله سكينته على رسوله.

و قال بعضهم يعود على صاحب و هو أبو بكر أي أنزل سكينته على صاحب الرسول و في المقام قول ثالث.

رأيته في بعض التفاسير و هو أنه يرجع اليهما قال و أفرد لتلازمهما، و الأشهر الأقوى هو الأول.

و أما القول الثاني و الثالث فأنما اخترعوها لأن يشبوا بذلك فضيلة لأبي بكر بن عمهم قال قال الرازي أنه يرجع الى أبي بكر لا الى الرسول و استدلل على ما إدعاه بوجوه.

الأول: أن الضَّمير يجب عوده الى أقرب المذكورات و أقربها في هذه الآية هو أبو بكر لأنه تعالى قال: **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** و التقدير إذ يقول محمد لصاحبه أبي بكر لا تحزن و على هذا التقدير فأقرب المذكورات السابقة أبو بكر فوجب عود الضَّمير اليه.

الثاني: أن الحزن و الخوف كان لأبي بكر لا للرسول فإن **وَاللَّهُ وَاسِعٌ** كان آمناً ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش فلما قال لأبي بكر لا تحزن صار آمناً فصرف السكينة الى أبي بكر ليصير ذلك سبباً لزوال خوفه.

الثالث: أنه لو كان المراد إنزال السكينة على الرسول لوجب أن يقال أن الرسول **وَاللَّهُ وَاسِعٌ** كان خائفاً قبل ذلك ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبي بكر لا تحزن أن الله معنا فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره و لو كان الأمر على ما قالوه لوجب أن يقال: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** فقال لصاحبه لا تحزن أن الله معنا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول هذه الدلائل التي ذكرها لا طائل تحتها و ذلك لأن جميع الكنايات قبل هذا و بعده راجعة الى النبي **وَاللَّهُ وَاسِعٌ** ألا ترى أن قوله: **وَاللَّهُ تَنْصُرُوهُ** الهاء راجعة الى النبي بلا خلاف و قوله: **فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** فالهاء أيضاً راجعة الى

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

النَّبِيِّ ﷺ و قوله إذ أخرجه يعني النَّبِيَّ، و إذ يقول لصاحبه يعني النَّبِيَّ ثُمَّ قال تعالى بعد هذه المذكورات فأنزل الله سكينته على النَّبِيِّ و قال بعده و أيده بجنودٍ يعني النَّبِيَّ فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره قاله الشَّيْخ في التَّبيان و به قال جميع مفسري الشَّيعة.

أقول سياق الكلام و فصاحته يقتضي رجوع الصَّмир الى الرَّسول بمعنى أنه تعالى قد ألقى في قلب رسوله ما سكن به و علم أنهم أي الكفار غير واصلين اليه و به قال الرَّجَّاج أيضاً.

و أما قول الرَّازي لو كان المراد إنزال السَّكينة على الرَّسول لوجب أن يقال أن الرَّسول كان خائفاً قبل ذلك.

نقو في جوابه و أي إشكال فيه و لا دليل لنا أن الأنبياء لم يخافوا ثم أن الخوف في قلب النَّبِيِّ ليس نقصاً في نبوته فلو لم يكن الرَّسول خائفاً من الكفار لم ترك بيته و خرج الى الغار هذا مضافاً الى أنه تعالى قد صرَّح في كتابه بوجود الخوف في قلوب المرسلين و حكم الأمثال واحد قال في قصَّة موسى عليه السلام: قال الله تعالى: **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** (١).

قال الله تعالى: **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى** (٢).

قال الله تعالى: **يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ** (٣).

قال الله تعالى: **يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ** (٤).

قال الله تعالى: **إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ** (٥).

و قال في نوح و لوط و إبراهيم و غيرهم من الأنبياء مثل ذلك و قد صرَّح بما ذكرناه حيث قال في موسى عليه السلام:

قال الله تعالى: **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ** (٦).

قال الله تعالى: فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١).

و الرسول ﷺ أيضاً كان من مصاديق هذه الآيات لأنه ﷺ خرج من مكة خائفاً يترقب كما خرج موسى عليه السلام و قال رب نجنا... نجني من القوم الظالمين كما قال موسى و محصل الكلام هو أن مسألة الخوف للبشر من أوضح المسائل و لا تحتاج الى الإثبات و إذا كان كذلك فأنزل الله سكينته أي رحمته على قلب الرسول فأسكن بها قلبه و أزال الخوف منه اللهم إلا أن يكون مراد الخصم من إصراره على أنزال الله سكينته على أبي بكر هو أنه أي أبابكر لحزنه و وحشته و خوفه و اضطرابه في الغار من القتل كان يجزع جزعاً شديداً و بذلك جعل الرسول في معرض الخطر فأنزل الله سكينته على قلب أبي بكر ليسكت و ينجو النبي من شر اضطرابه و كان الغرض بذلك حفظ النبي و إذا كان كذلك فإنزال السكينة على قلب أبي بكر لا فضيلة فيه بل أنزلت لدفع المضرة و لا يبعد أن يكون كذلك فإن كان غرضهم هذا فلا إشكال فيه لكنهم لا يقولون به بل يقولون أن الله أنزل سكينته على قلب أبي بكر في الغار و لم ينزلها على قلب رسوله و لم يعلموا أن موت أبي بكر و حياته كانا سيان بل موته كان حسن من حياته و العنايات الربانية تشمل الرسول لا غيره إذ به قوام الدين و بحياته هداية الخلق و أمّا قوله: وَ أَيْدَهُ يَجْنُوهُمْ لَمْ تَرَوْهَا.

معناه أن الله أيد رسوله بجنوده و لعل المراد بهم الملائكة الحافين حول الغار حفظاً للنبي ﷺ و أمّا قولهم أن المراد بقوله هذا هو قصة بدر فإنه تعالى أيد رسوله فيها بالملائكة و قد مضى الكلام فيها.

و هذا لا يصح و لا يمكن لنا التّعويل عليه و كيف يعقل أن يكون صدر الآية في قصة الغار و ذيلها في قصة بدر و ليت شعري ما الذي دعاهم الى ذلك لو لا التعصب و العناد فأنهم يقولون لو قلنا بعود الضمير في قوله: وَ أَيْدَهُ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

الى الرسول في قصّة الغار فلائد لنا من القول برجوع الضمير في، سكيته، الى الرسول بمقتضى العطف و حيث أنّ الضمير في سكيته الى أبي بكر ففي، قوله: وَ أَيْدُهُ الى الرسول في بدر لا في آية الغار إنظروا يا أهل الإنصاف الى هذه التأويلات الباردة التي لا يقبلها العقل و محصل الكلام هو أنّ المراد بالجنود ما ذكرناه أو أنّ المراد تقوية الملائكة، لقلبه ﷺ بالبشارة بالنصر من ربّه و من إلقاء اليأس في قلوب المشركين حتّى إنصرفوا خائبين وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ قيل أنّ كلمة الذين كفروا، الشُّرك و كلمة الله، توحيد و المعنى جعل الله التوحيد أعلى من الشُّرك.

و قال بعضهم، المراد بكلمة الكفر هو ما تغامزوا عليه من قتله و من كلمة الله العليا ما وعده ربّه من النصر و النجاة و كيف كان لا شك أنّ الكافر و ما يقول به لا يقاس بالمؤمن و ما يقول له فكلمة الكافر بأيّ معنى كان هي السفلى و كلمة الحق هي العليا:

قال الله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^(١).

قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ^(٢).

قال الله تعالى: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ^(٣).

و لنختتم الكلام في تفسير الآية الشريفة بما ورد من أهل البيت فيها من الأخبار.

و منها ما رواه الصدوق عليه السلام في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ أَظْهَرَ الْكُفْرَ وَ

ستر الإيمان فلما حضرته الوفاة أوحى الله عز وجل إلى الرسول،
أخرج منها فليس لك بها ناصر انتهى.

ومنها ما رواه في البحار بأسناده عن جعدة بن هبيرة عن أمه أم
هاني بنت أبي طالب عليها السلام: قالت لما أمر الله نبيّه بالهجرة و أنام علياً
على فراشه و سجّاه ببردٍ حضرمي ثم خرج فإذا وجوه قريش على
بابه فأخذ حفنةً من ترابٍ فذرّها على رؤوسهم فلم يشعر به أحد
منهم و دخل على بيتي فلما أصبح أقبل على و قال أبشري يا أم
هاني فهذا جبرئيل يخبرني أنّ الله عزّ و جلّ قد أنجى علياً من عدوّه
قالت و خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله مع جناح الصبح إلى غار ثور فكان
فيه ثلاثاً حتّى سكن عنه الطلب ثم أرسل إلى عليّ عليه السلام و أمره بأمره
و إداء الأمانة انتهى.

ومنها ما روى أنّ أمير المؤمنين و هند بن أبي هالة دخلا على
رسول الله في الغار فأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله هنداً أن يبتاع له و
لصاحبه بعيرين فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ذلك يا نبي الله
راحلتين نرتحلهما إلى يثرب فقال صلّى الله عليه وآله أني لا آخذهما و لا
أحدهما إلّا بالثمن قال فهي لك بذلك فأمر علياً فأقبضه الثمن ثم
وصّاه بحفظ ذمّته و إداء أمانته و كانت قريش تدعوا محمداً في
الجاهلية الأمين و كانت تستودعه و تستحفظه أموالها و أمتعتها و
كذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم و جاءته النبوة و الرسالة
و الأمر كذلك فأمر علياً أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوةً و
عشيّاً من كان له أمانة أو وديعة فليأت فلنؤد إليه أمانته قال
فقال صلّى الله عليه وآله أنهم لن يصلوا من الآن اليك يا عليّ بأمرٍ تكرهه حتّى
تقدم على فأد أمانتي على أعين الناس ظاهراً ثم أني مستخلفك على
فاطمة إبنتي و مستخلف ربّي اليكما و مستحفظه فيكما فأمره أن

يبتاع رواحله وللغواطم ومن أزعج للهجرة معه من بني هاشم و
ساق الحديث الى أن قال وقال رسول الله ﷺ وهو يوصيه فإذا
أبرمت ما أمرتك من أمر فكن على أهبة الهجرة الى الله ورسوله و
سرّاً الى لقودم كتابي عليك ولا تلبث وأنطلق رسول الله ﷺ لوجهه يأم
المدينة وكان مقامه في الغار ثلاثاً ومبيت عليّ على الفراش أول
ليلة.

قال عبيد الله بن أبي رافع وقد قال عليّ بن أبي طالب يذكر مبيته على
الفراش مقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى و من طاف بالبيت العتيق وبالجر
محمّد لمّا خاف أن يمحروا به فوّقه ربّي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم متى ينشروني وقد وطئت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله ﷺ في الغار آمناً هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثاً ثم زمت قلايص قلايص يغرين الحصا أينما تفرى
ولمّا ورد رسول الله ﷺ المدينة نزل من بني عمرو بن عوف
بقباء فأراد أبو بكر على دخوله المدينة فقال ﷺ ما أنا بداخلها
حتى يقدم ابن عمّي وأخي عليّاً وإبنتي فاطمة عليها السلام و لم يدخلها
حتى ورد عليه ﷺ انتهى.

ومن هذا الحديث وأمثاله يظهر كذب المعاندين كما يظهر مقام أمير
المؤمنين عليّاً عليه السلام وأنه كيف يقاس كون أبي بكر في الغار من النبي بمبيت
عليّ عليه السلام على فراش رسوله وإدائه الأمانات الى أهلها من قبل النبي وإعتماد
رسول الله عليه في أهل بيته ولا سيما قرّة عينه ومهجة قلبه فاطمة
الزّهراء عليها السلام وهكذا ولسنا فعلاً بعد بيان فضائله التي لا تحصى هذا ما أردنا
بيانه في تفسير الآية مع رعاية الإختصار ولنذكر ما ذكره الشيخ في التبيان
بعين ألفاظه وعباراته.

قال ﷺ و ليس في الآية ما يدل على تفضيل أبي بكر لأن قوله، ثاني إثنين، مجرد الأخبار أن النبي ﷺ خرج معه غيره وكذلك قوله: إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ خبر عن كونهما فيه.

و أما قوله: إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا مدح فيه أيضاً لأن تسميته الصاحب لا تفيد فضيلة ألا ترى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر: قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ^(١) و قد يسمون البهيمة بأنها صاحب الإنسان كقول الشاعر:

و صاحبي بازل مشمول، و قد يقول الرجل المسلم لغيره أرسل اليك صاحبي اليهودي و لا يدل ذلك على الفضل وقوله: لَا تَحْزَنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ دَمًا فليس بمدح بل هو نهى محض عن الخوف وقوله: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا قِيلَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ و لو أريد به أبو بكر معه لم يكن فيه فضيلة لأنه يحتمل أن يكون ذلك على وجه التهديد كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لا تفعل أن الله معنا يريد أنه متلع علينا عالم بحالنا، و السكنة قد بينا أنها نزلت على النبي ﷺ بما بيناه من التأييد بجنود الملائكة و أنه كان مختصاً بالنبي فأين موضع الفضيلة للرجل لولا العناد و لم نذكر هذا للطعن على أبي بكر بل بينا أن الاستدلال بالآية على الفضل غير صحيح انتهى كلامه رفع مقامه فإنه ﷺ قد أتى بما هو الحق مع إختصاره.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ
 أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا
 لَا تَبْغُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ
 سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ
 يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ
 الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا
 يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ
 أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ آرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي
 رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
 لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ
 فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ
 خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا
 خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ
 اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ
 قَبْلُ وَ قَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ
 أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

◀ اللّغة

خِفَافًا وَثِقَالًا الخفيف بأزاء الثّقل.

عَرَضًا بفتح العين والراء الغنيمة.

الْشَّقَّةُ بضم الشّين وفتح القاف المشددة يحتمل أن يكون من الشّق و أن يكون من المشقّة.

وَآرْثَابًا، الإرتياب الإضطراب في الإعتقاد.

فَشَبَّطَهُمْ أي حبسهم وشغلهم.

خَبَالًا، الخبال العناد والباقي واضح.

◀ الإعراب

عَرَضًا قَرِيبًا إسم كان مُضمَر تقديره ولو كان ما دعوتم اليه يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ يجوز أن يكون مستأنفًا و أن يكون حالاً من الضّمير في، يحلفون حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَتَّى متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام تقديره هَلَّا أَخْرَجْتَهُمْ الى أن يَتَبَيَّنَ خِلَالَكُمْ ظرف لأوضعوا يَبْعَثُونَكُمْ حال من الضّمير في أوضعوا.

◀ التفسير

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

هذا أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين أمرهم أن ينفروا الى جهاد الكفّار خِفَافًا وَثِقَالًا، أي شَبَانًا و شيوخاً على قول المجاهد و الحسن و الجبائي و قيل معناه أغنياء و فقراء و هو قول صالح.

و قيل نشاطاً و غير نشاط قاله ابن عباس و قتادة و قيل ركبَانًا و مشاةً و هو قول أبي عمرو و قيل ذَا ضِعَةٍ و غير ذي ضِعَةٍ، قاله ابن زيد.

و قال الحكم مشاغيل و غير مشاغيل، و قال الفراء ذو العيال و الميسرة نقل

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

الأقوال في التبيان والذي نقول هو أنّ الخفيف بأزاء الثَّقِيل و يقال ذلك.
تارةً باعتبار المضايقة بالوزن و قياس الشَّيْثَيْن أحدهما بالأخر نحو درهم
خفيف و درهم ثَقِيل.

و أخرى باعتبار مضايقة الزّمان نحو فرس خفيف و فرس ثَقِيل اذا عدا
أحدهما أكثر من الآخر في زمانٍ واحدٍ.

و هنا إعتبار ثالث و هو إطلاق الخفيف على ما يستحيله النَّاس و إطلاق
الثَّقِيل على ما يستَوْخمه فيكون الخفيف مدحاً و الثَّقِيل ذمّاً و بعضهم زاد
قسماً رابعاً و هو أنّه قد يقال خفيف فيمن يطيش و ثَقِيل فيما فيه وقار فيكون
الخفيف ذمّاً و الثَّقِيل مدحاً.

و قسماً خامساً و هو أنّ الخفيف يقال في الأجسام التي من شأنها أن
ترجعن الى أسفل كالأرض و الماء و الثَّقِيل ضده اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **اتَّقِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا** معناه إنفروا على أيّ حالٍ من الحالات و
الصّفات الى جهاد عدوكم فهو كناية عن إجتماع المسلمين و إتفاقهم على أمر
الجهاد ثمّ أخبرهم أنّ الجهاد لا ينحصر بنوع خاصّ بل جاهدوا بأموالكم و
أنفسكم في سبيل الله فإنّ الجهاد بالمال في بعض الموارد أنفع و أفيد للذين
من الجهاد بالنفس وبالعكس كما أنّ خديجة الكبرى عليها السلام جاهدت بمالها في
سبيل الله و أمير المؤمنين جاهد بنفسه و ماله معاً.

و في قوله: **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** إشارة الى أنّ المجاهد بالمال أو بالنفس اذا كان
جهاده في الله و لله فهو و أن كان لغير الله و في سبيل الهوى فلا خير فيه و الى
هذا المعنى أشار بقوله: **ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** معناه أنّ الجهاد
بأقسامه اذا كان في سبيل الله فهو خير له أن كان عالمأ به.

و بعبارة أخرى يقول الله تعالى لهم أن كنتم صادقين في إدعاءكم الإيمان
بالله و رسوله فكونوا كذلك لأنّ المؤمن العالم لا يتقاعد عن الجهاد فأن لم
تجاهدوا فلستم منهم.

وإعلم أنَّ الجهاد بمعناه العام واجب عقلاً و شرعاً على كلِّ مؤمنٍ و هذا لا يختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ أو مكانٍ دون مكانٍ و هكذا نعم هو بمعناه الخاص له شرائط مقررّة في كتاب الجهاد و أنما قلنا ذلك لأنَّ فلسفة الجهاد هي الإعلاء لكلمة التوحيد و نشر أحكام الدين و الدِّفاع عنه في مقابل المخالف و عليه فلا معنى لقول بعض المفسرين أنَّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** ^(١) و ذلك لأنَّ النَّفْرَ كَافَةً لا ربط له بوجود أصل الحكم و معنى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** أي أن كنتم تعلمون الخير في الجملة فأعلموا أنَّ هذا خير لكم في الدنيا و الآخرة لأنَّه يوجب العزّة في الدنيا و الثَّواب في الآخرة.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ

قيل نزلت الآية في قوم تخلّفوا عن النَّبي و لم يخرجوا معه الى غزوة تبوك و الله تعالى بيّن في هذه الآية سبب تقاعدهم و تخلّفهم فقال لو كان عرضاً قريباً أي لو كان ما دعوا اليه غنيماً قريباً سهل المنال و سفراً قاصداً أي وسطاً مقارباً لأتبعوك **وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ** أي المسافة الطويلة في غزو الروم و الشُّقَّة بالضمّ من الثَّياب و الشُّقَّة أيضاً السَّفر البعيد و ربما قالوه بالكسر قاله الجوهري.

و قيل الشُّقَّة الغاية التي تقصد و قال ابن عيسى الشُّقَّة القطعة من الأرض يشقُّ ركوبها و قال ابن فارس هي المسير الى أرض بعيدة **وَ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ** أي أنَّ المنافقين المتخلّفين عن الجهاد سيحلّفون بالله **لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** سدّ مسدّ جواب القسم والحاصل أنَّهم يعتذرون عن تقاعدهم و يقسمون بأنّهم لم نستطيع أي لم نقدر على الخروج.

في القرآن تفسير القرآن



الجهاد الثاني

يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

أي يهلكون أنفسهم بالحلف الكاذب و يوقعونها في الهلاك به و الظاهر أنه إستئناف و إخبار منه تعالى و يمكن أن يكون المراد يهلكون أنفسهم بسبب التّعاضد عن الجهاد الواجب و التّمرد من أمر الله و رسوله و الله يعلم أنهم لكاذبون في حلفهم و إعتذارهم بعدم الإستطاعة بل كانوا مستطيعين قادرين و في الآية إشارة بل دلالة على أنّ المنافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه و ذلك لأنهم تخلّفوا عن القتال و الجهاد لأنّ المدعو اليه لم يكن عرضاً قريباً من الغنيمة و ما يطمعون فيه من المال و سفراً سهلاً من غير طول في آخره و لأجل ذلك لم ينفروا فكيف يحلفون بالله أن لو أستطعنا لخرجنا معكم.

بلى أنهم كانوا مستطيعين قادرين على الخروج و لكن لم يخرجوا لما ذكرناه و فيه إيماء أيضاً الى عدم إيمانهم واقعاً فإنّ المؤمن لا يكون كذلك أي لا يترك الجهاد الذي أمره الله به لأجل الدنيا و مصالحها
قال بعض المفسرين في الآية دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل لأنهم لا يخلون من أحد أمرين:

إمّا أن يكونوا مستطيعين من الخروج و قادرين عليه و لم يكونوا قادرين عليه و أنّما حلفوا أنهم لو قدروا في المستقبل لخرجوا فإن كان الأوّل فقد ثبت أنّ القدرة قبل الفعل و أن كان المراد الثاني فقد أكذبهم الله في ذلك و بين أنّه لو فعل لهم الإستطاعة لما خرجوا و في ذلك أيضاً تقدّم القدرة على المقدور و ليس لهم أن يحملوا الإستطاعة على آلة السّفَر و عدّة الجهاد لأنّه ترك الظّاهر من غير ضرورة فإنّ حقيقة الإستطاعة القُدرة.

أقول ما ذكره موافق لما إستدلّ به أبو عليّ الجبائي فإنّه إستدلّ بها على أنّ الإستطاعة بها قبل الفعل و تبعه عليه الكعبي أيضاً بل عليه جميع المعزلة.
و أمّا الأشاعرة فأنهم حملوا الإستطاعة على الزّاد و الرّاحلة و هو بعيد و صرف اللفظ عن ظاهره.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ

هذا خطاب للرَّسُول ﷺ وفيه بعض العتاب له ﷺ في إذنه من
إستأذنه في التَّأخُّر فأذِنَ له فأخبر الله بأنَّه كان الأولى عدم الإذن حتَّى إذا لم
يخرجوا ظهر نفاقهم لأنَّه متى أذن لهم ثمَّ تأخَّروا لم يعلم أنَّ تأخَّره كان
بالنِّفاق أو بغيرهم وكان الذين إستأذَنوه منافقين و حقيقة العفو الصَّفح عن
الذَّنْب ومثله الغفران.

قال بعض المفسرين أُنِّمًا قال عفى الله عنك على غير لفظ المتكلِّم لأنَّه
أفخم من الكناية لأنَّ هذا الإسم من أسماء التَّعْظِيم كما أنَّ قولك أنَّ رأي الأمير
أفخم من قولك أنِّي رأيت انتهي.

إِعلم أنَّ ظاهر الآية مشعر بصدور الذَّنْب من النَّبي ﷺ اذ لو لم يصدر منه
ذنب فلامعني لقوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ فَإِنَّ العفو هو الصَّفح عن الذَّنْب.

قال أبو علي الجبائي في الآية دلالة على أنَّ النَّبي كان وقع منه ذنب في هذا
الإذن قال لأنَّه لا يجوز أن يقال لم فعلت ما جعلت لك فعله كما لا يجوز أن
يقول لم فعلت ما أمرتك بفعله ذكره في التَّبيان.

ثمَّ أجاب الشَّيْخ ﷺ عنه بأنَّ قوله عفى الله عنك أُنِّمًا هي كلمة عتاب
له ﷺ ومعناه لم فعل ما كان الأولى أن لا يفعله لأنَّه وأن كان له فعله من
حيث لم يكن محظوراً فَإِنَّ الأولى أن لا يفعله كما يقول القائل لغيره إذا رآه
يعاتب أخاه لم عاتبته وكلمته بما يشقُّ عليه وكيف يكون ذلك معصية وقد
قال الله في موضع آخر.

فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ^(١).

وَأُنِّمًا أراد الله أنَّه كان ينبغي أن ينتظر تأكيد الوحي فيه ومن قال هذا ناسخ
لذلك فعليه الدَّلالة انتهى كلامه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثاني

و قال بعض المحققين، ذهب ناس الى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك بل كان له أن يفعل وأن لا يفعل حتَّى ينزل عليه الوحي كما قال ﷺ لو إستبقت من أمري ما إستدبرت لجعلتها عمرة لأنه كان له أن يفعل وأن لا يفعل وقد قال الله: تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ^(١) لأنه كان له أن يفعل ما يشاء ممَّا لم ينزل عليه فيه وحي و إستأذنه المخلفون في التَّخلف و إستدروا، إختار أيسر الأمرين تَكْرَمًا و تَفَضُّلاً منه ﷺ فأبان الله تعالى أَنَّهُ لو لم يأذن لهم لأقاموا للفتاق الذي في قلوبهم و أَنَّهُم كاذبون في إظهار الطَّاعة و المشاورة فعفى الله عنك عنده إفتتاح كلام أعلمه الله به أَنَّ لا حرج عليه فيما فعله من الإذن و ليس هو عفواً عن ذنب أَنَّمَا هو أَنَّهُ تعالى أعلمه أَنَّهُ لا يلزمه ترك الإذن لهم كما قال ﷺ عفى الله لكم عن صدقة الخيل و الرِّقيق و ما وجبا قطَّ و معناه ترك أن يلزمكم ذلك انتهى كلامه.

و وافقه عليه قوم و قالوا أَنَّ العفو هنا لم يكن عن تقدِّم ذنبٍ و أَنَّمَا هو إستفتاح كلام جرت عادة العرب ان تخاطب مثله لمن تعظمه و ترفع قدره يقصدون بذلك الدَّعاء له فيقولون أصلح الله الأمير كان كذا و كذا فعلى هذا صيغته صيغة الخبر و معناه الدَّعاء انتهى.

أقول و ممَّن أنكر كون العفو مسبوقاً بالذَّنب الفخر الرَّاзи فَأَنَّهُ قال إحتج بعضهم بهذه الآية على صدور الذَّنب عن الرِّسول من وجهين:

الأول: أَنَّهُ تعالى قال: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ و العفو يستدعي سابقة الذَّنب.

الثاني: أَنَّهُ تعالى قال: لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ و هذا إستفهام بمعنى الإنكار فدلَّ هذا على أَنَّ ذلك الإذن كان معصيةً و ذنباً.

قال قتادة و عمرو بن ميمون أنثان فعلهما الرِّسول لم يؤمر بشيءٍ فيها إذنه للمنافقين و أخذه الفداء من الأسارى كما تسمعون.

والجواب عن الأول لا نسلم أن قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يوجب الذنب و لم لا يجوز أن يقال أن ذلك يدل على مبالغة الله في تعظيمه و توقيره كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظماً عنده عفى الله عنك ما صنعت في أمري و رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي و عافاك الله ما عرفت حقّي فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم.

قال علي بن الجهم فيما يخاطب به المتوكل و قد أمر بنفيه:

عفى الله عنك ألا حُرمة تعود بعفوك أن أبعدا

ألم ترا عبداً عدى طوره ومولى عفى ورشيد الهدى

أقلني أقالك من لم يَزَل يقيقك ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثاني أن نقول لا يجوز أن يقال المراد بقوله: لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ الإنكار لأننا نقول.

أما أن يكون صدر عن الرسول ذنب في هذه الواقعة أو لم يصدر عنه ذنب فإن قلنا أنه ما صدر عنه ذنب إمتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ إنكاراً عليه و أن قلنا أنه كان قد صدر عنه الذنب فقوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يدل على حصول العفو عنه و بعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال أن قوله لم أذنت لهم، يدل على كون الرسول مذنباً و هذا جواب شاف قاطع.

وعند هذا يحتمل قوله لم أذنت لهم، على ترك الأولى و الأكمل و لاسيما و هذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا انتهى كلام الرازي.

و قال القرطبي قيل هو إفتتاح كلام كما تقول أصلحك الله و أعزك و رحمك كان كذا و كذا و على هذا التأويل يحسن الوقف عَفَا اللَّهُ عَنْكَ و أخبره بالعفو ما قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقاً و ساق الكلام الى أن قال و قال بعض العلماء إنما بدر منه ترك الأولى فقدم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب إنتهى.

بَابُ الْقَوْلِ فِي تَقْدِيرِ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ



و العجب من الرّمخشري حيث قال في الكشّاف ما هذا لفظه.

عنى الله عنك، كناية عن الجناية لأنّ العفو رادف لها ومعناه خطأت و بشس ما فعلت، لمن أذنت لهم، بيان لما كنّى عنه بالعفو إنتهى كلامه خذله الله فى تفسير كلامه الله هكذا، و من الذى قال عفى الله عنك كناية عن الجناية من أهل اللغة و الأدب إلّا صاحب الكشّاف و على فرض كونه كذلك يمكن التعبير بوجه أحسن لا غفر الله له هذا ما قيل أو يقال حول الآية الشريفة و الذى يخطر بالبال هو أنّه لا شكّ في كون النّبي معصوماً و المعصوم لا يذنب و حيث أنّ ظاهر الآية يدلّ على صدور الذّنْب عنه ﷺ و لذلك قال الله تعالى: عَفَا **اللَّهُ عَنْكَ** و قال: لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ فلا بد لنا من التكلّم حولها ولو إجمالاً

فنقول قال الرّاغب في المفردات العفو هو التّجافي عن الذّنْب.

و قال في الذّنْب، الذّنْب في الأصل الأخذ بذنب الشّيّ يقال ذنبته أصبت ذنبه و يستعمل في كلّ فعلٍ يستوخم عقابه إعتباراً بذنب الشّيّ، إنتهى. و عليه فالعفو لا يكون إلّا بعد الذّنْب فإذا لم يكن ذنبٌ لم يكن عفو أصلاً إذا عرفت هذا فلا شكّ في وجود العفو في الآية و هو قوله: عَفَا **اللَّهُ عَنْكَ** و حيث ثبت أنّ العفو بعد الذّنْب و متفرّع عليه فنكشف من العفو أنّه كان هناك ذنب لا محالة ثمّ أنّ الذّنوب على قسمين: كبيرة و صغيرة.

فالأولى: مثل القتل و الزّنا، و شرب الخمر و أمثالهما و فى رأسها الشّرك بالله.

الثانية: ما دون ذلك و لا شكّ أنّ إطلاق الكبيرة و الصّغيرة على الذّنْب ليس على الحقيقة بل هو أمر نسبيّ فربّ ذنبٍ يقال له الكبيرة بإعتبارٍ و صغيرة بإعتبارٍ آخر فلمس بدن المرأة أو تقبيلها صغيرة بالنسبة الى الزّنا و كبيرة بالنسبة الى النّظر اليها و الزّنا صغيرة بالنسبة الى قتلها و كبيرة بالنسبة الى مادونه من النّظر و اللّمس مثلاً و هكذا و لهذا قال بعضهم أنّ الكبائر لا تنحصر بعددٍ خاصّ ثمّ أنّ الذّنوب مطلقاً يعنى الكبيرة منها و الصّغيرة تتنوع بأنواع مختلفة

لأنّها قد تكون مآليّة و قد تكون بدنيّة و البدنيّة الى قوليّة و فعليّة و الفعلية تختلف باختلاف الآلات التي تفعل بها.

منها - ما يغيّر النعم.

منها - ما ينزل النقم.

منها - ما يقطع الرجاء.

منها - ما يدلّ الأعداء.

منها - ما يردّ الدعاء.

منها - ما يستحقّ بها نزول البلاء.

منها - ما يحبس غيث السماء.

منها - ما يكشف الغطاء.

منها - ما يعجلّ الفناء.

منها - ما يظلم لاهواء.

منها - ما يورث النّدم.

منها - ما يهتك العصم.

منها - ما يدفع القسم الى غير ذلك من أنواع الذّنوب من حيث الآثار المترتبة عليها اذا عرفت معنى الذّنّب و أنواعها و أقسامها فلنرجع الى أصل البحث و نقول:

لا شك أنّ الأنبياء لعصمتهم لم يرتكبوا الكبيرة قطعاً بلا خلاف الصّغيرة فإن كانت من سنخ ترك الأولى فلا إشكال فيه و أن كانت من سنخ غيره فهو أيضاً ينافي العصمة.

و المراد بترك الأولى هو أنّ التّرك أولى من الفعل و أحسن و أن كان الفعل أيضاً حسن و هذا كما في قصّة أبينا آدم حيث أكل من الشّجرة المنهيّة مع أنّ تركه كان أولى و قد يعبر عن هذا القسم من التّواهي بالنّهي التّزهيي و قد أجاز القوم هذا القسم من الذّنّب في حقّ الأنبياء عليهم السّلام و ما نحن فيه من هذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القبيل فقله تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ إشارة إلى أن عدم الإذن كان أولى منه وهذا لا إشكال فيه ولا يضر بمقام العصمة وفي قوله: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا الخ إشارة إلى أن التأني في الأمور خير من العجلة فيها والله تعالى يؤدب رسوله ويرشده إلى ما هو بصلاحه أو لا مانع منه عقلاً وشرعاً ونظائره كثيرة في القرآن كما ستعرفها إن شاء الله تعالى.

وفي الآية لطيفة أخرى وهي أن الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون فينبغي للعاقل أن لا يغتر بظاهر الشخص وكلامه قال الله تعالى و قليل من عبادي الشكور وإلى هذه النكتة أشار الله تعالى بقوله.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأن المؤمن بالله وباليوم الآخر لا يستأذنك في التأخر والتقاعد عن الجهاد وذلك لأن إيمانه يمنعه منه لعلمه بأن الطاعة واجبة عليه فإذا قال الرسول يجب إطاعته لأنه لا يقول إلا من الله تعالى وإنما يستأذنك المنافق الذي لم يؤمن بقلبه وأمن بلسانه وفيه إيماء إلى أن الميزان في معرفة المنافق وتمييزه عن المؤمن هو هذا.

ثم قال: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ أي أن الله تعالى يعلم من يتقي معصيته و يخاف عقابه ومن لا يتقي، وأن الله عالم بالضامات كما هو عالم بالظواهر وإذا كان كذلك فلا يعرف المنافق إلا هو لأن التفاضل أمر قلبي لا يطلع عليه أحد إلا الله وإلى هذا المعيار والميزان الذي ذكرناه في معرفة المنافق أشار الله تعالى بقوله حيث قال:

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ

بكلمة، أنعماء التي تفيد الحصر للدلالة على أن الأمر لا يكون غيرها ما ذكرناه و هو أن المستأذنين في التأخر عن الجهاد هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و إرتابت قلوبهم يعني إضطربت و شكّت فأُن الإرتياب هو الإضطراب في الاعتقاد بالتقدم مرّة و التأخر أخرى و الرّيبة شكّ مع التّهمة والله تعالى أشار بذلك الى علة نفاقهم أي أن علة نفاقهم هي إرتياب قلوبهم و إضطراب عقيدتهم فهم في ريبهم و شكهم يتردّدون و يتحيّرون أي يذهبون و يرجعون.

و في هذا الكلام دلالة على أن المعارف ليست ضرورية بل هي كسيية اذ لو كانت ضرورية فلا معنى للتّحير و التّردّد فيها.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ

بيّن الله تعالى في هذه الآية أن المستأذنين في عدم الخروج لم يريدوا الخروج أصلاً فكذبوا في إستئذانهم عدم الخروج و ذلك لأنهم لو أرادوا الخروج معك لأعدّوا له عدة، أي لأعدّوا للخروج معك ما يتّهيأ لهم معها الخروج و لكن لم يكن لهم في ذلك نيّة بل كان قصدهم على أن النّبي لو لم يأذن لهم في الإقامة فخرجوا ثمّ أفسدوا عليه و ضربوا بين أصحابه و أفسدوا قلوبهم فكره الله خروجهم على هذا الوجه لأنّ ذلك كفر و معصية والله لا يكره الخروج الذي أمرهم به و هو أن يخرجوا لنصرة نبيّه و قتال عدوّه و الجهاد في سبيله كما خرج المؤمنون كذلك فثبّطهم الله أي حبسهم الله بالجبن.

يقال ثبطه عن الأمور اذا حبسه و أشغله عنها و المعنى فحبسهم الله بالجبن عن الخروج الذي عرفوا عليه للإفساد و لكن لم يحبسهم عن الخروج بالحقّ الذي أمرهم به كسائر المؤمنين لأنّ الأولى كفر والثاني طاعة.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَّا قَالَ ﷺ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ لَا عَلَى الْوَجْهِ الْإِذْنِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ بَعْضُ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ نَهَوْهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ النَّبِيِّ نَصْرَةً لَهُ وَ رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ.

وَإِحْتِمَالُ بَعْضِ الْمَفْسَّرِينَ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ اللَّهِ فِي سَابِقِ قَضَاءِهِ. عَنْ الزَّمْخَشَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ جَعَلَ إِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ كِرَاهَةً الْخُرُوجِ أَمْرًا بِالْقَعُودِ.

وَقِيلَ هُوَ مِنْ قَوْلِ الشَّيْطَانِ بِالْوَسْوَسةِ.

أَنْ قُلْتُ كَيْفَ جَازَ أَنْ يَوْقَعَ اللَّهُ فِي نَفُوسِهِمْ كِرَاهَةً الْخُرُوجِ إِلَى الْغَزَا وَ قَبِيحَةً وَ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْإِهَامِ الْقَبِيحِ.

قُلْتُ خُرُوجُهُمْ كَانَ مَفْسُدةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا فَكَانَ إِيقَاعُ كِرَاهَةِ ذَلِكَ الْخُرُوجِ فِي نَفُوسِهِمْ حَسَنًا وَ مَصْلَحَةً انْتَهَى مَا قَالَه الزَّمْخَشَرِيُّ.

أَقُولُ لَا نَحْتَاجُ إِلَى هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِذَا كَانَ فِيهِ مَفْسُدةٌ كَمَا هُوَ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَقَامِ فَعَدَمُ إِقَاءِ الْكِرَاهَةِ مِنَ اللَّهِ قَبِيحٌ لَا إِقَاءَهَا فَقَوْلُهُ كَيْفَ جَازَ لَا مَعْنَى لَهُ.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفِئَةً وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

لَمَّا بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَرِيدُوا الْخُرُوجَ مَعَكُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ وَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَيْضًا كَرِهَ إِنْجِعَانَهُمْ أَفَادَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ إِفْسَادًا أَوْ مَوْتًا فَأَنَّ الْخَبَالَ الْفُسَادَ وَ الْإِضْطِرَابَ فِي الرَّأْيِ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَوْتِ أَيْضًا وَ الْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا نَفْعَ فِي خُرُوجِهِمْ إِلَّا الضَّرْرَ.

وقوله: **وَلَاَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ اِيضَاعَ الْاِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ** بطرح العلق، قال الشاعر:

أرانا موضعين لأمر غيبٍ ونسحر بالطعام وبالشراب
و ربّما قالوا للركاب وضع بغير ألف و منه وضعت النّاقة تضع وضعا و
أوضعتها إيضاعاً قيل و معنى إيضاعهم هاهنا هو إسراعهم في الدّخول بينهم
للتضريب بنقل الكلام على وجه التّخويف.

و قال الحسن مشوا بينكم بالنّميّة لإفساد ذات بينكم و ملخص الكلام
أنّهم لنفاقهم يفسدون عليكم و يقلّبون الأمور فعدمهم خير من وجودهم كيف
و فيكم أيّها المؤمنون سمّاعون لهم أي فيكم القابلون منهم عند سماع قولهم:
وَ اَللّٰهُ عَلِيْمٌ بِالظّٰلِمِيْنَ عالم بمن يستأذن النّبي في التّأخر شكّا في الإسلام و
نفاقاً.

قال بعض المفسّرين لما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع و
ضرب عبد الله بن أبي عسكره أسفل منها و لم يكن بأقلّ العسكرين فلما سار
تخلّف عنه عبد الله فيمن تخلّف فنزلت بعريّ الله و رسوله الى قوله: **وَ هُمْ
كَارِهُونَ**.

و اختلفوا في الإستثناء في قوله: **إِلَّا خَبَالًا** قليل هو متّصل و هو مفرّع اذ
المفعول الثاني، لزاد لم يذكر و قال قوم هو منقطع و تقديره ما زادوكم قوّة
طلبوا لكم الخبال و يتحمل أن يكون المعنى أنّهم على خبال في الرّأي فيعقده
حتّى يصير خبالاً فعلى هذا يكون متّصلاً والمعنى واضح ثم أشار الله تعالى
الى أن المنافق يطلب الفتنة دائماً فقال:

**لَقَدْ اَبْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ
اَللّٰهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ**

اللَّامُ لِلْقِسْمِ وَ قِيلَ لِلتَّأْكِيدِ فَعَلَى الْأَوَّلِ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَبْتَغُوا الْفِتْنَةَ أَيَّ طَلَبُوا إِفْسَادَ ذَاتِ بَعْضِكُمْ وَ إِفْتِرَاقَ كَلِمَتِكُمْ مِنْ جَعَلَ وَ هُوَ يَوْمَ أَحَدٍ حَتَّى إِنَصْرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَأَصْحَابِهِ وَ تَرَكَ النَّبِيَّ وَ كَانَ هُوَ وَ جَمَاعَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَبْتَغُونَ لِلْإِسْلَامِ الْغَوَائِلَ قَبْلَ هَذَا فَسَلَّمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فَتْنَتِهِمْ وَ صَرَفَهَا عَنْهُمْ وَ قَلَّبُوا لِكَ الْأُمُورِ.

قال ابن عباس بغوا لك الغوائل و قال بن جريح وقف اثني عشر من المنافقين على الثنية ليلة العقبة كي يفتكوا به.

و قال أبو سليمان الدمشقي إحتالوا في تشتيت أمرك و إبطال دينك و تقليب الأمور هو تدبيرها ظهر البطن و النظر في نواحيها و أقسامها و السعي بكل حيلة و قيل طلب المكيدة من قولهم هو حول قلب و قوله: حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ.

أشار بذلك أنهم بعد ظهور الحق و هو الإسلام و إعلاء كلمة التوحيد خافوا على أنفسهم فسكتوا ظاهراً و هم في قلوبهم كارهون ظهور الحق بحيث لو قدروا على إطفاء نوره لأطفأوه و لكن الله يتم نوره ولو كره الكافروه و فيه تنبيه على أنه لا تأثير لمكرهم و كيدهم و مبالغتهم في إثارة الشر فأنهم مذ راموا ذلك رده الله في نحرهم و قلب مرادهم و أتى بضد مقصودهم فكما كان ذلك في الماضي كذا يكون في المستقبل.

إعلم أن بعض المفسرين أورد في المقام سؤالاً وجواباً لا بأس بالإشارة اليهما.

أما السؤال فحاصله أن خروج هؤلاء المنافقين مع الرسول ما كان فيه مصلحة بدليل أنه تعالى قد صرح بكونه خيلاً و فساداً و زاد في هذه الآية أنهم لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلبوا لك الامور و من كان كذلك فالمصلحة في عدم خروجه قطعاً و اذا كان كذلك أي كان الأصوب الأصلح عدم الخروج فلم

عاتب رسوله في الإذن و قال له عفى الله عنك، لم أذنت لهم، على ما مرّ الكلام فيه.

وأجاب عنه بأنه لا دليل لنا على أن العتاب كان في إذنه ﷺ للقعود و عدم الخروج كما عليه القوم بل يحتمل أن يكون العتاب على إذنه لهم في الخروج و بعبارة أخرى لعله ﷺ أذن لهم في الخروج فعاتبه الله عليه بدليل هذه الآيات و عليه فالمعنى لم أذنت لهم بالخروج معك و قد ثبت كونهم منافقين و المنافق مفسد و الله أعلم بحقيقة كلامه فأنا الأقوال في تفسير الآيات كثيرة في التفاسير.



وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَقْتِئِي أَلَا فِي
 الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ
 (٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
 مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا
 وَهُمْ فَارْحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى
 الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ
 بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيُدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ
 مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ
 يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا
 مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا
 بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
 كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارَهُونَ (٥٤) فَلَا
 تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
 لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ
 وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ
 وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦)

◀ اللغة

وَلَا تَقْتِئِي أَي لَا تَوَقَعِي فِي الْفِتْنَةِ.
 تَرَبَّصُونَ مُضَارِعَ مَاضِيهِ تَرَبَّصَ وَ التَّرَبُّصُ الْإِنْتِظَارُ.

تَرْهَقَ، الزُّهوقُ الخروجُ بسهولة.

◀ الإعراب

هَلْ تَرْبُصُونَ وَالْأَصْلُ تَتَرَبَّصُونَ فَسَكَنَ التَّاءُ الْأَوَّلَى وَأَدْغَمَهَا وَوَصَلَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَكَسَرَتْ اللَّامَ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنِينَ أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مَفْعُولٌ فَتَرْبِصَ أَنْ تُقْبَلَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بَدَلًا مِنَ الْمَفْعُولِ فِي مَنْعِهِمْ أَنْهُمْ كَفَرُوا فِي مَوْضِعِ الْفَاعِلِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ فَسَحَ اللَّهُ، وَأَنْهُمْ كَفَرُوا، مَفْعُولُهُ أَيَّ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا.

◀ التفسير

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَأُذْنُ لِي وَلَا تَفْتَنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ

قِيلَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا أَمْرٌ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ قَالَ لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ هَلْ لَكَ الْعَامُ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ وَقَالَ لَهُ وَ لِلنَّاسِ أَغْرَوْا تَغْنَمُوا بَنَاتِ الْأَصْفَرِ فَقَالَ الْجَدُّ أَأُذْنُ لِي فِي التَّخْلُفِ وَلَا تَفْتَنِّي بِذِكْرِ بَنَاتِ الْأَصْفَرِ فَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنِّي لَا أَتِمَّاكَ عَنِ النِّسَاءِ إِذَا رَأَيْتَهُنَّ وَ تَفْتَنِّي وَلَا تَفْتَنِّي هُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٍ وَقِيلَ وَلَا تَفْتَنِّي أَيَّ وَلَا تَصْعَبْ عَلَيَّ حَتَّى أُحْتَاجَ إِلَى مَوَاقِعَةٍ مَعْصِيَتِكَ فَسَهَّلَ أَنْتَ عَلَيَّ وَ دَعْنِي غَيْرَ مُخْتَلَجٍ وَ هُوَ قَوْلُهُ قِتَادَةُ وَ الْحَسَنُ قَالُوا أَلَا تَكْسِبُنِي الْأَثَمَ بِأَمْرِكَ أَيَّايَ بِالْخُرُوجِ وَ هُوَ غَيْرُ مَتَيْسِرٍ لِي فَأَثَمَ بِمُخَالَفَتِكَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ لَا تَكْفُرْنِي بِالْإِثْمِ الْخُرُوجِ مَعَكَ.

وَقِيلَ لَا تَفْتَنِّي فِي الْهَلَكَةِ فَأَنِّي إِذَا خَرَجْتَ مَعَكَ هَلَكَ مَالِي وَ عِيَالِي وَ الْأَقْوَالُ كَثِيرَةٌ وَ الْجَامِعُ بَيْنَهَا أَنَّهُ أَيُّ الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَوْ غَيْرِهِ خَاطَبَ الرَّسُولَ بِقَوْلِهِ وَ لَا تَفْتَنِّي أَيَّ لَا تَوَقَّعْنِي فِي الْفِتْنَةِ وَ لَا تَوَثِّمْنِي بِأَنْ تَكْلَفْنِي الْمَشَقَّةَ فِي ذَلِكَ فَأَنِّي لَا أُرِيدُ الْخُرُوجَ وَ لَكِنْ إِذَا أَمَرْتَنِي بِهِ وَ لَا أَخْرَجَ كُنْتُ عَاصِيًا وَ يَعْلَمُ مَنْ

بَابُ الْقِيَامَةِ فِي الْفِتْنَةِ



ذلك نفاق القائل لأنَّ المؤمن لا يقول أئذن لي في القعود عن الجهاد و أيضاً لا يعبر عن الجهاد في سبيل الله بالفتنة ثم ردَّ الله تعالى عليه وقال: **أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**.

و المقصود من هذا الكلام هو أنَّ القائل و أمثاله يضرّون من الفتنة بزعمهم و لم يعلموا أنَّهم سقطوا فيها و أيّ فتنة أعظم و أشدَّ من فتنة النفاق و عدم قبول الحقِّ واقعاً و يظهر من هذا الكلام بقرينة السياق أنَّ المراد بالفتنة هو الهلكة و ذلك لأنَّ الجهاد قد يكون فيه الموت و القتل و الأسر و هذه الأمور أن لم تكن في الواقع من الهلكة بل هي من مصاديق الحياة الأبدية إلا أنَّها بزعم المنافق الذي لا يعتقد بالأخرة و ما فيها تُعدّ من الهلكة و قوله: **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** يدلّ على أن المنافق في حكم الكافر من حيث العذاب بل هو أشدَّ منه بحسب الآيات و الأخبار و في قوله: **لَمُحِيطَةٌ** إشارة الى نكتة خفية و هي أنَّ الكافر و المنافق لا يمكن له الفرار من العذاب فيها لأنَّ معنى الإحاطة هو الإستيلاء على المُحاط من جميع الجوانب و الجهات.

قال الله تعالى: **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا**^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**^(٢).

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**^(٣).

قال الله تعالى: **أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**^(٤).

قال الله تعالى: **يَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**^(٥).

و المعنى أنَّ الله تعالى غالبٌ عليهم و اليّ هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال و لا يمكن الفرار من حكومتك لأنَّ فرار المحاط عن

المحيط غير معقولٍ اللهم إلا أن يكون المحيط ناقصاً في إحاطته و حيث أن جهنم كامل فيها فالكافر يبقى فيها أبداً.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ

هذا خطاب من الله تعالى لنييهم بأن هؤلاء المنافقين ان تصيبك حسنة تسؤهم، أي تصيبك نعمة من الله أو ظفر بالأعداء أو غنيمة في الحرب ساءهم ذلك و أحزنهم لبخلهم و حسدهم عليك و إن تصيبك مصيبة أي مصيبة كانت يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل و معناه قد حذرنا و أحترزنا و قيل معناه أخذنا أمرنا من مواضع الهلكة فسلمنا ممّا و قعوا فيه.

و قال ابن عباس الحسنة في يوم بدر و المصيبة يوم أحد و الحق أن اللفظ عام في كل مكروه و محبوب.

نعم سياق الحمل يقتضي أن يكون ذلك في الغزو و لذلك قالوا الحسنة الظفر و الغنيمة و المصيبة الخيبة و الهزيمة مثل ما جرى في أول غزوة أحد و يحتمل أن يكون المراد، بأمرنا، الذي نحن متسمون به من الحذر و التيقظ و العمل بالجزم في التّخلف عن الغزو من قبل ما وقع من المصيبة و قوله: يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ يحتمل أن يكون التّولي حقيقة أي و يتولّوا عن مقام التّحديث بذلك و الاجتماع له الى أهليهم و هم مسرورون، و قيل معناه أعرّضوا عن الإيمان.

و قيل عن الرسول فيكون التّولي مجازاً.

أقول و لعلّه من دأب كل إنسان بالنسبة الى عدوه و لا يعلم أن ما يصيب الإنسان من قبل الله فهو متعلّق بالقضاء و القدر و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ

أي قل لهؤلاء المنافقين الشّامتين الذين يفرحون بمصائب المؤمنين، لن يصيبنا من قبل الله تعالى إلا ما كتب الله لنا، خيراً كان أو شراً فهو ممّا كتبه الله في اللّوح المحفوظ وليس على ما تظنون و تتوهمون من إهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا الى تدبير ربّنا هذا قول الحسن.

و قال الجبائي و الرّجاج يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في غاية أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النّصر الّذي وعدنا.

و قيل يجوز أن يكون، كتب، بمعنى، علم أو حكم، و قوله: هُوَ مَوْلَانَا أي هو ناصرنا و حافظنا، أو مالكنّا و سيّدنا فيتّصرف كيف شاء فيجب الرّضا بما يصدر من جهته.

قال الله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(٢).

و التّوكل تفويض الأمر اليه و الرّضا بتدبيره و الثّقة بحسن إختياره.

قال الرّازي في قوله: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا أقوال

أحدها: أن المعنى أنّه لا يصيبنا خيرٌ و لا شرٌ و لا خوف و لا رجاء و لا شدّة و لا رخاء إلاّ و هو مقدّر علينا مكتوب عند الله و كونه مكتوباً عند الله يدلّ على كونه معلوماً عند الله مقضياً به عنده فأَنْ ما سواه ممكن و الممكن لا يترجّح إلاّ بترجيح الواجب و الممكنات بأسرها منتهية الى قضاءه و قدره.

و أعلم أنّ أصحابنا يتّمسكون بهذه الآية في أنّ قضاء الله شامل لكلّ المحدثات و أنّ تغيير الشّيء عمّا قضى الله عليه محال و تقرير هذا الكلام من وجوه.

أحدها: أَنَّ الموجودات أَمَّا واجبٌ و أَمَّا ممكنٌ و الممكن يمنع أن يترجح أحد طرفيه على الآخر لنفسه فوجب انتهاءه الى ترجيح الواجب لذاته سواء فواجبٌ بإيجاده و تدبيره و تأثيره و تكوينه و لهذا المعنى قال النبي ﷺ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثانيها: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَتَبَ جميع الأحوال في اللّوح المحفوظ فقد علمها و حكم بها فلو وقع الأمر بخلافها لزم إنقلاب العلم جهلاً و الحكم الصدق كذباً و كل ذلك محال انتهى كلامه.

أقول ما ذكره من أَنَّ ما سواه ممكنٌ و الممكن لا يترجح إلا بترجح الواجب الى آخر ما قال لا كلام لنا فيه إلا أَنَّ قوله و أَنَّ تغيير الشئ عمّا قضى الله عليه فمحال.

فأن أراد به تغيير الشئ عمّا قضى الله عليه بيد غيره من المخلوقات مثلاً فهو محال قطعاً و أن أراد به عدم إمكان تغييره ذاتاً حتّى أَنَّ الله أيضاً لا يقدر على تغيير ما قضى عليه سابقاً فهو يحتاج الى الإثبات و ذلك لأنَّ الله تعالى إذا قضى بشئ لا مانع له من تغييره إذا شاء و الدليل عليه من العقل أَنَّهُ تعالى فاعلٌ بالإختيار لا فاعلٌ موجب يعني بالإيجاب والقادر المختار يتعرف في قضاءه بما شاء، و من النّقل قوله تعالى: **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُ الْكِتَابِ** ^(١) و أن شئت زيادة توضيح في ذلك فأعلم أَنَّ لله كتابين أو لوحين، كتاب القضاء و القدر الذي يعبر عنه باللّوح المحفوظ، و كتاب المحو و الإثبات المعبر عنه باللّوح المحو و الإثبات، فيثبت في الأوّل و يمحوا في الثاني نعم تغيير اللّوح المحفوظ مختصّ به تعالى و هذا ممّا لا شك فيه.

و أَمَّا قوله: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَتَبَ جميع الأحوال في اللّوح المحفوظ فقد علمها و حكم بها فهو صحيحٌ.

نبينا القرآن
في تفسير القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

و أما قوله: فلو وقع الأمر بخلافها لزم الانقلاب يعني إنقلاب العلم جهلاً و الحكم الصّدق كذباً وكلّ ذلك محال.

فنقول في جوابه أنّه تعالى كما علم ما في اللّوح المحفوظ و حكم به علم يتغيره و أنّ الأمر سيقع بخلافه و اذا كان كذلك فلا يلزم إنقلاب العلم جهلاً حكم الصّدق كذباً نعم لو كان عالماً بما في اللّوح المحفوظ و جاهلاً بتغيره لزم منه ما ذكره من المحاذير و لا نقول به.

و أما الحديث الذي رواه عن النّبي على فرض صحته و صدوره عنه فهو لا يدلّ على ما ذكره في البا و رضي به لأنّ معناه أنّ ما هو كائن و ثابت في علمه الأزلي لا يتّغير و لا يتبدّل و هذا ممّا لا كلام لأحد فيه و أين هذا ممّا إدّعاه المستدلّ فإنّ الحديث لا يدلّ على أنّ ما علمه و كتبه في اللّوح المحفوظ كائن الى يوم القيامة كما هو المدّعى بل يدلّ على أنّ علمه الأزلي بشي لا يتّغير و المفروض أنّه تعالى عالم بعلمه الأزلي بأنّ ما كتبه في اللّوح المحفوظ لا يبقى بل يمحو و يثبت شيء آخر و لكنّ المستدلّ حيث أنّه من الأشاعرة القائلين بالجبر غير كلام الله وكلام رسوله على طبق مسلكه.

و ليت شعري لو كان الأمر كما ذكره فما معنى قوله تعالى: **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** من أيّ شيء يمحو و في أيّ شيء يثبت هذا ورد في كثير من الأخبار أنّ الإحسان بالوالدين مثلاً يزيد في العمر و قتلها ينقص فيه.

أن قلت فما معنى قوله: **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**.

قلت معناه لن يصيبنا إلّا ما كتبه الله بعلمه الأزلي و بعبارة أخرى لن يصيبنا إلّا ما علم الله لنا سواء كان في اللّوح المحفوظ أم كان في المحو و الإثبات و ذلك لأنّ الله تعالى هو مولانا أي هو أولى بالتّصرف فينا كيف يشاء بالفقر و الغنى و الموت و الحياة و الشدّة و الرخاء و غير ذلك فإنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فهو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و اذا كان كذلك فلا جرم عليه

يتوكل المؤمنون أي يفوضون أمورهم اليه في جميع الشئون كما هو وظيفة العبد الحقيقي بالنسبة الى مولاه و السرفيه هو أن الله عالم بكل الأشياء و قادر على كل شيء و اذا عرف المؤمن ذلك المعنى فالعقل يحكم بتفويض الأمر اليه فإنه أعرف بمصالح العباد منهم و لا يحكم في حقهم إلا بما هو خير لهم في الدنيا و الآخرة.

قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ التَّرَبُّصُ، الإنتظار و قيل التَّرَبُّص التَّمَسُّكُ بما ينتظر به مجي حينه و لذلك قيل تَرَبَّص بالطعام، وقرأ بعضهم تَرَبَّصُونَ بتشديد التاء و أن الأصل فيه، تَرَبَّصُونَ، فأدغم أحد التائين في الأخرى، أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء المنافقين هل تَرَبَّصون بنا أي ما ينتظرون بنا إلا إحدى الحسينين أي إحدى العاقبتين كل واحدةٍ منهما هي الحسنی من العواقب إما النُّصرة و أما الشَّهادة فالنُّصرة مألها الى الغلبة و الإستيلاء، و الشَّهادة مألها الى الجنة.

و قال ابن عباس إنَّ المراد بالحسينين الغنيمة و الشَّهادة، و قيل الأجر و الغنيمة و قيل الشَّهادة و المغفرة و نحن نترَبَّص أي ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده.

و اختلفوا في المراد به ف قيل هو هنا الصَّواعق قاله ابن عباس، و قيل الموت و قيل قارعة من السماء تهلكهم كما نزلت على عاد و ثمود و قيل المراد به عذاب الآخرة.

و قوله: أَوْ يَأْخُذُنَا أي بالقتل على الكفر، فَتَرَبَّصُوا صورته صورة الأمر و المراد به التهديد:

قال الله تعالى: **أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** ^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **وَاسْتَغْفِرْ مَنْ أَسْطَغَفْتَ** ^(١).

إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أي منتظرون وحاصل المعنى هو إن الله تعالى أمر رسوله بأن يقول بهم ما تنتظرون بنا فهو خير لنا لأنه إحدى الحسينين وأما ما ننتظر بكم فهو العذاب من الله وبأيدينا فترَبَّصُوا أَنَا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ، أي فأنظروا أَنَا مَعَكُمْ من المنتظرين ففي الآية دلالة على أَنَّ المؤمن المجاهد في سبيل الله لا يخلو حاله إمَّا أن يقتل في سبيل الله أو يغلب على العدو وكلاهما خيرٌ.

وَأَمَّا الكافر والمنافق فليس كذلك سواء قتل في المعركة أم لا فعلى التقديرين هو مخدولٌ مطرودٌ أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء المنافقين أنفقوا صورته صورة الأمر وفيه ضربٌ من التهديد والتوبيخ.

وقال صاحب الكشف هو أمرٌ في معنى الخبر كقوله تعالى قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً، ومعناه لن يتقبل الله منكم الإنفاق أنفقتم طوعاً أو كرهاً ونحوه قوله تعالى: **إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** وعن بعضهم غير هذا بأنَّ معناه الجزاء والشرط أي أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً لن نتقبل منكم وقيل أنفقوا أمرٌ في ضمنه جزاء، وكلمة لَنْ لنفر الأبد وقوله: **إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسْقِطْ** بمنزلة التعليل لعدم القبول وفيه إيماء إلى أَنَّ الله يتقبل من المتقين.

وَأَمَّا الفاسقون فلا لأنَّ شرط القبول الإيمان والفاسق لكونه متبرداً عن طاعة الله لا يقبل منه ولعل الوجه فيه هو أَنَّ الفاسق والكافر أنما ينفق ماله للرياء ودفعاً عن نفسه ولا يطلب به رضى الله ثم أوضح الله تعالى كلامه بقوله:

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

ذكر الله تعالى في هذه الآية السَّبَبَ الَّذِي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر وأتبعه بما هو ناشٍ عن الكفر ومستلزم له وهو دليل عليه وذلك هو إتيان الصَّلَاة وهم كسالى وإيتاء النَّفَقَة وهم كارهون فقال.

وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ وكلمة ما، في قوله: وَمَا مَنَعَهُمْ نافية أي ليس عدم قبول نفقاتهم إلا ما ذكرناه والمنع أمرٌ يَضَادُ الفعل وينافيه.

وقال بعضهم معناه أَنَّ هؤلاء المنافقين منعوا أنفسهم أن يفعل بهم قبول نفقاتهم كما يقول القائل منعه برِّي وعطاني انتهى.

أقول يستفاد من الآية أَنَّ المانع من قبول نفقاتهم من قبل أنفسهم وبعبارة أَنَّهُم بإختيارهم أوجدوا المانع وهو الكفر بالله وبرسوله الخ.

وقيل تقدير الكلام وما منعهم الله أن تقبل منهم نفقاتهم إلا الكفر بالله وبرسوله الخ أي أن لم يكونوا كذلك فَأَنَّ الله تعالى يَتَقَبَّلُ منهم كما يَتَقَبَّلُ من غيرهم من المؤمنين، وهذا الوجه ضعيف إذ لا نحتاج إلى التقدير مع أَنَّهُ خلاف الأصل والمانع أَنَّمَا هو كفرهم وَأَمَّا أَنَّ الله منعهم فلا دليل عليه ومحصل الكلام في المقام هو أَنَّ الله تعالى أخبر بها عن حقيقة هي الأصل في قبول الأعمال والطاعات والنَّفَقَاتِ وهي أن لا يكون فاعلها مَتَّصِفًا بالفسق والكفر وأمثال ذلك ومجرّد الإتيان بالصَّلَاة وإعطاء الأموال لا يكفي في القبول إذا لم تكن الصَّلَاة عن نشاطٍ ورغبة والإنفاق بغير كراهية فَأَنَّ العمل إذا صدر عن فاعله عن كسالةٍ وكراهية فهو كالعدم.

وإِعلم أَن هاهنا كلام لا بد لنا من الإشارة إليه والجواب عنه وهو أَنَّ الجبائي قال، دَلَّت الآية على أَنَّ الفسق يحيط بالطاعات لِأَنَّهُ تعالى بيَّن فيها أَنَّ نفقتهم لا تقبل البتّة وعُلِّلَ ذلك بكونهم فاسقين ومعنى التَّقَبُّل هو الثَّوَاب والمدح وإذا لم يَتَقَبَّل ذلك كان معناه أَنَّهُ لا ثواب ولا مدح فَلَمَّا عُلِّلَ ذلك بالفسق دَلَّ على

أَنَّ الْفَسْقَ يُؤَثِّرُ فِي إِزَالَةِ هَذَا الْمَعْنَى وَحَيْثُ أَنَّ الْفَسْقَ يُوجِبُ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ
الدَّائِمِينَ وَالطَّاعَةَ تَوْجِبُ الْمَدْحَ وَالْثَّوَابَ كَذَلِكَ وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ فَكَأَنَّ
الْجَمْعَ بَيْنَ الْإِسْتِحْقَاقَيْنِ مُحَالًا.

وَقَالَ الرَّازِي بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ مَا هَذَا لَفْظُهُ:

وَعِلْمُهُ أَنَّهُ كَانَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَذْكَرَ هَذَا الْإِسْتِدْلَالَ بَعْدَ مَا أزالَ اللَّهُ هَذِهِ
الشَّبْهَةَ عَلَى أَبْلَغِ الْوُجُوهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: **وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ** فَبَيَّنَ تَعَالَى بِصَرِيحِ هَذَا اللَّفْظِ أَنَّهُ لَا مُؤَثِّرَ فِي مَنَعَ
قَبُولِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ إِلَّا الْكُفْرَ وَعِنْدَ هَذَا يَصِيرُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَوْضَحِ الدَّلَائِلِ
عَلَى أَنَّ الْفَسْقَ لَا يَحْبِطُ الطَّاعَاتِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**
فَكَأَنَّهُ سَأَلَ سَائِلًا وَقَالَ هَذَا الْحُكْمُ مُعَلَّلٌ بِعُمُومِ كَوْنِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ فَسِقًا أَوْ
بِخُصُوصِ كَوْنِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ مَوْصُوفَةً بِذَلِكَ الْفَسْقِ فَبَيَّنَ تَعَالَى مَا أزالَ هَذِهِ
الشَّبْهَةَ وَهُوَ أَنَّ عَدَمَ الْقَبُولِ غَيْرُ مُعَلَّلٍ بِعُمُومِ كَوْنِهِ فَسِقًا بَلْ بِخُصُوصِ وَصْفِهِ وَ
هُوَ كَوْنُ ذَلِكَ الْفَسْقِ كُفْرًا فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْإِسْتِدْلَالَ بَاطِلٌ انْتَهَى.

أَقُولُ أَنَّ هَذَا النِّزَاعَ بَيْنَ الْجَبَائِنِ وَالرَّازِي لَا يَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلٍّ وَذَلِكَ لِأَنَّ
الْفَسْقَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ: **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** لَيْسَ مُقَابِلًا لِلْكَفْرِ
فِي قَوْلِهِ: **إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ** وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَسْقِ الَّذِي عُلِّقَ عَلَيْهِ عَدَمُ
قَبُولِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُمْ هُوَ الْفَسْقُ الْحَاصِلُ لَا مُطْلَقَ الْفَسْقِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْفَسْقَ بِهَذَا الْمَعْنَى مَانِعٌ مِنْ قَبُولِ الطَّاعَاتِ وَيَعْضِدُهُ قَوْلُهُ
تَعَالَى وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَأَنَّ
شَتَّى قِلْتُ الْفَسْقَ عَلَى ضَرَبَيْنِ:

قِسْمٌ مِنْهُ يُقَابِلُ الْكُفْرَ بِمَعْنَى أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ وَذَلِكَ كَفَسَاقِ
الْمُؤْمِنِينَ وَقِسْمٌ يَجَامِعُ الْكُفْرَ كَفَسَاقِ الْكُفَّارِ وَالَّذِي أَشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْمَقَامِ هُوَ
الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا نِزَاعَ فِي الْبَيِّنِ هَذَا مَا أَفَادَهُ بَعْضُ
الْمُحَقِّقِينَ.

و لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ إِذَا كَانَ الْفَسَقُ بِمَعْنَى الْفَسَقِ بِالْكَفْرِ فَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى أَلَيْسَ مَفْهُومُ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُمْ يَصَلُّونَ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَصَلِّي أَصْلًا كَسَالَى وَ غَيْرَ كَسَالَى،

و يمكن الجواب عنه بأنَّ المراد بالكفر ليس كفر المصطلح أعني به إنكار التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ الْآخِرَةِ بَلِ الْمُرَادُ هُوَ كُفْرُ النِّعْمَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْفَسَقَ يَجْمَعُ مَعَهُ وَ أَمَّا الْكُفْرُ بِمَعْنَى الْإِرْتِدَادِ أَوْ الْإِنْكَارِ فَهُوَ فَوْقَ الْفَسَقِ وَ الْكَافِرُ بِهَذَا الْمَعْنَى يَصَلِّي وَ يَصُومُ وَ يَحُجُّ وَ هَكَذَا وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ الْمُرَادُ بِالْفَسَقِ هُوَ الْفَسَقُ بِالْكَفْرِ يَحْمِلُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ.

و أَمَّا الْكَافِرُ بِالْكَفْرِ الْأَصْلِيِّ فَلَا يَصَلِّي هَذَا مَا فَهَمْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

و أَمَّا قَوْلُ الْجَبَائِثِ بِالْإِحْبَاطِ فَهُوَ مُرَدُّودٌ وَ الْإِحْبَاطُ بَاطِلٌ وَ لَتَفْصِيلِ الْكَلَامِ فِيهِ مَحَلٌّ آخَرُ سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ

لَمَّا قَطَعَ اللَّهُ رَجَاءَ الْمُنَافِقِينَ عَنْ جَمِيعِ مَنَافِعِ الْآخِرَةِ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَطْنُونَهَا مِنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا لَهُمْ كَالْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ الْمَقَامِ وَ أَمْثَالِ ذَلِكَ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَسْبَابًا لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا فَالْمَعْنَى لَا يَعْجِبُكَ أَيُّهَا السَّامِعُ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ أَيُّ تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ عَنْ أَجْسَادِهِمْ حِينَ الْمَوْتِ وَ هُمْ كَافِرُونَ، الْوَإِ لِحَالِ أَيُّ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ وَ الزَّهَقُ الْخُرُوجُ بِصُعُوبَةٍ وَ شِدَّةٍ وَ هَذَا عَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ أَمَّا الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ عَلَى حَالِهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ قَبَائِحَ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ فَضَائِحَ أَعْمَالِهِمْ أَوَّلًا. وَ ذَكَرَ مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَ فِي الدُّنْيَا وَجْهَ الْمُحَنَةِ وَ الْبَلِيَّةِ ثَانِيًا.

بَيِّنَاتُ التَّوْحِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



المجلد العاشر

و ذكر بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر من الإنفاق وغيره لا ينتفعون به يوم القيامة ثالثاً.

ثم ذكر في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا كالأموال والأولاد فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلاءهم في الدنيا والآخرة وعند هذا يظهر أن التفاق أم الأفات في الدنيا والآخرة و مبطل لجميع الخيرات فيهما اذا عرفت هذا فلا بد لنا من بيان كون الأموال والأولاد سبباً للعذاب فنقول:

الاعجاب السُّرور بالشئ مع نوع من الافتخار به وإعتقاد أنه ليس لغيره ما هو له وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال ثلاث مهلكات شح مطاعٌ وهوى متبعٌ وإعجاب المرء بنفسه.

نقل عن بعض المحققين أنه قال الموجودات بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام:

الأول: أن يكون الموجود أزلياً وأبدياً أي لا أول ولا آخر له وهو الله جل جلاله.

الثاني: الموجود الذي لا يكون أزلياً ولا أبدياً عكس الأول وهو الدنيا فيها **الثالث:** الموجود الذي يكون أزلياً ولا يكون أبدياً وهذا محال لأنه ثبت بالدليل أن ما ثبت قدمه إمتنع عدمه.

الرابع: ما يكون أبدياً ولا يكون أزلياً وهو الآخرة فإن الآخرة لها أول لكن لا آخر لها وكذا المكلف مطيعاً كان أو عاصياً فله أول ولا آخر له وبذلك تثبت المناسبة بين المكلف وبين الآخرة أشد من المناسبة بينه وبين الدنيا ويظهر منه أن الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا ويؤيده قوله ﷺ خلقتم للبقاء لا للفناء فينبغي أن لا يميل قلبه الى الدنيا لعدم المناسبة فإن المسكن الأصلي هو الآخرة.

ثم أن الأموال والأولاد لا شك أنها من نعم الدنيا وزيتها قال الله تعالى: **الْأَمْوَالُ وَالْأَنْفُسُ زِينَةُ الدُّنْيَا** وإذا كان كذلك فكيف تكون الأموال والأولاد سبباً للعذاب في الدنيا والآخرة.

قال بعضهم أما كونها سبباً للعذاب في الدنيا فلائن الإنسان يحب أولاده و أمواله حباً شديداً و قد ثبت أن كل من كان حبه للشئ أشد و أقوى كان حزنه و تألم قلبه على فواته أعظم و أصعب و هذا أي الخوف على فواتها عذاب لصاحب المال و الأولاد في الدنيا فكلما كانت التعلقات أكثر كان العذاب الناشئ عن الفوات أشد هذا أولاً.

ثانياً: أن الإنسان يحتاج في تحصيل المال و الأولاد الى تعب شديد و مشقة عظيمة ثم بعد حصولها يحتاج في حفظها الى متاعب أشد و أصعب لأن حفظ النعمة أصعب من إكتسابه فالمشغوف بها يكون في تعب الحفظ أبداً و مع ذلك لا ينتفع إلا بالقليل منها فالتعجب كثير و النفع قليل و أي عذاب أشد منه في الدنيا و قد ذكروا وجوهاً آخر غير ما ذكرناه و لكن الإنصاف أنه لا يرجع الى محصل و ذلك لأن المال و الأولاد في كثير من الموارد لا يكون موجباً لهذه الآلام فالقول بأن المال و الأولاد يوجب العذاب في الدنيا على وجه الكلية و الإطلاق لا دليل عليه.

نعم يكون كذلك بالنسبة الى بعض الأفراد كالمنافقين مثلاً و الآية نزلت فيهم لا فيهم و غيرهم كائناً من كان و لا شك أن المنافق و الكافر و بالجملة كل من لم يؤمن بالله و باليوم الآخر يكسب هذه النعم من غير طريقها و يصرفها كذلك و إذا كان المال قبلاً حاصلاً للإنسان من طريق الحرام فهو موجب للعذاب في الدارين.

أما في الدنيا فلائها تبقى بعده و لا يبقى لصاحبها إلا الحسرة و الندامة حين الموت.

و أما في الآخرة فلائها حصلت له من غير طريقة فلا يبقى له إلا الوزر و الوبال و ما كان كذلك فعدمه أولى من وجوده و هذا بخلاف المؤمن فأنه يكتسب المال من طريقه المأذون شرعاً و عقلاً و يصرفه كذلك فالمال يكون سبباً لترفيه مقامه في الآخرة و كونه محبوباً عند الناس في الدنيا و السرفه هو

أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُؤَقَّدِينَ مِنَ اللَّهِ وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ وَالْكَافِرُونَ فَلَا يَحْصِلُ الْكَلَامُ لَهُمْ أَنَّ
الْمَالِ بَلٌّ وَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا وَطَبِيعَتُهَا خَيْرٌ وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي تَحْصِيلِهَا وَ
إِسْتِعْمَالِهَا فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُنَافِقِينَ سَبَبٌ لِلْعَذَابِ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبَبٌ
لِلرَّحْمَةِ وَالتَّقَرُّبِ وَقَوْلُهُ: **وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ حَالُ
الْمَوْتِ يَكُونُونَ بِصِفَةِ الْكُفْرِ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَمُوتُونَ
كَافِرِينَ.

أَمَّا قَوْلُ الْأَشَاعِرَةِ وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ إِزْهَاقَ نَفْسِهِمْ مَعَ
الْكُفْرِ وَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَادَ الْكُفْرَ، فَهُوَ بَاطِلٌ لِأَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: **وَهُمْ
كَافِرُونَ** لِلْحَالِ أَيَّ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مَدَّةَ عَمْرِهِمْ
وَهَذَا وَاضِحٌ.

وَأَمَّا أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ فِي حَالِ مَوْتِهِمْ فَالْكَلَامُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَصْلًا
هَذَا كُلُّهُ مِضَافًا إِلَى أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ فَلَمْ يَعْذِبْهُمْ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ الْمَفْرُوضَ
أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِلْكَفْرِ أَوْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ وَمَا شَاءَ اللَّهُ وَأَرَادَ فَهُوَ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٌ فَأَيُّ
ذَنْبٍ لِلْمَخْلُوقِ الَّذِي أَوْجَدَهُ كَذَلِكَ.

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّ
أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ، أَيَّ وَ
الْحَالُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْكُمْ وَاقِعًا **وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** أَيَّ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ، مِنْ إِظْهَارِ الْكُفْرِ لثَلَا يَقْتُلُوا وَ الْفِرْقَ إِنْزَعَا جِ النَّفْسِ بَتَّوَقَّعِ الضَّرْرَ، وَ قِيلَ
مَعْنَاهُ يَخَافُونَ إِطْلَاعَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ فَيَحِلُّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالْكَافِرِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِسْلَامِ تَقِيَّةً وَ أَعْلَمَ أَنَّ ضَرَرَ النِّفَاقِ أَكْثَرَ مِنْ
ضَرَرِ الْكُفْرِ لِأَنَّ الْكَافِرَ يَعْرِفُ حَالَهُ وَ الْمُنَافِقَ لَا يَعْرِفُ وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ قَدْ حَذَّرَ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْآيَاتِ النَّازِلَةَ فِي شَأْنِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا

ورد في شأن الكفار ولزوم الإجتناث منهم و قد قال الله تعالى فيهم: إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ^(١) ولم يقل هذا في حق الكفار أعاذنا الله
 من شرورهم بحق محمد وآله.



لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي
الْصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى
اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ
الْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ
ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(٦٠) وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ
أُذُنٌ قُلٍّ أَوْ هُوَ أُذُنٌ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ
يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ
يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

◀ اللغة

مَلْجَأٌ، المَلْجَأُ بفتح الميم اسم مكان من لجأ و هو الموضع الذي يتحصن فيه و مثله المعقل و المونل.

مَغَارَاتٍ بَفَتْحٍ مِيمٍ جَمْعُ مَغَارَةٍ وَ هِيَ الْمَدْخَلُ السَّاتِرُ لِمَنْ دَخَلَ فِيهِ مَعْنَاهَا الْغَيْرَانِ.

مُدْخَلًا بَضَمٍ الْمِيمِ وَفَتْحِ الدَّالِ الْمَسْلُوكِ الَّذِي يَتَدَسَّسُ بِالذَّخُولِ فِيهِ وَ أَصْلُهُ، مَتَدَخَلَ.

لَوَلُّوا إِلَيْهِ يَجْمَحُونَ الْجَمَاحَ مَضِي الْمَاءِ مَسْرَعًا عَلَى وَجْهِهِ لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ عَنْهُ.

يَلْمَزُكَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَ سَكُونِ اللَّامِ وَ ضَمِّ الْمِيمِ وَ كَسْرُهَا وَ هُمَا لَغَتَانِ وَ اللَّزْمُ الْعِيبُ عَلَى وَجْهِ الْمَسَاتَرَةِ.

يَسْخَطُونَ السَّخَطَ الْغَضَبَ.

رَاغِبُونَ الرِّغْبَةَ الْمِيلَ.

الرِّقَابِ جَمْعُ رَقَبَةٍ.

الْغَارِمِينَ جَمْعُ غَارِمٍ.

أَذُنٌ يَعْنِي كَثِيرَ الْإِسْتِمَاعِ.

يُحَادِدُ اللَّهَ الْمُحَادَّةَ مَجَاوِزَةَ الْحَدِّ.

◀ الإعراب

إِذَا هُمْ إِذَا هُنَا لِلْمَفْجَأَةِ وَ هِيَ ظَرْفُ مَكَانٍ وَ جَعَلَتْ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ كَالْفَاءِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَفْجَأَةِ وَ مَا بَعْدَهَا إِبْتِدَاءٌ وَ خَبَرٌ وَ الْعَامِلُ فِي إِذَا، يَسْخَطُونَ، فَرْبُضَةً حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْفُقَرَاءِ أَيْ مَفْرُوضَةٌ وَ قِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ وَ الْمَعْنَى فَرَضَ اللَّهُ ذَلِكَ فَرَضًا قُلُّ أَذُنٌ خَيْرٌ أَذُنٌ خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَيْ هُوَ وَ قَدْ يَقْرَأُ بِالْإِضَافَةِ أَيْ مُسْتَمَعَ خَيْرٍ وَ يَقْرَأُ بِالتَّنْوِينِ وَ رَفَعَ خَيْرٍ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِأَذُنٍ، وَ التَّقْدِيرُ، أَذُنٌ ذُو خَيْرٍ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى أَفْعَلُ أَيْ أَذُنٌ أَكْثَرُ خَيْرًا لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةٍ أَيْضًا وَ رَحْمَةٌ بِالرَّفْعِ عَطْفٌ عَلَى أَذُنٍ، أَيْ هُوَ أَذُنٌ وَ رَحْمَةٌ وَ يَقْرَأُ بِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى خَيْرٍ فَيَمُنُ جَرَّ خَيْرًا وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مُبْتَدَأٌ

وَأَحَقُّ خَبْرَهُ وَالرَّسُولُ مُبْتَدَأُ ثَانٍ وَخَبْرُهُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ خَبْرُ الْأَوَّلِ وَقِيلَ، أَحَقُّ، خَبْرُ الرَّسُولِ وَخَبْرُ الْأَوَّلِ مَحْذُوفٌ وَهُوَ أَقْوَى إِذْ لَا يُلْزَمُ مِنْهُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَخَبْرِهِ أَلَمْ يَعْلَمُوا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْمُتَعَدِّيَّةُ إِلَى مَفْعُولَيْنِ وَتَكُونَ، أَنَّهُ، وَخَبْرُهَا سَدُّ مَسَدٍ مَفْعُولَيْنِ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْمُتَعَدِّيَّةُ إِلَى وَاحِدَةٍ وَمَنْ شَرْطِيَّةٌ مَوْضِعٌ مُبْتَدَأٌ وَالْفَاءُ جَوَابُ الشَّرْطِ وَأَمَّا أَنَّ الثَّانِيَةَ فَالْمَشْهُورُ فَتَحَهَا وَفِيهَا أَوْجَهُ:

أحدها: أَنَّهَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى.

الثَّانِي: أَنَّهَا كَزَّرَتْ تَوْكِيدًا وَالْفَاءُ عَلَى هَذَا جَوَابُ الشَّرْطِ.

الثَّالِث: أَنْ، مُبْتَدَأٌ وَالْخَبْرُ مَحْذُوفٌ أَيِ فَلَهُمْ أَنْ لَهُمْ.

الرَّابِع: أَنْ تَكُونَ خَبْرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَيِ فَجَزَاؤُهُمْ أَنْ لَهُمْ أَوْ فَالْوَاجِبُ أَنْ لَهُمْ وَيَقْرَأُ بِالْكَسْرِ عَلَى الْإِسْتِنَافِ.

◀ التفسير

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ
قَرَأَ يَعْقُوبُ أَوْ مُدْخَلًا بَفَتْحِ الْمِيمِ وَتَخْفِيفِ الدَّالِّ وَسُكُونِهَا وَقَرَأَ شَاءَ
بُضْمِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الدَّالِّ وَالْمَشْهُورُ بُضْمُ الْمِيمِ وَفَتْحُ الدَّالِّ الْمَشْدُودَةِ الْمَصَاحِفِ
وَعَلَيْهِ فَلِأَصْلٍ فِيهِ، مُتَدَخِّلٌ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْأَصْلُ فِيهِ مُدْتَخِلٌ، مُفْتَعِلٌ مِنْ، أَدْخَلَ، وَهُوَ بِنَاءُ تَأْكِيدٍ وَ
مُبَالَغَةٍ وَمَعْنَاهُ السَّرْبُ وَالتَّقُّقُ فِي الْأَرْضِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ، لَوْ يَجِدُونَ هَؤُلَاءِ
الْمُنَافِقِينَ مُلْجَأً أَوْ مَوْضِعًا لِلتَّحَصُّنِ فِيهِ أَوْ مَغَارَاتٍ وَهِيَ جَمْعُ مَغَارَةٍ الْمُدْخَلِ
السَّاتِرِ مِنْ دَخَلٍ فِيهِ.

وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهَا الْغَيْرَانِ وَالْغَارُ التَّقْبُ الْوَاسِعُ فِي الْجَبَلِ وَمِنْهُ غَارَتِ الْعَيْنُ
مِنَ الْمَاءِ إِذَا غَابَتْ فِي الْأَرْضِ، أَوْ مُدْخَلًا أَيِ مَسْلَكًا، أَوْ نَفَقًا فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ
لَوَلَّوْا إِلَيْهِ أَوْ لِلْجَأِ إِلَى اللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ، أَيِ يَسْرَهُونَ إِسْرَاعًا لَا

يردّهم شيءٌ ومحصّل الكلام هو أنّهم لم يجدوا شيئاً دخلوا فيه و تمسّكوا به و لو وجدوا ذلك لأسرعوا إليه إسرأعاً لا يردهم عنه شيء.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ قَرَأَ يَعْقُوبُ يَلْمِزُكَ بَضْمَ المِيمِ و الباقرن بكسرهما و هو الأشهر و هما لغتان و في الآية إخبار بأن من جملة المنافقين الذين ذكرهم الله من يلزم الرسول في الصدقات و اللّمز العيب على وجه المساترة.

قيل اللّامز هو حرقوص بن زهير التميمي و هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج كان الرسول ﷺ يقسم غنائم حنين فقال أعدل يا رسول الله الحديث. و قيل اللّامز هو ابن الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون الى صاحبكم أنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم.

و قيل هو ثعلبة بن حاطب كان يقول أنما يعطي محمد ﷺ قرشاً.

و قيل رجل من الأنصار أتى الرسول بصدقةٍ يقسمها فقال ما هذا بالعدل.

و قد روي عن ابن عباس أنّه قال كانت غنائم هوازن يوم حنين إذا جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج فقال أعدل يا رسول الله فقال ﷺ: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل فقال عمر يا رسول الله أئذن لي فأضرب عنقه فقال النبي ﷺ دعه فإنّ له أصحاباً يحقّ أحدهم صلوته مع صلوتهم و صومهم مع صومه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد في شيء ثم ينظر في رصافه فلا يوجد في شيء ثم ينظر في لصله فلا يوجد في شيء و قد سبق الفرث و الدّم صاحب رأيتهم رجل أسود في إحدى قدميه أو قال في إحدى يديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على فترة من الناس.

و في حديثٍ آخر فإذا خرجوا فأقتلوهم ثمّ إذا خرجوا فأقتلوهم
فنزلت وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ.

قال أبو سعيد الخدري أشهد أنّي سمعت هذا من رسول الله و أشهد أنّ
عليّاً حين قتلهم و أنا معه جيّ بالرجل على النّعت الذي نعته رسول الله رواه
الثعلبي بأسناده في تفسير نور الثقلين^(١).

و أمّا قوله تعالى: فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا فالمقصود أنّ المنافقين لا
يرضون منك إلّا أن تعطيهم ما أرادوا و شاءوا و لا يرضون بما شاء الله و رسوله
و هو كذلك لأنهم بسبب عدم إيمانهم واقعاً يطلبون أكثر من حقهم لعدم
إعتقادهم بعدالة الرسول في تقسيمه الغنائم و الحق أنّ أكثر الناس لحرصهم
على جمع الأموال لا يقنعون بحقوقهم المقررة لهم و هذا لا يختصّ بزمانٍ دون
زمانٍ فالآية على عمومها و أن كان موردّها خاصاً.

كما روي في الكافي بأسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبد
الله عليه السلام كم ترى أهل هذه الآية إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم
يسخطون.

قال، ثمّ قال عليه السلام هم أكثر من ثلثي الناس انتهى.

تنبيه

قال أبو عبيدة، يلمزك، معناه، يعيبك و قال معناه، يطعن عليك و الهمز
الغبية و منه قوله تعالى: هَمَزَ مِنْهُمُ آلُ اللَّهِ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا
آلُ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ.

هذا وصفٌ لحال المستقيمين في دينهم أي ولو أنهم رضوا قسمة الله ورسوله وقالوا كفانا الله وعلّقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم وكانت رغبتهم إلى الله لا إلى غيره وجواب لو، محذوف تقديره لو كانوا كذلك لكان خيراً لهم في دينهم وديناهم، وكان ذلك الفعل منهم دليلاً على إنتقالهم من النفاق إلى محض الإيمان لأن ذلك تضمّن الرضا بقسم الله والإقرار بالله وبالرسول إذ كانوا يقولون: سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ.

وقيل جواب، لو، هو قوله وقالوا الخ على زيادة الواو وهو قول كوني. وقال الزمخشري والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن كلّ نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله تعالى وصنعه حسبنا ما قسم الله لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فسيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر ممّا أتانا اليوم إنا إلى الله في أن يغنمنا ويحولنا فضله راغبون انتهى. وقال ابن عباس، راغبون فيما يمنحنا من الثواب ويصرف ممّا من العقاب. وقال بعضهم راغبون في أن يوسّع علينا من فضله فيغنيينا عن الصدقة وغيرها ممّا في أيدي الناس.

وقيل المعنى، ما أتاهاهم الله بالتقدير ورسوله بالقسم وإعلم أنه تعالى أتى أولاً بمقام الرضا فقال ولو أنهم رضوا، أي الرضا فعلٌ قلبي يصدر عن علم أنه تعالى منزّه عن العتب والخطأ عليهم بالعواقب فكلّ قضاءه سواب وحق لا اعتراض عليه وهو أي مقام الرضا من أعلى المقامات وأرفعها بل لا مقام فوقه لأن السالك إذا وصل إليه فقد كمل في سلوكه وصل إلى ما أراد منه لأنه بالرضا بقضاءه وقدره وقد فوّض أمره إليه تعالى ولا يرى لإرادته شيئاً فلا يريد إلا ما أراد الله له ولا يشاء إلا ما شاء الله وقد يعبر عنه بمقام الفناء في الله ذاتاً وصفةً.

ثم أردفه بإظهار أثار الوصف القلبي وهو الإقرار باللسان بقوله حسبنا الله وذلك لأن الكلام مظهرٌ عمّا في القلب.

ثم أتى ثالثاً بأنه تعالى ما داموا في الحياة الدنيا ما دلّهم بنعمه وإحسانه فهو إخبار حسن إذ ما من مؤمنٍ إلّا ونعم الله مترادفة عليه حالاً ومالاً إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة.

ثم أتى رابعاً بالجملة المقتضية للإلتجاء الى الله لا الى غيره والرغبة اليه فلا يطلب بالإيمان أخذ الأموال والرئاسة في الدنيا، ولما كانت الجملتان متغايرتان أعني بهما ما تضمن الرضا بالقلب وما تضمن الإقرار باللسان تعاطفتا، ولما كانت الجملتان الأخيرتان من أثار قولهم حسبنا الله، لم تتعاطفا إذ هما كالشرح لقولهم حسبنا الله فلا تغاير بينهما.

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الصدقات وهي زكاة الأموال خاصة للفقراء والمساكين الخ وهم ثمانية أصناف:

الأول: قوله تعالى: **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ** والصدقات بفتح الصاد الدال جمع صدقة، قال بعضهم هي عطية يراد بها المثوبة لا المكرمة.

وقال في المفردات، الصدقة ما يخرج الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة لكن الصدقة في الأصل يقال للمتطوع به والزكاة للواجب وقد سمي الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعله انتهى.

وقال في المجمع ما أعطي الغير به تبرعاً بقصد القربة وغير هدية فتدخل فيها الزكاة والمنذورات والكفارة وأمثالها وعرفها بعض الفقهاء بالعطية المتبرع بها من غير نصاب للقربة وإمّا الفقراء فهي جمع فقير بفتح الفاء وهو في الأصل بمعنى المحتاج فكل محتاج يقال له الفقير وأنما سمي به لأنه مكسور الفغار يقال فقرته فاقرة أي داهية تكسر الفغار وقيل هو من الفقرة أي

الحفرة و منه قيل لكلّ حفيرة يجتمع فيها الماء فقير و قد فرّقوا بينه و بين المسكين بأنّ الفقير هو المنعطف الذي لا يسأل و المسكين الذي يسأل لأنّه مستبق من المسكنة بالمسألة.

و قال قتادة الفقير ذو الزمانة من أهل الحاجة و المسكين من كان صحيحاً محتاجاً و قال قوم هما بمعنى واحد قال الشاعر:

أنا الفقير الذي كانت هلوته وفق العيال فلم يترك له سبد

و كيف كان لا خلاف عندهم في إستحقاقهم الصدقات كما هو صريح الآية.

الثاني: المساكين و هي جمع مسكين بكسر الميم و قد مرّ الكلام فيه قيل و سمّي المسكين بذلك تشبيهاً بأنّ الحاجة كأنّها سكنة عن حال أهل السعة و الثروة قال الله تعالى: **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ** (١).

فمن قال المسكين أحسن حالاً إحتج بهذه الآية و من قال هما سواء قال السفينة كانت مشتركة بين جماعة لكلّ واحدٍ منهم الشئ اليسير.

الثالث: و العاملين عليها، قيل المراد بهم سعاة الزكاة وجباتها و هو قول الزهري و ابن زيد و غيرهما.

الرابع: المؤلفة قلوبهم قيل المراد بهم أقوام أشراف كانوا في زمن النبي ﷺ فكان يتألفهم على الإسلام و يستعين بهم على قتال غيرهم و يعطيهم سهماً من الزكاة ثمّ أنّهم إختلفوا في أنّ هذا الحكم هل هو ثابت في جميع الأحوال أم في وقتٍ دون وقتٍ.

فقال بعضهم أنّ هذا كان خاصاً على عهد رسول الله رواه جابر عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام.

و قال الجبائي أنّه ثابت في كلّ عصر إلا أنّ من شرطه أن يكون هناك إمام عدل يتألفهم على ذلك و نسب الى الشافعي أنّه قال العامل و المؤلفة قلوبهم مفقودان في هذا الزمان بقيت الأصناف الستة فالأولى صرفها اليهم و ذهب

في التفسير



الجلد الثاني

أيضاً الى أنه يعتبر في كل صنف ما دلّ عليه لفظه أن كان موجوداً فلا بدّ في كل صنف من ثلاثة لأنّ أقلّ الجمع ثلاثة فأن دفع سهم الفقراء الى فقيرين ضمن نصيب الثالث و هو ثلث سهم.

و قال أبو حنيفة يجوز أن يعطي زكاته مسكيناً واحداً و به قال مالك في زكاة الفطرة. أقول ما ذهب اليه الشافعي لا دليل عليه لا عقلاً و لا نقلاً و قوله أقلّ الجمع ثلاثة مجرّد إدعاء فقد قال قوم أنّ أقلّ الجمع أثنان و مع ذلك فالحكم يتعلّق بالجمع من حيث هو بل الحكم تعلّق بجنس الفقير ألا ترى أنّ المولى اذا أمر بإكرام العلماء فقال أكرم العلماء معناه أكرم كلّ عالم من العلماء لا أنّه يجب إكرام العلماء اذا كانوا ثلاثة و هذا ظاهر بحسب متفاهم العرف واللغة والعجب ممّن يدعي العلم و هو يقول بهذه المقالة السخيفة فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الخامس: و في الرقاب يعني المكاتبين.

قال الشيخ في التبيان، و أجاز أصحابنا أن يشتري به عبداً مؤمناً اذا كان في شدة و يعتق من مال الزكاة و يكون ولاءه لأرباب الزكاة و هو قول ابن عباس و جعفر بن مبشر.

السادس: و الغارمين، و قد أجمع المفسرون على أنّ المراد بهم في الآية الذين ركبتهم الديون في غير معصية و لا إسراف فتقضى عنهم ديونهم.

السابع: و في سبيل الله يعني الجهاد بلا خلاف و يدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين كبناء المساجد و القناطر و المدارس و يدخل فيه قضاء الدين عن أموال المؤمنين ونحو ذلك من الطرق التي يراد بها وجه الله سبحانه كمعونة الزائرين و شراء الكتب و ما يحتاج اليه المشتغلون في ترويح الدين و هكذا.

الثامن: ابن السبيل، و هو المتقطع به في غير بلده و أن كان غنياً في بلده سمّي به لملازمته للسبيل أي الطريق فكأنّها ولدته و هذا تفسير أكثر علماءنا و به قال بعض العامة كأبي حنيفة و مالك.

و قال المفيد رحمته قد جاءت رواية أنه الضعيف أي من أضيف لحاجة إلى ذلك و أن كان له في موضع آخر غناء و يسار و نحوه قال في المبسوط و المدارك.

قال بعض المحققين بعد نقله ما نقلناه و الرواية بدخول الضيف في إبن السبيل لم نقف عليها في شيء من الأصول و لا نقلها ناقل في كتب الاستدلال انتهى.

أقول لا يبعد أن يكون المراد بها ما ورد أن من دخل بلدة فهو ضيف لأهلها. و قال إبن الجنيد هو المسافر في طاعة الله أو المنشئ السفر كذلك و ليس عنده ما يكفيه لسفره اذا كان قصده فيه قضاء فريضة أو قياماً لسنة. و فيه، أن المنشئ للسفر كذلك لا يصدق عليه ذلك إلا مجازاً أي من باب تسمية الشيء بما يؤل إليه اذا عرفت هذا فلنشر الى شطر من الأخبار الواردة عن أهل البيت في مصارف الصدقات في الأصناف الثمانية المذكورة فنقول:

مما روي في الفقراء، ما رواه في الكافي في الصحيح عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أنه سأل عن الفقير والمسكين فقال عليه السلام: الفقير الذي لا يسأل و المسكين هو الذي يسأل (هو الذي أجهد منه الذي يسأل) انتهى

و حسنة أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله قول الله عز وجل: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ قال عليه السلام: الفقير الذي لا يسأل الناس و المسكين أجهد منه و البائس أجهدهم انتهى

و يدل عليه أيضاً ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره من أن العالم بين الأصناف فقال أن الفقراء هم الذين لا يسألون الناس إحافاً و المساكين هم أهل الزمانة من العميان و العرجان و المجذومين و جميع أصناف الزمانة الرجال و النساء و الصبيان انتهى.

و روى في الكافي في الحسن عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أن الله عز وجل جعل للفقراء في أموال الأغنياء ما يكفيهم انتهى.

و مثلها صحيحة ابن سنان عن مبارك العرقوقي قال أبو الحسن عليه السلام أن الله عز وجل وصنع الزكاة قوتاً للفقراء انتهى. وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام: أن صدقة الخلف والظلف تدفع الى المتجملين من المسلمين وأما صدقة الذهب والفضة وما كيل بالقفيز مما أخرجت الأرض للفقراء المدقعين انتهى. وأنت ترى أن هذه الروايات ونحوها تدل على دخول المساكين في الفقراء قطعاً فلولاً الروايات الدالة على الفرق لكان القول بالترادف غير بعيد.

ومثاري في المؤلفة قلوبهم ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: المؤلفة قلوبهم أبو سفيان بن حرب بن أمية وسهيل بن عمرو أو مثاليهما.

ومنها، ما رواه في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل المؤلفة قلوبهم قال عليه السلام هم قوم وحدوا الله عز وجل وخلصوا عبادة من يعبد من دون الله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهم في ذلك شكاك في بعض ما جاء به محمد ﷺ فأمر الله نبيه أن يتألفهم المال والعطايا لكي يحسن إسلامهم ويثبتوا على دينهم الذي دخلوا فيه وأقرؤا به انتهى. وهذه الأخبار دالة على صدق التأليف على من هذا حاله في الإسلام ويظهر منها أن المؤلفة قلوبهم لا يختص بالكفار بل تشمل المسلمين الشاكين أيضاً.

وَمِمَّا رَوَى فِي الرَّقَابِ مَا رَوَاهُ الشَّيْخُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الرَّجُلِ تَجْتَمِعُ عِنْدَهُ الزَّكَاةُ يَشْتَرِي بِهَا نَسْمَةً يَعْتَقُهَا فَقَالَ إِذَا يَظْلَمُ قَوْمًا أُخْرَيْنَ حَقُّوهُمْ ثُمَّ قَالَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا مُسْلِمًا فِي ضَرُورَةٍ يَشْتَرِيهِ وَيَعْتَقُهُ انْتَهَى.

وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ زُرَّارَةُ (عَبِيدُ بْنُ زُرَّارَةَ) قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَنْ رَجُلٍ أَخْرَجَ زَكَاةَ مَالِهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَلَمْ يَجِدْ لَهَا مَوْضِعًا يَدْفَعُ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَى مَمْلُوكٍ يَبِيعُ فَاشْتَرَاهُ بِتِلْكَ الْأَلْفِ الدَّرَاهِمِ الَّتِي أَخْرَجَتْ مِنْ زَكَاتِهِ فَأَعْتَقَهُ هَلْ يَجُوزُ ذَلِكَ قَالَ نَعَمْ انْتَهَى.

وَمِمَّا رَوَى فِي الْغَارِمِينَ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الدَّيُونُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَأَمَّا الَّذِينَ أَنْفَقُوهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَأَنْفَقُوهَا فِي طَرِيقِ الْإِسْرَافِ فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ شَيْءٌ فَقَدْ رَوَى الشَّيْخُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَجَّاجِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ فِي رَجُلٍ عَارِفٍ فَاضِلٍ تَوَفَّى وَتَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا قَدْ إِبْتَلَى بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْرِفًا وَلَا مُفْسِدًا وَلَا مَعْرُوفًا بِالمَسْأَلَةِ هَلْ يَقْضَى عَنْهُ مِنَ الزَّكَاةِ الْأَلْفُ وَالْأَلْفَانِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ انْتَهَى.

وَمِمَّا رَوَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ رَوَى عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي التَّفْسِيرِ عَنِ الْعَالِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: - فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَوْمٌ يَخْرُجُونَ فِي الْجِهَادِ وَلَيْسَ عَنْدهُمْ مَا يَنْفَقُونَهُ أَوْ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عَنْدهُمْ مَا يَحْجُونَ بِهِ أَوْ فِي جَمِيعِ سَبِيلِ الْخَيْرِ فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ حَتَّى يَقُومُوا عَلَى الْحَجِّ وَالْجِهَادِ انْتَهَى.

وَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي بَابُوَيْهٍ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَقْطِينٍ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا يَكُونُ عِنْدِي الْمَالُ مِنَ الزَّكَاةِ فَأَحْجَّ بِهِ مَوَالِيَّ وَأَقَارِبِي قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ انْتَهَى.

ومنها: ما رواه في معاني الأخبار بأسناده الى الحسين بن عمر قال قلت لأبي عبد الله أن رجلاً أوصى إلي في السبيل قال عليه السلام: أصرفه في الحج فأتني لا أعرف سبيلاً من سبله أفضل من الحج انتهى. وفي خبر آخر عن العسكري قال عليه السلام: سبيل الله شيعتنا انتهى. وأما ابن السبيل وهو المنقطع به في غير بلده وإن كان غنياً في بلده.

روى علي بن إبراهيم عن العالم عليه السلام أنهم أبناء الطريق الذين يكونون في الأسفار في طاعة الله فيقطع عليهم و يذهب مالهم فعلى الإمام أن يردّهم الى أوطانهم من مال الصدقات انتهى.

أقول الأخبار التي نقلناها في المقام نقلناها عن كتاب آيات الأحكام للجزائري رحمته الله.

وإعلم أن الأصحاب ذكروا للمستحقين شروطاً لا بدّ لنا من التعرض لها تكميلاً للبحث.

أحدها: الإيمان أي الإسلام مع الولاية للأئمة الأثني عشر عليهم السلام و هو مجمع عليه بين الأصحاب كما حكاه في المنتهى حتّى أن المخالف لو استبصر يجب عليه إعادتها اذا كان أعطاها غير أهل الولاية و أن لم يجب عليه إعادة غيرها من العبادات و يدلّ عليه أخبار كثيرة و مع عدم المستحقّ يجب عليه حفظها و الإيصاء بها عند الموت و يشتري بها نسمة و يعتقها إلّا في الفطرة فقد روي أنّه يصرفها الى المستضعفين و هم الذين لا يعاندون الحقّ من أهل الخلاف و بذلك أفتى جماعة من أصحابنا و ذهب الأكثر الى المنع أيضاً الأقوى و هذا الشرط في غير المؤلّفة و بعض أفراد سبيل الله كالمجاهد في الجهاد.

الثاني: العدالة و بذلك قال كثير من الأصحاب و إكتفى ابن الجنيد بمجانبة الكبائر خاصّة و إقتصر بعضهم على إعتبار الإيمان فقط و هو الأظهر لإطلاق

الآية و الروايات و عدم ما يصلح للتقييد إلا في العاملين و أما أطفال المؤمنين فيجوز إجماعاً.

الثالث: أن لا يكون ممن تجب نفقته إجماعاً كالأبويين و أن علوا والأولاد و إن سفلوا و الزوجة و المملوك.

الرابع: أن لا يكون هاشمياً أي من ولد هاشم و هو مجمع عليه و النصوص به أيضاً مستفيضة و الذي يطهر من الأخبار أن المحرم عليه الزكاة المفروضة خاصة و أما زكاة الفطرة فيجوز للهاشمي إعطاؤها لهاشمي آخر و أما غير الهاشمي فلا و بعبارة أخرى زكاة الفطرة من هاشمي الى هاشمي آخر لا بأس به. و أما قوله: **فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** فمعناه واضح أي تلك فريضة من الله و هو تعالى عليمٌ بأمور عباده حكيمٌ في وضعها مواضعها.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنُ قُلْ أَدْنُ خَيْرَ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من جملة المنافقين الذين وصفهم و ذكرهم في الآيات السابقة من يؤذي النبي و الأذى هو ضرر ربما تنفر منه النفس في العاجل و أنهم يقولون هو أي النبي، أذن، أي أنه يصغي الى كل أحد فيقبل قوله.

قال الراغب في المفردات الأذن الجارحة و شبهه به من حيث المحلة أذن القدر و غيرها، و يستعار لمن كثر إستماعه و قوله لما يسمع و قيل أصله من أذن، إذ إستمع و كيف كان أنهم أرادوا بذلك إيذاء النبي و تنقيصه.

فأجاب الله تعالى عنهم بقوله قل، يا محمد، أذن خير لكم، و قيل السبب في ذلك أن قوماً من المنافقين تكلموا بما أرادوه و قالوا أن بلغه إعتذرنا اليه فإنه أذن يسمع ما يقال له.

هذا القرآن في تفسيره

الجزء الثاني

جزء ١٠

و قال بعض المفسرين كان قدام بن خالد و عبيد بن هلال بن سويد يؤذون النبي فقال بعضهم لا تفعلوا فأنا نخاف أن يبلغه فيوقع بنا فقال الجلاس بل نقول بما شئنا فأذن محمد أذن سامعة ثم نأتية فيصدقنا فنزلت الآية فقوله تعالى، قل أذن خير لكم، معناه قل يا محمد لهؤلاء المنافقين أتي أذن خير لكم لا أذن شر.

و في هذا الجواب منه تعالى إشارة الى أن مطلق الأذن ليس بمذموم بل هو مذموم اذا كان في طريق الشر و أما اذا كان في طريق الخير فلا و توضيحه إجمالاً هو أن الأذن يستعار لمن كثر إستماعه و من المعلوم أن كثرة إستماع الخيرات و الأقوال الحقة لا إشكال فيها عقلاً و شرعاً بل هي تدل على حرص صاحبه في طريق الخير و الصلاح و النبي ﷺ كان كذلك و لكن المنافقين لما أرادوا بقولهم، هو أذن تنقيص النبي و ذمه تخيلوا أنه أي النبي يسمع كل باطل و كذب و يقبله و ليس كذلك.

و أما قوله: **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** معناه أن النبي ﷺ لإيمانه بالله يعمل بالحق فيما يسمع من غيره لا أنه يعمل بكل يسمع حقاً كان أو باطلاً و ذلك لأن المؤمن بالله حقاً يكون خائفاً منه و الرسول في رأس المؤمنين بالله فكيف يعقل أنه يقبل الباطل.

و قيل معنى الكلام أنه ﷺ يصغي الى الوحي من قبل الله و من كان كذلك لا يسمع الباطل، و قوله و يؤمن للمؤمنين، معناه يسمع منهم و يسلم لهم ما يقولون و يصدقهم لكونهم مؤمنين قيل دخلت اللام كما دخلت في قوله: ردف لكم، أي ردفكم، و اللام معجمة و مثله لرّبهم يرهبون، و معناه يرهبون ربهم.

و قال قوم دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق و إيمان الأمان، و قوله: **وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** معناه أن النبي ﷺ رحمة للمؤمنين منكم خاصة و وجه التخصيص بهم مع أنه ﷺ رحمة للكفار أيضاً لقوله تعالى فيه

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ^(١) الشَّامِلَ لِّلْكَفَّارِ أَيْضاً، مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ فَهُوَ مِنْ قِبَلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْكِتَابِ: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ^(٢) وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ يَهْدِي الْكُلَّ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ مِنْكُمْ.

نقل الشَّيْخُ فِي التَّبَيَّنِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ يَقُولُ إِنِّي لِأَنَالَ مِنْ مُحَمَّدٍ مَا شِئْتُ ثُمَّ عَاتَبَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَاحْلَفَ لَهُ فَيَقْبَلُ فَجَاءَ جِبْرَائِيلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَنَّهُ يَجْلِسُ إِلَيْكَ رَجُلٌ أَدْلَمُ ثَائِرُ شَعْرِ الرَّأْسِ أَسْفَعُ الْخَدَيْنِ أَحْمَرُ الْعَيْنَيْنِ كَأَنَّهُمَا قَدْرَانِ مِنْ صَفَرٍ كَبَدَهُ أَغْلَظَ مِنْ كَبَدِ الْحَمَلِ يَنْقُلُ حَدِيثَكَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فَأَحْذَرُهُ وَكَانَ ذَلِكَ صِفَةً لِنَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ مُنَافِقِي الْأَنْصَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ اخْتَارَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ إِنَّتَهَى.

أَقُولُ لَوْ تَمَّ مَا ذَكَرُوهُ فِي مُورِدِ نَزُولِ الْآيَةِ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُورِدَهَا خَاصٌّ كَمَا هُوَ شَأْنٌ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ النَّازِلَةِ فِي الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَنَافِي عَمُومَ مَعْنَى الْآيَةِ وَلَا سِيَّماً إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، لِلِاسْتِثْنَاءِ كَمَا هُوَ الْأَقْوَى فِي النَّظَرِ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ أَفَادَ الْكَلَامُ أَنَّ الْمُؤْذِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ حَكَمَهُ كَذَا، سِوَاءَ كَانَ الْإِيْذَاءُ جَسَماً وَرُوحاً فَمَنْ ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ آذَاهُ وَمَنْ شَتَمَهُ وَأَهَانَهُ فَهُوَ أَيْضاً آذَاهُ بَلْ نَقُولُ مَنْ خَالَفَهُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ فَهُوَ أَيْضاً مِمَّنْ آذَاهُ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ أَنَّ الْمَوْجِبَ لِلْعَذَابِ هُوَ تَحَقُّقُ الْإِيْذَاءِ وَجُودُهُ فِي الْخَارِجِ كَيْفَ اتَّفَقَ وَعَلَيْهِ فَالْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ خَالَفُوا قَوْلَهُ وَنَكَشُوا عَهْدَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بَلْ مِنْ آذَى أَوْلَادِهِ بِأَيِّ نَحْوٍ مِنَ الْإِيْذَاءِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْحَكْمِ وَهَذَا الْحَكْمُ جَارٍ فِي الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ.

يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُزْذَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد العاشر

الظاهر الخطاب في قوله: **لَكُمْ** و قوله: **لِيُرْضَوْكُمْ** لجميع المسلمين و المعنى أنهم يحلفون أي يقسمون بالله لكم أيها المسلمون ، ليرضوكم أي يقسمون لكم أنهم على دينكم و طريقتكم لتحمدوهم عليه، ولم يعلموا أن الله و رسوله أحق أن يرضوه أن كانوا مؤمنين، أي مصدقين بالله و مقرين بنبوة نبيه و المعنى أن المؤمن ينبغي أن يطلب في إيمانه رضا الله و رسوله لا رضا الناس لأن الإيمان بالله و رسوله غير الإيمان بالناس فهؤلاء المنافقين حيث أنهم كانوا يطلبون رضا الناس و إغفالهم و لم يطلبوا رضا الله و رسوله، لم يكونوا من المؤمنين حقاً إذ المؤمن لا يكون كذلك بل هو شأن المنافق بعينه حيث يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

و قال، بعض المفسرين أن الضمير في قوله: **يَحْلِفُونَ** عائد على الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع الرسول ﷺ و المؤمنون إعتذروا و حلفوا و أعتلوا.

قاله ابن السائب و اختاره البيهقي و كانوا ثلاثة و ثمانين حلف منهم ثمانون فقبل الرسول أعدارهم و أعترف منهم بالحق ثلاثة فأطلع الله رسوله على كذبهم و نفاقهم و هلكوا جميعاً بأفات و نجى الذين صدقوا. و قيل عائد على عبد الله بن أبي و من معه حلفوا أن لا يتخلفوا عن رسول الله و ليكونوا معه على عدوه إنتهى.

أقول الحق أن المراد جميع المنافقين الذين كانوا يحلفون للرسول و المؤمنين أنهم معهم في الدين و في كل أمر و حرب و كانوا يبطنون النفاق و يتربصون بالمؤمنين الدوائر و هذا هو المشهور بين المفسرين، و أفرد الضمير في قوله أن يرضوه.

لأنهما أي الله و رسوله، في حكم مرضي واحد إذ رضا الله هو رضا الرسول.

وقيل في الكلام حذف و التقدير والله أحق أن يرضوه و رسوله أحق أن يرضوه فهما جملتان حذف الأولى لدلالة الثانية عليها ومنه قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف
أي نحن بما عندنا راضٍ و أنت بما عندك راضٍ.

وقال المبرد أن في الكلام تقديماً و تأخيراً و تقديره والله أحق أن يرضوه و رسوله، و قدره الزمخشري والله أحق أن يرضوه و رسوله كذلك، و المعنى واضح لا خفاء فيه.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

المحادة مجاوزة الحد بالمشاقة و مثله المباعدة، و الإستفهام في قوله: أَلَمْ يَعْلَمُوا للإنكار أي علموا قطعاً و المعنى ألم يعلموا هؤلاء المنافقين و قيل أن الكلام خرج مخرج التهديد و التقرع و التوبيخ لهؤلاء المنافقين و المآل واحد لأن المعنى يرجع الى أنهم علموا أن من يحادد الله و رسوله أي يتجاوز حدود الله التي أمر الله المكلفين بها من الأوامر و النواهي فإن له، أي للمتجاوز، نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم، الخزي بكسر الخاء الهوان بما يستحق منه.

قال أبو مسلم المحادة مأخوذة من الحديد حديد السلاح.

و قال ابن عباس المخالفة، و قيل المحاربة، و قيل المعاندة و قيل المعادة و قيل مجاوزة الحد في المخالفة و أنت ترى أن هذه الأقوال متقاربة.

و أعلم أن الجمهور على فتح الهمزة في قوله: فَإِنَّ و ذهب الزجاج على جواز الكسر فيها لكنه خلاف المشهور لم يذهب اليه غيره و لذلك تفصيل لا يسعه المقام.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠
المجلد الثاني

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ
بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجُ مَا
تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ
كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبْ طَآئِفَةٌ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَ
الْمُنَافِقَاتُ يَفْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ
يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا
اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)
وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا
أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا
اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ
كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)
أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ
ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ
الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

◀ اللغة

تَبَيَّنَهُمُ الْإِنْبَاءُ الْإِخْبَارُ أَيِ تَحْبِيرُهُمْ.

نَحْوُ خَوْضِ الْخَوْضِ دُخُولُ الْقَدَمِ فِيمَا كَانَ مَانِعاً مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ثُمَّ كَثُرَ إِسْتِعْمَالُهُ فِي مَطْلُقِ الدُّخُولِ حَتَّى صَارَ فِي كُلِّ دُخُولٍ مِنْهُ أَذَى وَتَلْوِيثٌ.

نَلْعَبُ اللَّعْبِ فَعَلَ مَا فِيهِ سَقُوطُ الْمَنْزِلَةِ لِتَحْصِيلِ اللَّذَّةِ مِنْ غَيْرِ مَرَاعَاةِ الْحِكْمَةِ كَفَعَلَ الصَّبِيِّ.

يَقْبِضُونَ الْقَبْضَ ضِدَّ الْبَسْطِ.

فَاسْتَمْتَعُوا الْإِسْتِمَاعَ طَلَبُ الْمَتْعَةِ وَهِيَ فَعَلَ مَا فِيهِ اللَّذَّةُ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاحِكِ.

بِخِلَافِهِمُ الْخِلَاقَ، النَّصِيبَ سِوَاءَ كَانَ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً.

الْمُؤْتَفِكَاتِ قِيلَ هِيَ ثَلَاثُ قَرِيَّاتٍ لِقَوْمِ لُوطَ. قَالَ الزَّجَّاجُ إِنْتَفَكْتَ بِأَهْلِهَا إِنْقَلَبْتَ.

مَدِينِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَ لَهُ.

◀ الإعراب

أَنَّ تُنَزَّلَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بِيَحْذَرُ عَلَى أَنَّهَا مُتَعَدِيَّةٌ بِنَفْسِهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِحَرْفِ الْجَرِّ أَيِ مَنْ أَنْ تُنَزَّلَ فَيَكُونُ مَوْضِعُهُ نَصَباً أَوْ جَرّاً عَلَى إِخْتِلَافٍ فِيهِ أَبَاللَّهِ الْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِيَسْتَهْزِؤْنَ وَ قَدْ قَدَّمَ مَعْمُولُ خَبَرِ كَانَ عَلَيْهَا وَ هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ التَّقْدِيمِ فِيهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مُبْتَدَأٌ وَ خَبَرُ أَيِ بَعْضُهُمْ مِنْ جِنْسِ بَعْضٍ فِي النِّفَاقِ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ مُسْتَأْنَفٌ مَفْسَّرٌ لَمَّا قَبْلُهَا كَالَّذِينَ الْكَافِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ كَمَا اسْتَمْتَعَ أَيِ إِسْتِمَاعاً كِاسْتِمَاعَهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا الْكَافِ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ أَيْضاً وَفِي الَّذِي وَجْهَانِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ جِنْسٌ وَ التَّقْدِيرُ خَوْضاً كَخَوْضِ الَّذِينَ خَاضُوا.

الثَّانِي: أَنْ، الَّذِي، هُنَا مُصَدِّرِيَّةٌ أَيْ كخوضهم و هو نادر.
قَوْمٌ نُوحٍ بَدَلَ مَنْ الَّذِينَ.

التفسير

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ
كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُعْبَوْنَ الرَّسُولَ وَيَقُولُونَ عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يَفْشِيَ سِرَّنَا فَنُزِلَتْ
قَالَه مُجَاهِدٌ.

و قَالَ السَّيِّدِي قَالَ بَعْضُهُمْ وَدَتْ أَنْ جُلْد مَائَةٍ وَلَا يَنْزِلُ فِينَا شَيْءٌ يَفْضَحُنَا
فَنُزِلَتْ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ وَقَفَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ عِنْدَ
مَرْجَعِهِ مِنْ تَبُوكَ لِيَفْتَكُوا بِهِ فَأَخْبَرَهُ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنُزِلَتْ.
و قِيلَ قَالُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَيْرَجُو هَذَا الرَّجُلَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ وَ
حَصُونَهَا هِيَ هَاتِ فَانْزِلَ اللَّهُ: قُلْ أَسْتَهِزُّوْا.
و الظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَ: يَحْذَرُ خَبَرَ وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا
تَحْذَرُونَ.

و بِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَ مُجَاهِدٌ وَ اخْتَارَهُ الْجَبَائِي فَقَالُوا أَنَّ مَعْنَاهُ الْخَبَرَ عَنْهُمْ
بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ تُنْزَلَ فِيهِمْ آيَةٌ يَفْضَحُونَ بِهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا شَاكِينَ.
و قَالَ الرَّجَّاجُ أَنَّهُ تَهْدِيدٌ وَ مَعْنَاهُ لِيَحْذَرُوا وَ حَسَنَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَوْضِعَ الْكَلَامِ
عَلَى التَّهْدِيدِ وَ الْحَذَرِ إِعْدَادُ مَا يَتَّقِي الضَّرَرَ وَ مِثْلُهُ الْخَوْفُ وَ الْفَزَعُ، وَ كَيْفَ فَقَدْ
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا عَلَى حَذَرٍ وَ خَوْفٍ مِنْ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ
تُنَبِّئُهُمْ وَ تَخْبِرُهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَ وَجْهَ الْحَذَرِ مَعْلُومٌ وَ هُوَ أَنَّ نَزُولَ
السُّورَةِ يُوجِبُ الْإِفْتِضَاحَ وَ كَشْفَ الصَّمَائِرِ وَ هُوَ خِلَافُ مَقْصُودِهِمْ.

و قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ الضَّمِيرُ فِي عَلَيْهِمْ، وَ تَنْبِيْهُهُمْ، لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الضَّمِيرُ
فِي قُلُوبِهِمْ لِلْمُنَافِقِينَ وَ الْمَعْنَى أَنَّ نَزُولَ السُّورَةِ يُوجِبُ إِطْلَاعَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا
فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ قُلْ أَسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ الظَّاهِرُ أَنَّ

الأمر بالاستهزاء أمر تهديد و وعيد كقوله: **أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** ومعنى مخرج ما تحذرون، أن الله تعالى مبرز و مظهر إلى حيز الوجود ما تحذرونه بسبب إنزال السورة.

قال بعضهم أنهم كانوا سبعين رجلاً أنزل الله أسماءهم و أسماء آبائهم في القرآن ثم رفع ذلك و نسخ رحمة و رافة منه على خلقه لأن أبناءهم كانوا مسلمين.

أقول ما ذكره القائل لا دليل عليه بل الدليل ثابت على خلافه إذ لم يرفع شيء من القرآن بعد نزوله.

و الحق أن المعنى أن الله تعالى وعد رسوله أن يبين له باطن المنافقين و سوء حالهم و قد فعل فقوله: **إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** ليس معناه ما زعم بل المعنى أن الله مخرجه لرسوله و لا شك أن الرسول كان يعرفهم بأسماءهم و أسماء آبائهم و ما أضمرنا في قلوبهم و لكنه ﷺ لم يكن مأموراً بإظهاره كما وردت الآثار به.

قال رسول الله ﷺ في خطبة الغدير عند قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** ^(١) ما هذا لفظه.

و سألت جبرائيل أن يستعفي لي عن تبليغ ذلك اليكم أيها الناس لعلمي بقلة المتقين و كثرة المنافقين و إدغال الأثمين و حيل المستهزين بالإسلام الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و يحسبونه هيناً و هو عند الله عظيم و كثرة إذا هم لي غير مرة حتى سموني أذنأ و زعموا أنني كذلك لكثرة ملازمة علي إياي (ملازمته) و إقبالي عليه حتى أنزل الله عز وجل في ذلك و منهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن، قل أذن، علي الذين يزعمون أنه، أذن، خير لكم الآية ولو شئت أن أسمي بأسماءهم

بَلِّغِ الْقُرْآنَ فِي تَضَعِ الْقُرْآنَ



المجلد الثاني

لَسَمِيتُ وَأَنْ أُوْمِي إِلَيْهِمْ بِأَعْيَانِهِمْ لِأَوْمَاتٍ وَأَنْ أَدُلَّ عَلَيْهِمْ لَدَّلْتُ وَلَكِنِّي وَاللَّهِ فِي أُمُورِهِمْ قَدْ تَكْرَّمْتُ وَكُلَّ ذَلِكَ لَا يَرْضِي اللَّهُ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَبْلُغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ ثُمَّ تَلَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَالْغَرَضُ مِنْ نَقْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ عَالِمًا بِأَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَأَوْصَافِهِمْ وَمَشَخَصَاتِهِمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَوْلُهُ: إِنَّ مَخْرَجَ مَا تَحْذَرُونَ، هُوَ أَنَّ اللَّهَ يَصْرِفُكُمْ لِرَسُولِهِ وَيَبَيِّنُ لَهُ بَاطِنَ حَالِكُمْ وَنِفَاقِكُمْ هَذَا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهَمِي الْقَاصِرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ

أَيُّ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عَمَّا قَالُوا فِي حَقِّكَ وَحَقِّ أَصْحَابِكَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ أَنْظَرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ يَرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ قُصُورَ الشَّامِ وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ كَأَنْتُمْ غَدَا فِي الْجِبَالِ أَسْرَى لِبَنِي الْأَصْفَرِ وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ مَا رَأَيْتُ كَهَوْلًا لَا أَرْغَبُ بَطُونًا وَلَا أَكْثَرَ كَذِبًا وَلَا أَجِبْنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ فِاطِلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ فَعَنَّفَهُمْ فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كُنَّا فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ وَلَا أَمْرَ أَصْحَابِكَ أُنَمَا كُنَّا فِي شَيْءٍ مِمَّا يَخُوضُ فِيهِ الرِّكْبُ كُنَّا فِي غَيْرِ حَدِّ قُلْ أَبِاللَّهِ، تَقْرِيرٌ عَلَى إِسْتِهْزَاءِكُمْ وَضَمْنُهُ الْوَعِيدُ لَمْ نَعْيَا بِإِعْتِدَارِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِيهِ فَجَعَلُوا كَأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِإِسْتِهْزَاءِهِمْ وَبَأَنَّهُ مَوْجُودٌ مِنْهُمْ حَتَّى وَبَخُوا بِأَخْطَاءِهِمْ مَوْضِعَ الْإِسْتِهْزَاءِ حَيْثُ جَعَلَ الْمُسْتَهْزِءَ بِهِ عَلَى حَرْفِ التَّقْرِيرِ وَذَلِكَ أُنَمَا يَسْتَقِيمُ بَعْدَ وَقُوعِ الْإِسْتِهْزَاءِ وَثُبُوتِهِ قَالَهُ الرِّمَخْشَرِيُّ.

أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ لَا بَأْسَ بِهِ فَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَقُولُ وَيَنْكُرُ مَا قَالَ كَمَا هُوَ شَأْنُهُ وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ أَنْظَرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ يَرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ قُصُورَ الشَّامِ إِلَى آخِرِ مَا قَالُوا فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: تَسْتَهْزِءُونَ فَالْهَزْءُ فِي الْأَصْلِ إِيهَامٌ أَمْرٌ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ بِهِ إِسْتِصْغَارًا لِصَاحِبِهِ.

قال أبو علي ذكر الإستهزاء هاهنا مجاز لأنه جعل الهزاء بالمؤمنين و بآيات الله هزاء بالله.

و أعلم أن هؤلاء المنافقين لما وقفوا على خطاءهم و قبح أفعالهم و أقوالهم شرعوا في الاعتذار عما قالوا و فعلوا فرد الله عليهم و قال:

لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ

نهاهم الله عن الاعتذار لكونهم كاذبين فيه فهو لا ينفع لهم ثم قال، قد كفرتم بعد إيمانكم، أي أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان و ذلك لأن المنافقين كانوا يسرون الكفر و يظهرون الإيمان كما هو شأن المنافق ثم بعد ذلك أظهروا الكفر بإستهزاءهم و إنكارهم و هذا هو المراد بالكفر بعد الإيمان. و أما قوله: إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فالوجه فيه هو إن المنافقين كانوا صنفين:

صنف منهم كانوا مأمورين بالجهاد معهم كما قال تعالى: **جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ** ^(١) و هم رؤوساءهم المعلنون بالأراجيف فعذبوا بإخراجهم من المسجد و إنكشاف معظم أحوالهم. و صنف ضعفة مظهرون الإيمان و إن أبطنوا الكفر لكنهم لم يؤذوا الرسول فعفي عنهم.

و هذا العذاب و العفو في الدنيا ثم علل ذلك بأنهم كانوا مجرمين. و قيل المعفو عنهما من علم الله أنهم سيخلصون من النفاق و يخلصون الإيمان و أما المعذبون فهم من مات على نفاقه. و قيل المعفو عنه رجل واحد اسمه مخشي بن خمير كان مع الذين قالوا أنما كنا نخوض و نلعب.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثالث

و قيل كان منافقاً ثم تاب توبةً صحيحةً و قيل غير ذلك.

أقول هذا ما ذكره في تفسير الآية و الحق أن الذين عفى الله عنهم من المنافقين، إشارة الى المعتذرين واقعاً و ذلك لأن الإعتذار عبارة أخرى عن التوبة فمن اعتذر حقاً فقد تاب و الله تعالى يقبل التوبة عن عباده.

و أما الذين كان إعتذارهم ظاهراً لا واقعاً فلا عفو لهم لكونهم من المستهزئين و لذلك عبر عنهم بالمجرمين.

و أما تخصيص العذاب بالدنيا فلا وجه له بعد ظهور الآية في العموم بل العذاب منصرف الى الآخرة.

و لذلك قال بعض المفسرين معناه أنما يعذب الطائفة التي يعذبها لكونها مجرمة مذنبه مرتكبة لما يستحق به العقاب في الآخرة أو فيهما، و الإجماع الإنقطاع عن الحق الى الباطل و كيف كان ففي الآية دلالة على أن الله تعالى يعفو عن المعتذر التائب اذا كان الإعتذار كاشفاً عن الندامة و هو كذلك.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

حكم الله تعالى على المنافقين ذكورهم و أناثهم أنهم على وتيرة واحدة في التناق و الشقاق فأقوله تعالى: **بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** معناه أنهم من سنخ واحد في الحكم و المنزلة و التناق و إن شئت قلت أنهم على دين واحد فليس المعنى على التبعض حقيقة لأن ذلك معلوم.

ثم وصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فقال فيهم أنهم يأمرُونَ بالمنكر و ينهون عن المعروف و ذلك لأن المنافقين كانوا يأمرُونَ بالكفر و عبادة غير الله من الأوثان و الأصنام و المعاصي و أي منكر أنكر منه، و ينهون عن الإيمان و متابعة الرسول و من كان كذلك فهو على خلاف المؤمن فكيف يكون مؤمناً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ أَي يُمْسِكُونَ أَمْوَالَهُمْ عَنْ إِنْفَاقِهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَأَنَّ قَبْضَ الْيَدِ كُنَايَةٌ عَنِ الْبَخْلِ وَالْإِمْسَاكِ كَمَا أَنَّ بَسْطَهَا كُنَايَةٌ عَنِ الْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ.

وَقِيلَ قَبْضُ الْيَدِ فِي الْمَقَامِ كُنَايَةٌ عَنِ الْقَعُودِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى يُمْسِكُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

أَقُولُ: الْأَلَى أَنْ يَقُولَ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ يُمْسِكُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْخَيْرَاتِ لِيَشْمَلَ الْكُلَّ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ قِيلَ مَعْنَاهُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ يَعْنِي صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْمُنْسَى.

وَقَالَ قَتَادَةُ نَسُوا مِنَ الْخَيْرِ وَلَمْ يَنْسُوا مِنَ الشَّرِّ.

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَغْفَلُوا ذَكَرَهُ فَنَسِيَهُمْ أَي فَرَكَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَيَعْبُرُ بِالنِّسْيَانِ عَنِ التَّرْكِ مَبَالِغَةً فِي أَنَّهُ لَا يَخْطُرُ ذَلِكَ بَبَالٍ، وَقَوْلُهُ: هُمْ أَلْفَاسِقُونَ أَي هُمُ الْكَامِلُونَ فِي الْفَسْقِ الَّذِي هُوَ التَّمَرُّدُ فِي الْكُفْرِ وَالْإِنْسِلَاخُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَكُفْرٍ الْمُسْلِمُ زَاجِرًا أَنْ يَلْمَ بِمَا يَكْسِبُ هَذَا الْإِسْمَ الْفَاحِشَ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ.

أَقُولُ النَّسْيَانُ فِي الْأَصْلِ تَرَكَ الْإِنْسَانُ ضَبْطَ مَا اسْتَوْدَعَ، أَمَّا لَضَعْفِ قَلْبِهِ، وَ أَمَّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِرَ عَنِ الْقَلْبِ ذَكَرَهُ قَالَهُ الرَّاغِبُ فِي الْمِفْرَدَاتِ فَالنِّسْيَانُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ وَهُوَ فِي الْإِنْسَانِ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ.

وَأَمَّا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُجَازٌ فَمَعْنَاهُ فِيهِ تَعَالَى هُوَ إِعْرَاضُهُ عَنِ الْعِبْدِ وَ إِيكَالَهُ إِلَى نَفْسِهِ حَقِيقَةً وَقَوْلُهُ فَنَسِيَهُمْ مُجَازٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ أَلْفَاسِقُونَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: فَنَسِيَهُمْ فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَمْ نَسِيَهُمُ اللَّهُ فَقَالَ لَفَسَقَهُمُ وَالْفَاسِقُ لَا يَصْلِحُ لِلرَّحْمَةِ وَالْعَنَايَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ عَنْهُ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ إِذَا نَسَبَ النَّسْيَانُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ تَرَكَهُ إِيَّاهُمْ إِسْتِهَانَةً بِهِمْ وَ مُجَازَاةً لِمَا تَرَكَوهُ.

بَيِّنَاتُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه وعد المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم، أي النار حسبهم ولعنهم الله أي أبعدهم عن مقام الرحمة والعناية ولهم عذاب مقيم أي دائم لا يزول وهو عبارة أخرى عن الخلود.

قيل المراد بالكفار هنا المعلنون بالكفر ففي الآية مبالغة في عظم عذابهم إذ عذابهم شيء لا يزداد عليه ولعنهم أهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين كما عظم أهل الجنة والحقهم بالملائكة المقربين.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا

هذا إلتفات من ضمير الغيبة الى ضمير الخطاب قبل التشبيه من جهة الفعل أي فعلتم كأفعال الذين من قبلكم وعليه فتكون الكاف في قوله: كَالَّذِينَ في موضع نصب والتقدير أحذروا أن يحلّ بكم من العذاب والعقوبة كالذين من قبلكم.

وقيل الكاف في موضع رفع والتقدير أنتم كالذين من قبلكم والتشبيه وقع في الإستمتاع والخوض وقوله كانوا أشدّ تفسير لشبههم بهم وتمثيل لفعلهم بفعلهم وفي الكلام إيماء وإشارة الى أنهم قد إغترّوا بأموالهم وأولادهم وقوتهم وشوكتهم ولم يعلموا أنّ الله تعالى قاهر فوق عباده وهو على كلّ شيء قدير ولذلك قال لهم على سبيل القهر والغلبة.

فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا

الإستمتاع هو طلب المتعة و هي فعل ما فيه اللذة من المأكل و المشارب و المناكح و معناه أنهم تمتّعوا بنصيبيهم من الخير و الباطل و باعوا بذلك الخير الاجل فهلكوا بشر إستبدال، و الخلاق النّصيب و الحظّ أي ما قدر لهم الخوض بفتح الخاء الدّخول في الماء.

قال الرّاعب في المفردات الخوض هو الشّروع في الماء و المرور فيه و يستعار في الأمور و معنى الآية أنهم أي الأمم السّالفة إستمتعوا بخلاقهم أي تمتّعوا بنصيبيهم في الدّنيا فإستمتعتم أيّها المنافقون بخلاقكم في الدّنيا كهؤلاء الماضيين من قبلكم و خضتم في الباطل و الكذب على الله و رسوله كالذي خاضوا من قبلكم.

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
فكذلك أنتم إذ حكم الأمثال واحد فاذا كانوا أشدّ منكم قوّة و أعظم منكم مالا و عشيرة و مع ذلك هلكوا لما عصوا فأنتم أخرى بالإهلاك لمعصيتكم و ضعفكم فالمعنى عجلوا حظّهم و تركوا باب الآخرة فإتبعتموهم أنتم.

قال بعض المفسّرين لما بيّن الله تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك الكفّار المتّقدين في طلب الدّنيا و الإعراض عن طلب الآخرة بيّن حصول المشابهة بين الفريقين في تكذيب الأنبياء و فى المكر و الخديعة و الغدر بهم فقال و خضتم كالذي خاضوا، فالذي، صفة مصدر محذوف دلّ عليه الفعل ثمّ قال تعالى: أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ أي بطلت حسناتهم في الدّنيا بسبب الموت و الفقر و الإنتقال من العزّ الى الدّلّ من القوّة الى الضّعف و فى الآخرة بسبب أنهم لا يثابون بل يعاقبون أشدّ العقاب و أولئك هم الخاسرون، حيث أنعبوا أنفسهم في الرّدّ على الأنبياء و الرّسل و تكذيبهم فما وجدوا من تكذيبهم إلّا فوات الخيرات في الدّنيا و الآخرة انتهى.

وإعلم أنّ الخوض و أن كان في الأصل هو الشروع في الماء و المرور فيه و يستعار في الأمور كما نقلناه عن المفردات إلا أنه أكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه.

قال الله تعالى: ذَرُّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يُلْعَبُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ.

قال الله تعالى: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الاستفهام إنكاري والمعنى قد أتاهم نبأ الذين من قبلهم و المقصود أن الله تعالى لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا و الركون إليها و تكذيبهم الانبياء و كان لفظ، الذين، فيه إبهام نص على طوائف بأعيانها ستة و ذلك لأنهم كان عندهم شيء من أنباءهم و كانت بلادهم قريبة من بلاد العرب كانوا أكثر الأمم عدداً و أنبياءهم أعظم الأنبياء فمنهم نوح النبي و هو أول الرسل، و إبراهيم الأب الأقرب للعرب و ما يليها من الأمم مقاربون لهم في الشدة و كثرة المال و الولد فقوم نوح أهلكوا بالغرق و قوم عاد بالريح و قوم ثمود بالصيحة و قوم إبراهيم لسلب النعمة منهم حتى سلطت البعوضة على نمrod و كان ملكهم و أصحاب مدين بعذاب يوم الظلة، و المؤتفكات بجعل أعالي أرضها أسافل و إبطار الحجارة عليهم و السبب في الكل هو عصيانهم و تمردهم و تكذيبهم الأنبياء.

و حيث كان المنافقون أيضاً موصوفين بهذه الصفة و قد ثبت أن حكم الأمثال واحد فلا جرم كان ينبغي لهم ترك التكذيب والعصيان ولأجل ذلك هدّهم الله و أخافهم ممّا وقع على من قبلهم من العصاة.

و قال بعض المفسرين الإستفهام في قوله: **أَلَمْ يَأْتِهِمُ** للتقرير والتحذير لأنّ الإحتجاج بما يلزمهم الإقرار به فقوله تعالى: **أَلَمْ يَأْتِهِمُ** الخ أنما هو على وجه الإحتجاج عليهم ليتعطّوا لأنّ الأمم الماضية اذا كان الله أنما أهلكها و دمرها لتكذيبها رسلها كان ذلك واجباً في كلّ أمة يساؤونهم في هذه الأحوال و لازم ذلك ألاّ يأمّنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك.

و قد نقل عن الرّماني أنّه قال الحكمة تقتضي إستحقاق العقاب في صورة التّساوي فلا يجوز العفو عن بعضهم دون بعض مع تساويهم في الأحوال و أنما يجوز العدول من قوم الى قوم في الواحد ممّا للحاجة و قد أجيب عنه بأنّ هذا يتم على قول من يقول بالأصلح.

و أمّا من لا يقول به و يقول بالتّفضل فيقول هو تعالى متّفضل بذلك فله أن يتّفضل على من يشاء و لا يلزم أن يفعل ذلك بكلّ مكلف انتهى.

أقول لا منافاة بين التّهديد و التّخويف و عدم فعلية العذاب و ذلك إمّا.

أولاً: فلأنّ الله تعالى فاعل مختار يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد:

قال الله تعالى: **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١).

قال الله تعالى: **فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٢) و أمثال ذلك من الآيات.

ثانياً: نقول أنّ الله تعالى رفع عن هذه الأمة العذاب في الدنيا لأجل الرّسول كما.

قال الله تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ^(١).

وأما في الآخرة فالعذاب لهم مسلّم أن لم يتوبوا في الدنيا قبل الموت.

قال الله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ^(٢).

قال الله تعالى: وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^(٣).

و محصل الكلام هو أنّ المنافقين في صدر الإسلام و أن كانوا في إيذاء الرسول و تكذيبه كم كان قبلهم أو أشدّ منهم إلا أن الله تعالى أخرّ عنهم العذاب في الدنيا لما ذكرناه أو لمصلحةٍ رآها لأنه لا يسأل عما يفعل و هم يسألون.

و إعلم أنهم أوختلفوا في المؤتفكات، فقال الحسن و قتادة هي ثلاث قريّات لقوم لوط جمعها بالآلف و التاء و قال تعالى في موضع آخر وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى^(٤) فجاء به على طريق الجنس.

و قال الزجاج، معناه، إئتفكت بأهلها إنقلبت و به قال الواحدي فأنه قال و المؤتفكات صفة للقرى التي أئتفكت بأهلها فجعل أعلاها أسفلها و المؤتفكات مدائن قوم لوط.

و قال بعضهم هي قريّات قوم لوط و هود و صالح و أئتفاكهن إنقلاب أحوالهن عن الخير الى الشر، و قيل هي أهل القرى الأربعة و قيل التسعة التي بعث اليهم لوط و سيأتي تفصيل الكلام في قصّة نوح و هود و صالح و غيرهم من الأنبياء في مواضعها إنشاء الله تعالى.

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

إشارة الى أن العقاب من الله تعالى إنما يصح بعد تمامية الحجة و أما قبلها فلا و قد تمت الحجة ظاهراً و باطناً.

أما ظاهراً فلأنه أرسل الرسل اليهم و أما باطناً فلأنه تعالى أعطاهم العقل و هو الحجة باطناً و بهما قد تمت الحجة على الناس فلا عذر لهم في عصيانهم و خلافهم عند الله عقلاً و شرعاً و عليه فالعقاب وقع في محله لأنه بعد البيان و في قوله: **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** أُلخ إشارة الى أن العقاب الواقع بهم بعد الحجة و البرهان هو عين العدل و مع ذلك فالعبد هو الباعث عليه لأنه أوجب السبب الباعث له بطغيانه و عصيانه و في قوله: **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** إشارة الى أنهم لم يظلموا على الله بل ظلموا على أنفسهم لأنه تعالى لا تضره معصية من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه لكونه غنياً بالذات عن طاعتهم آمناً من معصيتهم فمن عصاه ظلم على نفسه و قد أشار الله تعالى الى هذا المعنى في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٢).

قال الله تعالى: **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٣).

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٤).

قال الله تعالى: **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ^(٥).

قال الله تعالى: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ أَسْمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ** ^(٦).

و الآيات بهذه المضامين كثيرة و أصرح من الكل:

ضياء القرآن في تفسير القرآن



- | | |
|------------------|-------------------|
| ١- البقرة = ٥٧ | ٢- الزوم = ٩ |
| ٣- العنكبوت = ٤٠ | ٤- آل عمران = ١١٧ |
| ٥- الأعراف = ١٦٠ | ٦- الأعراف = ١٦٢ |

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ^(١).

و الوجه فيه واضح و هو أنه تعالى عادل و قد ثبت عقلاً و شرعاً أَنَّ الظلم
من القبائح و القبح لا يليق بساحة قدسه لأنه نقص و عيب و هو منزّه عنه كما
ثبت في محله.



وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ
الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ
رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
(٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَ
أَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
(٧٣) يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً
الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمَا بِمَا لَمْ
يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ
مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٧٤) وَ
مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ يَأْتِيَانَا مِنْ فَضْلِهِ
لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونََنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا
آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ
مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى
يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا
كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

◀ اللغة

وَاعْلَظُوا الْغِلْضَةَ عَدَمَ الرَّقَّةِ وَإِحْلَالَ الْأَلَمِ.
مَأْوَاهُمْ الْمَأْوَى الْمَكَانُ.
يَنَالُوا النَّيْلَ لِحُوقِ الْأَمْرِ.

◀ الإعراب

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ مُبْتَدَأٌ وَأَكْبَرُ خَبْرِهِ مَا قَالُوا هُوَ جَوَابُ قَسَمٍ وَيَحْلِفُونَ قَائِمٌ مَقَامَ الْقَسَمِ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْهُمْ اللَّهُ أَنْ وَمَا عَمِلْتَ فِيهِ مَفْعُولٌ، نَقَمُوا أَيْ وَمَا كَرِهُوا إِلَّا إِغْنَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَقِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ وَالْمَفْعُولُ بِهِ مُحَذَوْفٌ أَيْ مَا كَرِهُوا الْإِيمَانَ إِلَّا لِيُغْنُوا لَيْتُنَا تَنَا مِنْ فَضْلِهِ، فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: تَقْدِيرُهُ، عَاهِدَ فَقَالَ لَيْتُنَا تَنَا.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَاهِدَ بِمَعْنَى قَالَ إِذِ الْعَهْدُ قَوْلُ نَجْوَاهُمْ الْأَسْرَارُ إِخْفَاءُ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ وَالتَّجْوَى رَفَعَ الْحَدِيثَ بِإِظْهَارِ الْمَعْنَى لِمَنْ يَسْلَمُ عَنْدهُ مِنْ إِخْرَاجِهِ إِلَى عَدُوِّ فِيهِ لِأَنَّهُ مِنَ النَّجَاةِ وَقَوْلُهُ، سَرَّهُمْ، مَفْعُولٌ لِيَعْلَمَ وَالتَّجْوَى مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ.

◀ التفسير

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافَقَاتِ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْصَافِ الْقَبِيحَةِ وَالْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ نِفَاقِهِمْ ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَقَالَ: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِنَّمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَ فِي الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِمَّا لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا وِلَايَةَ بَيْنَهُمْ وَلَا شَفَاعَةَ وَلَا يَدْعُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فَكَانَ الْمُرَادُ هُنَا الْوِلَايَةَ فِي اللَّهِ خَاصَّةً.

و إما لأن نفاقهم و كفرهم حصل بسبب التقليد دون الإستدلال و البرهان و هذا بخلاف الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فأنها إنما حصلت بسبب المشاركة في الإستدلال و التوفيق و الهداية هكذا قيل و الحق أن يقال أن المؤمن أخو المؤمن و الأخوة إنما تحصل بسبب الإيمان قد ثبت أن الله تعالى ولي المؤمنين لقوله تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**.

وإذا ثبت الولاية من الله فلا جرم بعضهم أولياء بعض و هذا بخلاف المنافق الذي وليه الشيطان، لقوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ** ^(١). فالمنافق لا يدخل تحت ولاية الله لأجل نفاقه و إذا كان كذلك فلا ولاية لله عليهم فلا ولاية لبعضهم على بعض إذ المفروض إنتفائها في حقه بالكلية و كيف كان فقد ذكر الله تعالى بعد ذلك ما هو يجري كالتفسير و الشرح لما ذكره من ولاية بعضهم على بعض فقال: **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** هذا هو الوجه الأول و الثاني من الوجوه الخمسة المذكورة في الآية التي يَتميز بها المؤمن عن المنافق لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر بل يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف.

و ذلك لأن التفاق عبارة عن مخالفة الباطل للظاهر فلو كان المنافق أمراً بالمعروف و ناهياً عن المنكر مع علمه بهما باطناً كيف يكون منافقاً و المفروض موافقة الباطن للظاهر و أن كان أمراً و ناهياً بهما مع جهله واقعاً فهو جاهل لا منافق لعدم مخالفة الباطن للظاهر و بعبارة أخرى الأمر بالمعروف و الناهي عن المنكر، إما أن يأمر و ينهى بهما ظاهراً مع علمه بهما واقعاً فهو مؤمن. و إما أن يأمر و ينهى عنهما ظاهراً و لا يعلم بهما واقعاً فهو جاهل. و أما أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ظاهراً على خلاف باطنه فهو منافق و عليه فالمنافق قد يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر إلا أنه غير معتقد بكلامه واقعاً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

فقول بعضهم في تفسير الكلام أنَّ المنافق لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر بل يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف لا نفهم معناه لأننا نرى أنَّ المنافقين أيضاً يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ظاهراً كيف لا يكون كذلك و من المعلوم أنَّ المنافق لو أمر بالمنكر وينهى عن المعروف صريحاً يردّ عليه ولا يقبل قوله وإذا كان كذلك فلا نفع لقوله قطعاً فالحق أن يقال في تفسير الآية أنَّ المؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ظاهراً وباطناً أي يأمر به وينهى عنه عن اعتقادٍ وهذا بخلاف المنافق لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ظاهراً وهو غير معتقد بما يقول كما هو شأن النفاق إذا عرفت هذا فنقول:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات بل هما من أوجب الواجبات وأصلها وأساسها فلو قلنا أنَّ الدين عبارة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان حقاً وذلك لأنَّ الأحكام الخمسة التكليفية من الوجوب والحرمة والنّدب والكراهة والإباحة ترجع إليها فأنَّ الوجوب والنّدب والإباحة داخلٌ في المعروف والحرمة والكراهة من المنكر وتوضيح الكلام إجمالاً:

هو أنَّ المعروف يقال لما في فعله مصلحة، والمنكر يقال لما في فعله مفسدة و حيث أنَّ الحرمة والكراهة في فعلهما مفسدة نهى الشارع عن فعلهما فهما من المنكرات.

وأما الوجوب والنّدب والإباحة ففي فعلها مصلحة ولذلك أمر الشارع بها وهذه في الأحكام الفرعية أعني بها الخمسة التكليفية لا كلام لنا ولا لغيرنا فيه لوضوحه كما عرفت.

وأما الاعتقادات من التوحيد والتّوبة والمعاد والإمامة وغيرها فهي أيضاً ترجع الى ما ذكرناه لأنَّ الاعتقاد الصحيح المأمور به داخل في المعروف والباطل منه كالشّرك والنّفاق والكفر والإلحاد داخل في المنكر وهذا معنى

قولنا أَنَّ الدِّينَ عبارةٌ عنهما ولأجل ذلك قد حثَّ الله عليهما في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ^(١)**.

قال الله تعالى: **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ^(٢)**.

قال الله تعالى: **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(٣)**.

و الآيات كثيرة و أمّا الأخبار الواردة في شأنهما فلا يخفى على أحد و قد أشرنا الى شطرٍ منها في سورة آل عمران و سيجي الكلام فيهما في المستقبل أيضاً.

و الذي نقول في المقام هو أَنَّ الله تعالى جعلهما من خصائص المؤمن تمييزاً بينه و بين المنافق و لعلَّ وجه الاختصاص هو أَنَّ المؤمن لإيمانه بالله يحبَّ الخيرات و يبغض المنكرات لأنَّ الأول مأمورٌ به و الثاني منهيٌّ عنه و أن شئت قلت أَنَّهُ يحبُّ المعروف لأنَّ الله تعالى يحبه و ينكر المنكر لأنَّ الله ينكره و المفروض أَنَّهُ تابع لموحده و خالقه في أوامره و نواهيه و اذا كان كذلك فلا محالة يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر بلسانه أيضاً كما هو شأن المؤمن.

و أمّا المنافق فلعدم إيمانه بالله يكون على العكس ممّا ذكرناه فهو دائماً يحبُّ الفحشاء و يبغض المنكرات و القبائح فلا محالة يأمر بالمنكر و ينهى عن المعروف.

نبأ القرآن في تفسير القرآن



٢- آل عمران = ١١٠

١- آل عمران = ١٠٤

٣- لقمان = ١٧

الوجه الثالث: من الوجوه الخمسة المذكورة في الآية قوله تعالى: وَ يَقِيْمُوْنَ الصَّلٰوةَ أَي أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقِيْمُونَ الصَّلَاةَ.
 إن قلت المنافق أيضاً يصلي فالصلاة مشتركة بين المؤمن والمنافق فكيف جعلها الله من خواص المؤمنين.

قلت فرق واضح بين فعل الصلاة كيف إتفق وبين إقامتها أي الإتيان بها مع مراعاة جميع شرائطها من النية وحضور القلب والطهارة وإباحة المكان وغيرها فأن إقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بها مع مراعاة جميع شرائطها الباطنية والظاهرية والمنافق لا يصلي كذلك فأن قصد القرية مثلاً لا يتمشى منه لنفاقه وعدم إيمانه بالله ولعله لهذه الدققة قال تعالى ويقومون الصلاة ولم يقل، و يصلون، مثلاً.

وقيل أن المراد بإقامتها إشاعتها في الناس وهي تحصل بعد ترغيب الناس وتحريضهم عليها وهو أيضاً لا يكون من شأن المنافق لأنه لا يحب كثرة المصلين وإعتناءهم بالدين وكيف كان لا شك أن الإتيان بها غير إقامتها يكفي في وجه اختصاصها بالمؤمن.

وقد ورد في زيارة الحسين عليه السلام أشهد أنك قد أقممت الصلاة وأتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر الخ....

الوجه الرابع: منها قوله: وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَأَمَّا خَصَّ الزَّكَاةَ بِالذَّكَرِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مِنْهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عُمُودُ الدِّينِ وَلِذَلِكَ تَرَى ذِكْرَهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فِي أَكْثَرِ الْمَوَارِدِ.

قال الله تعالى: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلٰوةِ وَ آتَاءِ الزَّكٰوةِ^(١).

قال الله تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَ آتَوْا الزَّكٰوةَ فَخَلُّوا سَبِيْلَهُمْ^(٢).

قال الله تعالى: **وَأَوْضَنِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ^(١).
 قال الله تعالى: **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ** ^(٢).

والآيات في الباب كثيرة دالة على عظم شأن الزكاة.
 ثم أنّ الزكاة في الأصل النمو الحاصل عن بركة الله و يعتبر ذلك بالأموار الدنيوية والاخروية يقال زكا الزرع يزكو اذا حصل منه نمو وبركة وقد حثّ الأخبار على وجوبها ورفع شأنها بل يستفاد منها أنّ قبول الصلاة موقوف على إخراجها وقد ورد عن الصادق عليه السلام أنّه قال ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشدّ عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم انتهى.
 وقد ورد في الأخبار أنّ مانع الزكاة يخرج عن الإسلام وأمثال ذلك من الأخبار كثيرة وقد مضى شطر منها في سورة البقرة وسيأتي الكلام فيها في المستقبل أيضاً.

روي في الكافي في الحسن عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير و بريد والفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام: وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا فرض الله الزكاة مع الصلاة في الأموال وسنّها رسول الله في تسعة أشياء وعفى عمّا سواهن.
 في الذهب والفضة والإبل والبقرة والغنم والحنطة والشعير والتّمر والزبيب وعفى رسول الله عمّا سوى ذلك.

ونحو ذلك أخبار كثيرة وما تضمّنه من الوجوب في التسعة فجمع عليه و تستجّب فيما عداها من الحبوب كما دلّت عليه الأخبار ولها أحكام وشروط و تفصيل الكلّ في الكتب الفقهية وهي من ضروريات الدين بالإجماع.
الوجه الخامس: منها قوله تعالى: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** أي يمتثلون أمرهما ويتبعون إرادتهما و رضاهما.

بناء القرآن في تفسير القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

أَنْ قُلْتَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ أَمَرْنَا بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَمَنْ لَا يَطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَيْفَ يَصْلِي وَيُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** بَعْدَ ذِكْرِ الْأَرْبَعَةِ مُسْتَدْرِكٌ غَيْرُ لَازِمٍ. قُلْتَ لَعَلَّ الْوَجْهَ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ بَلْ وَغَيْرَهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ مَشْرُوطَةٌ بِقَصْدِ الْقَرِيبَةِ وَلَا نَعْنِي بِالْقَرِيبَةِ إِلَّا كَوْنُ الْفِعْلِ عَلَى سَبِيلِ الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَوْلُهُ: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْوَجْهَ الْأَرْبَعَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ أَمَّا تَفِيدُ إِذَا كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ الطَّاعَةِ وَالْخُلُوصِ الْمَعْبَرِ عَنْهُ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** لَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ بَلْ لَا بَدَّ مِنْ ذِكْرِهِ لِيَحْصَلَ الْمَقْصُودُ هَذَا وَ يَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** يَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَحْرَمَاتِ وَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ هَذَا، هُوَ أَصْلٌ مُسْتَقِلٌّ كَالْأَرْبَعَةِ السَّابِقَةِ وَالْمَعْنَى أَنَّ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ شَامِلَةٌ لِمَنْ رَاعَى هَذِهِ الْوُجُوهَ الْخَمْسَةَ الْمَذْكُورَةَ.

ثُمَّ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا يَتَرْتَبُ عَلَى الْإِيمَانِ الْمُتَحَقِّقِ فِي الْخَارِجِ فِي الصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَوْلُهُ: **أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** أَي هَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفِينَ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ يَدْخُلَهُمْ فِي بَحَارِ رَحْمَتِهِ وَ مَغْفِرَتِهِ فَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَزِيزٌ حَكِيمٌ أَي قَادِرٌ لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَ غَيْرِهِمْ، حَكِيمٌ فِي عِقَابِهِ وَ ثَوَابِهِ ثُمَّ أَرْدَفَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ:

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

و أعلم أن الله تعالى أخبر بهذه الآية بأنه كما وعد الكفار والمنافقين بنار جهنم و الخلود فيها كذلك وعد الله المؤمنين و المؤمنينات المعترفين بوحديته و صدق رسله و أنبياءه قلباً و المقرين بها لساناً و العاملين بأحكام الله أركاناً الخلود في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار و التقدير تجري من تحت أشجارها الأنهار الجنة أخايد في الأرض فلذلك قال من تحتها، و أنهم فيها خالدون أي دائمون و أما المساكن الطيبة، فقل أنهما قصور من اللؤلؤ و الياقوت الأحمر و الزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر.

و عن ابن عباس هي دور المقرين، و قيل دور في جنات عدن مختلفة في الصفات باختلاف حال الحاليين فيها.

و قيل هي قصور من زبرجد و درّ و ياقوت يفوح طيبها من مسير خمس مائة عام في أماكن إقامتهم و قيل غير ذلك و الكل محتمل عقلاً إذ لا دليل على ما ذكره في الباب و الله أعلم بحقيقتها و كيفيتها.

و أما قوله: **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ففيه أيضاً أقوال.

منها ما نقله صاحب التبيان رحمته الله عن الرّماني أنه قال الرّضوان معنى يدعو الى الحمد بالإجابة يستحق مثله بالطاعة فيما تقتضيه الحكمة.

و قال الحسن معناه، وصل الى قلوبهم برضوان الله من اللذة و السرور ما هو ألدّ عندهم و أقرّ لأعينهم من كلّ شيء أصابوه من لذة الجنة.

و قال ابن عطية هو إشارة الى منازل المقرين الشارين من نسيم.

و قال الزّمخشري رضاه تعالى سبب لكل فوز و سعادة و أنت ترى أن هذه الأقوال أيضاً من المحتملات التي لا يمكن الإعتماد عليها ضرورة أن الأخبار و الحكاية عمّا وراء عالم الطبيعة كمّاً و كيفاً يحتاج الى النص من الكتاب و السنة و من المعلوم المسلّم عند الكل أن النص في المقام لا يدلّ على أكثر من وجود الجنة و النار و ما فيهما من النعم و النقم و أما كيفية النعمة و العقاب في الجنة و

النَّارَ وَأَنَّ أَقْسَامَ الْجَنَّةِ مَا هِيَ وَكَيْفَ هِيَ وَهَكَذَا دَرَكَاتِ السَّقَرِ فَأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى نَصٍّ مُعْتَبَرٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِذْ لَا سَبِيلَ لِلْعَقْلِ إِلَيْهَا قَطْعاً وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ وَأَمثَالِهِ هُوَ مُتَابَعَةُ النَّصِّ الْمُعْتَبَرِ فَأَنْ وَجَدَ فَهُوَ وَإِلَّا فَالسَّكُوتُ أَوْلَى، وَالَّذِي ثَبَتَ لَنَا أَنَّ الْجَنَّةَ وَاحِدَةٌ وَالنَّارَ وَاحِدَةٌ إِلَّا أَنَّهُمَا تَخْتَلِفَانِ بِإِعْتِبَارِ مَرَاتِبِهِمَا وَمَنَازِلِهِمَا وَكَثْرَةِ الْأَسَامِيِّ لَا تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الْمُسَمًّى فَمَا ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ وَأَمثَالُهُ مِنَ الْعَامَةِ نَقْلًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَمثَالُهُ مِنَ الْكَذَّابِينَ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ أَصْلًا.

نعم قد ورد في الآثار أَنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ وَلِلنَّارِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ وَالْأَصْلُ فِيهِ هُوَ نَصُّ الْكِتَابِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّارِ: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ^(١).

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ: جَنَّاتٍ عَذْنٍ مُمْتَعَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ^(٢).

فَقَدْ رَوَى الْمَجْلِسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْبَحَارِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ قَالَ لِي جِبْرِيلُ قَدْ أَمَرْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْكَ فَرَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَرَأَيْتُ النَّارَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ، وَالْجَنَّةُ فِيهَا ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ كُلُّ كَلِمَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِمَنْ يَعْلَمُ وَيَعْمَلُ بِهَا وَلِلنَّارِ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ كُلُّ كَلِمَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِمَنْ يَعْلَمُ وَيَعْمَلُ بِهَا فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا مُحَمَّدُ اقْرَأْ مَا عَلَى الْأَبْوَابِ فَقَرَأْتُ ذَلِكَ.

أَمَّا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَعَلَى أَوَّلِ بَابٍ فِيهَا مَكْتُوبٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيَّ وَآلِي اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ حِيلَةٌ وَحِيلَةُ الْعَيْشِ أَرْبَعُ خَصَالٍ، الْقَنَاعَةُ وَبَذْلُ الْحَقِّ وَتَرْكُ الْحَقْدِ وَمَجَالَسَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ.

على الباب الثاني: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة و حيلة السرور في الآخرة أربع خصال، مسح رؤوس اليتامى و التّعطف على الأرملة و السّعي في حوائج المؤمنين و التّفقد للفقراء و المساكين.

على الباب الثالث: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة و حيلة العصمة في الدنيا أربع خصال، قلة الكلام و قلة المنام و قلة المشي و قلة الطّعام.

على الباب الرابع: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله، من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر، فليكرم ضيفه، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم جاره، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم والديه، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت.

على الباب الخامس: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله، من أراد أن لا يظلم فلا يشتم و من أراد أن لا يذلّ فلا يذلّ و من أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى في الدنيا و الآخرة فليقل لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله.

على الباب السادس: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله من أراد أن يكون قبره و سيعاً فسيحاً فليبن المساجد و من أراد أن لا تأكله الدّيدان تحت الأرض فليسكن المساجد و من أحبّ أن يكون طرياً مطراً لا يبلى فليكنس المساجد و من أحبّ أن يرى موضعه في الجنّة فليكنس المساجد بالبسط.

على الباب السابع: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله بياض القلب في أربع خصال، عيادة المريض و إتباع الجنائز و شراء الأكفان و ردّ القرض على.

الباب الثامن: مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ ولي الله من أراد الدّخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال، السّخاء، و حسن الخلق و الصّدقة و الكفّ عن أذى عباد الله.

و رأيت على أبواب النّار مكتوب:

على الباب الأوّل: ثلاث كلمات، من رجا الله مسعداً و من خاف الله أمناً و الهالك المغرور من رجا غير الله و خاف سواه.

على الباب الثّاني: من أراد أن لا يكون عرياناً يوم القيامة فليكسي الجلود العارية في الدّنيا و من أراد أن لا يكون عطشاناً يوم القيامة فليسق العطاش في الدّنيا و من أراد أن لا يكون يوم القيامة جائعاً فليطعم البطون الجائعة في الدّنيا.

على الباب الثّالث: لعن الله الكاذبين، لعن الله الباخلين، لعن الله الظّالمين.

على الباب الرّابع: مكتوب ثلاث كلمات أذلّ الله، من أهان الإسلام أذلّ الله من أهان أهل البيت أذلّ الله من أعان الظّالمين على ظلمهم للمخلوقين.

على الباب الخامس: مكتوب ثلاث كلمات، لا تتبّعوا الهوى فالهوى يخالف الإيمان و لا تكثر منطقك فيما لا يعنك فتسقط من رحمة الله، و لا تكن عوناً للظّالمين.

على السّادس: مكتوب أنا حرام على المجتهدين أنا حرام على المتّصدين أنا حرام على الصّائمين.

على السّابع: مكتوب ثلاث كلمات، حسابوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و نجّوا أنفسكم قبل أن تّوبّخوا و أدعوا الله عزّ وجلّ قبل أن تردوا عليه و لا تقدروا على ذلك انتهى^(١).

أقول أنما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من المواظ على لمن كان له قلب.
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ: **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** فَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذِهِ
النِّعَمَ الْمَشَارَ إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ هِيَ النَّجَاحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَهُ وَلَا أَعْظَمَ
مِنْهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ إِذْ أَيْ شَيْءٍ أَعْظَمَ وَأَنْفَعَ مِنْ رِضَا الرَّبِّ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ.

**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا يُهِمُّهُمْ جَهَنَّمُ
وَبَيْتُ الْمَصِيرِ**

أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن يجاهد الكفار والمنافقين والجهد على
ما قيل هو ممارسة الأمر الشاق لأنه مشتق من الجهد وهو قد يجب باليد وقد
يجب باللسان وقد يجب بالقلب وقد يجب بالجميع فمن أمكنه الجميع
وجب عليه جميعه ومن لم يقدر باليد باللسان فأن لم يقدر بالقلب.
ثم أنهم اختلفوا في كيفية جهاد المنافقين والكفار.

فقال ابن عباس جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان والوعظ و
التخويف وهو قول الجبائي.

و قال الحسن و قتادة جهاد الكفار بالسيف و جهاد المنافقين بإقامة الحدود
عليهم.

و قال ابن مسعود هو بالأنواع الثلاثة حسب الإمكان فأن لم يقدر فليكفر في
وجوههم وهو الأعم.

وروي في قراءة أهل البيت وجاهد الكفار بالمنافقين قاله الشيخ في التبيان.
وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** قَالُوا الْغُلُظُّ ضِدُّ الرِّقَّةِ وَالْمُرَادُ خَشُونَةُ الْكَلَامِ وَ
تَعْجِيلُ الْإِنْتِقَامِ عَلَى خِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: **وَاحْفَظْ
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**^(١) وَقَالُوا وَكُلٌّ مِنْ وَقَفَ مِنْهُ عَلَى فُسَادٍ فِي الْعَقَائِدِ فَهَذَا
حُكْمُهُ يَجَاهِدُ بِالْحِجَّةِ وَيَسْتَعْمَلُ مَعَ الْغُلُظِّ مَا أَمُكِنَ.

بناء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

أقول في هذه الآية مسائل:

الأولى: أمر الله تعالى بنبه بالجهاد وهذا مما لا كلام لنا فيه لأن الجهاد من الأصول المسلمة في الإسلام كالصلاة والصوم والحج وغيرها وتفصيل الكلام فيه وفي أقسامه وشرائطه وكيفية مسطور في الكتب الفقهية ومن المعلوم أن الجهاد مع الكفار في بعض الأحيان من أوجب الواجبات إذ به يحصل شرف الإسلام وأنه يعلوا ولا يعلى عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدَنَعُ اللَّهِ الْحَصِينََّةُ، وَجَنَّتُهُ الْوُثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الدُّلِّ وَسَمَلَةَ الْبَلَاءِ، وَدَيَّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ، وَضْرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَسْهَابِ، وَأَدْبَلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخُسْفِ وَمُنْعَ النَّصْفِ^(١).

وقال عليه السلام: إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ^(٢).

وقال عليه السلام: أَوْهَى عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْصَ فَأَقَامُوهُ أَخِيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَاجَابُوا وَوَقَفُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ^(٣).

وقال عليه السلام: آيَنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّيَهُ^(٤).

والحاصل أن أصل الجهاد مما لا ريب في وجوبه ومدحه أنما الكلام في أن الآية قد صرح بوجوبه مع الكفار والمنافقين والمخاطب بها وأن كان رسول الله في ظاهر الأمر إلا أن الأمة بعد الرسول أيضاً مخاطبون بها وإذا كان

بناء القرآن في تفسير القرآن

حزء ١٠

المجلد الثامن

كذلك فما وظيفة الأمة بعد الرسول هل يجب عليهم الجهاد أم لا والذي نقول به ونذهب اليه هو وجوبه بمعناه العام الشامل لجميع أقسام الجهاد سوى الجهاد بالسيف والسنان فإنه مشروط بوجود المعصوم وأمره به وأما في زمان الغيبة كزماننا هذا فلا يجب وللبحث فيه مقام آخر اذا عرفت هذا فنقول:

ما ذهب اليه ابن عباس و تبعه على ذلك جميع العامة في كتبهم و تفاسيرهم من أن الجهاد مع الكفار بالسيف ومع المنافقين باللسان و شدة الزجر و التغليظ فنحن لا نقول به بل هو مردود و عندنا و ذلك لعدم الفرق بين الكافر و المنافق في وجوب الجهاد معهما في زمان المعصوم و مجرد كون المنافق متلبساً بلباس الإسلام ظاهراً لا يوجب ترك الجهاد معه بالسيف و السنان.

و الدليل على المدعى هو أن أمير المؤمنين عليه السلام جاهد الناكثين و القاسطين و المارقين مع أن معاوية و أصحابه و هكذا أصحاب الجمل و النهروان كانوا متظاهرين بالإسلام و لا سيما الخوارج فتخصيص الجهاد بالسيف و السنان للكفار و باللسان و القلب بالمنافقين مملاً لا وجه له.

المسألة الثانية: في تفسير قوله: **وَ أَغْلَظْ عَلَيْهِمْ** قلنا أن الغلظ ضد الرأفة و الرقة و ظاهر الكلام أن الغلظ يجب على الكفار و المنافقين و لا يجوز العفو عنهم و الترحم عليهم كما صرحوا به في تفاسيرهم لهذه الآية و هذا أيضاً لا يستقيم على إطلاقه لأن الإسلام دين الرأفة و الرحمة و أما الغلظة و الخشونة فلا محل لها في الإسلام قال الله تعالى مخاطباً لنبيه **لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**^(١) مضافاً إلى أن العقل أيضاً يحكم ببطلان الخشونة.

أن قلت فما معنى الكلام، قلت معناه و أغلظ عليهم اذا كانوا مضرين على كفرهم و نفاقهم و عنادهم و قتالهم و من المعلوم أن الرأفة و الرقة عليهم في هذه الحالة قبيح عقلاً ممنوع شرعاً بل تعد من الظلم كما قال الشاعر بالفارسية:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثالث

تَرَحُّمٌ بِرِ بِلَنگ سَتِيز دَنَدَان سَتَم کَارِی بُود بِر گُوسَفَنَدَان
و محصل الکلام هو أَنَّ الإسلام بريُّ من الخشونة والغلظة و النَّبي ﷺ
بحكم الآية لم يكن غليظ القلب و اللسان فالغلظة في بعض الأحيان نشأت من
عمل الكفَّار و المنافقين و أن شئت قلت أَنَّ الغلظة عليهم عين الرِّحمة و الرَّأفة
ولو كانوا يعلمون.

و حيث إنَّجر الکلام الى الغلظة فلا بأس بنقل ما رواه البخاري و مسلم في
صحيحهما في مناقب عمر بن الخطَّاب قالَا إِسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَيَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ و عِنْدَ نِسْوَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَكْلَمُنَهُ وَ يَتَكَثَّرُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ
عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا إِسْتَأْذَنَ عُمَرُ قَمْنَ فَبَادَرْنَ الْحِجَابَ فَأَذَنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
فَدَخَلَ عُمَرُ وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ فَقَالَ عُمَرُ أَضْحَكَكَ اللَّهُ سَنَكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كَرُّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ
صَوْتَكَ إِبْتَدَرْنَ الْحِجَابَ فَقَالَ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهْبَنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ
يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهْنِئْنَ وَلَا تَهْبَنَ رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْنَ نَعَمْ أَنْتَ أَغْظُو وَ أَغْلَظُ مِنْ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِيهَآ يَا بَنَ الْخَطَّابِ وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا
فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ انْتَهَى نَقْلُنَا الْحَدِيثَ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (١) وَ قَدْ
نَقَلَهُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْعَامَّةِ وَ هُوَ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ عِنْدَهُمْ.

و أنت ترى ما فيه من تنقيص الرسول و الإهانة به و كأنَّهم أرادوا من جعل
هذا الحديث إثبات فضيلة لعمر و أنه كان من الغيرة و الحمية فوق الرسول أنَّ
النساء يهبن عمر و لم يهبن الرسول و أيضاً أثبتوا بذلك أنَّ الرسول كان فظًّا
غليظًا إِلَّا أنَّ عمر كان أفظَّ منه و أغلظ كما هو مقتضى أفعال التفضيل و قد نفى
الله تعالى الغلظة عنه ﷺ في قوله:

لَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِيظًا لَأَقْلَبُ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ.
وقوله تعالى: إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.

أعجب من الكلّ قوله في آخر الحديث إيهّا يابن الخطّاب و الذّي نفسي بيده ما لقيك الشّيطان سالكاً الى آخره فزعموا أنّ هذا الكلام يدلّ على فضيلة عمر و أنّ الشّيطان كان مأیوساً من إضلاله و لذلك سلك فجّاً غير فجّه ولم يعلموا أنّ الكلام على فرض صحته لا يدلّ على ذلك بل هو بالذّم أشبه منه بالمدح لأنّ الشّيطان لا يضلّ الشّيطان لأنّه من قبيل تحصيل الحاصل فاذا رأى شيطان شيطاناً آخر لا جرم يسلك مسلكاً غير مسلكه و لا سيّما اذا كان الآخر أعلم بطرق الإضلال منه و عليه فأنّ صحّ الحديث فهو في ذمّ عمر لا في مدحه هذ كلّ مع ما في ألفاظ الحديث من الفصاحة و الشّناعة ما لا يخفى على العاقل اللّبيب فاعتبروا يا أولي الأبصار.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: **وَمَا لَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمَ وَ يَسُوسَ الْمَاصِرِ الْمَأْوَى** المكان و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار و المنافقين اذا قالوا على الكفر و النّفاق ولم يرجعوا عمّا كانوا عليه في الدّنيا فلا جرم مأواهم جهنّم و لا شكّ أنّ طريق النّار من أخوف الطّرق و أقبحها لأنّها تنتهي الى العذاب الدّائم أعاذنا الله منه عذا تمام الكلام في تفسير الآية.

و قد ظهر ممّا ذكرناه أنّ الآية ليست بناسخة كما زعمه القرطبي و أمثاله حيث قال و هذه الآية نسخت كلّ شيء من العفو و الصّلح و ذلك لأنّ الآية تختصّ بما اذا كان الكافر أو المنافق مضراً على كفره و نفاقه محارباً للإسلام و المسلمين لا مطلقاً و عليه فالعفو و الصّلح و الصّفح في محله.

ألا ترى أنّ النّبي ﷺ لم يغلظ على كفّار يوم الفتح بل عفى عنهم بقوله أذهبوا أنتم الطّلقاء هذا.

و قد روي في قراءة أهل البيت جاهد الكفّار بالمنافقين قالوا لأنّ النّبي ﷺ لم يكن يقاتل المنافقين و لكن كان يتألفهم ولأنّ المنافقين لا يظهرون الكفر و علم الله بكفرهم لا يبيح قتلهم اذا كانوا يظهرون الإيمان.

و قد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ جاهد الكفار بالمنافقين قال عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقاتل منافقاً قط أنما كان يتألفهم. وفي تفسير علي بن إبراهيم قال أنما نزلت يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم لأن النبي لم يجاهد المنافقين بالسيف.

و قد روي أبو بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: جاهد الكفار والمنافقين بالزمام الفرائض.

و عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين قال عليه السلام: هكذا نزلت فجاهد رسول الله الكفار وجاهد علي المنافقين فجاهد علي جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و في آمالي شيخ الطائفة بأسناده إلى ابن عباس قال لما نزلت يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين قال النبي صلى الله عليه وسلم: لأجاهدن العمالة يعني الكفار وأتاه جبرئيل و قال أنت أو علي عليه السلام: (١)

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ف قيل أنها نزلت في الخلاص بن سويد بن الصامت بأنه قال فأن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من الحمير ثم حلف بالله أنه.

قال القرطبي أن هذه الآية نزلت في الجلأس بن سويد بن الصامت ووديعه بن ثابت وقعوا في النبي وقالوا والله لئن كان محمد صادقاً على أخواننا الذين

هم ساداتنا و خيارنا لنحن شرّ من الحمير فقال له عامر بن قيس أجل والله أن محمداً لصادق مصدق و أنك لشرّ من حمارٍ و أخبرها بذلك النبي ﷺ.

و جاء الجلاس فحلف بالله عند منبر النبي أن عامراً لكاذب و حلف عامر لقد قال و قال اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً فنزلت.

وقيل أنها نزلت في عبد الله ابن أبي، لما قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل و أراد به الرسول ﷺ فسمع زيد بن أرقم ذلك و بلغه الى الرسول فجاء عبد الله و حلف أنه لم يقل.

وقيل نزلت في رجلين إقتلا أحدهما من جهينة و الآخر من غفار فظهر الغفاري على الجهيني الى آخر القصة.

و قال الرازي في تفسير لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه.

قال القاضي يبعد أن يكون المراد من الآية هذه الوقائع و ذلك لأن قوله: **يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرَ** الى آخر الآية كلها صيغ الجموع و حمل صيغة الجمع على الواحد خلاف الأصل.

فأن قيل لعل ذلك الواحد قال في محفلٍ و رضي به الباقون.

قلنا هذا أيضاً خلاف الظاهر لأن إسناده القول الى من سمعه و رضي به خلاف الأصل ثم قال بل الأولى أن نحتمل هذه الآية على ما روي أن المنافقين هموا بقتله عند رجوعه من تبوك و هم خمسة عشر تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته الى الوادي و كان عمار بن ياسر أخذاً بالجطام على راحلته و حذيفة خلفها يسوقها فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل و قعقة السلاح فألنفت فإذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا أعداء الله فهربوا و الظاهر أنهم لما اجتمعوا لذلك الغرض فقد طعنوا في نبوته و نسبوه الى الكذب و التصنع في إدعاء الرسالة و ذلك هو قول كلمة الكفر و هذا القول إختيار الزجاج انتهى ما أردنا ذكره عنه.

أقول هذا القول الأخير الَّذِي إختاره الرَّجَاجُ والقاضي هو المختار عندنا وقد نقله الألوسي أيضاً في روح المعاني من جملة الأقوال أخرجه البهقي في الدلائل عن حذيفة بن اليمان إلا أَنَّهُ قال فإذا أنا بِأُتْنَى عشر راكباً قد إعترضوا فيها.

و نقله القرطبي في تفسيره و الزمخشري في تفسيره و السيوطي في الدر المنثور بطرق مختلفة و الحاصل أَنَّ أقوى الأقوال في نزول الآية هو هذا القول و ضمائر الجمع فيها أيضاً تدلُّ عليه كما قال القاضي و أمَّا تفاسير الشيعة، فقد نقل الشيخ في التبيان و الطبرسي في المجمع و الفيض في الصافي و غيرهم في غيرها الأقوال كُلِّها و منها هذا القول، إلا أَنَّهُم نقلوا قولاً آخر و هو أَنَّها نزلت في الَّذِينَ تحالفوا في الكعبة أَن لا يردُّوا هذا الأمر في بني هاشم فهي الكفر ثُمَّ قعدوا لرسول الله في العقبة.

إذا عرفت هذا إجمالاً فنقول لا إشكال و لا خلاف بين المفسرين من العامة و الخاصة في أصل وقوع الحلف منهم بأنَّهم ما قالوا شيئاً فَمَا نسب إليهم و الحال أَنَّهُم قد قالوا كلمة الكفر و بذلك كفروا بعد إسلامهم.

و أمَّا الخلاف في الحالف و تعيين كلمة الكفر و حيث أَنَّ الحالف لم يكن شخصاً واحداً بدليل قوله يحلفون بصيغة الجمع تقطع بصدور الحلف عن جماعة فلا جرم يقوي في النَّفس أَنَّ الآية نزلت في أصحاب العقبة دون غيرهم و أَنَّهُم حلفوا أولاً ثُمَّ فعلوا ما فعلوا.

و أمَّا المراد بكلمة الكفر في الآية هو إنكارهم الرسالة من الله تعالى و أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال ما قال أو فعل ما فعل من عند نفسه مع قطع النَّظر عن كونه رسولاً من عند الله و من المعلوم أَنَّ إنكار الرسالة كفرٌ مع أَنَّهُم كانوا قد أسلموا ظاهراً قبل التوطئة و بذلك قال الله تعالى: **كَفَرُوا بِعَدَ إِسْلَامِهِمْ** و أمَّا قوله تعالى: **وَهُمْ أَيْمَانُكُمْ** أي قصدوا بما لم يصلوا إليه فمعناه أَنَّهُم قصدوا

قتل الرسول ليلة العقبة ولكنهم لم ينالوا اليه لأن الله تعالى قد أخبر نبيّه بما قصدوه في حقّه و ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنِيَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ معناه لا وجه لنقمتهم هذا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله بعد كونهم محتاجين. قال الزّاعب في المفردات نقمت الشيء و نقمته إذا نكرته أمّا باللسان بالعقوبة و النّقمة العقوبة، و المقصود أن الله تعالى قد أغناهم بما فتح عليهم من الفتوح بواسطة الرسول و ذلك لأنهم كانوا قبل طلوع الإسلام من الفقراء و المساكين ثم صاروا ببركة الإسلام من الأغنياء و لازم ذلك هو الشكر لا النّقمة فإن شكر المنعم واجب عقلاً و حيث أنهم نقموا بدل الشكر فقال تعالى في حقّهم ما قال فهو من قبيل قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
و قول القائل:

مالي عندك ذنب إلا أني أحسنت اليك

فإن فعلهم تدلّ على أنّهم كانوا لثاماً

قال الشاعر:

ولا عيب فينا غير عرقٍ لمعشرٍ كرام و أنّا لا نحطّ على التّمل
و محضّ الكلام أنّهم لأيّ شيء فعلوا ما فعلوا فإن يتوبوا يك خيراً لهم
أي أن يتوبوا و يرجعوا عمّا فعلوا فهو خير لهم و إنّ يتولّوا أي أن يعرضوا
عنها و لم يتوبوا و ماتوا على كفرهم.

يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

كما هو شأن المرتد عن الإسلام.

قال بعض المفسرين عذابهم في الدنيا بأن يحلّ قتالهم و قتلهم و سبي أولادهم و أزواجهم و غنم أموالهم.

و أما في الآخرة فبالعذاب الذي أعدّه الله للكافرين و من المعلوم أنّ من خذله الله لا ناصر له في الأرض هذا تفسير ألفاظ الآية على ما يقتضيه النظر.

و أما الأخبار الواردة في الباب ففي تفسير القمي بأسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال، لما أقام رسول الله أمير المؤمنين يوم غدیر خم كان بحذائه سبعة نفر من المنافقين و هم فلان و فلان و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبي وقاص و أبو عبيدة و سالم مولى أبي حذيفة و المغيرة بن شعبة.

قال الثاني أما ترون عينيه كأنما عينا مجنون يعني النبي الساعة يقوم و يقول قال لي ربّي فلما قام قال أيّها الناس من أولى بكم من أنفسكم قالوا الله ورسوله قال ﷺ اللهم فأشهد ثم قال ألا من كنت مولاه فعليّ مولاه و سلّموا عليه بأمره المؤمنين فنزل جبرائيل و أعلم رسول الله بمقالة القوم فدعاهم و سألهم فأنكروا و حلفوا فأنزل الله **يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ**.

ثم ذكر البخلاء و سماهم منافقين وكاذبين الحديث.

و قال الفيض رحمته في الصافي نقلاً عن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام لما قال النبي ما قال في غدیر خم و صاروا بالأخبية مرّ المقداد بجماعة منهم يقولون إذا دنا موته و فئت أيامه و حضر أجله أراد أن يولينا عليّاً من بعده أما و الله ليعلمن قال عليه السلام فمضى المقداد و أخبر النبي فقال الصلاة جامعة قال عليه السلام فقالوا قد رمانا المقداد فقوموا نحلف عليه فجأؤا حتّى جثوا بين يديه فقالوا بآباءنا و أمهاتنا يا رسول الله و الذي بعثك بالحقّ و الذي كرّمك بالنبوة ما قلنا ما بلغك و الذي إصطفاك على البشر:

فقال النبي ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم، يحلفون بالله ما قالوا و لقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم و همّوا يا محمد ليلة العقبة و ما أنكروا و ما عابوا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله، قال كان أحدهم يبيع الرؤوس و آخر يبيع الكراع و يقتل القرامل فأغناهم الله برسوله ثم جعلوا حدّهم و حديدهم عليه انتهى ما أردنا نقله.

أقول يظهر من هذه الأخبار أنَّ ليلة العقبة كانت بعد وقعة غدير خم لا بعد غزوة تبوك و يظهر من بعض آخر أنها كانت بعد رجوعه عليه السلام من غزوة تبوك و هو الذي إختاره الطبرسي في تفسيره فأنه قال نزلت في أهل العقبة فأنهم أضمروا أن يقتلوا رسول الله في عقبة عند خروجهم من تبوك الى آخر ما قال و هذا هو الذي إختاره جميع المفسرين من العامة و على هذا لا خلاف في أصل القضية و هو أنها نزلت في أهل العقبة و أنما الخلاف في زمان الحادثة و أنها كانت بعد غزوة تبوك أو بعد غدير خم و الله أعلم.

و قد روي صاحب تفسير نور الثقلين عن تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال، لما أقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً بغدير خم و بلغ فيه عن الله ما بلغ ثم نزل إنصرفنا الى رحالنا و كان الى جانب خبائي خباء نفر من قريش و هم ثلاثة و معي حذيفة اليمان فسمعنا أحد الثلاثة يقول، و الله أن محمداً لأحمق أن كان يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده و قال الآخر أتجعله أحمق الم تعلم أنه مجنون و قد كاد أنه يصرع عند امرأة بن أبي كبشة.

و قال الثالث دعوه إن شاء أن يكون أحمق و أن شاء أن يكون مجنوناً و الله ما يكون ما يقول أبداً فغضب حذيفة من مقاتلهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه اليهم و قال فعلمتموها و رسول الله بين أظهركم و حي الله ينزل اليكم و الله لأخبرنه بكرة مقاتلكم فقالوا له يا عبد الله و أنك لهيئنا و قد سمعت ما قلنا أكنتم علينا فأن لكل جوار أمانة فقال لهم ما هذا من جوار الأمانة و لا مجالسها، ما نصحت الله و رسوله أن أنا طويت عنه هذا الحديث فقالوا له يا عبد الله فأصنع ما شئت فوالله لنحلفن أنّا لم نقل و أنك قد كذبت الينا (علينا) إفتراءً يصدقك و يكذبنا و نحن ثلاثة فقال لهم أمّا أنا فال أبالي اذا أدّيت النصيحة الى الله و رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا ثم مضى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و عليّ الى جانب محتبّ بحمايل سيفه أخبره بمقالة القوم فبعث اليهم رسول

اللَّهُ فَأَتَوْهُ فَقَالَ لَهُمْ مَاذَا قُلْتُمْ فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا قُلْنَا شَيْئاً فَأَنْ كُنْتَ أَبْلَغْتَ عَنَّا شَيْئاً فَمَكْذُوبٌ عَلَيْنَا فَهَبْ جِبْرِيلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا الْآيَةَ.

وَقَالَ عَلِيُّ عِنْدَ ذَلِكَ لِيَقُولُوا مَا شَاءُوا وَاللَّهِ أَنَّ قَلْبِي بَيْنَ أَضْلَاعِي وَأَنْ سِيفِي لَفِي عُنُقِي وَلَنْ هَمَّوْا الْأَهْمَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَخْبِرِ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلِيّاً بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ جِبْرِيلُ فَقَالَ إِذَا أَصْبَرَ لِلْمَقَادِيرِ انْتَهَى.

أَقُولُ ثُمَّ نَقَلَ صَاحِبُ التَّفْسِيرِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ تَفْسِيرِ الصَّافِي.

وَنَقَلَ أَيْضاً عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبٍ قَالَ لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيّاً يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ فَقَالَ مَنْ كُنْتَ مَلَوْاهُ فَعَلَيَّْ مَوْلَاهُ فَهَمَّ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ رُؤُوسَهُمَا (حَدَهُمَا) وَاللَّهُ لَا نَسْلَمُ لَهُ مَا قَالَ أَبَدَاً فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ فَسَأَلَهُمَا عَمَّا قَالَا فَكَذَّبَا وَحَلَفَا بِاللَّهِ مَا قَالَا شَيْئاً فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا الْآيَةَ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ تَوَلَّيَا وَمَاتَا إِنْتَهَى^(١) وَالْأَخْبَارُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَفَايَةٌ لِمَنْ أَنْصَفَ وَتَدَبَّرَ فِي الْآيَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْحَلْفَ كَانَ مَسْبُوقاً بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ لِأَنَّهُمْ قَالُوا بِهَا أَوَّلاً ثُمَّ حَلَفُوا بِأَنَّهُمْ مَا قَالُوا وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلِقَائِي أَنْ يَقُولَ، لَمْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَمَا الْبَاعِثُ عَلَى التَّقْوَلِ بِهَا لَوْلَا أَنَّ الرَّسُولَ أَتَى بِشَيْءٍ عَلَى خِلَافِ مِيلِهِمْ وَرِضَاهُمْ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ غَزْوَةَ تَبُوكَ كَانَتْ مِثْلَ غَيْرِهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ فَلَمْ لَمْ يَقُولُوا بِهَا فِي غَيْرِهَا وَهَذَا بِخِلَافِ نَصْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَدِيرِ خَمٍّ فَأَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ كَانَتْ غَيْرَ مَتَرَقِبَةٍ وَلَاجِلِ ذَلِكَ قَالُوا مَا قَالُوا.

وَحَيْثُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْمَقَامِ يَدُورُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، غَزْوَةُ تَبُوكَ، وَقِصَّةُ غَدِيرِ خَمٍّ فَإِذَا إِنْتَهَى الْأَوَّلُ بَقِيَ الثَّانِي عَلَى قُوَّتِهِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن بعض المنافقين الذين تقدّم ذكرهم كان كذلك قيل نزلت الآية في بلتعة بن حاطب كان محتاجاً فندر لئن إستغنى ليصدّق فأصاب أثني عشر ألف درهم فلم يتّصدق فلم يكن من الصّالحين هكذا قال الواحدي.

و قال ابن إسحاق هما بلتعة و مقنب بن قثير و قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب و كان من الأنصار فقال للنبي أدع الله أن يرزقني مالاً فقال ﷺ يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه أما لك بي أسوة حسنة و الذي نفسي بيده لو أردت أن تصير الجبال معي ذهباً و فضّة لصارت ثمّ أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً و الذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالاً لأعطين كلّ ذي حقّ حقه فقال ﷺ اللهم أرزق ثعلبة مالاً قال فأتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتّحنى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثمّ كثرت حتّى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة و الجماعة و بعث رسول الله ﷺ اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى و بخل و قال ما هذه إلاّ أخت الجزية فقال رسول الله ﷺ يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة و أنزل الله الآيات.

و قيل نزلت في رجال من المنافقين ثبل بن الحارث و جندب بن قيس و ثعلبة بن حاطب و معتب بن قثير عن الصّحاح ذكره الطبرسي رحمه الله في المجمع. و كيف كان يظهر من الآية وجوب الوفاء بالعهد فأئ المؤمن اذا وعد وفى، و حلف العهد من علامئ التّفاق ولهذا عدّ الله تعالى من نزلت الآية في حقه من المنافقين.

و قال و منهم، أي من المنافقين، ثمّ أردف كلامه بقوله:

فَلَمَّا آتَيْتُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ
أي فلما أتاهم من فضله من الأموال بخلوا بتّصّدقه و تولّوا و أعرضوا عمّا قالوا و عاهدوا الله عليه كما هو شأن المنافق.

و قيل قوله معرضون إخبارٌ منه تعالى بأنهم معرضون عن الحق بالكلية و كيف كان لا شك أن المنافق في الحقيقة لا قول له و لا عهد لأن الإلتزام بالقول و العهد من شئون المؤمنين.

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

أي فأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم بين الله تعالى أنه أعقب هؤلاء المنافقين أي أورثهم و أذاهم الى نفاق في قلوبهم بخلهم بما أتاهم الله من فضله مع الإعراض عن أمر الله.

و قال مجاهد معناه أعقبهم ذلك بحرمان التوبة كما حرم إبليس و جعل ذلك إمارة و دلالة على أنهم لا يتوبون أحداً لأحد شيئين فمن قال أعقبهم بخلهم ردّ الضمير في أعقبهم الى البخل و عليه فالمعنى يلقون جزاء بخلهم و من ذهب الى أن الله أعقبهم ردّ الضمير الى اسم الله و يمكن الجمع بين القولين بأن الضمير يرجع الى اسم الله ظاهراً أي أن الله أعقبهم و لكن سبب ذلك بخلهم بما وعدوا الله و كذبهم في قولهم.

و قال الزمخشري خذلهم الله حين نافقوا و تمكن من قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها الى أن يموتوا بسبب إخلافتهم ما وعدوا الله من الصدق و الصلاح و كونهم كاذبين و منه خلف الموعد ثلث النفاق انتهت.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ
قوله: أَلَمْ يَعْلَمُوا استفهام تضمن التوبيخ و التقرع و قرأ بعضهم، تعلموا بالتاء و عليه فهو خطاب للمؤمنين على سبيل التقرير و أنه تعالى فاضح المنافقين و معلم المؤمنين أحوالهم التي يكتُمونها شيئاً فشيئاً سرهم و نجواهم إشارة الى إحاطة علم الله تعالى بهم و أنه لا يخفى عليه شيء.

و الظاهر أنَّ الآية تشمل جميع المنافقين من عاهد و أخلف و خصَّتها فرقة
 بمن عاهد و أخلف.
 قيل سرَّهم ما يسَّار بعضهم بعضاً و نجواهم ما تحدَّثوا به جهراً بينهم و
 المعنى واضح.



الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي
الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٧٩) اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ
خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا
تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا
يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ
إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ
تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا
إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ
الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ
أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ
رَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْكَ
أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ (٨٥)

◀ اللّغة

يَلْمِزُونَ، لَمَزَهُ يَلْمِزُ لَمَزاً إذا انتقصه و عابه.
 الْمُطَّوِّعِينَ عَلَى مِيزَانِ الْمُتَّفَعِّلِينَ وَ تَقْدِيرِهِ الْمُطَّوِّعِينَ فَأُدْغِمْتَ التَّاءُ فِي
 الطَّاءِ وَمَعْنَاهُ الْمُتَّفَعِّلِينَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِمَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِمْ.
 جُهِدَهُمْ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ كَالضَّعْفِ وَالضُّعْفِ وَالْوُجْدِ وَالْوُجْدُ. قَالَ الشَّعْبِيُّ
 الْجُهِدُ فِي الْعَمَلِ وَالْجُهُدُ فِي الْقُوَّةِ.
 سَخِرَ قَالَ الرَّاعِبُ سَخَرَتْ مِنْهُ وَاسْتَخَرْتُهُ لِلْهَزْءِ مِنْهُ، السَّخَرِيَّةُ الْإِسْتِهْزَاءُ وَ
 السُّخَرِيَّةُ وَ السَّخَرِيَّةُ لِفَعْلِ السَّاخِرِ.
 اسْتَغْفَرَ الْإِسْتِغْفَارَ طَلَبَ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِسْتِغْفَارِ بِهَا وَ الْمَغْفِرَةُ سِتْرُ
 الْمَعْصِيَةِ بِرَفْعِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا.
 فَرِحَ الْفَرَحَ ضِدَّ الْغَمِّ وَالْغَمَّ ضَيْقَ الصَّدْرِ بِفُتُورِ الْمَشْتَهَى.
 فِي الْحَرِّ الْحَرَّ ضِدَّ الْبَرْدِ وَ الْمَرَادُ بِهِ فِي الْمَقَامِ هُوَ حَرَارَةُ الشَّمْسِ وَ الْبَاقِي
 وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ مَبْتَدَأٌ وَمِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْمُطَّوِّعِينَ وَ فِي
 الصَّدَقَاتِ مَتَعَلِّقٌ يَلْمِزُونَ لَا بِالْمُطَّوِّعِينَ لَثَلَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا بِأَحْبَنِ وَ الَّذِينَ
 لَا يَجِدُونَ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِينَ يَلْمِزُونَ وَ قِيلَ عَلَى الْمُطَّوِّعِينَ وَ قِيلَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ وَخَبَ الْأَوَّلُ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ فِيهِ وَجْهَانِ:
 أَحَدُهُمَا: فَيَسْخَرُونَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْخَبَرَ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ قِيلَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ وَ تَقْدِيرُهُ مِنْهُمْ
 الَّذِينَ يَلْمِزُونَ سَبْعِينَ مَرَّةً هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ وَ الْعَدَدُ يَقُومُ مَقَامَ
 الْمَصْدَرِ كَقَوْلِهِمْ ضَرَبْتَهُمْ عَشْرِينَ ضَرْبَةً بِمَقْعَدِهِمْ أَيَّ بِقُعُودِهِمْ وَ خِلَافُ

ظرف بمعنى خلف رَسُولِ اللَّهِ أي بعده والعامل فيه مقعد و يجوز أن يكون العامل فيه، فَرَح و قيل هو مفعول من أَجَلَهُ قَلِيلاً أي ضحكاً قليلاً أو زمناً قليلاً و جَزَاءٌ مفعول له أو مصدر على المعنى فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ هي متعدي بنفسها و مصدرها، رجع و تأتي لازمة و مصدرها الرُّجُوعُ مِنْهُمْ صفة لأحَدٍ و ماتَ صفة أخرى و يجوز أن يكون منهم حالاً من الضمير في ماتَ.

التفسير

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ

قيل نزلت الآية في علي بن زيد الحارث و زيد بن أسلم العجلاني فجاء علي بصاع من تمره فنثره في الصدقة و قال يا رسول الله عملت في النخل بصاعين فصاعاً تركته لأهلي وصاعاً قرضته ربّي و جاء زيد بن أسلم بصدقة فقال معتب بن قيثر و عبد الله بن نهيك أنما أراد الرياء و قال قتادة و غيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في حجاب بن عثمان لأنه أتى النبي بصاع من تمر و قال يا رسول الله أني عملت بصاعين في النخل من تمر فتركت للعيال صاعاً و أهديت لله صاعاً و جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار و هي شطر ماله للصدقة فقال المنافقون أن عبد الرحمن لعظيم الرياء و قالوا في الآخر أن الله لغنى عما أتى به فأنزل الله تعالى الآية فقال: **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ** أي ينسبونهم الى النقص في النفس الخ قاله الشيخ في التبيان.

و قال بعض المفسرين من العامة نزلت الآية فيمن عاب المصدقين رسول الله ﷺ **حَتَّىٰ عَلَى الصَّدَقَةِ** فتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف و أمسك مثلها فبارك له الرسول ﷺ فيما أمسك و فيما أعطى و تصدق عمر بنصف ماله و عاصم بن عدي بمائة وسق و عثمان بصدقة عظيمة و أبو عقيل الأرتشي بصاع تمر و ترك لعياله صاعاً، و رجلٌ بناقة عظيمة قال هي و ذو بطنها صدقة يا رسول الله و ألقى الى الرسول خطامها فقال المنافقون ما تصدق

هؤلاء إلا رياءً وسمعة إلى آخر ما قال والحق أن ما ذكروه من المتصدقين لا دليل عليه والذي نقطع به هو وجود المتصدقين والآخرين والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرّون منهم قلنا أن الجهد والجهد لغتان بمعنى واحد وقد قرأ اللفظ بهما.

وقال القتيبي هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة.

وقال الآخر هو بالضم في الطاعات وبالفتح في تحصيل الرزق وغيره.
وقال الآخر هو بالضم القوت وبالفتح العمل ثم أن قوله: والذين لا يجدون معطوف على الذين يلمزون ذكره أبو البقاء وإعترض عليه بأنه غير ممكن لأن المعطوف على المبتدأ مشارك له في الخبر ولا يمكن مشاركة الذين لا يجدون إلا جهدهم مع الذين يلمزون إلا أن كانوا مثلهم منافقين، والحق أنه معطوف على المطوعين كأنه قيل يلمزون الأغنياء وغيرهم من الذين لا يجدون إلا جهدهم وقوله: فيسخرّون منهم يعني أن المنافقين يهزؤون بالمطوعين سخر الله منهم أي يجازيهم الله على سخريتهم بأنواع العذاب، ولهم عذاب أليم، أي مؤلم موجه ولما كان ضرر سخريتهم عائداً إليهم جاز أن يقال سخر الله منهم لا أنه تعالى يفعل السخرية وذلك كقوله تعالى: ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين^(١) أي ومكروا وجازاهم الله بمكرهم لا أنه تعالى مكر بهم ويستفاد من الآية أن اللّمز أي نسبة النقص في نفوس المطوعين في الحقيقة من الإستهزاء والسخرية فكأنهم أي المنافقين يهزؤون بالمطوعين في بذل أموالهم والتصدق بهما ويعدونهم من السفهاء ولذلك:

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

الجلد الثاني

قال صاحب الكشف سئل عبد الله بن أبي رسول الله و كان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل فنزلت الآية فقال رسول الله أن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم إستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم إنتهى.

و المراد بالسبعين المبالغة لا العدد المخصوص و يجري ذلك مجرى قول القائل لو قلت ألف مرة ما قبلت فالمراد نفى الغفران جملة، والذي نقول في سبب نزول الآية هو أن النبي ﷺ كان إذا مات ميت من المسلمين صلى عليه و أستغفر له بحكم ظاهر الإسلام لأنه ﷺ لم يكن مأموراً بالواقع فأعلمه الله تعالى أن في جملة من تصلي عليهم من هو منافق و أن إستغفاره له لا ينفع قل ذلك أم كثر ثم نهى الله نبيه أن نصلي على أحد منهم و أن يستغفر له حين عرفه إياهم فقال: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ و علل ذلك بقوله: ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ و الكافر الفاسق إذا مات على كفره وفسقه من غير توبة فهو لا يصلح للمغفرة هذا.

وأعلم أن ما ذكره صاحب الكشف من أن الرسول ﷺ قال فسأزيد على السبعين فنزلت الآية لا يلتفت اليه و ذلك لأن ما ذكره مأخوذاً مما رواه عن النبي ﷺ أنه قال والله لأزيدن على السبعين و هو خبر واحد لو لم يكن مجعولاً لا يلتفت اليه و كيف يقول النبي ذلك و هو ﷺ كان عالماً بأن عدد السبعين للمبالغة و الكثرة و لا يراد به العدد المخصوص و بعبارة أخرى خصوصية العدد لا دخل لها في المقصود حتى يقال فسأزيد على السبعين و إذا كان كذلك فما ذكره صاحب الكشف و تبعه عليه غيره لا معنى له و قال بعض آخر منهم أن الظاهر أن المراد بهذا الكلام التخيير و هو الذي روي عن رسول الله ﷺ و قد قال له عمر كيف تستغفر لعدو الله و قد نهاك الله عن الإستغفار لهم فقال النبي ﷺ ما نهاني و لكنه خيرني فكأنه قال له عليه السلام أن

شئت فاستغفر و أن شئت فلا تستغفر ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم و أن إستغفر سبعين مرة، و هذا القول أيضاً لا يرجع الى محصل أذ لا يستفاد منه التّخيير أصلاً و التّخصيص أن قوله إستغفر لهم صيغة صيغة الأمر و هذا ممّا لا كلام فيه و المراد به المبالغة في الأياس من المغفرة أنّه لو طلبها طلبة الأمور بها أو تركها ترك المنهي عنها لكان ذلك على حدّ سواء في أنّ الله لا يفعلها كما قال في موضع آخر من كتابه: **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**^(١) و القرآن يُفسّر بعضه بعضاً و محصل الكلام أنّ المقصود هو أنّ هؤلاء الذين كفروا بالله و رسوله و ماتوا على ذلك لن يغفر الله لهم أبداً و إنّما قال لن يغفر و لم يقل لا يغفر أنّ كلمة، لن، تُفيد، نفي الأبدكان كذلك فالإستغفار و عدمه بالنسبة اليه على حدّ سواء و يظهر منه أنّ النبي ﷺ كان مأموراً مآذوناً بالصّلاة على كلّ مسلم مات بحكم ظاهر الشريعة ثم أعلمه الله تعالى بأنّ الصّلاة و الإستغفار على هؤلاء المنافقين لا تنفعهم أبداً و سيأتي مزيد بيان في هذا الباب في سورة المنافقين إنشاء الله تعالى.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ
هذا الكلام بمنزلة التعليل لقوله فلن يغفر الله لهم، فكأنّه قيل و لم لن يغفر الله لهم فقال تعالى لكفرهم بالله و رسوله.

و الظاهر أنّ الكفر في المقام هو كفر الجحود أي جحدوا نعمه و جحدوا نبوة الرسول لا كفر الإرتداد أو الكفر الأصلي و ذلك لأنّ الكلام في المنافقين لا الكفار فالمقصود أنّهم كفروا بالله و رسوله واقعاً و أن أظهروا الإسلام ظاهراً قوله: **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** فمعناه أنّه تعالى لا يهديهم الى طريق الجنة و الثواب فأما الهداية الى الإيمان بالإقرار بالتوحيد و الإعتراف بنبوة

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثالث

النبي فقد هدى الله اليه كل متمكن من النظر والاستدلال بأن نصب له على ذلك الدلالة وأوضحها له قاله بعض المفسرين وهو كذلك.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ

قيل أن جماعة من المنافقين خلفهم النبي في المدينة و لم يخرجهم الى تبوك و ذلك لأنهم إستأذنوه في التأخر عن الخروج مع الرسول فأذن لهم الرسول في القعود ففرحوا بذلك لأنهم كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله هذا الكلام بمنزلة التعليل للخروج أي أنهم إستأذنوه في التأخر لكرهاتهم أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله.

ولم يعلموا أن التخلف عن الجهاد من غير عذر من أكبر الذنوب كما أن الجهاد في سبيل الله بالأموال و الأنفس من أعظم القربات و أشرف الفضائل فكيف يفرح المسلم بترك الجهاد، و أشنع منه منعهم نظرانهم أيضاً عن الخروج مع الرسول كما قال تعالى: وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أي و قال هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الجهاد لغيرهم من نظرائهم و أمثالهم لا تنفروا في الحر أي لا تخرجوا في الوقت الحار فقال الله لنبيه قل لهم نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون.

و المعنى أنهم تخلفوا عن الجهاد في الدنيا لأجل الحر و لم يعلموا أنهم وقعوا بذلك التخلف في حرارة جهنم التي لا يقاس بحرارة الشمس في الدنيا و بعبارة أخرى فرّوا عن حرارة الشمس و وقعوا في حرارة النار في جهنم بتركهم الجهاد، و هو دليل على عدم تفقهم في الدين و أنهم أوقعوا نفوسهم في الهلاكة من حيث لا يحتسبون و لا يشعرون.

روي أن رسول الله ﷺ لقي الحر بن قيس (جد بن قيس خ ل) فقال له يا أبا وهب ألا تنفروا معنا في هذه الغزاة لعلك أن تحتقد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله و الله أن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشدّ عجباً بالنساء مني

و أخاف أن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تقتني و أئذن لي أن أقيم و قال لجماعة من قومه لا تخرجوا في الحر فقال ابنه ترد على رسول الله ﷺ و تقول ما تقول ثم تقول لقومك لا تنفروا في الحر والله لينزلن الله تعالى في هذا قرآنًا يقرأه الناس الى يوم القيامة.

فأنزل الله تعالى على رسوله في ذلك و منهم من يقول أئذن لي، و نزل فيه أيضاً قوله: **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ.**

فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
قوله: **فَلْيُضْحَكُوا** صيغته صيغة الأمر و معناه معنى التهديد و ليس أمراً بالضحك و ذلك لأن اللام فيه ساكنة ولو كانت لام الأضافة لكانت مكسورة لأنها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها.

و قال القرطبي و الأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها.
قال الحسن معناه، فليضحكوا قليلاً في الدنيا و ليبكوا كثيراً في الآخرة في جهنم و قيل هو أمر بمعنى الخبر أي أنهم سيضحكون قليلاً و يبكون كثيراً و قوله: **جَزَاءً** أي للجزاء فهو مفعول من أجله و قيل هو منصوب على المصدر أي تجزون على معاصيكم ذلك جزاء على أفعالكم التي إكتسبتموها ثم شدد التكثير على المنافقين المتخلفين عن رسوله في الجهاد.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا

يعني إن ردك الله تعالى الى طائفة يعني جماعة من هؤلاء المنافقين فاستأذنونك للخروج الى الجهاد فقل في جوابهم لن تخرجوا معي الى الجهاد أبداً و لن تقاتلوا معي عدواً و ذلك **إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَافْعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** و المعنى واضح لا خفاء فيه.

و محصل الكلام هو أن هؤلاء لنفاقهم لا يعتمد عليهم فتركهم أولى و أصلح للإسلام والمسلمين.

وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ

هذا نهى من الله تعالى لنبيه عن الصلاة على المنافقين بعد موتهم و القيام على قبورهم بأن يتولى الرسول دفن المنافق

روي أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سلول و صلوة النبي ﷺ عليه فقال بعضهم أن النبي صلى عليه ثم نزلت الآية.

و قال الآخر أن النبي لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبرائيل فحبذ ثوبه وتلا عليه و لا تصل على أحد منهم مات أبداً فأنصرف رسول الله و لم يصل عليه و المشهور عند العامة هو أول القولين.

و قد نقل القرطبي في تفسيره عن البخاري عن ابن عباس أنه قال فصلني عليه رسول الله ﷺ ثم أنصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت.

قال القرطبي و نحوه عن ابن عمر خرجه مسلم قال ابن عمر لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر و أخذ بثوب رسول الله فقال يا رسول الله أتصلي عليه نهاك الله أن تصلي عليه فقال رسول الله ﷺ أنما خيرني الله تعالى فقال:

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ قَالَ أَنَّهُ مُنَافِقٌ فَصَلِّيَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ فَتَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَمَّا صَلَّيَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنَاءَ عَلَى الظَّاهِرِ مِنْ لَفْظِ إِسْلَامِهِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَمَّا نَهَى عَنْهُ أَنْتَهَى.

و قال الطبري في تفسيره نقلاً عن قتادة أنه أرسل عبد الله عبد الله بن أبي بن مسلول و هو مريض الى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال له النبي أهلكك حب اليهود قال يا رسول الله أنما أرسلت اليك لتستغفر لي و لم أرسل اليك لتؤنّبني ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه فأعطاه أياه و صلّى عليه و قام على قبره فأنزل الله تعالى: **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ** و قال في حديث آخر بعث عبد الله ابن أبي الى رسول الله و هو مريض ليأتيه فيها عن ذلك عمر فأتاه النبي فلما دخل عليه قال له أهلكك حب اليهود فقال عبد الله أتني لم أبعث اليك لتؤنّبني و لكن بعثت اليك لتستغفر لي و سأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه أياه فأستغفر له رسول الله فمات فكفن في قميص رسول الله و نفث في جلده و ذلاً في قبره فأنزل الله: **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا**.

ثم قال الطبري أن نبي الله كلف في ذلك فقال و ما يغني عنه قميصي من الله و صلاتي عليه و أتني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه انتهى كلامه.
أقول لا كلام لنا و لهم في أن الله تعالى نهى نبيه عن أن يصلّي على أحد من المنافقين أو يقوم على قبره بمعنى أن يتولّى دفنه أو ينزل في قبره لأنهم كفروا بالله و رسوله و ماتوا على الكفر و الفسق.

هذا هو الذي يستفاد من الآية الشريفة و هذا حكم من الله تعالى كغيره من الأحكام و لا يحتاج الى شأن نزولها من أنه ﷺ صلّى على عبد الله بن أبي أو أراد أن يصلّي فنزل جبرئيل و جذب ثوبه (جذب ثوبه) تلا عليه الآية أو أن عمر أخذ بثوب رسول الله و قال له أتصلّي عليه و قد نهاك الله أن تصلّي عليه كلّ ذلك لا يعتمد عليه و ذلك لأن الرسول كان يصلّي على كلّ مسلم قبل ذلك منافقاً كان أو مؤمناً لأنه ﷺ كان مأموراً بظاهر الشريعة إلا أن الله تعالى منعه بعد نزول الآية و النبي لم يصلّ بعد نزولها قطعاً و أما أن جبرئيل جذب ثوبه لما تقدّم ليصلّي على عبد الله أبي فهو إهانة بالرسول و تحقير له وهكذا أخذ عمر

بنوبه اذ لقائل أن يقول لناقل الحديث كان أخذ عُمر بثوب رسول الله قبل نزول الآية أو بعده.

فعلى الأول كان عُمر عاصياً مخالفاً لحكم الشرع اذ لا يجوز لأحد أن يمنع عن الصلاة على الميت المسلم مضافاً إلى أن منع الرسول عن شيء بمنزلة الرد عليه وهو في حكم الكفر وأن كان بعد نزول الآية فكيف أقدم الرسول على الصلاة عليه وقد نهاه الله تعالى عنها كما هو المفروض.

و بعبارة أخرى أن كان أخذ عمر بثوب رسول الله ونهيه إياه عن الصلاة قبل نزول الآية فهو أي عمر كان عاصياً راداً على الله و رسوله و أن كان بعده يلزم أن يكون الرسول ﷺ عاصياً لإقدامه على الصلاة المنهي عنها.

لا سبيل الى الشق الثاني فالأول مسلم هذا إن قلنا بصحة ما رواه في الباب و حيث أنهم لا يرضون بعصيان عُمر فالحديث مجعول لا أصل له المطلوب.

و قد أجاب القرطبي بزعمه عن هذا الإشكال في تفسيره فقال:

الثانية: أن قال قائل فكيف قال عمر أتصلي عليه و قد نهاك الله أن تصلي عليه و لم يكن تقدّم نهّي عن الصلاة عليهم.

قيل له يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره و يكون من قبيل الإلهام و التحدث الذي شهد له به النبي ﷺ و قد كان القرآن ينزل على مراده كما قال وافقت ربي في ثلاث و جاء في أربعة و قد تقدّم في البقرة فيكون هذا من ذاك انتهى ما أردنا نقله عنه.

أقول أمّا ما نقله في البقرة فهذا لفظه:

الثانية: روي ابن عُمر قال قال عمر وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم و في الحجاب و في أسارى بدر خرّجه مسلم و خرّجه البخاري.

عن أنس قال قال عُمر وافقت الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث الحديث و أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده.

فقال حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال عمر وافقت ربي في أربع، قلت يا رسول الله لو صليت خلف المقام فنزلت هذه الآية:

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى^(١).

و قلت يا رسول الله لو ضربت على نساءك الحجاب فإنه يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله:

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ^(٢).
و نزلت هذه الآية:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ^(٣).

فلما نزلت قلت أنا تبارك أحسن الخالقين فنزلت:

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^(٤).

و دخلت على أزواج النبي فقلت لتنتهن أو ليبدلن الله بأزواج خير منكن فنزلت الآية:

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ^(٥).

قال القرطبي قلت ليس في هذه الرواية ذكر للأسارى فتكون موافقة عمر في خمس انتهى كلامه^(٦).

أقول لسنا فعلاً بصدد الجواب عن هذه الأراجيف و الأباطيل التي إدعوها في المقام و أمثاله لأن العمر أعز و أشرف من صرفه في رد هذه الكلمات بل المقصود من نقلها أن يعلم المسلم المنصف أنهم هكذا يفسرون القرآن و يوجهون الأحاديث المجعولة فيدعون أن عمر كان ملهماً من عند الله دون رسوله و لم يعلموا أو لم يبالوا بأن هذا تحقيق لرسول الله و تنقيص لنبوته و أنبي

بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ



بَابُ الْقُرْآنِ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ

١- البقرة = ١٢٥

٢- الاحزاب = ٥٣

٣- المؤمنون = ١٢

٤- التحريم = ٥

٥- ج ٢ ص ١١٢

لا أَظُنُّ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ يَرْضَى بِهِ وَكَيْفَ يَرْضَى الْمُسْلِمَ فَضْلاً عَنْ الْمُؤْمِنِ أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ كَانِ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَأَنْتِي أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ الْمَوْهَنْةَ مِنْ عُمُرٍ أَوْ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ كَانِ لَوْ صَحَّتْ لَا تُلَاقِمُ الْإِسْلَامَ أَصْلاً فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ مَلْهُماً.

وَمَحْضَلُ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَدْ نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ بِنَزْوِلِهِمَا عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالتَّوَلَّى لِأُمُورِ أَمْوَاتِهِمْ مِنَ التَّكْفِينِ وَالتَّدْفِينِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَأَمَّا الْأَقَاصِيصُ الْمَنْقُولَةُ فَلَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا أَصْلاً وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنَ الرَّازِي وَهُوَ كَيْفَ حَكَمَ بِصَحَّةِ الْقِصَّةِ وَأَثَبَ بِهَا فَضِيلَةَ لِعُمَرَ قَالَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى مَنْقِبَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ مَنَاقِبِ عُمَرَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ عَلَى وَفْقَ قَوْلِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ عُدَّ مِنْهَا مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الْقُرْطُبِيِّ فِي حَدِيثِهِ مِنْ أَمْرِ النَّسَّوَانِ وَأَسَارَى بَدْرٍ وَأُضَافَ إِلَيْهَا آيَةُ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ثُمَّ قَالَ.

خامسها: هذه الآية فصار نزول الوحي على مطابقة قول عمر منصّباً عالياً ودرجة رفيعة في الدّين ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام في حقّه، لو لم أبعث لبعث يا عمر انتهى كلامه.

أقول هذا رجلٌ يدّعي الفلسفة والتّوغل فيها وهذا الذي نقلناه عنه يدلّ على أنّه لم يكن عاقلاً فضلاً عن كونه فيلسوفاً وذلك لأنّ الحديث الذي ذكره في آخر كلامه ينادي بأعلى صوته أنّه مجعول بل هو بكلام المجانين أشبه منه بكلام العاقل فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِذَا كَانَ حَالُ الْمُنَافِقِ هَكَذَا فَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بَعْضُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي الدُّنْيَا أَلَيْسَ هَذَا التَّمَكُّنُ مِمَّا يَزِيدُ أَوْ يَعْينُ عَلَى أَعْمَالِ النِّفَاقِ.

فَأَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ

الخطاب في ظاهر الأمر للنبي و في الحقيقة لكل مخاطب من أفراد أُمَّته لأنَّ النبي ﷺ كان عالماً بمفاد الآية قطعاً و لم يكن من المعجبين و معنى الآية أنَّ كثرة الأموال و الأولاد في الدنيا لا تدلُّ على أنَّ صاحبها محبوبٌ عند الله و أنَّه يليق بها.

ألا ترى أنَّ أكثر الكفَّار من عبدة النيران والأوثان متَّعمون متَّمكنون بأنواع النِّعم في كلِّ عصرٍ و زمانٍ حتَّى زماننا هذا فضلاً عن المنافقين بل كثرة النِّعم في المؤمن لا تزيد إلاَّ شُكراً لله تعالى و في الكافر و المنافق و الفاسق لا تزيد إلاَّ خسارةً و وبالاً و كفراناً و عذاباً في الدنيا و الآخرة و الى هذه الدقيقة أشار الله تعالى في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٢).

قال الله تعالى: وَ لَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُكَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ^(٣).

أن قلت يمكن أن يعذب الله الكفَّار في الدنيا و في الآخرة لكفرهم فقط لأنَّه في الحقيقة موجبٌ للعذاب من غير أن يعطيهم الأموال والأولاد.

قلت أنَّ العذاب على الفعل و هو لا يتحقَّق إلاَّ بأسبابه و مقدماته و من أسبابه الأموال و الأولاد اذ بها يتمكَّن الفاعل على أفعالٍ لا يتمكَّن عليها بغيرها فأنَّ من ليس له ولد و لا مال في دار الدنيا لا يقدر على كثير من المعاصي بخلاف صاحب المال والأولاد فأنَّه يقدر على أكثر ممَّا يقدر عليه

ببإلقاء القرآن في نفس من كتب القرآن



٢- آل عمران = ١١٦

١- آل عمران = ١٠

٣- آل عمران = ١٧٨

الفقير مثلاً و لعلّه لذلك الدّقيقة أشار الله تعالى بقوله ليزدادوا إثماً أي أنّ القدرة الماليّة والأعوان والأنصار توجب الإزدياد في الإثم أنا فأنّا و هو معلوم مشاهد لكلّ أحدٍ في عصره و زمانه.

و قد سبق الكلام في هذا الباب عند قوله تعالى:

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ^(١).

فإنّ الآية قد ذكرت في موضعين من هذه السّورة و قد تكلمنا فيها هناك فلا نعيد الكلام بإعادته ثانياً.

قال بعض المفسّرين أنّ المراد بتعذيبهم في الدّنيا هو أنّهم لا ينفقون الأموال في طاعة الله و لا يخرجون حقّ الله منها و هذا عذاب لهم لو كانوا يعلمون.

و قال بعضهم يجوز أن يعذبهم في الدّنيا بما يلحقهم فيها من المصائب و العموم و بما يأخذه المسلمون على وجه الغنيمة و بما يشقّ عليهم من إخراجها في الزّكاة و الإنفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الإسلام و تشدّد ذلك عليهم و يكون عذاباً لهم و أنّ نفوسهم تزهق أي تهلك بالموت و هم كافرون أي في حال كفرهم فلذلك عذبهم الله في الآخرة.

أقول و يمكن أن يكون المراد بقوله: **أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا** هو تحريضهم على جمع الأموال كيف إنفق و حفظهم الأولاد للدّنيا من دون أن ينتفعوا بها فيها و لا شك أنّ فيه مشقّة عظيمة و عذاب أليم لمن كان له أدنى بصيرة و ذلك لأنّه قد جمع الأموال لغيره في الحقيقة و هو واضح.

وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ
رَسُولِهِ أَسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا
ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرِّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ
الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى
الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ
لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا
أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتْهُمْ تَقْبِضُ مِنْ
الْدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

◀ اللغة

أَوَلُوا الطَّوْلَ بفتح الطاء أي ذوي الغنى و الثروة.

ذَرْنَا بفتح الدال أي أتركنا.

مَعَ الْخَوَالِفِ جمع خالفة و هم أصحاب الأعداء من النساء و الصبيان و الرجال و قيل هي جمع خالفة في الرجال اذا كان غير نجيب يقال فلان خالفة أهله اذا كان دونهم.

الْمُعَذِّرُونَ بفتح العين و تشديد الدال و قد قرأ بسكون العين و تخفيف الدال و لكل وجه.

الضُّعَفَاءِ جمع ضعيف و المرضى جمع مريض.

خَرَجَ بفتح الحاء و الراء معناه الضيق و المشقة.

حَزَنًا الحزن بفتح الحاء و الراء ألم في القلب لفوت أمر.

يَسْتَأْذِنُونَكَ يطلبون منك الإذن.

◀ الإعراب

أَنَّ إِمْنُوا أي آمنوا والتقدير يقال فيها آمنوا و قيل أَنَّ هنا مصدرية تقديره أنزلت بان آمنوا أي بالإيمان إِذَا نَصَحُوا العامل فيه معنى الكلام أي لا يخرجون حينئذٍ وَلَا عَلَى الَّذِينَ هو معطوف على الضُّعَفَاءِ فيدخل في خبر ليس و أن شئت عطفته على المحسنين فيكون المبتدأ من سبيل وَأَعْيَتْهُمْ تَقْيِضُ الجملة في موضع الحال وَ حَزَنًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو منصوب على المصدر بفعلٍ دَلَّ عليه ما قبله.

◀ التفسير

وَ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ أَنْ إِمْنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ

بين الله تعالى أنه اذا أنزل سورة من القرآن و حكم الله فيها بالإيمان و

الجهاد و الخطاب للجميع لأنَّ جميع المسلمين كانوا مأمورين بالإيمان و الجهاد و مع ذلك يعتذر المنافق و يقول كذا وكذا و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **أَسْتَأْذِنُكَ أَوْ لَوْ أَلْطَوِلَ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ** أي يطلبون منك ترك الجهاد خصَّ الله بالإستئذان من الرّسول أولي الطّول منهم أي ذوي الغنى و الثّروة دون الفقراء لأنَّ الجهاد فيه فظنّته القتل و الخرج و من المعلوم أنّ ذوي الغنى لإعتيادهم بالتّرفه و التّنزه لا يقدمون على ما فيه القتل و الجرح و المشقّة بخلاف الفقراء فأنّهم ليسوا كذلك.

ثانياً: أنّ الفقير يختار الدّين للدّين و الغني يختاره لحفظ ماله و نفسه ألا ترى أنّ كلّ نبيّ من الأنبياء في دعوته الى الحقّ كان مستظهِراً بالفقراء في بادي الأمر ثمّ تبعهم الأغنياء بعد ذلك لما ذكرناه من حفظ المال و النّفس و لذلك نقول أنّ أكثر الأغنياء الذين آمنوا به ظاهراً كانوا من المنافقين و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلا جرم يفرّون ممّا فيه ضررٌ على أنفسهم و أموالهم ولو احتمالاً و حيث أنّ الجهاد فيه فظنّته الضّرر بزعمهم قالوا لرسول الله ذرنا أي أتركنا نكن مع القاعدين من الصّبيان و الأزمنى و المرضى الذين لا يقدرّون على الخروج هذا.

و قال بعض المفسّرين هذا خطاب للمؤمنين و أمر لهم بأن يدوموا على الإيمان و يتمسّكوا به في مستقبل الأوقات و يدخل فيه المنافق و يتناوله الأمر بأن يستأنف الإيمان و يترك التّفاق ثمّ يجاهدوا بعد ذلك بنفوسهم و أموالهم لأنّه لا ينفعهم الجهاد مع التّفاق.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَافِ وَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ أي هؤلاء الذين إستأذّنوك من المنافقين و قالوا ذرنا مع القاعدين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخواف و هم النّساء و الصّبيان و المرضى و القاعادون و في هذا الكلام إشارة الى دنائتهم و ذلّتهم و ذلك لأنّهم أدلّوا نفوسهم و حقّروها

بهذا الإستئذان و القعود في بيوتهم كالنساء و الصبيان و غيرهما من ذوي الأعدار و في قوله: وَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ فِي قولان: أحدهما: أَنَّ تعالى يجعل نقطة سوداء في قلب المنافق و الكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أَنَّهُ لا يفلح أبداً.

الثاني: أن يكون المراد بذلك الذم لها بأنّها كالمطبوع عليها فلا يدخلها خير و لا ينتفي عنها شرُّ و الطبع في اللّغة هو الختم التّهيّ.

أقول أمّا الوجه الأوّل فلا معنى له لأنّه تعالى لم يقل طبع الله على قلوبهم بل قال طبع بصيغة المجهول.

فالقول بأنّ الله يجعل في قلب المنافق نقطة سوداء لا معنى له مضافاً الى أنّه مستلزم للجبر و ذلك لأنّه تعالى لو فعل ذلك في قلب المنافق فلا يقدر على التوبة و إصلاح نفسه و الرجوع عن نفاقه قطعاً و من كان كذلك فهو مجبورٌ مقهورٌ في نفاقه فكيف يعاقب عليه يوم القيامة.

و عليه فالوجه الثاني هو الأقوى عندي و الله أعلم.

لَكِنَّ الرّسُولَ وَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَهٗ جَاهِدُوْا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ وَاُولٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرٰتُ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ

في هذه الآية أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين المجاهدين مع الرسول بأموالهم و أنفسهم فحكم بأنّ لهم الخيرات و أنّهم هم المفلحون و ذلك لأنّ هؤلاء آمنوا بالله و رسوله أولاً ثمّ جاهدوا معه و لم يقولوا ذرنا نحن مع القاعدين و المراد بجهاد الأموال إنفاقها في مرضاة الله و بجهد النفس مقاتلتهم الكفار بالسيف و السنان و غيرهما من آلات الحرب ثمّ أخبر الله تعالى عمّا يترتب على جهادهم من الجزاء فقال أولئك لهم الخيرات في الجنة و نعيمها و خيراتها و أنّهم المفلحون أي الفائزون بكرامة الله فإنّ الفلاح هو النّجاح بالوصول الى البغية و هو مأخوذ من نجاح الحاجة أي قضاؤها.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أي أن الله تعالى أعدَّ لهؤلاء المؤمنين المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في الآخرة جَنَّاتٍ أي بساتين تجري من تحتها الأنهار، معناه من تحت أشجارها و لا شك أنه الفوز العظيم لأنها باقية غير نافية مشحونة بالسُرور و الفرح لا تصيبها الافات و الغوم و الفوز هو النجاة من الهلكة الى حال النعمة.

وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

قرأ بعضهم، المعذِّرون بسكون العين و تخفيف الدال و الباقون بفتح العين و تشديد الدال و هو الأشهر الأقوى و عليه المصاحف فمن قرأ بالتخفيف أراد أنهم جاءوا بعذرٍ و من قرأ بالتشديد أنه أراد المعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن أو أنه أراد المقصِّرون و المعذِّر المقصِّر و أمَّا المعتذر فأنه يقال لمن له عذر و لمن لا عذر له قال لبيد:

الى الحول ثم إسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً إعتذر
أي جاء بعذر و قال بعضهم يجوز أن يكون المعتذرون هم المعتذرون فيوهمون أن لهم عذراً و لا عذر لهم وكيف كان فمعنى الآية أن قوماً من الأعراب أظهروا الإيمان للنبي ولم يكن لهم منه نصيب و لا في الجهاد رغبة و استأذنوا النبي ليأذن لهم في التخلف عنه فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذراً في التخلف عن الجهاد و قعد الذين كذبوا الله و رسوله يعني المنافقين عن الجهاد فيما كانوا يظهرون من الإيمان فقال الله تعالى: سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أي ينالهم عذابٌ مؤلِّمٌ موجعٌ في الآخرة و حاصل الكلام في الآية هو أنه قعد قوم عن الجهاد بعذرٍ أظهروه عند النبي ﷺ و قعد قوم آخر بغير عذرٍ أظهروه جرأةً على رسول الله و هم الذين أخبر الله عنهم بقوله:

وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فليُبقِ في البين إلاً المؤمنون الخالصون
الصادقون المطيعون لله ورسوله وأولئك هم المهتدون حقاً.
قال الله تعالى: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ^(١).

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ
اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

إِعلم أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاً بقدر وسعها فمن عجز عن الفعل لا
تكليف له قال الله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاً وُسْعَهَا^(٢) وهو مقتضى العدل.
فإن التكليف بما لا يطاق ظلمٌ قبيح و عليه فمن كان له عذر يختلف فتارة
يكون بالمرض وتارة بالضعف وتارة بشئ آخر إذا عرفت هذا.

فأعلم أن الله تعالى لما بين الوعيد والعذاب في حق من لا عذر له واقعاً و
أن كان يومهم العذر بزعمه ذكر في هذه الآية أصحاب الأعدار الحقيقية و بين
أن التكليف بالجهد ساقط عنهم و هم على أصناف.

الأول: الضُّعَفَاءُ جمع ضعيف و هو الذي في بدنه الضعف مثل الشيوخ و
من خلق في أصل الخلقة و الفطرة ضعيفاً نحيفاً و الى هؤلاء أشار بقوله: لَيْسَ
عَلَى الضُّعَفَاءِ و هم لا يقدرّون على الجهد لضعفهم و عجزهم.

الثاني: المرضى، جمع مريض قليل و يدخل فيهم أصحاب العمي و العرج
و الزمانة و كل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن و القدرة على
المحاربة و الى هذا المعنى أشار بقوله: وَلَا عَلَى الْمَرْضَى.

الثالث: الذين لا يجدون الزاد و الرأحة و سائر ما يحتاجون اليه في حرب
العدو و ذلك لأن حضور الغازي في الحرب ينفع اذا قدر على الإنفاق على
نفسه من مال نفسه أو من يعينه عليه فأن لم تحصل هذه القدرة صار كلاً و وبلاً

على المجاهدين و هو كما ترى يمنعهم من الإشتغال بالمقصود قال بعض المفسرين أنه تعالى لما ذكر هذه الأقسام الثلاثة حكم بأنه لا حرج عليهم في المقصود عن الجهاد ومعناه الجواز لا اوجوب أي بمقتضى عدم الحرج هو عدم الوجوب و أما أنه لا يجوز عليهم الخروج فلا يستفاد من الآية فإذا خرج الواحد أو أكثر منهم للغزو تحت عنوان الإعانة و النصرة لجيش المسلمين بقدر ما أمكن له مثل حفظ متاعهم أو تكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً و وبالأعلى عليهم كان ذلك طاعة مقبولة إنتهى.

و الحق أن ما ذكره لا فائدة فيه لأن قوله تعالى: **وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حُكْمٌ** عام يشمل جميع ما ذكره و ما لم يذكره لأن الإنفاق أعم من الإنفاق بالمال أو البدن أو غيرهما اللهم إلا أن يقال بإختصاص الإنفاق في المقام بالمال و كيف كان فالأمر واضح و المقصود الأصلي في عدا الوجوب هو وجود الغدر العقلي أو الشرعي و لذلك يعمم الحكم بالمحبوس و المعنى عليه و الممنوع عن الخروج و غيرها من الموانع ثم أنه ذكر في الآية شرطاً معنياً لفني الحرج عنهم و هو قوله: **إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ** أي أن هؤلاء المذكورين يجوز لهم التخلف عن الجهاد اذا نصحوالله و رسوله بمعنى أنهم اذا أقاموا في البلد سعوا في إيصال الأخبار الى المجاهدين و قيل معناه أن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم و قيل غير ذلك مما هو داخل تحت الحكم و قال بعض المفسرين معناه أن تكون نياتهم و أقوالهم سرّاً و جهراً خالصة لله من الغش ساعية في إيصال الخير للمؤمنين داعية لهم بالنصر و الظفر على الأعداء فإن من رضي بفعل قوم فهو منهم.

وقد روى العامة عن سنن أبي داود عن رسول الله ﷺ: **أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ لَقَدْ تَرَكْتُمْ بَعْدَكُمْ قَوْمًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلَا قَطَعْتُمْ وَايًّا إِلَّا وَ هُمْ مَعَكُمْ فِيهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ كَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَ هُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ ﷺ حَسِبْتُمْ الْعَذْرَ انْتَهَى.**

مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كلمة، ما، للنفي أي ليس على من فعل الحسن الجميل طريق، والإحسان هو إيصال النفع إلى الغير لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح والمقصود أن فعل هؤلاء القاعدين حسن لمطابقته العقل والشرع ومن كان كذلك فلا سبيل عليه من لائمة تناط به أو عقوبة تعاقب عليها والله غفور رحيم قيل الواو للحال أي لا سبيل عليهم والحال أن الله غفور رحيم وقيل للإستئناف والمأل واحد.

تنبيه

ذكر الرّازي في المقام ما لا يخلو نقله عن فائدة ونحن ننقل ما ذكره بألفاظه و عباراته.

قال: وقوله تعالى: مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ يقتضي نفي جميع المسلمين فهذا بعمومه يقتضي أن الأصل في حال كل مسلم براءة الذمة وعدم توجه مطالبة الغير عليه في نفسه وماله فيدل على أن الأصل في نفسه حرمة القتل إلا لدليل منفصل والأصل في ماله حرمة الأخذ إلا لدليل منفصل وأن لا يتوجه عليه شيء من التكليف إلا لدليل منفصل فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلاً معتبراً في الشريعة في تقرير أن الأصل براءة الذمة فإن نص خاص يدل على وجوب حكم خاص في واقعة خاصة قضينا بذلك النص الخاص تقديماً للخاص على العام وإلا فهذا النص كافٍ في تقرير البراءة الأصلية.

ومن الناس من يحتج بهذا على نفي القياس قال لأن هذا النص دل على أن الأصل هو براءة الذمة وعدم الإلزام والتكليف فالقياس أمّا أن يدل على براءة الذمة أو على شغل الذمة.

والأول: باطل لأن براءة الذمة لما ثبت بمقتضى هذا النص كان إثباتها بالقياس عبثاً.

الثاني: أيضاً باطل لأن على هذا التقدير يصير ذلك القياس مخصصاً لعموم هذا النص وأنه لا يجوز لما ثبت أن النص أقوى من القياس قالوا وبهذا الطريق تصوير الشريعة مضبوطة معلومة ملخصة بعيدة عن الإضطراب و الاختلافات التي لا نهاية لها و ذلك لأن السلطان اذا بعث واحداً من عماله الى سياسة بلده فقال له أيها الرجل تكلفني عليك و على أهل تلك المملكة كذا وكذا وعدّ عليهم مائة نوع من التكاليف مثلاً ثم قال و بعد هذه التكاليف ليس لأحدٍ عليهم سبيل كأن هذا تنصيصاً منه على أنه لا تكليف فيما وراء تلك الأقسام المائة المذكورة.

و لو أنه كلف ذلك السلطان بأن ينص على ما سوى تلك المائة بالنفي على سبيل التفصيل كان ذلك محالاً لأن باب النفي لا نهاية له بل كفاه في النفي أن يقول ليس لأحدٍ سبيل إلا فيما ذكرت و فصلت فكذا هاهنا أنه تعالى لما قال ما على المحسنين من سبيل يقتضي أن لا يتوجه على أحدٍ سبيل.

ثم أنه تعالى ذكر في القرآن ألف تكليف أو أقل أو أكثر كان ذلك تنصيصاً على أن التكاليف محصورة في ذلك الألف المذكور و أمّا فيما وراءه فليس لله على الخلق تكليف و أمرٌ و نهْيٌ و بهذا الطريق تصوير الشريعة مضبوطة سهلة المؤنة كثيرة المعونة و يكون القرآن وافياً ببيان التكاليف و الأحكام قوله:

أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ^(١).

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ^(٢).

حقاً و يصير قوله: لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.

حقاً و لا حاجة البتة الى التمسك بالقياس في حكم من الأحكام أصلاً فهذا ما يقرّره أصحاب الظواهر مثل داود الأصفهاني و أصحابه في تقرير هذا الباب انتهى كلام الرازي.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

وَأَنَا أَقُولُ يظهر من نقل الرّازي ما نقلناه عنه أَنَّهُ تلقى ما ذكره بالقبول لأنّه لم يردّ عليه بل إكتفى بالتّقل فقط و اذا كان كذلك فنقول ما ذكره في بطلان القياس حقّ لا مريّة فيه و هذا هو مذهب الشيعة في الأحكام الشرعية لأنّ القياس يوجب إدخال ما ليس من الدين في الدين و هو بدعة و صاحبها في النّار و هذا ممّا لا شكّ فيه عندنا.

و أمّا ما ذكره في أواخر كلامه و هو بمنزلة النّتيجة لمّا ذكره من أنّ التّكاليف محصورة في القرآن و أمّا فيما وراءه فليس لله على الخلق تكليف و أمرٌ و نهْيٌ فهو على إطلاقه باطل و ذلك لأنّ كون التّكاليف أو جميع الأحكام محصورة في القرآن لا يوجب ما ذكره من أنّه ليس على الخلق تكليف فيما وراءه ممّا لا خفاء فيه على المتأمّل المنصف لأنّ المراد بكونها محصورة في القرآن هو وجودها فيه بحسب الواقع فهو مسلمٌ مقطوع به لقوله تعالى: لَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ^(١).

و إن كان المراد بكونها محصورة فيه هو ذكر الأحكام و بيانها فيه ظاهراً على وجه التّفصيل فهو ممنوعٌ اذ ليست الأحكام موجودة فيه بهذا المعنى و لأجل ذلك قرن الرّسول و العترة بالقرآن في قوله: أَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ التّثْقِلِينَ كِتَابَ اللَّهِ و عترتي أهل بيتي ما أن تمسّكتم بها لن تضلّوا أبداً فلو كانت الأحكام الشرعيّة موجودة في القرآن على وجه التّفصيل فأَيّ احتياج بالعترة في المقام و لا معنى لقوله ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً فما ذكره الرّازي على إطلاقه لا يصحّ إلّا على مذهبه الّذي أخذه من عمر حيث قال.

حسبنا كتاب الله و منه يظهر فساد قوله و يكون القرآن وافيّاً ببيان التّكاليف و الأحكام نعم هو وافيٌ لها لمن أنزله الله عليه و هو الرّسول و أهل بيته الطاهرين الّذين قرّنهم الله بالكتاب على لسان رسوله.

و محصّل الكلام هو أنّ إستنباط الأحكام وإستخراجها من القرآن مختص بالرسول و أهل بيته الذين عصمهم الله من الزلّل و أمّا غيرهم كائناً من كان فلا يقدر على ذلك و لذلك ترى الإختلاف في الفروع الفقهيّة بين المسلمين و تشّتت الأراء بين المفسرين في تفسير كلام الله و لتفصيل الكلام في الباب موضع آخر هذا كلّهُ مضافاً الى أنّ قوله: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ لَا يَرْبُطُ بِهِ» المباحث الخارجة عن تفسير الآية.

لأنّ معنى الكلام بقرينة السياق و المقام هو أنّ القاعدة عن الجهاد المعذورين في قعودهم النّاصحين لله و رسوله لكونهم من المحسنين لا سبيل عليهم من الدّم على القعود في الدنيا و العذاب عليه في الآخرة لأنّهم كانوا معذورين فيه عقلاً و شرعاً.

ثمّ ذكر الله قسماً رابعاً من المعذورين فقال:

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ

الحمل هو إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك و هذه الآية عطفت على الآية السابقة و هي قوله ليس على الضّعفاء الآية و المعنى كما أنّه لا حرج على الضّعفاء و المرضى كذلك لا حرج على الذين اذا ما أتوك لتحملهم أي يطلبون منك المركوب و أنت تقول لهم لا أجِدُ ما أحملكم عليه، أي ليس لي مركوب أحملكم عليه، تولّوا، أي أعرضوا و اعينهم تفيض من الدّم حزنًا على عدم و جدانهم ما ينفقون.

أن قلت أليس أنّ هؤلاء داخلون تحت قوله و لا على الذين لا يجدون ما ينفقون فما الفائدة في إعادته.

قلت قوله: الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ في الآية السابقة هم الفقراء الذين ليس معهم دون الثّقّة، و أمّا الآية الأخيرة فالمراد بهم الذين ملكوا قدر الثّقّة إلّا أنّهم لم يجدوا المركوب هكذا قيل.

فِي الْقُرْآنِ
تفسير القرآن



و الحق في الجواب أن يقال أن الثقة عبارة عن الزاد فقط وليست عبارة عما يحتاج اليه المجاهد من زاد و مركوب و سلاح و الذي يحتاج اليه المجاهد في جهاده هو جميعها لا الثقة و الزاد فقط ففي الآية السابقة نفى الجميع.

و في المقام أثبت الزاد و نفى المركوب و بعبارة أخرى بعضهم قعدوا عن الجهاد لفقرهم و بعضهم لعدم المركب من فرس و بعير و قد حكم الله تعالى بنفي الحرج عنهما و في قوله تعالى تفيض أعينهم، إشارة الى أن قلوبهم كانت مع الرسول و لذلك كانوا يكون و هو كاف لقبول عذرهم.

قال القرطبي نزلت في عرياض بن سارية و قيل نزلت في عائذ بن عمرو و قيل نزلت في بني مقرن و عليه جمهور المفسرين و كانوا سبعة أخوة كلهم أصحاب النبي ﷺ و ليس في الصحابة سبعة أخوة غيرهم و هم النعمان و معقل و عقيل و سويد و سنان و عبدالله و عبدالرحمن.

و قيل نزلت في سبعة نفر من بطون شتى و هم البكاءون أتوا رسول الله في غزوة تبوك ليحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه فتولوا و أعينهم تفيض من الدمع، و هم سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، و علي بن زيد أخو بني الحارثة و أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن ابن النجار، و عمرو بن الحمام من بني سلمة و عبد الله بن المغفل المزني و هرمي بن عبد الله أخو بني واقف و عرياض ابن سارية الفزاري هكذا سماهم أبو عمرو في كتاب الدر له و فيهم إختلاف انتهى كلام القرطبي في المقام.

قال القيسري، معقل بن يسار و صخر بن خنساء و عبد الله بن كعب الأنصاري و سالم بن عيمرة و ثعلبة بن غنمة و عبد الله بن فضل و آخر قالوا يا نبي الله لقد ندبتنا للخروج معك فأحملنا على الخفاف المرفوعة و النعال المخصوفة نغز معك فقال ﷺ لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا و هم يبيكون.

و قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب و كان الرجل يحتاج الى بعيرين بعير يركبه وبعير يحمل ماء و زاده لبعده الطريق.

و قال الحسن نزلت في أبي موسى و أصحابه أتوا النبي ليستحملوه و وافق ذلك منه غضباً فقال ﷺ و الله لا أحملكم و لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا يكون فدعاهم رسول الله ﷺ و أعطاهم ذوداً فقال أبو موسى أأست حلفت يا رسول الله فقال ﷺ أني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير و كفرت عن يميني.

أقول الذي يستفاد من الآية هو أن بعض المسلمين أتوا رسول الله و سألوه ما سألوهم من الحمل و قال لهم رسول الله لا أجد ما أحملكم عليه، و هذا القدر مسلم لا إشكال فيه و أما أنهم أي شيء قصدوا بهذا الكلام و أي شيء طلبوا منه ﷺ و كم كانت عدتهم و من كان السائل فلا نعرف منها شيئاً و الآية ساكنة عنها و ما روه في المقام لا يعتمد عليه و أما قوله: **وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ** الى آخر الكلام ففيه إشارة الى أنهم كانوا محزونين حيث لم يوفقوا على الجهاد و بهذا يظهر لنا أنهم كانوا مؤمنين مخلصين فأل المناق لا يتأثر يتأسف في أمثال المقام و الدليل على ما ذكرناه هو نفي الحرج عنهم لأنهم بمنزلة قبول العذر منهم و هو واضح.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

كلمة أنما تفيد الحصر و المقصود أن اخرج الذي هو طريق للعقاب ثابت للأغنياء الذين لا عذر لهم في التخلف لتمكنهم من الجهاد في سبيل الله و لكنهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف و هم النساء و الصبيان و من لا حراك به.

و أما قوله: **وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** معناه وسم قلوبهم بسمه تعرفوا الملائكة فيميزون بينهم و بين غيرهم من المؤمنين.

فصل الفرقان في تفسير القرآن



و قيل المراد من الطَّبَع أَنَّ قلوبهم بمنزلة المطبوع في أن لا يدخلها الإيمان كما لو طبعوا على الكفر و مثله قوله تعالى: **صُمُّ بُكْمٌ عُقِيَّ** فهم لترك تَلَفُّظهم بالحق و عدولهم عن سماعه و إنصرافهم عن النظر الى الصحيح كأنهم صمُّ بكمٌ عميٌّ، و هم لا يعملون ذلك و لا يدرون الى ما يصير أمرهم من عقاب الأبد.

و قال بعضهم، معناه لإفهمم للخلاف و المعصية كأنهم لا يعلمون و الحاصل أنهم قد فتحوا على أنفسهم أبواب العذاب و العقاب و ما رَبَّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ^(١).

أَقُول قد مضى الكلام في هذا الباب عند قوله: **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** فلا يفيد الكلام بذكره ثانياً. و قد ذكر الرّازي في المقام ما يوهم الجبر المنفي في الشريعة المقدسة موافقاً لمذهب الأشاعرة القائلين به و هو منهم فقال، و طبع على قلوبهم يعني أَنَّ السَّبَب في نفرتهم عن الجهاد هو أَنَّ اللَّه طبع على قلوبهم فلاجل ذلك الطَّبَع لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدِّين و الدُّنْيَا انتهى.

و هو كما ترى ينادي بِأَنَّ الْعِلَّةَ و السَّبَب في نفرتهم و تخلفهم عن الجهاد هو أَنَّ اللَّه طبع على قلوبهم و بذلك صاروا من الجهال الذين لا يعلمون منافع الجهاد و اذا كان الأمر على هذا المنوال فما ذنبهم في التَّخَلُّف عنه و لا نعني بالجبر إلّا هذا أعني عدم قدرة العبد على الفعل و هو كما ترى و الحق أن يقال أَنَّهُ إشارَةٌ الى ما أجرى اللَّه به العادة أَنَّ الانسان اذا تنهى في اعتقادٍ باطلٍ أو ارتكابٍ محظورٍ و لا يكون منه تَلَفُّتٌ بوجهٍ الى الحق يورثه ذلك هيئَةً تمرّنه على إستحسان المعاصي و كأنما يختم بذلك على قلبه.

بَابُ التَّوْبَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء ١٠
الطبعة الثانية

و من المعلوم أنَّ التَّناهي في الباطل و عدم التَّلَفُّت الى الحقِّ ليس خارجاً عن إختياره و قدرته و اذا كان كذلك فالعبد في الحقيقة يوجد في نفسه ما يمنعه من قبول الحقِّ و الإعراض عن الباطل و يعبر عنه بالطَّبع فكأنَّما طبع و ختم بذلك على قلبه و على ما ذكرناه فكلمة الطَّبع، في قوله: وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ كناية و إستعارة.

و على هذا النِّحو إستعارة الإغفال:

في قوله تعالى: وَ لَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا^(١).
و إستعارة الكن:

في قوله: وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ^(٢).
و إستعارة القساوة:

في قوله: وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً^(٣). و أمثال ذلك كثيرة.

و أمَّا ما نقلوه عن الجبائي من أنَّ الله يجعل ختماً على قلوب الكفَّار ليكون دلالةً للملائكة على كفرهم فلا يدعون لهم، فليس ذلك بشئٍ لأنَّ هذه الكتابة لا يحتاج الملائكة اليها لإطلاعهم على إعتقاداتهم من قبلُ الله تعالى فهم مستغنية عن الإستدلال هذا تمام الكلام في تفسير الآية.

و آخر الكلام في الجزء العاشر من كتابنا و تيلوه جزء الحادى عشر اوله تعيذرون اليكم و المرجو هذا و المرجو منه تعالى أن يوفِّقنا لإتمام سائر الأجزاء إن شاء الله و أن يرزقنا الإخلاص في العمل ليكون ذخراً ليومٍ لا ينفع فيه مال و لا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم بحقِّ محمّدٍ و آلِهِ الطَّاهرين.

فضاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٠

المجلد الثامن

الجزء

الحادى عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا
لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ
سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ
إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ
رَجِسٌ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٩٥) يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَ
أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ
مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدُّوَّارَ
عَلَيْهِمْ ذَا بَرَّةٍ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَ
مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ
يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي
رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

◀ اللغة

يَعْتَذِرُونَ: الاعتذار طلب قبول العذر.
 نَبَأْنَا اللَّهَ: النبأ الخبر أي أخبرنا الله.
 سَيَحْلِفُونَ: الحلف القسم.
 اتَّقَلَبْتُمْ: أي رجعتم.
 رَجِسَ: الرّجس بكسر الراء التن.
 مَأْوَاهُمْ: المأوى المكان.
 أَجْدَرُ: أي أخلق وأولى وأقرب.
 مَغْرَمًا: أي غرمًا من قولهم غرّمته غرمًا و غرامةً.
 يَتَرَبَّصُ: التّربص التمسك بالشّي لعاقبةٍ ومنه التّربص بالطّعام لزيادة السّعر.
 الدَّوَائِرُ: بفتح الدال جمع دائرة و هي العواقب المذمومة.
 قُرْبَاتٍ: بضمّ الراء وإسكانها وفتحها، جمع، قرية و هي طلب الثّواب و
 الكرامة من الله تعالى بحسن الطّاعة و هي تدني من رحمة الله.

◀ الإعراب

جَزَاءٌ مصدر يجوزون بذلك أو هو مفعول له بِكُمْ الدَّوَائِرُ الباء تتعلق
 بـيَتَرَبَّصُ ويجوز أن يكون حالاً من الدَّوَائِرِ دَائِرَةُ السَّوءِ بضمّ السّين و هو الضّرر
 و هو مصدر في الحقيقة و قد يقرأ بفتح السّين و هو الفساد و الرّدائة قُرْبَاتٍ
 مفعول ثانٍ لِيَتَّخِذَ و عِنْدَ اللَّهِ صفة لقربات أو ظرف لها أو لِيَتَّخِذَ، وَ صَلَوَاتٍ
 الرّسول معطوف على ما ينفق تقديره و صلوات الرّسول قربات.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

◀ التفسير

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
 نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ

أخبر الله تعالى في هذه الآية رسوله و الذين جاهدوا معه عن حال هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الجهاد في سبيل الله ولم يخرجوا مع النبي من غير عذر فقال لهم أن القاعدين المتخلفين يعتذرون اليكم عن تأخيرهم بالأباطيل و الكذب بعد رجوعكم اليهم و يقولون كذا وكذا قل يا محمد لهم لا تعتذروا فإننا لا نصدقكم على ما تقولون و تعتذرون لأن الله تعالى قد أخبرنا من أخباركم و أعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم و أنكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم كما هو شأن المنافق في أقواله و أفعاله: **وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُوْلُهُ** قالوا في معناه أي سيعلم الله فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه.

و قيل المراد أنه يحل في الظهور محل ما يرى و قال بعضهم (سيرى الله) توعّد أي سيراه في حال وجوده فيقع الجزاء منه عليه إن خيراً فخيئراً و إن شراً فشرّاً.

و قال الزمخشري و سيرى عملكم أتنبيون أم تثبتون على الكفر، و قيل كانوا يظهرون للرسول عند تقريرهم معاذيرهم حباً و شفقة ف قيل و سيرى الله عملكم هل تبقون على ذلك أم لا.

و قال الألوسي في تفسيره أي سيعلمه سبحانه علماً يتعلّق به الجزاء فالرؤية علمية انتهى.

أقول ما ذكره الألوسي لا نفهم معناه و أظن أنه تكلم بما لم يعلم معناه فأَنَّ الرؤية العلمية في حقّه تعالى لا معنى لها.

و قال النيسابوري في تفسيره المسمى بغرائب القرآن، و سيرى الله عملكم، يعني رؤية وقوع أي سيقع أنكم هل تبقون على الحالة التي تظهرونها أم لا انتهى.

و قال الطبري يقول الله تعالى و سيرى الله و رسوله فيما بعد عملكم أتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه انتهى.

و قال الرّازي معناه هل تبقون بعد ذلك على هذه الحالة التي تظهرونها من الصدق و الصفاء أو لا تبقون عليها انتهى.

أقول هذا ما ذكره في تفسير الكلام و الذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ المنافقين لمّا إعتذروا عمّا فعلوا من تخلفهم عن الجهاد و رأوا قبح ذلك فقالوا لرسول الله في مقام الإعتذار بخلاف ما في قلوبهم و ذلك لأنّهم كانوا راضين بما فعلوا من التّخلف واقعاً ولكنّهم قالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقال الله تعالى لنبيه فسيرى الله و رسوله عملكم فيما بعد هل تمشون على النفاق أم لا و أنّما قال لهم ذلك لأنّ القصد و النية يظهر بالعمل و أمّا قبله فلا يعلمه إلا الله و محصل الكلام هو أنّ الله تعالى كان عالماً بضمائرهم و أنّهم يكذبون ولكنّه تعالى قال ما قال ليقف الناس على نفاقهم بعد ظهوره في أعمالهم في عالم الخارج فتعالى الله.

ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

في هذا الكلام إشارة الى أنّ الجزاء يوم القيامة متفرّع على العمل في الدنيا لا على النية و القصد فقط و لذلك قال فينبئكم أي فيخبركم بما كنتم تعملون أي في الدنيا ولم يقل بما كنتم تقصدون و تضمرون مثلاً و لعلّه لهذا السرّ قال تعالى: **وَسِيرَىٰ إِلَهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ** أي أنّ الله تعالى لا يعاقب العبد على ما قصده و باطنه ما لم يظهره في العمل و ذلك من لطافة الخفية.

و أنّما سميت الآخرة بعالم الغيب لأنّها غائبة عن الحواسّ هذا إذا قلنا بفتح اللام.

و أمّا إذا قلنا بكسرها كما عليه المصاحف غالباً فالمقصود أنّكم ترجعون الى الله الذي يعلم السرّ و ما يخفى فهو تعالى عالم بالظواهر و عليه فالله تعالى عالم الغيب و الشهادة و هو المطه.

تذنيب

إِعلم أنَّ الإعتذار و هو اظهار ما يقتضي العذر يمكن أن يكون صحيحاً و يمكن أن يكون فاسداً و ما نحن فيه من قبيل الثاني و هو ظاهر ثمَّ أنَّ الفرق بين الإعتذار و التوبة هو أنَّ التوبة إقلاع عن سيئة وقعت و الإعتذار إظهار ما يقتضي أنَّها لم تقع و لذلك يجوز أن يتوب العبد الى الله و لا يجوز أن يعتذر اليه.

و أما الإعتذار الصحيح الذي له وجه عقلي فهو ما كان صاحبه محققاً هذا. ثمَّ أنَّ الله تعالى أخبر عن هؤلاء المنافقين المعتذرين بالباطل.

سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ جزاء بما كانوا يكسبون

و المقصود أنَّ المنافقين لا يقنعون بالإعتذار فقط كما أشار الله تعالى اليه في الآية السابقة بل يؤكدون تلك الإعتذار بالحلف و اليمين فيحلفون بالله لكم إذا إنقلبتم أي رجعتم اليهم أي يحلفون بالله تعالى بأنَّ إعتذارهم حق و أنَّهم كانوا معذورين واقعاً و عرضهم بذلك أنَّما هو أن تصفحوا عنهم و تعرضوا عن ذمهم و توبيخهم و تعنيفهم، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ أي أتركوهم و لا تلوموهم، لأنهم رجس، أي معتذرون بما إنطوا عليه من النفاق فتجب مباحدهم و إجتناهم:

قال الله تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(١).

قال الله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا^(٢).

و أنَّما أطلق عليهم الرِّجس في الأصل الشئ القدر يقال رجل رجس و رجال أرجاس ثمَّ أنَّ على أربعة أوجه:
إما من حيث الطبع.

وإِذَا مِنْ حَيْثُ الْعَقْلُ.

وإِذَا مِنْ حَيْثُ الشَّرْعُ.

وإِذَا مِنْ حَيْثُ الْمَجْمُوعُ.

وَالأَوَّلُ: كَالْقَاذوراتِ مِثْلَ الدَّمِّ وَالبَوْلِ وَالمَنِيِّ وَأَمْثَالِهَا.

الثَّانِي: كَالْبَخْلِ وَالحَسَدِ وَالخِيَانَةِ وَالظُّلْمِ وَغَيْرِهَا.

الثَّالِثُ: كَالخَمْرِ وَالمَيْسِرِ.

الرَّابِعُ: كَالْمَيْتَةِ فَأَنْتَها رَجَسٌ طَبْعاً وَعَقْلاً وَشَرْعاً إِذَا عَرَفْتَ الرِّجْسَ وَأَقْسَامَهُ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمُنَافِقَ أَمْرَهُ يَدُورُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ رَجْساً عَقْلاً أَوْ شَرْعاً.

وَأَمَّا الْقِسْمَانِ الْأَخْرَانِ فَلَا يَطْلُقَانِ عَلَيْهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْلِمٌ ظَاهِراً وَبَعْدَ التَّوْبَةِ عَنِ التَّفَاقِ يَكُونُ مُؤْمِناً فَهُوَ لَا يَكُونُ رَجْساً بِحَسَبِ الطَّبْعِ كَالْقَاذوراتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّطْهِيرَ.

وَهَكَذَا الْكَافِرُ عَلَى قَوْلٍ لِأَنَّهُ أَيْضاً يَقْبَلُ التَّطْهِيرَ بِسَبَبِ الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا كَوْنُ الْمُنَافِقِ رَجْساً بِحَسَبِ الشَّرْعِ وَالعَقْلِ فَوَاضِحٌ لَا خِلَافَ فِيهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الرِّجْسُ الرُّوحَانِيُّ لَا الْجِسْمَانِيُّ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ الرَّجُلَ الْمُتَصَفَّ بِه لَا تَنْفَعُ فِيهِ الْمَعَاتِبَةُ وَالدُّعَا وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ الْحَلْفِ مَخَافَتُهُمْ أَنْ يَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَلَا يَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ وَلَا يُؤَادُّوهُمْ فَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَاعْدَمَ تَوَلِّيَهُمْ وَبَيَّنَّ الْعِلَّةَ فِي ذَلِكَ بِرَجْسِيَّتِهِمْ وَبِأَنَّ مَالَ أَمْرِهِمْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، أَيِ مَسْتَقَرَّهُمْ فِيهَا، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنَ التَّفَاقِ وَالعَمَلِ بِهِ، وَنَقَلَ عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، أَيِ لَا تَكَلِّمُوهُمْ.

أَقُولُ مَا نَقَلُوهُ عَنْهُ مَعَ بَعْدِهِ لَا يَسَاعِدُهُ اللَّفْظُ.

يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِيَتَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ
الْفَاسِقِينَ.

قال مقاتل نزلت في عبد الله بن أبي حلف بالله الذي لا إله إلا هو أن لا يتخلف عنه بعدها وحلف ابن أبي سرح لنكونن معه على عدوه وطلب من الرسول أن يرضى عنه فنزلت وهنا حذف المحلوف به وفي قوله: سَيَخْلِفُونَّ بِاللَّهِ أثبت ولا فرق بين حذفه وإثباته في إنعقاد ذلك يمينا و غرضهم في الحلف هو رضا الرسول والمؤمنين منهم لنفعهم في دنياهم لا أن مقصدهم وجه الله تعالى ثم أن الفرق بين الحلف في الآية السابقة وهذه الآية هو أن الحلف هناك لأجل الإعراض والصفح عنهم والإجتنب عن توبيخهم ولومهم فجاء الأمر بالإعراض نصاً فقال: فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَأَمَّا في هذه الآية ذكر الحلف لأجل الرضا وهو أمر قلبي ولذلك أبرز النهي عن الرضا في صورة شرطية فقال تعالى: فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ولم يقل لا ترضوا عنهم صريحا.

ومن المعلوم أنهم لا يرضون عمن لا يرضى الله عنه فقوله: عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ كأنه نص على أن إنتفاء الرضا لأجل فسقهم ومنه يعلم أن النفاق فسق وهو كذلك.

ثم أشار الله تعالى الى أحوال الأعراب وأصحاب البوادي.

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

قال الزاغبي في المفردات العرب ولد إسماعيل عليه السلام والأعراب جمعه في الأصل وصار ذلك إسماء لسكان البادية.

وقيل في جمع الأعراب أعراب والأعرابي في التعارف صار إسماء للمنسوبين الى سكان البادية انتهى.

أقول يظهر من كلامه أن الأعراب في أصل اللغة يطلق على ولد إسماعيل سواء كانوا من أهل البوادي أم من أهل الحضرة والبلاد إلا أنه في التعارف يطلق

على سكان البادية و على هذا المعنى أطلق المفسرون قوله: **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا** و قالوا المراد بالأعراب في الآية هو سكان البادية حول المدينة و غيرها.

و قال بعضهم نزلت في أعراب، أسد و غطفان و تميم و أعراب حاضري المدينة و حكم بأنهم أشد كُفْرًا و نفاقاً من غيرهم من أهل الحضر و أنما كانوا كذلك لتوحشهم و إستيلاء الهواء الحار عليهم فيزيد في تيههم و نخوتهم و فخرهم و طيشهم و تربيتهم بلا سائس و لا مؤدب و لا ضابط فنشأوا كما شاؤوا لبعدهم عن مشاهدة العلماء و معرفة كتاب الله و سنة رسول الله و لبعدهم عن مهبط الوحي كانوا أطلق لساناً بالكفر و النفاق من منافقي المدينة و ذلك لأن هؤلاء المنافقين من أهل الحضر كان الخوف من المؤمنين مستولياً عليهم و لذلك كان كفرهم سرّاً و لا يتظاهرون به إلا تعريضاً.

و أمّا قوله: **وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ** معناه أنهم أي الأعراب أعني بهم سكان البوادي أحق بالجهل بكتاب الله و سنة رسوله.

و قيل المراد بحدود الله الفرائض وكيف كان فالأمر واضح لا خفاء فيه بل نقول هذا الحكم لا يختص بالأعراب بل هو من الأحكام العامة الشاملة لجميع أهل البوادي من الأعراب و غيرهم ألا ترى أن سكان البوادي من العجم أيضاً كذلك و لذلك قيل عليكن بالمدن لا بالبوادي.

وقد روي عن رسول الله ﷺ: **أَنَّهُ قَالَ عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ وَ الْمَقْصُودِ الْبِلَادِ الْكَبِيرَةِ فَأَنَّ الْبِلَادَ الضَّغِيرَةَ فِي حُكْمِ الْبَوَادِي.**

و لنعم ما قيل بالفارسية:

ده نشيني مرد را أحق كند مرد حق را كافر مطلق كند

روي أن زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة و كان قاعداً يوماً يروي الحديث و الى جانبه إعرابي فقال له أن حديثك يعجبني و أن يدك تربيني فقال أنها الشمال فقال و الله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال فقال زيد صدق الله وقرأ: **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا** و موضع أن، في قوله

ألا يعلموا، نصب لأن تقديره أجدر بأن لا يعلموا فحذف الباء فأنصب و
التقدير أجدر بترك العلم غير أن الباء لا تحذف مع المصدر الصريح و إنما
تحذف مع، أن، للزوم العلم بها و حملها على التأويل و أجدر مأخوذ من جدر
الحائط تعالى: عَلِيمٌ حَكِيمٌ معناه هو عالم بأحوالهم و بواطنهم، حكيمٌ فيما
يحكم به عليهم.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ
دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

قرأ بعضهم دائرة السوء بضم السين و الباقون بفتحها فمن فتحها أراد
المصدر و إنما أضاف الدائرة الى السوء تأكيداً كما يقال عيني رأسه و شمس
النهار:

قال الله تعالى: مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ^(١).

قال الله تعالى: وَظَلَمْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ^(٢).

و كلمة، من، للتبعية أي الأعراب أي بعضهم من يتخذ ما ينفق مغرمًا، أي
غرمًا.

قيل أنها نزلت في إعراب أسد و غطفان و تميم لأنهم كانوا يتخذون ما
يؤخذ منهم من الصدقات و قيل من الزكاة و لذلك قال بعضهم ما هي إلا جزية
أو قريبة من الجزية و قيل كل نفقة لا تهواها أنفسهم و هي مطلوبة شرعاً و
المعنى منهم من يتخذ ما ينفقه في سبيل الله من الجهاد و غيره، مغرمًا، أي
غرامة و خسران لأنهم كانوا يعتقدون كذلك و ذلك لأنهم كانوا لا ينفقون إلا
تقيةً أو رياءً لا لوجه الله و إبتغاء مرضاته و من المعلوم أن من أنفق ماله لا لوجه
الله بل لأجل الخوف و التقية و الرياء لا يرى إنفاقه إلا من مصاديق الغرامة و
الخسران و أما قوله: وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ.

معناه ينتظر بكم الموت و القتل أي ينتظر أن تغلب الأمور عليكم بموت الرسول و يظهر عليكم المشركون ثم أنه أعاده عليهم فقال عليهم دائرة السوء، و الدائرة تستعمل في آفة تحيط بالإنسان كالدائرة بحيث لا يكون له منها فخلص و قال ابن فارس المغرم ما لزم أصحابه و الغرام اللازم و منه الغريم للزومه و إلحاحه و التربص الإنتظار و الدوائر هي المصائب التي لا مخلص منها تحيط به كما تحيط الدائرة.

و قيل تربص الدوائر هنا موت الرسول ﷺ و ظهور الشرك قال الشاعر:
تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت جليلاً
و تربص الدوائر ليخلصوا من إعياء النفقة و قوله: عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ دعاء معترض دعاء عليهم بنسبة ما أخبر عنهم كقوله: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ^(١) والدعاء من الله إنجاب الشيء لأنه تعالى لا يدعوا على مخلوقاته و هي في قبضته.

و قال الكرمانى عليهم تدور المصائب و الحروب التي يتوقعونها على المسلمين و هنا وعد للمسلمين وإخبار و قوله: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ معناه أنه تعالى عالم بالسموعات عليهم بالظواهر و الضمائر فلا يخفى عليه شيء أصلاً.

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ

لما أخبر الله تعالى في الآية السابقة أن من الأعراب أي بعضهم من يتخذ ما ينفق مغرمًا أخبر في هذه الآية بأن بعضاً آخر منهم بخلاف ذلك بسبب إيمانهم بالله و اليوم الآخر فهم يتخذون ما ينفقونها في سبيل الله قربات عند الله أي أنهم يتقربون بذلك الى الله وليس ذلك إلا لإحلاصهم و إيمانهم بالله و رسوله.
قال الزجاج يجوز في، قربات، ثلاثة أوجه:

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

ضَمَّ الرِّاءَ وإسكانها وفَتَحَها، وما قَرِئَ إِلَّا بِالضَّمِّ والقربة في الأصل هي طلب الثَّواب والكرامة من الله بحسن الطَّاعة وهي تدني من رحمة الله و التقدير أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ نَفَقَاتِهِمْ وصلوات الرِّسُولِ أي إدعائهم له قربة الى الله و قيل معنى، وصلوات الرِّسُولِ، إستغفار لهم.

و قال قتادة معناه دعاءه بالخير والبركة قال الأعشي:

تقول بنتي وقد قَرَّبْتُ مرتحلاً يا رَبِّ جَنَّبَ أَبِي الأوصاب والوجعا عليك مثل الذي صَلَّيت فأغتمض نوماً فَأَنْ لَجِبَ المرء مضطجماً ثم قال تعالى: **إِنَّا قُرْبَةً لَهُمُ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** الضمير يرجع الى صلوات الرِّسُولِ أي أَنَّها وسيلة الى تقربهم الى ثواب الله و يتحمل أن يكون المراد أَنَّ نفقتهم قربة الى الله تعالى قال بعض المفسرين نزلت الآية في بني مقرن من مزنية قاله مجاهد.

و قال عبد الرحمن بن فضل بن مقرن، كُنَّا عشرة ولد مقرن فنزلت: **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** يريد السَّتَّة والسبعة الأخوة على الخلاف في عددهم و بينهم و كيف كان أخبر الله تعالى في هذه الآية أَنَّ الأصل الذي يترتب عليه إنفاق المال في القربات هو الإيمان بالله و اليوم الآخر اذ جزاء ما ينفق إِنَّمَا يظهر ثوابه الدائم في الآخرة و أَنَّهُ تعالى قد إكتفى في قصَّة أولئك بذكر نتيجة الكفر و عدم الإيمان و هو إتخاذ ما ينفق مغرمأ و تربصه بالمؤمنين الدَّوائر، و الأجود تعميم القربات من جهادٍ و صدقة هذا و الذي يختلج بالبال في معنى الآية هو أَنَّهُمْ جعلوا ما أنفقوا في سبيل الله من أموالهم و صلوات الرِّسُولِ عليهم بالخير و البركة و الإستغفار قربات عند الله فشهد الله لهم بِأَنَّهُ كذلك فقال **إِنَّا قُرْبَةً لَهُمُ** ثم أَكَّد هذه الشَّهادة بحرف التَّنبيه و هو قوله: **إِنَّا** و بحرف التَّحقيق وهو، أَنَّها، ثم زاد في التأكيد وقال: **سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** و من أصدق من الله قِيلاً.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا وَاتَّبَعُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَإِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

المجلد الثامن

إِعلم أَنَّ اللَّهَ تعالى قد أخبر بهذه الآية أَنَّ السَّابِقِينَ من المهاجرين و هم الَّذِينَ هاجروا معه الى المدينة، و الأنصار و هم أهل المدينة الَّذِينَ نصرُوا دين اللَّه بأموالهم و أنفسهم بعد الهجرة و التَّابِعِينَ و هم الَّذِينَ تبعوا هؤلاء بأفعال الخير و الدَّخُول في الإسلام و سلوكهم مناهجهم.

قال الفراء يدخل في ذلك من يحيي بعدهم الى يوم القيامة فحكم اللَّه تعالى في الآية بأنَّه رضي عنهم و رضوا عنه ثم قال: وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية.

فقال أبو موسى و سعيد بن المسيب، نزلت فيمن صَلَّى القبلتين.
و قال السَّعْبِي: نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان و هي بيعة الحديبية من أسلم بعد ذلك و هاجر فليس من المهاجرين الأولين.
و قال أبو علي نزلت في الَّذِينَ أسلموا قبل الهجرة نقل هذه الأقوال في التَّبيان و اختلفوا أيضاً في المراد بالسَّابِقِينَ الأولين.

فقال ابن بحر، السَّابِقُونَ بالموت أو بالشَّهادة من المهاجرين و الأنصار سبقوا الى ثواب اللَّه و حسن جزائه قال و المراد بالمهاجرين و الأنصار أهل العقبة أولاً و كانوا سبعة و أهل العقبة الثانية و كانوا سبعين و الَّذِينَ آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب ابن عمير فعلمهم القرآن.

و قال ابن عطية ولو قال قائل أَنَّ السَّابِقِينَ الأولين هم جميع من هاجر الى أن انقضت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللَّفْظ و تكون من، لبيان الجنس و الَّذِينَ اتَّبَعُوهم بإحسانٍ هم سائر الصَّحابة و يدخل في هذا اللَّفْظ الباقون و سائر الأُمَّة لكن شرط الإحسان و قد لزم هذا الإسم الَّذي هو التَّابِعُونَ من رأى النَّبِي ﷺ انتهي كلامه.

في القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

و قال الرازي الصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة و في النصرة و الذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين و لم يبين أنهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملاً إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين و أنصاراً فوجب صرف ذلك اللفظ الى ما به صاروا مهاجرين و أنصاراً و هو الهجرة و النصرة فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة و النصرة إزالة للإجمال عن اللفظ انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و كيف كان لما تقدّم ذكر المنافقين و الكفار عقبه سبحانه بذكر السابقين الى الإيمان فقال و السابقون الأولون، الى الإيمان و الطاعات و أنما مدحهم بالسبق لأنّ السابق الى الشئ يتبعه غيره فيكون متبوعاً و غيره تابع له فهو إمام فيه وداع له الى الخير يسبقه اليه و كذلك الشر فأَنْ من سبق الى الشر يكون أسوأ حالاً ممّن يتبعه فيه لهذه العلة.

مِنْ أَلْمُهَاجِرِينَ وَ أَلْأَنْصَارِ الظاهر أن المراد بالمهاجرين من هاجر من مكة الى المدينة و الى الحبشة قاله الطبرسي في المجمع.

وَأَنَا أَقُولُ أن كان المراد بالمهاجرين من هجر من بلده الى بلد آخر فالحق ما ذكره عليه السلام و أن أريد به الهجرة من الباطل الى الحق أو من الكفر الى الإيمان فهو يشمل من هاجر مع الرسول الى الشعب أي شعب أبي طالب على ما ذكره أهل السير.

نعم الأنصار أعني بهم أهل المدينة كانوا بمعزل عنها و محصل الكلام هو أن المراد بالمهاجرين أهل مكة و بالأنصار أهل المدينة و حيث أن الأنصار لم تتحقق منهم الهجرة قطعاً فالمقصود من الآية هو السبق الى الإيمان و الطاعة و عليه فمعنى الآية أن الذين سبقوا الى الإيمان بالله و رسوله من المهاجرين أعني بهم أهل مكة الذين هاجروا منها الى المدينة مع النبي، و الأنصار و هم أهل المدينة و الذين إتبعوهم بإحسان أي بأفعال الخير و سلوك منهاجهم رضي الله عنهم و رضوا عنه.

و يستفاد من الآية أَنَّ اللَّهَ تعالى رضي عنهم لسبقهم الى الإسلام و الإيمان و فعل الطاعات و النصرة لدين الله و هذا هو الذي صار سبباً للرضا و اذا كان الملاك ما ذكرناه فكل من كان من المهاجرين و الأنصار أقدم إسلاماً و أسبق نصرة لدين الله فهو أحب الى الله تعالى لأن المفروض أَنَّ علّة الرضا هي السبق الى الإيمان بالله و رسوله.

اذا عرفت هذه الدققة فاعلم أَنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أول من آمن بالله و رسوله على ما هو المشهور بين العامة و الخاصة.

و قيل أول من آمن خديجة ثم بعدها أمير المؤمنين و الحق هو الأول لقوله عليه السلام فأتني ولدت على الفطرة و سبقت الى الإيمان و الهجرة و قد جمع بعضهم بين الأخبار التي وردت في الباب في تقديم إسلام خديجة على إسلامه و بالعكس بأن خديجة كانت أول من آمن من النساء و علي كان أول من آمن من جنس الذكور و كيف كان فالخلاف أنما هو في سبق إسلام أحدهما على الآخر و أما بالنسبة الى غيرهما من المسلمين فلا خلاف في تقديم إسلامهما عليهم.

قال ابن هشام في السيرة و هو من أعيان العامة و أعرفهم بالأثار و الأخبار الواردة في الباب نقلاً عن ابن إسحاق الذي كان إمام الكل في معرفة السيرة و هو أول من كتب السيرة ما هذا لفظه:

قال ابن إسحاق ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ و صلى معه و صدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم رضوان الله وسلامه عليه و هو يومئذ ابن عشر سنين و كان ممّا أنعم الله به على علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام و ساق الكلام الى أن قال فلم يزل علي مع رسول الله حتى بعثه الله تبارك و تعالى فاتبعه علي عليه السلام و آمن به و صدقه.

ثم قال و ذكر بعض أهل العلم أنّ رسول الله كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة و خرج معه عليّ بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب و من جميع أعمامه و سائر قومه فيصلّيان الصلاة فيها فاذا أمسيا فمكثا كذلك ما شاء الله انتهى موضع الحاجة من كلامه^(١).

و قال الحافظ الحسكاني الحنفي اليسابوري و هو من أعلام القرن الخامس الهجري في كتابه القيم شواهد التنزيل في ذيل الآية الشريفة بأسناده عن حميد بن القاسم بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف في قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ هم سَبَّةٌ من قريش أولهم إسلاماً عليّ بن أبي طالب انتهى.

و بأسناده عن الزبير بن عدي عن الضحّاك وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ هم سَبَّةٌ من قريش أولهم إسلاماً عليّ بن أبي طالب و عمّار و أبو ذرّ و سلمان و مقداد انتهى. و بأسناده عن محمد بن خالد الضبي و عبد الله بن شريك العامري عن سليم بن قيس عن الحسن بن علي عليه السلام أَنَّهُ حَمَدَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ فَمَا أُنَّ للسَّابِقِي فَضْلُهُمْ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ كَذَلِكَ لِأَبِي عَلِيّ بن أَبِي طالب فضيلة على السَّابِقِينَ بِسَبْقِهِ السَّابِقِينَ انتهى.

و بأسناده عن ابن عباس في قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أَنَّهُ قَالَ نَزَلَتْ فِي عَلِيّ سَبَقَ النَّاسَ كُلَّهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ صَلَّي الْقِبْلَتَيْنِ وَ بَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ وَ هَاجَرَ الْهَجْرَتَيْنِ ففیه نزلت هذه الآية^(٢). و قال الشيخ سليمان الحنفي البلخي في كتابه الموسوم ينابيع المودة ما هذا لفظه الباب الثاني عشر في سبق إسلام عليّ كرم الله وجهه، الترمذي بسنده عن أنس بن مالك قال بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ

الأثنين وصلي عليّ يوم الثلاثاء هذا حديث غريب انتهى ابن ماجة
القزويني و أحمد في مسنده و أبو نعيم الحافظ و الثعلبي و
الحمويني أخرجوا جميعاً بأسانيدهم عن عباد بن عبد الله قال قال
أبا عبد الله و أخو رسول الله و أنا الصديق الأكبر لا يقولهما بعدي
إلا كذاب ولقد صليت قبل الناس سبع سنين انتهى.

و بأسناده عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ
صلّت الملائكة عليّ و على عليّ سبع سنين لأنه لم يكن من الرجال
غيره انتهى.

و بأسناده عن ابن عباس أنّه قال أول من أسلم من الناس بعد
خديجة عليّ بن أبي طالب و قد أنشد بعض أهل الكوفة أيام صفين
في مدحه شعراً:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته	يوم التشور من الرحمن غفراناً
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً	جزاك ربك منّا فيه إحساناً
نفسى الفداء لأولى الناس كلّهم	بعد النبي عليّ الخير مولانا
أخي النبي و مولى المؤمنين معاً	و أول الناس تصديقاً و إيماناً

و بأسناده عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: أَلَسَابِقُونَ
أَلَسَابِقُونَ قال سبق يوشع بن نون، و سبق مؤمن آل فرعون الى
موسى و سبق صاحب يس الى عيسى و سبق عليّ إلى
محمد ﷺ انتهى (١).

و الأحاديث هناك كثيرة جداً بل لا يبعد كون المسألة من ضرورات الدين
فأني لم أر مخالفاً فيها من العلماء من العامة إلا شذمة قليلة من الجهال
المعاندين الذين لا يعنى بقولهم لخروجهم عن قاعدة الإنصاف و دخولهم في

ورطة البغي والإعتساف و ذلك لأنَّ سبق عليٍّ عليه السلام في الإيمان بالله و برسوله على من سواه كائناً من كان إلا خديجة الكبرى على قولٍ ممَّا لا خلاف و لا نزاع فيه عند أهل الفن ولولا مخافة التّطويل و خروج كتابنا عن موضوعه لأشبعنا الكلام في هذا الباب و لكن فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب و من أراد الوقوف على أكثر منه فعليه بمراجعة الكتب الموضوععة لهذا الفن و عليه فلا عبرة بما نقله الرّازي في تفسيره لهذه الآية حيث.

قال بعد الوجوه الدّالة على أنّ السّبق الى الهجرة و النّصرة من أفضل القربات و أعظم الطّاعات ما هذا لفظه فإذا ثبت هذا فنقول.

أنّ أسبق النّاس الى الهجرة هو أبو بكر لأنّه كان في خدمة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و كان مصاحباً له في كلّ مسكن و موضع فكان نصيبه من هذا المنصب أعلى من نصيب غيره و عليّ بن أبي طالب و أن كان من المهاجرين الأوّلين إلا أنّه هاجر بعد هجرة الرّسول و لا شك أنّه أنما بقى بمكة لمهمات الرّسول إلا أنّ السّبق الى الهجرة أنما حصل لأبي بكر فكان نصيب أبي بكر من هذه الفضيلة أوفر فإذا ثبت صار أبو بكر محكوماً عليه بأنّه رضي الله عنه و رضي هو عن الله و ذلك في أعلى الدّرجات من الفضل و إذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ لو كانت إمامته باطلة لأستحقّ اللّعن و المقت ينافي حصول مثل هذا التّعظيم، فصارت هذه الآية من أدلّ الدّلائل على فضل أبي بكر و عمر و على صحّة إمامتهما انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أمّا قوله أنّ أسبق النّاس الى الهجرة هو أبو بكر.

ففيه **أما أولاً:** أنّه من أين ثبت له أنّ أبا بكر كان أسبق النّاس الى الهجرة.

نعم هو كان مصاحباً له صلّى الله عليه وآله وسلّم في الغار و بعده حتّى ورد المدينة و من المعلوم أنّ المصاحبة أعمّ من الهجرة فإنّ الهجرة عبارة عن الخروج من دار الكفر الى دار الإيمان لحفظ الدّين و النّصرة له.

و أما مجرد السفر و السير من بلد الى بلد آخر إذا لم يكن مسبوقاً بالإيمان فلا يعدّ منها و إذا كان كذلك فمن أين ثبت له أنّ أباً بكر هاجر مع الرسول لنصرة دين الله و إعلاء كلمته إذ لا يبعد أن يكون غرضه شيئاً آخر خفي على الرازي و أمثاله مثل أن يكون عيناً للمشركين مثلاً أو أنّ الرسول إتخذّه مصاحباً لنفسه لئلا يخبرهم بخروجه ﷺ عن مكة و أمثال ذلك من الإحتمالات و إذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال.

نعم لو ثبت أنّ أباً بكر كان مؤمناً بالله و برسوله حقاً و على هذا الأساس صار مصاحباً له ﷺ فتمّ ما ذكره و أتى له بإثبات ذلك.

و أما ثانياً: أنّ الآية ناظرة الى سبق الإيمان و أما سبق الهجرة فالآية ساكتة عنه و ذلك لأنّ قوله: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ معناه و السابقون الأولون في الإيمان لا في الهجرة مع قطع النظر عن الإيمان، فلمّا مدحهم الله كأنّه قيل و من هم فقال من المهاجرين و الأنصار هذا إذا قلنا أنّ كلمة، من، بيانية.

و أمّا أن قلنا أنّها تبعيضية فالمعنى أنّ السابقين الأولين في الإيمان بعض المهاجرين و الأنصار لا جميعهم و عليه فالأمر أوضح و محض الكلام هو أنّ الفضل ثابت لمن سبق الى الإيمان على غيره و قد ثبت بالضرورة أنّ السابق في الإيمان بقول مطلق هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب و هو المطلوب.

و بذلك ظهر لك فساد ما علّل الحكم بقوله لأنّه كان في خدمة الرسول و مصاحباً له فكان نصيبه أعلى من نصيب غيره وجه الفساد أنّ مجرد كون أبي بكر مصاحباً له لا يثبت مدّعه لما ذكرناه.

و أمّا قوله و عليّ بن أبي طالب و أن كان من المهاجرين إلّا أنّه أنّما هاجر بعد هجرة الرسول.

فنقول أنّما هاجر عليّ عليه السلام بعد هجرة الرسول ظاهراً لأنّه بات على فراشه ﷺ في ليلة المبيت بأمر من الله و رسوله كما هو المسلّم عند الكلّ بلا خلاف فيه و لذلك قال الله تعالى في مدحه: وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ

أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ^(١) وَ قَصَّتْهُ مَشْهُورَةٌ بِحَيْثُ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ حَتَّى عَلَى الْعَجَائِزِ وَ الْمَخْدَرَاتِ فِي الْحِجَالِ فَكَيْفَ خَفِيَتْ عَلَى الرَّازِي فَضِيلَةُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي قَدْ بَاهَى اللَّهُ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ عَلَى مَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي التَّوَارِيخِ وَ السَّيْرِ. وَ قَوْلُ جِبْرَائِيلَ مِنْ مِثْلِكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَاهَى بِكَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ وَ لَنَعْمَ مَا قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبَقَ الْكُلَّ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الشَّعْبِ ثُمَّ بِالْجِهَادِ وَ أَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَقَدْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ أَخْرَجَهُ مَعَ نَفْسِهِ أَوْ خَرَجَ هُوَ لِعَلَّةٍ، وَ أَمَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ تَرَكَهُ الرَّسُولَ لِلْمَبِيتِ بَازِلًا مَهْجَتَهُ فَبَذَلَ النَّفْسَ أَعْظَمَ مِنَ الْإِتْقَاءِ عَلَى النَّفْسِ فِي الْهَرَبِ إِلَى الْغَارِ.

وَ قَدْ رَوَى أَبُو الْمَفْضَلِ الشَّيْبَانِيُّ بِأَسْنَادِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ فَخَرَتْ عَائِشَةُ بِأَبْنِهَا وَ مَكَانَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْغَارِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ بْنُ الْهَادِ فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حَيْثُ نَامَ فِي مَكَانِهِ وَ هُوَ يَرَى أَنَّهُ يَقْتُلُ فَسَكَّتْ وَلَمْ تَحِرْ جَوَابًا وَ شَتَّانَ بَيْنَ قَوْلِهِ: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ بَيْنَ قَوْلِهِ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا^(٢) وَ كَانَ النَّبِيُّ مَعَهُ يَقْوِي قَلْبَهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَ عَلِيٍّ لَمْ يَصْبِهِ وَ جَعَلَ عَلِيٌّ يَرْمِي بِالْحِجَارَةِ وَ هُوَ مُخْتَفٍ فِي الْغَارِ وَ عَلِيٌّ ظَاهِرٌ لِلْكَفَّارِ وَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ يَقُولُ الْمَعَانِدُ فَكَانَ نَصِيبُ غَيْرِهِ فَكَأَنَّهُ أَيُّ الرَّازِي نَسِيَ قَوْلَهُ وَ الصَّحِيحُ عِنْدِي أَنَّهُمْ السَّابِقُونَ فِي الْهَجْرَةِ وَ النُّصْرَةِ لَا فِي الْهَجْرَةِ فَقَطْ فَيَقَالُ لَهُ وَ آيَةُ نَصْرَةِ أَعْظَمَ وَ أَفْضَلُ مِنْ نَدَاءِ النَّفْسِ طَلِبًا لِمَرْضَاتِ اللَّهِ ثُمَّ آيَةُ نَصْرَةِ لَدِينِ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَ حَيْثُ أَنَّ نَوْمَ عَلِيٍّ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِنَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ وَ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَ طَاعَةِ الرَّسُولِ فَالْفَضْلُ لَهُ قَطْعًا فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَلِيُّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَنَ لِي بِالْهَجْرَةِ وَ أَنِّي أَمْرُكَ أَنْ تَبِيتَ عَلَى فِرَاشِي وَ أَنَّ قَرِيشًا إِذَا رَأَوْكَ لَمْ يَعْلَمُوا بِخُرُوجِي، وَ

عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَبَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ وَ أَيْ فَضِيلَةٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، وَ لَنَعْمَ مَا قِيلَ:

وَنَامَ عَلَى الْفِرَاشِ لَهُ نَدَاءٌ وَ أَنْتُمْ فِي مَضَاجِعِكُمْ رَقُودٌ وَ قَالَ الْآخَرُ:

وَلَمَّا سَرَى الْهَادِي النَّبِيَّ مُهَاجِرًا وَ قَدْ مَكَرَ الْأَعْدَاءُ وَ اللَّهُ أَمَكْرُ
وَ نَامَ عَلَيَّ فِي الْفِرَاشِ بِنَفْسِهِ وَ بَاتَ رَبِيطَ الْجَاشِ مَا كَانَ يَذْعُرُ
فَوَافِي بَيَاتًا وَ الدُّجَى مُتَقَوِّضٌ وَ قَدْ لَاحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ
فَأَلْفَوْا أَبَا شَبْلِينَ شَاكِي سِلَاحِهِ لَهُ ظَفَرٌ مِنْ صَاتِكِ الدِّمِّ أَحْمَرُ
فَصَالَ عَلَيَّ بِالْحَسَامِ عَلَيْهِمْ كَمَا صَالَ فِي الْعَرِيسِ لَيْثٌ غَضَنَفُرُ
فَوَلَّوْا سِرَاعًا نَافِرِينَ كَأَنَّمَا هُمْ حَمْرٌ مِنْ قُسُورِ الْغَابِ تَنْفَرُ
فَكَانَ مَكَانَ الْمَكْرِ حِيدَرَةُ الرِّضَا مِنْ اللَّهِ لَمَّا كَانَ بِالْقَوْمِ يَمَكُرُ
وَ قَالَ الْآخَرُ:

بَاهِيَ بِهِ الرَّحْمَنُ أَمْلَاكَ الْعُلَى لَمَّا إِنْتَنِي مِنْ فَرَشِ أَحْمَدٍ يَهْجَعُ
يَا جَبْرِئِيلَ وَ مِيكَائِيلَ فَأَنْتَنِي آخِيتَ بَيْنَكُمَا وَ فَضْلِي أَوْسَعُ
أَفَأَنْ بَدَا فِي وَاحِدِ أَمْرِي فَمِنْ يَفْدِي أَخَاهُ مِنَ الْمُنُونِ وَيَقْنَعُ
فَتَوَثَّقَا كُلُّ يَضُنُّ بِنَفْسِهِ قَالَ الْإِلَهَ أَنَا الْأَعَزُّ الْأَرْفَعُ
أَنَّ الْوَصِيَّ فَدَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَلَفَعْلَهُ زَلْفَى لَدَيَّ وَ مَوْضِعُ
فَلْتَهَيِّطَا وَلْتَمْنَعَا مِنْ رَامِهِ أَمْ مَنْ لَهُ بِمَكِيدَةٍ يَتَسَّرِعُ
وَ قَالَ الْآخَرُ:

عَلَيَّ فِي مَهَادِ الْمَوْتِ عَارٍ وَ أَحْمَدُ مَكْنُسُ غَارٍ إِبْتَغَاتٍ
يَقُولُ الرُّوحُ بَخْ يَا عَلِيٍّ فَقَدْ عَرَضَتْ رَوْحُكَ لِإِنْتِهَابِ

وَ الْأَشْعَارُ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِهَا هُوَ أَنَّ الْمَوْضُوعَ كَانَ فِي صَدْرِ
الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ هَذَا كُلَّهُ مَعَ أَنَّ مَجْرَدَ الْخُرُوجِ وَ الْمَصَاحَبَةَ مَعَ الرَّسُولِ
لَوْ كَانَ مِنْ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ وَ الْفَضَائِلِ لَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرْقَطٍ أَيْضًا مُصَاحِبًا

للرّسول لأنّه كان دليلهما على الطّريق فهو مثل أبي بكر في الفضل بل هو أفضل لأنّ الدّليل مقدّم على المدلول ولا يقول به عاقلاً فضلاً عن فاضل و أعجب من هذا كله.

قوله فإذا ثبت هذا صار أبو بكر محكوماً عليه بأنّه رضى الله عنه و رضى هو عن الله و إذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقّاً بعد رسول الله.

و نحن نقول أمّا أولاً أنّ الهجرة لا ربط لها بالخلافة و الإمامة فقوله وجب أن يكون إماماً حقّاً، لا نعلم أنّ هذا الوجوب عقليّ أو شرعيّ أو عرفيّ أمّا العقل فإنّه لا يحكم بهذا الوجوب أصلاً و أمّا الشّرع فهو معلوم البطلان إذ لا دليل شرعاً على أنّ مصاحب الرّسول يجب أن يكون إماماً لأنّ الإمامة إمّا بالنّص من الرّسول كما نقول به أو بمشورة أهل الحلّ العقد كما يقولون به و أمّا مجرد المصاحبة فلم يقل به أحد إلّا الرّازي و لم يعلم أنّ مجرد المصاحبة لو كان كافياً في الإمامة فعبد الله ابن أرقط الذي كان دليلهما و مصاحبهما كان أولى بالإمامة من أبي بكر و لا أقلّ من أن يكون مثله و الخصم لا يقول به.

و أمّا قوله إذ لو كانت إمامته باطلة لإستحقّ العن و المقت و ذلك ينافي حصول مثل هذا التّعظيم فالجواب عنه واضح إذ لم يثبت في الآية تعظيم له و أين هذا التّعظيم و الآية أثبتت الفضيلة و التّعظيم للسّابقين الأوّلين في الإيمان بالله و رسوله و إثبات هذا المعنى لأبي بكر أوّل الكلام.

و أمّا مجرد كونه مصاحباً للرّسول مع قطع النّظر عمّا ذكرناه يفيد التّعظيم فعلى المدّعي الإثبات مع أنّه على فرض ثبوته ثابت لعبد الله بن أرقط أيضاً.

و أمّا في قوله لو كانت إمامته باطلة لإستحقّ كذا وكذا فنحن نقول ببطلانها بعد رسول الله في غير عليّ و الأئمّة المعصومين من ولده كائناً من كان و الحمد لله ربّ العالمين على هذه النّعمة.

ثمّ أنّ الرّازي أطال الكلام في المقام الى أن قال أنا بيّنّا أنّه تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين و ذلك يقتضي أنّ المراد كونهم سابقين في الهجرة

ثُمَّ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِهَذَا الْوَصْفِ أَثْبَتَ لَهُمْ مَا يُوْجِبُ التَّعْظِيمَ وَهُوَ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَالسَّبْقُ فِي الْهَجْرَةِ وَصِفَ مُنَاسِبٌ لِلتَّعْظِيمِ وَذَكَرَ الْحَكَمَ عَقِيبَ الْوَصْفِ الْمُنَاسِبَ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ الْحَكَمِ مَعْلَلًا بِكَوْنِهِمْ سَابِقِينَ فِي الْهَجْرَةِ وَالْعَلَّةُ مَا دَامَتْ مَوْجُودَةً وَجِبَ تَرْتِبُ الْمَعْلُولِ عَلَيْهَا وَكَوْنِهِمْ سَابِقِينَ فِي الْهَجْرَةِ وَصِفَ دَائِمٌ فِي جَمِيعِ مَدَّةِ وَجُودِهِمْ فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّضْوَانُ حَاصِلًا فِي جَمِيعِ مَدَّةِ وَجُودِهِمْ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَأَنَا أَقُولُ لَيْسَتْ الْهَجْرَةُ عِلَّةٌ لصدور الحكم بل العلة هي السَّبْقُ إِلَى الْإِيمَانِ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا وَالْهَجْرَةُ مِنْ أَثَارِ الْإِيمَانِ وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الْآيَةِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْآيَةَ سَاكِتَةٌ عَنْهَا وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ فَالْعِلَّةُ هِيَ الْإِيمَانُ وَالْمَعْلُولُ مَرْتَبٌ عَلَيْهَا مَا دَامَتْ مَوْجُودَةً فَقَوْلُهُ تَعَالَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَنَّهَا هُوَ ثَابِتٌ لِمَنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى الْإِيمَانِ مَاذَا زَالَ الْإِيمَانُ زَالَ الْمَعْلُولُ قِطْعًا مَهَاجِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مَهَاجِرٍ فَقَوْلُهُمْ تَعْلِيقُ الْحَكَمِ عَلَى الْوَصْفِ مُشْعِرًا بِالْعِلَّةِ لِكَلَامِ لِنَافِيهِ.

إِلَّا أَنَا نَقُولُ أَنَّ الْوَصْفَ الَّذِي نَعْبَرُ عَنْهُ بِالْعِلَّةِ هُوَ مَا تَسْبِقُ بِهِ الْإِيمَانُ الَّذِي مِنْ أَثَارِهِ الْهَجْرَةُ مَعَ الرِّسُولِ وَالْإِنْقِيَادَ وَالطَّاعَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَعَلَيْهِ فَنَ أَمِنَ بِالرِّسُولِ وَأَطَاعَهُ فِي جَمِيعِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ مَدَّةَ وَجُودِهِ فَالْحَكَمُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ ثَابِتٌ لَهُ وَأَمَّا مَنْ أَمِنَ بِهِ ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ فَلَا لَأَنَّ الْمَعْلُولَ يَنْتَفِي بِإِنْتِفَاءِ الْعِلَّةِ فَكَلَامُهُ بِالْمَغَالِطَةِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالْبَرْهَانِ فَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِ إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ يَشْمَلُهُ الْحَكَمُ بِالرِّضَا عَنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا هَذَا مَا اسْتَفَدْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١١

المجلد الثاني

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى
الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ
عَظِيمٍ

كلمة، من في قوله تعالى: **مِمَّنْ لِلتَّبَعِضِ** وكلمة، من موصولة بمعنى الذي والتقدير و من الذين حولكم أي حول مدينتكم و حول الشئ المحيط به من الأعراب، من بيانية و الأعراب هم الذين يسكنون البوادي و المعنى من الأعراب الذي يسكنون البادية حول المدينة منافقون و من أهل المدينة مردوا على النفاق أي أقاموا على النفاق أي أن النفاق لا يختص بأهل البادية و لا بأهل المدينة فكما أن أهل البادية بعضهم من أهل النفاق وبعضهم ليس كذلك هكذا أهل المدينة بعضهم سلك مسلك الطغيان و دخل في النفاق.

لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمُ الخطاب للنبي ﷺ أي أنت لا تعلم و نحن نعلم و ذلك لأن النفاق من الأمور القلبية التي لا يعلمها إلا هو و من المعلوم أن النبي لا يعلم إلا ما علمه الله تعالى: **سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ** إختلفوا في معنى قوله مرتين، فقال بعضهم معناه في الدنيا بالقتل و السبي و في القبر.

و قال ابن عباس تعذيبهم في الدنيا بالفضيحة لأن النبي ذكر رجالاً منهم و أخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته و قال أخرجوا فأنكم منافقون، و العذاب الثاني في القبر.

و قال بعضهم إقامة الحدود عليهم في الدنيا و عذاب القبر بعد الموت.

و قال بعضهم يحتمل أن يكون لا يراد بها شفع الواحد بل يكون المعنى على التكاثر كقوله تعالى: **ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ** ^(١) أي كرة بعد كرة كذلك يكون معنى هذا سنُعَذِّبُهُمْ مرة بعد مرة.

و أما قوله: **ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ** فالمراد به عذابهم في جهنم بعد عذاب الدنيا و عذاب القبر و أنما وصفه بالعظمة إذ لا عذاب أشد و أوجع من عذاب جهنم أعادنا الله منه ففي الآية إشارة الى أن المنافق يعذب في الدنيا و

الأخرة و هو دليل على أن التفاق أعظم من الكفر و المنافق أخبث من الكافر و هو كذلك و السر فيه هو أن المنافق في الحقيقة كافر في لباس الإسلام و الكافر كافر و هو في لباس الكفر و بينهما بونٌ بعيد.

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا ضَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هذه الآية عطف على قوله و من أهل الديانة أي و من أهل المدينة مردوا على التفاق و بقوا عليه الى أن قالوا و آخرون منهم إعترفوا بذنوبهم فرجعوا عما كانوا عليه من خلطهم العمل الصالح بالسّي فدخلوا في التّوايين فتاب الله عليهم أن الله غفورٌ رحيمٌ.

قيل نزلت في عشرة رهطٍ تخلّفوا عن غزوة تبوك فلما دنا الرّسول من المدينة وثق سبعة منهم و قيل كانوا ثمانية منهم كردم و مرداس و أبو قيس و أبو لبابة.

و قال أبو جعفر عليه السلام نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره و كان سبب نزولها فيه ما جرى منه في غزوة بني قريظة حين إستشاروه في النّزول على حكم سعد فأشار هو لهم الى حلقة يريد أن الرّسول يذبّحهم إنّ نزلوا على حكمه فلما إفتضح تاب و ندم و ربط نفسه في سارية في المسجد و أقسم أن لا يطعم و لا يشرب حتّى يعفو الله عنه أو يموت فمكث كذلك حتّى عفى الله عنه و الأقوال في شأن نزولها كثيرة لا يهمنّا البحث فيها فإنّ العبرة بعموم المعنى لا بخصوص المورد.

و الذي يستفاد منها هو أن النّاس بالنّسبة الى التّكاليف الشرعيّة على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المطيعين لله و رسوله العاملين بأحكام الله المقرّرة لهم و هم الأقلّون.

الثاني: العصاة والطاعة والكفار والفساق الذين لا يعملون بالأحكام لعدم إيمانهم بالله ورسوله.

الثالث: من يطيع تارة ويعصي أخرى وهم أكثر المسلمين ونحن منهم. أمّا الصنف الأول والثاني فلا كلام لنا معهم فعلاً والآية الشريفة غير ناظرة إليهما و أمّا الكلام في الثالث والآية نزلت فيه وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ثم اعترفوا بذنوبهم فتابوا عنها.

ففي الآية إشارة الى أن العاصي إذا أراد أن يتوب عن معصيته ينبغي له أن يعترف بذنبه أولاً قبل التوبة ثم يتوب عنها إذ لو لم يعترف به فعن أي شيء يتوب فإذا اعترف به و تاب عنه عسى الله أن يتوب عليه أي يجب لأن التَّرجي لا معنى له في حقّه تعالى وهذا الوجوب عقلي لا شرعي وفي الآية أبحاث لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً.

أحدها: أن الاعتراف على ما قيل عبارة عن الإقرار بشيء عن معرفة فمعناه أنهم أقرّوا بذنوبهم وأنهم بسما فعلوا في تخلفهم عن الجهاد أو مطلق المعصية.

ثانيها: أن الاعتراف والإقرار بالذنب لا يكون إلا إذا اقترن به الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل وكان هذا الندم والتوبة لأجل كونه منهياً عنه من قبل الله تعالى فكان هذا المجموع توبة قاله بعض المفسرين.

ثالثها: أن قوله تعالى: **خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** قالوا أنه إشارة الى خروجهم مع الرسول في الغزوات وتخلّفهم عن غزوة تبوك فعبر عن الخروج بالعمل الصالح وعن التخلّف بالسّي وأنت ترى أن حمل الآية على العموم أولى وعليه فالمعنى أن من الناس من يعصي تارة ويطيع تارة أخرى كما هو حال أكثر الناس.

رابعها: أن في الآية دلالة بل صراحة على أن العاصي ينبغي أن يتوب عن ذنبه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولأجل ذلك قد حثّ الله تعالى عباده عليها في كثير من الآيات منها.

قال الله تعالى: أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١).

قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ^(٢).

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا^(٣).

قال الله تعالى: وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ^(٤).

و الآيات كثيرة و سيأتي منا البحث في التوبة مفصلاً في المستقبل إن شاء الله.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأن يأخذ من أموالهم صدقة و أنها توجب التطهير و التدكية ثم أمره تعالى بالصلاة عليهم أعني بها الدعاء لهم و أنها أي الصلاة من الرسول تسكن بها نفوسهم و تطيب بها قلوبهم.

فالبحث في الآية يقع في مقامين:

الأول: قالوا أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا قَبْلَ هَٰذَا مَا أَقْبَلْتُمْ مِنَ الدِّينِ خَطَاطًا فَعَلْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَأَثَارَ تَبِيعٍ ۚ فِئْتَابًا ۚ وَرِثَ الْوَسْطَىٰ وَالْكَافِرِينَ ۚ

القول الأول: قالوا أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيًّا قَبْلَ هَٰذَا مَا أَقْبَلْتُمْ مِنَ الدِّينِ خَطَاطًا فَعَلْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَأَثَارَ تَبِيعٍ ۚ فِئْتَابًا ۚ وَرِثَ الْوَسْطَىٰ وَالْكَافِرِينَ ۚ

رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها و طهرنا عن الذنب الذي صدر منا التخلّف عن الجهاد فقال رسول الله ﷺ ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فأخذ الرسول ثلث أموالهم مراعاة لقوله خذ من أموالهم أي بعض أموالهم فأَن كلمة، من، للتبعيض.

و قال آخرون و منهم ابن عباس الضمير عائد الى المتخلفين عن الجهاد دون الخالطين لأنهم تابوا عمّا فعلوا و خلطوا.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

وفي المقام قول ثالث وهو أنها نزلت في الزكاة المفروضة وكيف كان يظهر من الآية أن الصدقات توجب التطهير والتزكية وهذا مما لا خلاف فيه سواء كانت الصدقة مفروضة أم غير مفروضة.

أن قلت ما الفرق بين التطهير والتزكية فقد قال قوم تبرأوا منهما وأن معناه واحد.

قلت ليس كذلك لأن الطهارة مشتقة من الطهر يقال طهرت المرأة وطهرت خلاف طمئت فالطهارة ضد الخبائث والنجاسة والقذارة وأمثالها وهي ضربان، طهارة جسم و طهارة نفس.

الثاني: هو المراد في الآية وأمثالها فأقوله: **تُطَهَّرُهُمْ** أي تطهر نفوسهم عن الأرجاس الباطنية المعبر عنها بالملكيات الرذيلة والإعتقادات والصفات الخبيثة.

فقوله تعالى: **فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** ^(١) معناه مطهرات من درن الدنيا وأنجاسها أو من الأخلاق السيئة بدليل قوله، عرباً أتراباً، وقوله في صفة القرآن مرفوعة مطهرة، أي من المعاييب وقوله: **وَ عَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْنِنَا** ^(٢) أي من الأوثان فأنها من الأرجاس وهكذا.

وأما الزكاة فأنها عبارة عن النمو الحاصل من بركة الله فتزكية النفس هي نموها الحاصل عن بركته إذا عرفت هذا.

فقوله: **تُطَهَّرُهُمْ** إشارة الى ما ذكرناه في معنى الطهارة النفسية و تزكيتهم، إشارة الى النمو الحاصل للنفس ببركة الصدقة فالصدقة توجب تطهير النفس و تزكيتها وهو المطلوب.

المقام الثاني: أن قوله: **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** معناه أَدع لهم بعد أخذ الصدقة منهم وذلك لأن دعائك سكن لهم أي تسكن اليه نفوسهم و تطيب به لأنه كاشف عن قبول صدقتهم عند الله.

قال بعض المحققين أنّ صلوات الرّسول و صلواة الله للمسلمين هو في التحقيق تزكية أيّاهم ومن الملائكة هي الدّعاء والإستغفار.

قال الرّازي في قوله: **إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ.**

أقول أنّ روح محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت روحاً قوياً مشرقة صافية باهرة فإذا دعى محمد لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوّته الرّوحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السّبب أرواحهم وصفت أسرارهم و أنتقلوا من الظّلمة الى النّور ومن الجسمانيّة الى الرّوحانية انتهى كلامه.

وأنا أقول لا شكّ لنا ولا لأحدٍ من المسلمين في قوّة روحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا أنّ هذا الموضوع خارج عن مورد البحث و تفسير الكلام لا يحتاج الى هذه التّأويلات الباردة التي لا يفهم معناها و أظنّ أنّ الرّازي أيضاً لم يفهم ما قال و الحقّ أنّ يقال أنّ الرّسول تقرّبه الى الله و وساطته الى الخلق من جانب خالقه فإنّ دعاءه عَلَيْهِ السَّلَام في حقّهم في الحقيقة دعاء الله تعالى و إذ قلنا أنّ الدّعاء منه بمعنى الرّحمة كما هو الحقّ و قلنا أنّ دعاءه دعاء الله فالمعنى أنّ الرّحمة من الله تشملهم بواسطة الرّسول ولا شكّ أنّ عناية و رحمته توجب الطّمأنينة و السّكون في قلوب عباده كما قال تعالى: **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ^(١).

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

الألف في قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** للإستفهام والمراد بها التّنبيه على ما يجب أن يعلم المخاطب إذا رجع الى نفسه و فكر فيما نبّه عليه وجوباً و أنما وجب أن يعلم أنّ الله يقبل التّوبة لأنّه إذا علم كان ذلك داعياً له الى فعل التّوبة و التّمسك بها و المسارعة اليها قاله الشّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في التّبيان.

بسم القرآن في تفسير القرآن



بسم الله

و نقل عن أبي مسلم أنه قال، قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** وأن كان بصيغة الإستفهام إلا أن المقصود منه التّقرير في النّفس و من عادة العرب في إزالة الشكّ عن المخاطب أن يقولوا أما علمت أن من علّمك يجب خدمته، أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره فبشّر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم ثمّ زاده تأكيداً بقوله: **هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ** انتهى.

ثمّ أن الظاهر من قوله: **أَلَمْ يَعْلَمُوا** بصيغة الغيبة أن الضمير عائد الى هؤلاء الذين تابوا يعني ألم يعلموا هؤلاء قبل أن يتاب عليهم و تقبل صدقاتهم، أن الله يقبل التوبة الصحيحة عن عباده و يقبل الصدقات الصادرة عن خلوص النية كذلك، و يتحمل أن يكون الضمير عائداً الى غير التائبين في المقام ترغيباً له في التوبة.

و ذلك لما روي عن رسول الله ﷺ أنه لما حكم بصحة توبتهم قال الذين لم يتوبوا، هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون و لا يحاسبون فنزلت هذه الآية.

و قال صاحب الكشاف، ألم يعلموا، بالياء والتاء، والوجه فيهما ظاهر. قال الزمخشري في الكشاف و قيل معنى التخصيص في هو، أن ذلك ليس الى رسول الله ﷺ أنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة و يردها فأقصده بها و وجهوها اليه انتهى.

أقول مراده بالتخصيص هو الذي يستفاد من قوله: **أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** و قد ثبت أن تقديم المسند اليه يوجب الحصر فكأنما حصر القبول في الآية لنفسه و هو كذلك و أنما أتى بكلمة، هو، بعد كلمة، الله، لتأكيد الحصر أي أن قبول التوبة منحصر به تعالى و السر فيه هو أن العبد قد عصى ربّه ثمّ ندم على ما فعل فاذا تاب يحتاج الى القبول و القبول لا يعقل إلا ممّن عصى العبد إياه و هو الله لا غيره فالقبول ينحصر به.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ مَعَ أَنَّ الْأَخِذَ هُوَ الرَّسُولُ فَالْوَجْهُ فِيهِ هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فَمَا أَخَذَهُ الرَّسُولَ أَخَذَهُ اللَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَمَا أَنَّ أَمْرَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَنَهْيُهُ نَهْيُ اللَّهِ وَطَاعَتُهُ طَاعَةُ اللَّهِ وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَةُ اللَّهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ فَذَكَرَ الرَّحِيمَ، بَعْدَ الثَّوَابِ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى نَكْتَةٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ مَنْشَأَ قَبُولِ التَّوْبَةِ هُوَ الرَّحْمُ وَالشَّفَقَةُ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ مُجْبُوراً عَلَى قَبُولِ تَوْبَةِ الْعَبْدِ بَلْ هُوَ مُخْتَارٌ إِنْ شَاءَ قَبْلَ وَ إِنْ لَمْ يَشَأْ فَلَا إِلَّا أَنَّهُ يَقْبَلُ لِأَنَّهُ رَحِيمٌ بَعْبَادِهِ وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ تَوْجِبُ قَبُولَ التَّوْبَةِ وَ هَذَا مِنْ لَطَائِفِ الْكَلَامِ.

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَيْ لِلْمُعْتَذِرِينَ التَّائِبِينَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى قَوْلٍ وَ لِلْمُعْتَذِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَتَوَبَّوْا عَلَى قَوْلٍ آخَرَ، وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ جَمِيعاً عَلَى قَوْلٍ ثَالِثٍ (إِعْمَلُوا) بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَاجْتَنِبُوا مَعَاصِيَهُ فَإِنَّ اللَّهَ سِيرَى عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ.

وَ قِيلَ هُوَ أَمْرٌ ضَمَّنَهُ الْوَعِيدَ وَ التَّهْدِيدَ وَ الْمَعْنَى إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الرُّؤْيَةِ فَقِيلَ هِيَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْمَعْرِفَةُ وَ لِذَلِكَ عَدَّاهُ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَلَوْ كَانَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ بِمَعْرِفَةٍ لَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى فَسِيرَافَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ.

وَ اسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْعِلْمَ لَعَدَّاهُ إِلَى الْجُمْلَةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ مَا كَانَ بِمَعْنَى الظَّنِّ وَ هُوَ لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ وَ أَيْضاً يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا كَانَ بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ هَذَا.

أَقُولُ وَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى حَمَلُوا مَا رَوَى فِي الْخَبَرِ مِنْ أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَعْرُضُ عَلَى النَّبِيِّ فِي كُلِّ أَثْنَيْنِ وَ خَمِيسٍ فَيَعْلَمُهَا وَ كَذَلِكَ تَعْرُضُ عَلَى الْأُتَمَّةِ فَيَعْرِفُونَهَا وَ هُمُ الْمُعْنِيُونَ بِقَوْلِهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ.

إِنْ قُلْتَ لَمْ قَالَ فَسِيرَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِقْبَالِ وَهُوَ عَالَمٌ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ
وُجُودِهَا.

قُلْتُ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ سَيَعْلَمُهَا مَوْجُودَةً بَعْدَ أَنْ عِلْمُهَا مَعْدُومَةٌ فَكَوْنُهُ
عَالَمًا بِوُجُودِهَا إِذَا وَجَدَتْ لَا يَجْدَدُ حَالٌ لَهُ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: وَ سَتَرْدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. مَعْنَاهُ
سَتَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ فَيُنَبِّئُكُمْ أَيَّ فَيُخَبِّرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ
فِي دَارِ الدُّنْيَا وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ سَلَكَ مَسْلَكًا آخَرَ فَقَالَ مَا هَذَا لَفْظُهُ:

المسألة الثانية: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى مَسَائِلَ أُصُولِيَّةٍ:

الحُكْمُ الْأَوَّلُ: أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ تَعَالَى رَائِيًا لِلْمَرْنِيَّاتِ لِأَنَّ الرُّؤْيَا الْمَعْدَاةَ
إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ هِيَ الْإِبْصَارُ وَالْمَعْدَاةُ إِلَى مَفْعُولَيْنِ هِيَ الْعِلْمُ كَمَا تَقُولُ رَأَيْتُ
زَيْدًا فَفِيهَا وَهَاهُنَا الرُّؤْيَا مَعْدَاةٌ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ فَتَكُونُ بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ يَدُلُّ
عَلَى كَوْنِهِ مُبْصِرًا لِلْأَشْيَاءِ.

كَمَا أَنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ تَعَالَى
مُبْصِرًا وَرَائِيًا لِلْأَشْيَاءِ وَمِمَّا يَقْوِي أَنَّ الرُّؤْيَا لَا يُمْكِنُ حَمْلُهَا هَاهُنَا عَلَى الْعِلْمِ
أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: وَ سَتَرْدُّونَ إِلَى عَالِمِ
الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الرُّؤْيَا هِيَ الْعِلْمُ لَزِمَ التَّكَرُّارُ الْخَالِي عَنْ
الْفَائِدَةِ بَاطِلٌ أَنْتَهَى.

أَقُولُ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا لَيْسَ الْعِلْمُ فَإِنَّ كَانَ مَرَادُهُ بِالْعِلْمِ الْعِلْمُ
الْمُصْطَلَحُ فَلَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ وَأَنَّ كَانَ الْعِلْمُ الْمَطْلُوقُ فَهُوَ أَوَّلُ الْكَلَامِ فَإِنَّ الْعِلْمَ
بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ تَطْلُقُ الرُّؤْيَا عَلَيْهِ وَهُوَ الْمَرَادُ فِي الْمَقَامِ.

سَلَّمْنَا لَكِنْ نَقُولُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُبْصِرٌ لِلْأَشْيَاءِ وَهُوَ مِمَّا لَا إِشْكَالَ فِيهِ عَقْلًا وَ
شَرْعًا.

الحكم الثاني: قال مذهب أصحابنا أن كل موجود فأنه يصح رؤيته و احتجوا عليه بهذه الآية و قالوا قد دللنا على أن الرؤية المذكورة في هذه الآية معدة الى مفعول واحد و القوانين اللغوية شاهدة بأن الرؤية المعدة الى المفعول الواحد معناها الإبصار فكانت هذه الرؤية معناها الإبصار ثم أنه تعالى عدى هذه الرؤية الى عملهم و العمل منقسم الى أعمال القلوب كالإرادات و الكراهات و الأنظار الى أعمال الجوارح كالحركات و السكنات فوجب كونه تعالى رائيًا للكل و ذلك يدل على أن هذه الأشياء كلها مرئية لله تعالى أنتهى.

و الجواب أن قوله كل موجود فأن يصح رؤيته، أن كان مراد بالرؤية بالبصر كما في حق المخلوق.

فهو أول الكلام و عليه بالإثبات و أن كان المراد بها الرؤية العلمية أعني بها المعرفة فهو صحيح و بعبارة أخرى كون الرؤية المعدة الى المفعول الواحد معناها الأبصار بالعين و الحاسة فهو مما لم يثبت و لا هو قابل للإثبات و كيف يقال أن كل موجود فأنه يصح رؤيته بالبصر.

و نحن نعلم أن النفس موجودة و العقل موجود و الملك موجود والله تعالى موجود مع أن الرؤية بالبصر في أمثال ذلك محال أليس من شرائط تحقق الرؤية بالبصر محاذاة المبصر للمبصر و كون المبصر في الواضع و الجهة مثلاً فإذا كان الموجود خارجاً عن شرائط تحقق الأبصار فكيف يقال تصح رؤيته.

نعم الرؤية بمعنى المعرفة محققة قطعاً و هو المطلوب.

فمعنى الأبصار في حقه تعالى هو علمه أي معرفته بالمبصرات كما أن معنى السمع في قوله: سميع مثلاً هو علمه بالمسموعات و معنى رؤيته تعالى هو علمه أي معرفته بالمرئيات و هكذا فإن كان مراد بالأبصار هو هذا المعنى فهو متين و أن كان مراد من الأبصار الرؤية نجاسة البصر فنعوذ بالله منه.

ثم أنه نقل عن حكماء الإسلام أنهم قالوا فسيرى الله عملكم، إشارة الى الثواب الروحاني، و أوضح هذا الكلام بما لا فائدة فيه.

أقول ما نقله عن حكماء الإسلام لا نفهم معناه ولا نعرف حكيماً قال بذلك والعهد عليه ولكن نقول هذا الذي ذكره خلاف ظاهر الآية بل هو أجنبي عنه فلا يصح تفسير كلام الله به والله أعلم بحقائق الأمور.

وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قرأ أهل المدينة (مرجون) بغير همزة، والباقون بالهمزة والوجه فيهما أنهما لغتان يقال أرجئت وأرجيت بمعنى واحد أعلم أن الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ على أقسام:

أولهم: المنافقون الذين مردوا على التفاق

الثاني: التائبون وهم المرادون بقوله: **أَخْرُونَ** اعترفوا بذنوبهم وبين تعالى أنه قبل توبتهم.

و القسم الثالث: الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون في هذه الآية والفرق بين القسم الثاني والثالث أن أولئك سارعوا إلى التوبة فتابوا وهؤلاء لم يسارعوا إليها هكذا قيل ثم أن هذه الآية عطف على قوله ومن أهل المدينة مردوا على التفاق.

و آخرون اعترفوا بذنوبهم والمعنى، وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ، يعذبهم الله أن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا، وإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، أن تابوا قيل وهم ثلاثة، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله قاله في الكشف.

و عن مجاهد و قتادة أنها نزلت في هلال بن أمية و فزارة بن ربيعي و كعب بن مالك من الأوس و الخزرج و كان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه و أتما تخلف توانياً عن الإستعداد حتى فاته المسير و إنصرف رسول الله و لم يعتذر اليه بالكذب و قال و الله مالي عذر فقال مثل ذلك و صدقا فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم بعد ما عذر المنافقين و جميع المتخلفين و كانوا نيئاً و ثمانين رجلاً فأقام هؤلاء الثلاثة على ذلك خمسين ليلة حتى هجرهم ولدانهم و نساءهم طاعة لرسول الله ﷺ بأمره و بنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وعده ثم نزلت التوبة عليهم في الليل فأصبح المسلمون يتبذرونهم و يبشرونهم قال كعب فجئت الى رسول الله في المسجد و كان اذا سرّ يستبشر كأن وجهه فلقة قمر فقال لي و وجهه يبرق من السرور أبشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك أمك قال كعب فقلت له أمن عند الله أو من عندك يا رسول الله ﷺ قال فقال من عند الله و تصدق كعب بثلاث ماله شكراً لله على توبته.

و أنا أقول و نحن أيضاً من مصاديق هذه الآية فأنا قد تخلفنا عن الجهاد النفساني و كنّا مأمورين به و لا نعلم أن الله تعالى يعذبنا أو يتوب علينا فإن عذبنا فبعده و إن عفى عنا فبفضله و حيث ثبت أنه تعالى دائم الفضل على البرية نرجو منه العفو و الله عليهم حكيم.

عليهم بما يؤل اليه حالنا، حكيم بما يفعله بنا يوم القيامة و الأمر اليه و لا حول و لا قوة إلا به.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَ
تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا
تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ
أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَقَمْنِ
أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ
أَمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ
بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (١١٠) إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) أَلَتَأْتُونَ الْعَابِدُونَ
أَلْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ
الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

◀ اللغة

ضِرَارًا بكسر الضاد أي مَضَارَة والضَّرار هو طلب الضر ومحاولته كما أنَّ الشَّقاق محاولة ما يشقّ تقول ضارّة مضارّة ضراراً.

شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فأنهَارَ بِهِ، الشَّفَا بفتح الشين الحرف والشِّفير وجرف الوادي جانبه الَّذِي يَتَحَضَّر أصله بالماء و تجرّفه السيول فيبقى واهياً، و الهار الهائر وهو المتصدع الَّذِي أَشْفَى على التَّهْم و السَّقوط و ألفه ليست بألف فاعل أنما هي عينه و أصله هور و المعنى كأنه أسسّ بنياناً على شفا جرفٍ من أودية جهنّم فإنهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها.

رَيْبَةً، الرَّيْبَة بفتح الراء الشك.

◀ الإعراب

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ (وَأُخْرُونَ مَرْجُونَ) أَيِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ قَوْلُهُ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ أَيِ مِنْهُمْ فَحَذَفَ الْعَائِدُ لِلْعِلْمِ بِهِ وَ قَدْ يقرأ بغير واو و عليه فهو مبتدأ و الخبر ما تقدّم ضِرَارًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا ثَانِيًا لِاتَّخَذُوا وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ وَ هَذِهِ الْمَصَادِرُ كُلُّهَا وَاقِعَةٌ مَوْضِعَ إِسْمِ الْفَاعِلِ أَيِ مَضْرًا أَوْ مَفْتَرَقًا وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا مَفْعُولًا لَهُ لِمَسْجِدٍ اللَّامُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ وَقِيلَ جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ وَ أُسِّسَ نَعَتْ لَهُ مِنْ أَوَّلٍ يَتَعَلَّقُ بِأُسِّسَ وَ الْخَبَرُ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ وَ فِيهِ الْأَوَّلَى تَتَعَلَّقُ بِتَقُومَ وَ التَّاءُ خُطَابٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ رِجَالٌ صَفَةُ لِمَسْجِدٍ جَاءَتْ بَعْدَ الْخَبَرِ عَلَى التَّقْوَى فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، أُسِّسَ أَيِ عَلَى قَصْدِ التَّقْوَى جُرْفٍ بِالضَّمِّ وَ الْإِسْكَانِ وَ هُمَا لَغْتَانِ وَ فِي هَارٍ وَجْهَانِ:

أحدهما: أصله هور أو هير.

الثاني: أن يكون أصله هاوراً و هايراً وَعَدًّا مَصْدَرٌ أَيِ وَعْدُهُمْ بِذَلِكَ وَعَدًّا وَ

حَقًّا صِفَةُ التَّائِبِينَ بِالرَّفْعِ أَيِ هُمُ التَّائِبُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأُ وَ الْخَبَرِ
الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ مَا بَعْدَهُ.

التفسير

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ
إِرْضَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

قرأ ابن عامر و أهل المدينة الَّذِينَ اتَّخَذُوا، بِإِسْقَاطِ الْوَاوِ وَ الْبَاقُونَ بِإِثْبَاتِهَا
فَمَنْ أَثْبَتَهَا عَطَفَهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ وَ تَقْدِيرُهُ مِنْهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مَسْجِدًا ضُرَارًا، وَ مِنْ أَسْقَطَهَا إِبْتَدَأَ الْكَلَامَ وَ حَذَفَ الْخَبَرَ لَطُولِ الْكَلَامِ وَ
الْمَشْهُورِ إِثْبَاتِهَا وَ عَلَيْهِ الْمَصَاحِفُ فِي زَمَانِنَا هَذَا.

قِيلَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

قَالَ الْفَرَاءُ كَانُوا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَ قَالَ غَيْرُهُ كَانُوا مِنْ بَنِي
غَنَمٍ مِنْ عَوْفٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَ قِيلَ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَفِيلٍ.

وَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ هُوَ نَفِيلُ بْنُ الْحَارِثِ وَ لَمْ يَذْكُرْ عَبْدُ اللَّهِ وَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ
فِي إِسْمِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ يَنْتَقِلُ حَدِيثَ النَّبِيِّ إِلَى الْمُنَافِقِينَ.

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهَ ذَلِكَ وَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ بَنُوا الْمَسْجِدَ الَّذِي بَنَوْهُ ضُرَارًا أَيْ
مَضَارَّةً قَالَهُ فِي التَّبْيَانِ.

أَقُولُ لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ بَيَّنَّ لِرَسُولِهِ أَوْصَافَهُمْ
الذِّمِّمَةَ وَ أَنَّهُمْ عَلَى أَصْنَافٍ وَ أَقْسَامٍ ذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ بَالِغٌ فِي الشَّرِّ حَتَّى إِبْتَنَى
مَجْمَعًا لِلْمُنَافِقِينَ يَدْبُرُونَ فِيهِ مَا شَاءُوا مِنَ الشَّرِّ وَ سَمَّوْهُ مَسْجِدًا وَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا
بَنَى عَمْرِو بْنُ عَوْفٍ مَسْجِدَ قَبَاءَ.

وَ قَدْ نَقَلَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَ يَزِيدُ بْنُ
رُومَانَ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ وَ غَيْرِهِمْ قَالُوا: أَقْبَلَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَبُوكَ حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ، بَلَدٌ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ مَدِينَةِ سَاعَةَ

من نهار و كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه و هو يتجهز الى تبوك فقالوا يا رسول قد بنينا مسجداً لذي العلة و الحاجة و الليلة المطيرة و الليلة الشتائية و أنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال ﷺ أني على جناح سفر و حال شغل و لو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال إنطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله و أهدماه و حرّقه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف و هم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن أنظرنني حتى أخرج البك بنار من أهلي فدخل على أهله فأخذ سفعاً من النخل فأشتعل فيه ناراً ثم خرجا ليشتدان حتى دخلا المسجد و فيه أهله فحرّماه و هدماه و تفرّقوا عنه و نزل فيهم من القرآن ما نزل و الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضَرَاراً و كان الذين بنوه إثني عشر رجلاً خدام بن خالد بن عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف و من داره أخرج مسجد الشقاق، و ثعلبة بن حاطب من بني عبيد، و هو الي بني أمية بن زيد، و معتب بن قيسر من بني ضبيعة بن زيد، و أبو جيئية بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد و عباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من عمرو و جارية بن عامر و إبنه مجمع بن جارية و زيد بن جارية و نبثل بن الحرث و هم من بني ضبيعة و نجدج و هو الي بني ضبيعة و بجاد بن عثمان و هو من بني ضبيعة و وديعه بن ثابت و هو الي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

ثم قال الطبري فتأويل الكلام، و الذين إبتنوا مسجداً ضراراً لمسجد رسول الله و كفراً بالله لما حدثهم بذلك رسول الله ﷺ و يفرّقوا به المؤمنين ليصلي في بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ و بعضهم في مسجد رسول الله ﷺ فيختلفوا بسبب ذلك و يفرّقوا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثاني

وَإِزْصَادًا لِمَنْ خَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

إشارة إلى قصة أبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما وقتل رسول الله ﷺ من قبل بناءهم ذلك المسجد وذلك أن أبا عامر كان حزب الأحزاب لقتل رسول الله فلما خذله الله لحق بالرُّوم يطلب النصر من قيصر ملك الرُّوم على نبي الله وهو الذي كتب إلى أهل مسجد الضرار وأمرهم ببناء المسجد ليصلي فيه إذا رجع إليهم ففعلوا ذلك وهذا معنى قوله وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أي وليحلفن بانوه إن أردنا أي ما أردنا إلا الحسنى أي ما أردنا من بناءنا المسجد إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه وتلك هي الفعلة الحسنة فقال تعالى: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ في حلفهم ذلك وقولهم ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى ولكنهم بنوه يريدون به السَّوَايَ ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفراً بالله وتريقاً بين المؤمنين وإرساداً لأبي عامر الفاسق هذا ما ذكره في تفسير الآية.

وأعلم أن الله تعالى ذكر هذه القصة وغيرها من القصص في كتابه العزيز، لنكتة وهي تنبيه المسلمين وإرشادهم بأن يعتبروا بها واليها الإشارة بقوله: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^(١) إذا عرفت هذا فنقول. لا شك لنا ولا لأحد من أهل العلم والفهم من المسلمين أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه لكونه جامعاً لما يحتاج إليه البشر إلى يوم القيامة فهو أكمل الأديان وأفضلها وأشرفها وأحقّ بالإتباع من جميع الأديان:

قال الله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٣).

في الفرقان في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

و من المعلوم المسلم عند الكل أن الإسلام من بدو ظهوره كانت له أعداء من اليهود والنصارى والمجوس و عبدة الأوثان و بالجملة جميع فرق الكفار والمعاندين الذين بقوا على كفرهم و عنادهم و لم يؤمنوا بالله وبرسوله بل حاربوا رسول الله في بدر و أخذوا حنين و غيرها من الغزوات حتى خذلهم الله و شردهم أو قتلهم بسيف أمير المؤمنين و سائر المسلمين كلام لنا فيهم فعلاً.

و أما الكلام فيمن أسلم منهم ظاهراً لما عجزوا عن القتال أو علموا أن القتال لا نفع لهم فيه فدخلوا في الإسلام ليحاربوا المسلمين في لباس الإسلام وهؤلاء يعبر عنهم بالمنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فيحاربون الدين بالدين و القرآن بالقرآن و الصلاة بالصلاة و المسجد بالمسجد و هكذا سيرة خبيثة شيطانية إستمرت من صدر الإسلام الى زماننا هذا و الظاهر أنها تكون كذلك الى يوم ظهور الحجة المنتظر سلام الله عليه.

و إذا كان الرسول ﷺ و هو كان لا يعرفهم لقوله تعالى: لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ^(١) فما ظنك بسائر الناس الذين أكثرهم لا يعقلون أعاذنا الله من شرور آفاتهم بحق محمد و آله.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ و هو مسجد قبا أسسه رسول الله ﷺ و صلى في أيام مقامه و بقاء و هي يوم الاثنين و الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و خرج يوم الجمعة و قيل المراد به مسجد الرسول لأنه روي عنه ﷺ لما سأل عن المسجد الذي أسس على التقوى، قال ﷺ هو مسجدي هذا و الظاهر أن المراد مسجد قباء لأن الموازنة بين مسجد قباء و مسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول و مسجد الضرار يهمننا البحث فيه لأن مسجد الرسول أيضاً كذلك و لا فرق

في تفسير القرآن

جزء ١١

الجلد الثالث

بينهما من هذه الجهة أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ أَيَّ أَنْ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى أَحَقُّ وَأَجْدَرُ أَنْ يَقُومَ فِي الصَّلَاةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا مِنَ الذُّنُوبِ بِالْمَاءِ مِنَ الْغَائِطِ وَالبَوْلِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ مِنَ الذُّنُوبِ وَكَذَلِكَ الْمُطَهَّرِينَ مِنَ النَّجَاسَةِ بِالْمَاءِ.

وَرُويَ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِأَهْلِ قَبَاءَ، مَاذَا تَفْعَلُونَ فِي طَهْرِكُمْ فَأَنَّ اللَّهَ أَحْسَنَ الْيَكْمِ الشَّيْءَ قَالُوا نَغْسِلُ الْغَائِطَ فَقَالَ ﷺ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكُمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ وَفِي الْآيَةِ نَكَاتٌ لَا يَأْسُ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا.

الأولى: قوله لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا قَالُوا الْقِيَامُ هَذَا الصَّلَاةُ إِذْ قَدْ يَعْبُرُ عَنْهَا بِهِ يَقَالُ فَلَانْ يَقُومَ بِاللَّيْلِ أَوْ قَائِمَ اللَّيْلِ أَيَّ لِيَصَلِّيَ فِيهِ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ مَنْ أَقَامَ الْفَرَاضَ فَلَهُ كَذَا وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: لَا تَقُمْ فِيهِ مَعْنَاهُ لَا تَصَلِّيَ فِيهِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَبَدًا دَائِمًا لِأَنَّهُ ظَرْفُ زَمَانٍ وَظَرْفُ الزَّمَانِ عَلَى قَسْمَيْنِ:

ظَرْفٌ مُقَدَّرٌ كَالْيَوْمِ، وَظَرْفٌ مَبْهُمٌ كَالْحَيْنِ وَالْوَقْتُ وَالْأَبَدُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنْ أَبَدًا وَأَنْ كَانَتْ ظَرْفًا مَبْهُمًا لَا عُمُومَ فِيهِ وَلَكِنَّهُ إِذَا إِنْصَلَّ بِلَا النَّافِيَةِ أَفَادَ الْعُمُومَ فَلَوْ قَالَ لَا تَقُمْ لَكُنِيَ فِي الْإِنْكَفَافِ الْمَطْلُوقِ فَإِذَا قَالَ أَبَدًا فَكَأَنَّهُ قَالَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَلَا فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

وَأَمَّا التَّكْرَرُ فِي الْإِثْبَاتِ إِذَا كَانَتْ خَبْرًا عَنْ وَاقِعٍ لَمْ تَعَمْ.

الثاني: قوله لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ قِيلَ أَيُّ بَنِيْتِ جِدْرِهِ وَرَفَعَتْ قَوَاعِدَهُ وَالْأُسُسُ أَصْلُ الْبِنَاءِ وَكَذَلِكَ الْإِسْلَامُ، عَلَى التَّقْوَى أَيُّ الْإِخْلَاصِ مُتَقَرِّبًا إِلَيْهِ تَعَالَى وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى، أَنْ يَكُونَ قَصْدُ الْبَانِي الْمَوْسَسِ تَرْوِيجَ الدِّينِ وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَتَعْظِيمَ الشَّعَائِرِ وَالْجَامِعُ أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى لَا الرِّيَاءَ وَالتَّفَاقُ وَتَفْرِيقَ الْكَلِمَةِ وَإِجَادَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا عَرَفَتْ مِنْ مَسْجِدِ الضَّرَارِ وَهَذَا أَيُّ بِنَاءِ

العمل على التقوى لا يختص بالمسجد بل هو مطلوب في جميع الأعمال لقوله تعالى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ^(١) وفي قوله: **مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ** إشارة إلى أن المسئس ينبغي له مراعاة التقوى من يوم الشروع إلى آخر الأمر وفي قوله: **أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** إشارة إلى أن فعل النبي حجة فلو صلى في مسجد الضرار مثلاً يعلم منه صحة الصلاة فيه وهو كما ترى ويشير إلى هذا المعنى كلمة، أحق، أي أجدر وأليق بمقام الرسول وهو الأسوة في فعله وقوله وتقريره هو عدم القيام فيه للصلاة، واللام في قوله: **لَمَسْجِدٍ** لام قسم وقيل لام الابتداء كما تقول لزيداً أحسن الناس قولاً أو فعلاً وهي مقتضية للتأكيد.

الثالثة: قوله **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ** هذا كلام بمنزلة التعليل للحكم فكأنه قال قائل لم يكون القيام للصلاة في المسجد الذي أسس على التقوى أحق وأجدر فقال تعالى فيه رجال الخ.

و التقدير لأن فيه رجالاً كذلك وقوله **يُحِبُّونَ** أن يتطهروا معناه يحبون أن يتطهروا من الذنوب والخطايا فأنها من الأرجاس والخبائث الباطنية وتركها والإجتناب منها بمنزلة التطهير كيف وهو تطهير النفس عن الرذائل.

و من المعلوم أن تطهير النفس أنفع وأفضل من تطهير الجسد والدليل على ما قلناه هو قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ^(٢) ولا شك أن ذكر الطهارة بعد التوبة دليل على ما ذكرناه أي أن التوبة توجب التطهير من الذنوب.

الرابعة: قوله **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ** أي أن الله تعالى ينعم عليهم لأن محبة الله للعبد إنعامه عليه ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه فإذا كان العبد مطيعاً لله تعالى متصفاً بالصفات الحسنة المطلوبة للشارع فالله تعالى يحبه أي يكرمه وينعم عليه في الدنيا والآخرة وإذا كان مطيعاً للشيطان عاصياً ربه

سُبْحَانَ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



الجزء ١١

مُتَّصِفًا بِالْصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ الْخَبِيثَةِ فَهُوَ تَعَالَى يَبْغُضُهُ أَيْ لَا يَنْعَمُ عَلَيْهِ بَلْ يَكْهِنُ إِلَى نَفْسِهِ وَلِذَلِكَ تَرَى فِي الْقُرْآنِ مَا يُشِيرُ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ وَأَصْلُنَاهُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^(٥).

وَقَالَ فِي الْعَاصِينَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(٦).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا^(٧).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا^(٨).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^(٩).

وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لَهُ تَعَالَى فَلْيَتَّخِذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا.

أَقَمْنَ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ
بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

قرأ نافع وابن عباس أُسِسَ بِضَمِّ الهمزة وكسر السين ورفع النون في بنيانه،
والباقون بفتح الهمزة ونصب النون من بنيانه.

١- التوبة = ٤

٢- البقرة = ١٩٥

٣- آل عمران = ١٤٦

٤- المائدة = ٤٢

٥- النساء = ٣٦

٦- النساء = ٦٤

٧- آل عمران = ١٤٦

٨- آل عمران = ٧٥

٩- النساء = ١٠٧

و قرأ ابن عامر جُرْفٍ بسكون الراء و الباقون بضمها، فمن قال في أسس، بفتح الهمزة جعل قوله: بُنْيَانُهُ مفعولاً فلاجرم فتح التّون و عليه فالخير يرجع الى المؤسس لا الى المؤسس أعني به المسجد و هكذا في الجملة الثانية و عليه فالمعنى أنّ من أسس بنيان المسجد على تقوى من الله و رضوان خيرٌ أم من أسس بنيان المسجد على التّفاق مثلاً هذا معنى الكلام بناءً على الفتح بناءً على الضّم فالخير يرجع الى المؤسس أعني به المسجد و المعنى أنّ المسجد الذي بني على التقوى خيرٌ أو المسجد الذي بني على شفا جرفٍ هارٍ.

و أنت ترى أنّ المعنى الثاني أعني به ضمّ الهمزة لا يستقيم لأنّ المسجد ليس من ذوي العقول بل هو داخل في غير ذوي العقول فلو كان المعنى ما ذكره و كان اللازم أن يقال أفما أسس، بدل قوله أفمن أسس و لم يقل ذلك اللهم إلا أن يقال في معنى الكلام أفمن أسس بنيانه أي بنيان المؤسس لا بنيان المسجد أي أنّ المؤسس المتقي خير من المتقى و هذا التفسير و أن كان ممكناً في ظاهر الأمر إلا أنّه عند الدقة أيضاً لا يستقيم في المقام لأنّ الذين بنوا مسجد رسول الله كانوا كمن بنى مسجد الضّرار من هذه الجهة أي من حيث البنيان و الأصل أي أصل الولادة و ملخص الكلام هو أنّه بناء على ضمّ الهمزة فالهاء في قوله: بُنْيَانُهُ بم يرجع.

فأن قالوا يرجع الى المسجد الذي مضى ذكره في الآية السابقة في قوله لمسجد أسس على التقوى، كما هو الظاهر فكان حقّ العبارة أن يقال أفما أسس بنيانه على التقوى، لتكون كلمة، ما، كناية، عن المسجد و مرجعاً للضمير الراجع اليه.

و أن قالوا يرجع الى، من، في قوله: أَفَمَنْ فيصير المعنى أفمن أسس بنيانه أي بنيان المؤسس و المفروض أنّ كلّهم من هذه الجهة كانوا على حدّ سواء أي إنعقدت نظفتهم على الشّرك اللهم إلا أن يراد بالبنيان شيئاً آخر لا نفهم معناه فثبت و تحقّق أنّ الحقّ هو فتح الهمزة.

نعم على قول من يقول بأن كلمة، من، تشمل ذوي العقول و غير ذوي العقول فتطلق على المسجد كما تطلق على باني المسجد فلا إشكال في تلك القراءة و ليس هذا القول بعيداً من الصواب لأن العرب يقول من كان ناطقاً خير ممن لم يكن كذلك و كيف كان فالقراءة على الفتح أولى منها على الضم كما هو الأشهر و عليها المصاحف و لنرجع الى تفسير الآية و نقول:

قوله: أَقَمْنُ أَسَسَ به صورة الإستفهام و معناه التّقرير و الإنكار أي ليس كذلك، لأن من أسس بنیان المسجد على تقوى من الله و الرضوان، ليس كمن أسس بنیان مسجده على التّفاق و الظّلم و تفریق الكلمة و هذا معلوم إلاّ أنّه لا بدّ لنا من توضيح بعض كلمات الآية:

منها، قوله: بُنْيَانُهُ الثّينان بضمّ الباء على ما قيل مصدر و هو جمع و الواحد بنيانة، قال الشّاعر:

كبنيانة القرى موضع رحلها وأثار نعيها من الدّف أبلقُ

و جاء بناء المصادر على هذا المثال في غير هذا الحرف نحو الغفران قالوا و ليس بنیان جمع بناء.

و قال بعضهم البناء و البنية مصدران و من ثمّ قبول به الفراش في قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً^(١).

و منها، قوله: شَفَا جُرْفٍ هَارٍ الشّفا بفتح الشّين الحرف و الحدّ قال الشّاعر:

نحن حضرنا للحجيج سجله نابتة فوق شفاها بقلّة

يقال أشفى على الشّيء أي أشرف عليه و منه أشفى المريض على الموت و ما بقي منه إلاّ شفاً، أي قليل و الأصل في شفا، شفوا ولهذا يكتب بالالف يمال.

قال الأخفش لمّا تجر فيه الإمالة عرف أنّه من الواو.

و منها، و قوله: جُرْفٍ بضمّ الرّاء و إسكانها مثل شغل و شغل و الرّسل و الرّسل يعني جرفاً ليس له أصل و الجرف ما يتجرّف بالسيّول من الأودية

جوانبه التي تنحصر بالماء وأصله من الجرف والإجتراف وهو إقتلاع الشيء من أصله (هار) أي ساقط يقال تهوّر البناء إذا سقط وأصله هائر فهو من المقلوب يقلب وتؤخر ياؤها فيقال هار.

ومنها، قوله: **فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** فاعل إنهار الجرف كأنه قال فإنهار الجرف بالبنين في النار لأن الجرف مذكر ويجوز أن يكون الضمير في (به) يعود على (من) وهو الباني والتقدير فإنهار من أسس بنيانه على غير تقوى وهذه الآية ضرب مثل لهم أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والتفاق وبين فيها أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهوّر بأهله فيها ولاشفا الشفير وأشفى على كذا أي دنا منه.

إذا عرفت معنى اللغات فيها فيصير معنى الآية هكذا، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار كناية عن أن بانيه كان غير متقٍ فإنهار به في نار جهنم والإنهيار السقوط والله لا يهدي القوم الظالمين وعلى هذا فشبه الله تعالى بنیان هؤلاء المنافقين مسجد الضرار ببناء يبني على شفير جهنم فإنهار ذلك البناء بأهله فيها.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وأبو جعفر ويعقوب **تَقَطَّعَ** بفتح التاء والباقون بضمها، أي لا يزال بناء المبنى الذي بنوه ريبة في قلوبهم أي شكاً فيها فيما كان من إظهار إسلامهم وثباتاً على التفاق إلى أن تقطع قلوبهم بالموت والبلوى.

وقال ابن عباس معناه لا يزالون شاكين وقليل حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنيانه.

وقال الرازي جعل نفس البنين ريبة لكونه سبباً لها وكونه سبباً لها أنه لما أمر بتخريب ما فرحو ببناءه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له ولرئيتهم في نبوته.

و قرأ الحسن و يعقوب و أبو حاتم الى أن تَقَطَّعَ على الغاية و عليه
فالمعنى لا يزالون في شك منه الى أن يموتوا.
و محصل الكلام هو أنهم كانوا شاكِّين في هذا الأمر كما هو شأن المنافق و
هذا الشك ثابت في قلوبهم الى أن يموتوا.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى فيما مضى من الآيات أوصاف المنافقين شرع في بيان
أوصاف المؤمنين و هم الذين آمنوا بالله و برسوله حقاً ظاهراً و باطناً و أثبتوا
إيمانهم بأعمالهم فقال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
من المعلوم أن حقيقة الإشتراء لا يجوز على الله تعالى لأن المشتري يشتري ما
لا يملك و هو تعالى مالك الأشياء كلها و لما كان الله تعالى رغب في الجهاد و
قتال الأعداء و ضمن على ذلك الثواب عبّر عن ذلك بالإشتراء فجعل الثواب
ثمناً و الطاعات مثمناً على ضرب من المجاز و كما أن في مقابلة الطاعة الثواب
فكذلك في مقابلة الألم العوض غير أن الثواب مقترن بالإجلال و الإكرام و
العوض خالٍ منهما هكذا قيل و عليه فقوله هذا من قبيل قوله تعالى: مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا^(١) مع أنه تعالى غني بالذات يحتاج الى
الاستقراض.

ثم أن المشتري في الآية الأنفس و الأموال والوجه فيه هو أن الجهاد يحتاج
الى النفس و المال و لا يتحقق بغيرهما فاذا كان المؤمن باذلاً نفسه و ماله في
إعلاء كلمة الحق و إذلال أعداءه فهو المجاهد حقاً، و يتحمل أن يكون الوجه
في إختصاصهما بالذكر أن أعز الأشياء عند الإنسان نفسه ثم ماله لأنه يفدي
بماله لحفظ نفسه ثم جعل الله ثمن هذه المعاملة الجنة فقال بأن لهم الجنة
ثمن أعلى منها.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ

أي أنهم يقاتلون الكفار فيقتلونهم أو يقتلون بأيدي الكفار وكلاهما حسن لأن الجنة ثابت لهم على التقديرين.

وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْأَقْرَانِ

وعداً، نصب على المصدر بما دلّ عليه إشتري اذ يدلّ على أنه وعد والوعد خبرٌ بما يفعله المخبر من الخير بغيره كما أنّ الوعيد خبرٌ بما يفعله المخبر من الشرّ بغيره.

قال الزمخشري أخبر بأنّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعدّ ثابت قد أثبتّه في التّوراة والإنجيل والقرآن انتهي.

أقول قوله: حقّاً أيضاً منصوب على المصدر أو على أنّه حال أي أنّ الثّواب حقّ لهم في كلّ عصر و زمان بحكم جميع الأديان.

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْلَى بِوَفَاءِ الْعَهْدِ مِنْ غَيْرِهِ فَالْأَحَدُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ بِهِ مِنْهُ وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَنَّ نَقْضَ الْعَهْدِ قَبِيحٌ عَقْلًا وَهُوَ مَنْرَةٌ مِنَ الْقَبَائِحِ وَأَمَّا قُلْنَا نَقْضَ الْعَهْدِ قَبِيحٌ عَقْلًا لِأَنَّهُ كَاشَفٌ عَنِ الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ عَدَمَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ قَدْ يَكُونُ لِلْعَجْزِ وَقَدْ يَكُونُ لِلنِّفَاقِ وَكِلَاهُمَا فِي حَقِّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَعْقُولٍ لِأَنَّ الْعَجْزَ يَنَافِي وَجُوبَ الْوُجُودِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالنِّفَاقُ وَالْكَذِبُ أَيْضًا فِي حَقِّهِ مُحَالٌ لِأَنَّهُ مَنْرَةٌ عَنْ جَمِيعِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ تَعَالَى يَفِي بِعَهْدِهِ وَلَا يُمْكِنُ لَهُ التَّخَلُّفُ عَنْهُ وَلِذَلِكَ قَالَ: فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ أَيِ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ أَيِ أَنَّهُ تَعَالَى وَعَدَ الثَّوَابَ عَلَى الْجِهَادِ وَهُوَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَاسْتَبَشِّرُوا، أَيِهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، يَعْنِي ذَلِكَ الشَّرَاءَ وَالْبَيْعَ فَإِنَّهُ الْفَلَاحُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُقَارَنُ شَيْءٌ فَأَنَّ فِي هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ رِبْحٌ عَظِيمٌ.

في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

قالوا في سبب نزول الآية أنها نزلت في البيعة الثانية و هي بيعة العقبة الكبرى و هي التي أناف فيها رجال الأنصار على السَّبعين و كان أصغرهم سنّاً عبد الله بن رواحة فقال عبد الله يا رسول الله اشترط لربك و لنفسك ما شئت قال ﷺ اشترط لربي أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً و اشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا قال ﷺ لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيّل و لا نستقيّل و مرّ برسول الله ﷺ و أعرابي يقرأها فقال كلام، من، قال كلام الله، قال بيع و الله مريب لا نقيله و لا نستقيله فخرج الى الغزو فاستشهد.

و قد روي عن الصادق عليه السلام أنه لما نزلت الآية قام رجل الى النبي ﷺ فقال يا نبي الله أرأيتك الرجل يأخذ سيفه فيقاتل حتى يقتل إلا أنه يقترب من هذه المحارم أشهد هو فأنزل الله على رسوله.

الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ
الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْغَيْبِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ

ففسّر النبي ﷺ المجاهدين من المؤمنين الذين هذه صفتهم و حليتهم بالشهادة و الجنة و قال: الَّذِينَ يَلْعَبُونَ مِنَ الذَّنُوبِ، الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ و لا يشركون به شيئاً، الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الشَّدَةِ و الرِّخَاءِ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الصَّائِمُونَ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ الَّذِينَ يَوَاطِبُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْحَافِظُونَ لَهَا و المحافظون عليها برحوعها و سجودها و الخشوع فيها و في أوقاتها الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْمَعْرُوفِ بَعْدَ ذَلِكَ و العاملون به و الَّذِينَ يَلْعَبُونَ مِنَ الْمُتَكَبِّرِ و المنتهون عنه الَّذِينَ يَلْعَبُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ فِي أَمْرِهِ و نواهيه فبشّر من قتل و هو قائم بهذه الشرائط بالشهادة و الجنة هذا و أعلم أنه قيل في إرتفاع.

قوله: **التَّائِبُونَ** الخ) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه إرتفع بالمدح و التقدير هم التائبون.

الثاني: بالابتداء و خبره محذوف بعد قوله: **الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ لَهُمُ** **الْجَنَّةُ**.

الثالث: على أن يكون بدلاً من الضمير في يقاتلون أي أنما يقاتل من هذه صفته و قيل هو كقوله: لكن الرسول، و الذين معه الخ.

التائبون هذا على القول بالرفع كما هو المشهور و قرأ أبي و عبد الله بن مسعود و الأعمش بالنصب على أنه صفة للمؤمنين و يظهر من بعض الأخبار الواردة في الآية الشريفة عن أهل البيت عليهم السلام رجحان النصب بل هو الحق لا غيره.

فعن روضة الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أي قال الراوي، تلوث التائبون العابدون، فقال عليه السلام لا، إقرأ التابعين العابدين الى آخرها فسأل عن العلة في ذلك فقال عليه السلام إشتري من المؤمنين التابعين العابدين انتهى.

و عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ أنّ الله إشتري من المؤمنين الآية قال عليه السلام: يعني في الميثاق ثم قرأت عليه التائبون العابدون، فقال أبو جعفر، لا، و لكن إقرأها التابعين العابدين الى آخر الآية.

و عن تفسير علي بن إبراهيم في قوله: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ** **الْمُؤْمِنِينَ**.

قال عليه السلام: نزلت في الأئمة انتهى.

و قد ذكر صاحب تفسير نور الثقلين بعد نقله ما نقلناه عنه عن بعض رجاله أنه قال - لقي الزهري علي بن الحسين عليه السلام في طريق الحج فقال له يا علي بن الحسين تركت الجهاد و صعوبته و أقبلت

في الفرقان: تفسير القرآن



على الحجّ ولنيته أن الله تعالى يقول: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فقال له عليّ بن الحسين أنما هم الأئمة فقال التائبون العابدون الآية فقال له عليّ بن الحسين عليه السلام إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ انتهى.

وقد نقل عن عليّ بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال عليه السلام لقي عباد البصري عليّ بن الحسين في طريق مكة ثم ساق الحديث كما مرّ^(١).

وأنا أقول يستفاد من الأيتين أن قبول الجهاد و ترتب الثواب الموعود عليه أنما هو مشروط بالشرائط المذكورة في الآية وذلك لأن الله تعالى رتب الثواب وهو الجنة على الجهاد الصادر عن المؤمن لا على مطلق الجهاد من أي شخص صدر ولذلك قال في صدر الآية إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ولم يقل أن الله يشتري من المجاهدين.

ومن المعلوم أن المؤمن الحقيقي لا يكون فاقداً لهذه الأوصاف المقررة المذكورة لأن الإيمان لا يتحقق، بالإقرار فقط أو به مع الاعتقاد بل يتحقق بهما مع العمل الصالح والعمل يتحقق بالتوبة والعبادة والحمد والصوم والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفظ لحدود الله في أوامره ونواهيه وهذه مفاد الآية.

نعم على مسلك المخالف يتحقق الإيمان بدون العمل ولا كلام لنا فيه فعلاً.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ
قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّىٰ بَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ
اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا
حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ
ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ
اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ
الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا

مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ
الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ
عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)

◀ اللِّغَةُ

لَا وَهْ أَيُّ تَوَابٍ وَأَصْلُهُ مِنَ التَّأَوُّهِ وَهُوَ التَّوَجُّعُ وَالتَّحْزَنُ.
يَزِيغُ، الزَّيْغُ مِيلُ الْقَلْبِ عَنِ الْحَقِّ.
ضَاقَتْ، الضَّيْقُ ضِدُّ السَّعَةِ وَمِنْهُ ضَيْقُ الصَّدْرِ.

◀ الإِعْرَابُ

مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ إِخْتَلَفُوا فِي فَاعِلٍ، كَادَ، عَلَى ثَلَاثَةِ
أَوْجِهٍ:

أحدهما: ضمير الشأن والجملة يعده في موضع نصب.

الثاني: فاعله مُضْمَرٌ تَقْدِيرُهُ مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ الْقَوْمُ وَالعائد على هذا الضمير
في منهم.

الثالث: فاعله القلوب، و يزيغ في نية التأخير وفيه ضمير فاعل وإِنَّمَا
يَحْسَنُ ذَلِكَ عَلَى الْقِرَاءَةِ بِالتَّاءِ وَأَمَّا عَلَى الْقِرَاءَةِ بِالْيَاءِ فَيُضْعَفُ أَصْلُ هَذَا
التقدير.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ مَعْطُوفٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَي تَابَ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ،
وَقِيلَ مَعْطُوفٌ عَلَى عَلَيْهِمُ، أَي تَابَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ
خَبَرٌ، لَا، مِنَ اللَّهِ، إِلَّا إِلَيْهِ إِسْتِثْنَاءٌ مِثْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

◀ التفسير

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ كَلِمَةٌ، مَا لِلنَّبِيِّ أَيْ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْ يَطْلُبُوا الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ وَالْمُشْرِكُ هُوَ الَّذِي يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَقِيلَ الْمُشْرِكُ مَنْ لَا يُوَحِّدُهُ وَلَا يَقَرُّ بِالْوَهْيَةِ سِوَاءِ يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَمْ لَا وَالْحَقُّ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ كَمَا هُوَ الْمُسْتَفَادُ مِنْ لَفْظِ الْمُشْرِكِ.

أَمَّا الْقَوْلُ الثَّانِي: فَهُوَ مَعْنَى الْكَفْرِ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ بَعْدَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ وَهُوَ كَمَا تَرَى أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْآيَاتِ فَتَارَةً عَبَّرَ بِالْكَافِرِ آخَرَى بِالْمُشْرِكِ فَكُلُّ مُشْرِكٍ كَافِرٌ وَلَا عَكْسَ ثُمَّ أَنَّ الشَّرْكَ فِي الدِّينِ عَلَى قَسَمَيْنِ:

أحدهما: الشَّرْكُ الْعَظِيمُ وَهُوَ إِثْبَاتُ شَرِيكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي لَا يُغْفَرُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ^(٤) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

الثَّانِي: الشَّرْكُ الصَّغِيرُ وَهُوَ مِرَاعَاةُ غَيْرِ اللَّهِ مَعَهُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَقَدْ يَعْبرُ عَنْهُ بِالرِّبَايَةِ وَالتَّفَاقُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ^(٥) فَلَفْظُ الشَّرْكِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمَشْتَرَكَةِ وَقَدْ جُمِعَ الْمَعْنِيَيْنِ فِي قَوْلِهِ: وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(٦).

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١١

المجلد الثاني

١- لقمان = ١٣

١- النساء = ٤٨

٢- المائدة = ٧٢

٣- النساء = ١١٦

٤- الكهف = ١١٠

٥- سورة يوسف آية ١٠٦

و أما الكفر، فهو في اللّغة ستر الشّيء و أعظم الكفر جحود الوحّدانية أو الشريعة أو النبوة اذا عرفت الشّرك و الكفر فنقول:

أَنَّ اللَّهَ تعالى منع نبيّه و الذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين بالشّرك العظيم و أما المشركون الشّرك الصّغير فلا و هكذا الكفّار نعم من قال بأنّ الكفر قسمٌ مِنَ الشّرك فهو داخل في المنع و كيف كان فقد منع الله رسوله عن ذلك فقالوا: وَ لَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ أَي و لو كان المشرك من أقرباء الرّسول و المؤمنين فَإِنَّ الحكم عامٌ يشمل الكلّ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أَي من بعد ما ظهر لهم أي للمستغفرين، أَنَّهُمْ أي المشركين من أصحاب الجحيم.

فَمَفْهُوم الآية أَنَّ قبل التّبين لا إشكال و لا منع في الإستغفار و هو كذلك لأنّ النَّاس في سعة ما لا يعلمون ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا في نزول الآية.

قال الطّبرسي رحمته الله في المجمع أَنَّ المسلمين قالوا للنّبي أَلَا تَسْتَغْفِر (نستغفر) لأبائنا الَّذِينَ ماتوا في الجاهليّة فَأَنْزَلَ اللَّهُ سبحانه هذه الآية و بيّن أَنَّهُ لا ينبغي لنبيّ و لا مؤمنٍ أن يدعو للكافر و يستغفر له نقله الطّبرسي عن تفسير الحسن و منه يَظْهَر أَنَّهُ ليس رأيُه في شأن نزول الآية و هو الحقّ فَإِنَّ الآية نزلت في منع النّبيّ و من تبعه من المؤمنين عن الإستغفار للمشركين الَّذِينَ ماتوا على الشّرك و هذا ممّا لا كلام فيه و به قال جميع المفسّرين من الشيعة.

و أما العامّة فقال الطّبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

و اِخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ في السَّبَبِ الَّذِي نزلت الآية فيه، فقال بعضهم نزلت في شأن أبي طالب عمّ النّبيّ لأنّ النّبيّ أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك.

حدّثنا محمّد بن عبد الأعلى قال حدّثنا محمّد بن ثور عن مُعَمَّر قال لَمَّا حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة دخل عليه النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و عنده أبو جهل و عبد الله بن أبي أُمّية فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم يَا عَمُّ قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كلمة أحاج بها لك عند الله فقال له أبو جهل و عبد الله بن أبي أُمّية يا أبا طالب

أترغب عن ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنه
فنزلت: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ
نزلت: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ^(١) انتهى.

ثم نقل بعد ذلك عن سعيد بن المسيّب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب
الوفاة و ساق الحديث كما مرّ وهكذا وهكذا.
ثم قال الطبري و قال آخرون بل نزلت في سبب أمّ رسول الله و ذلك أنّه
أراد أن يستغفر لها فمُنع من ذلك.

قال حدثنا محمد بن إسحاق (أحمد بن إسحاق) قال: حدثنا أبو أحمد
قال: حدثنا فضيل عن عطية قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة
وقف على قبر أمّه حتّى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له
فيستغفر لها حتّى نزلت: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ انتهى.

ثمّ روى بأسناده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أنّ النبي ﷺ أتى
رسماً قال: و أكثر ظنّي أنّه قال قبراً فجلس لايه فجعل يخاطب ثمّ
قام مستعبراً فقلت يا رسول الله أنا رأينا ما صنعت قال أتني
إستأذنت ربّي في زيارة قبر أمّي فأذن لي و إستأذنته في الإستغفار
لها فلم يأذن لي فما رأيي باكياً أكثر من يومئذٍ انتهى.

ثمّ ذكر الطبري حديثاً آخر بأسناده عن قتادة في قوله: مَا كَانَ
لِلنَّبِيِّ ذِكْرُنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ
مِنْ أَبَاءِنَا مَنْ كَانَ يَحْسِنُ الْجَوَارِ وَ يَصِلُ الْأَرْحَامَ وَيَقْكُ الْعَانِي وَ
يُوفِي بِالذَّمِّ أَفَلَا نَسْتَغْفِرُ لَهُمْ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ وَاللَّهُ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لِأَبِي
كَمَا اسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ
الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَتَّى بَلَغَ الْجَحِيمَ انتهى.

تفسير القرآن



المجلد الثاني

أقول ما نقلناه عن الطبري في الباب من الأخبار قليل من كثير فإنه قد أطنب الكلام في نقل الأحاديث الدالة على مدعاه بزعمه و من أراد الإطلاع على أكثر مما ذكرناه عنه فعليه بمراجعة كتابه.

و أما غيره من مفسري العامة فقد سلكوا مسلكه فنسجوا على منواله و تابعوه على ذلك حذو النعل بالنعل من غير تدبر و تعمق كما هو شأن المقلد الذي لا رأي له.

فقال الزمخشري في الكشف ما هذا لفظه:

قيل قال ﷺ لعنه أبي طالب أنت أعظم الناس على حقاً و أحسنهم عندي يداً فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي فقال لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت الآية.

و قيل لما افتتح مكة سأل أي أبويه أحدث به عهداً فقيل أمك أمانة فزار قبرها بالأبواء ثم قام مستعبراً فقال أني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي و استأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي فنزلت و هذا أصح لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة و هذا آخر ما نزل بالمدينة.

و قيل استغفر لأبيه و قيل قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا وذوي قرابتنا و قد استغفر إبراهيم لأبيه و هذا محمد يستغفر لعنه فنزلت انتهى كلامه.

و نقل القرطبي في تفسيره عن مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل و عبد الله بن أبي أمية و ساق الحديث الى آخر كما نقلناه عن الطبري.

و قال الألوسي في روح المعاني و الآية على الصحيح نزلت في أبي طالب فقد أخرج أحمد و ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي في الدلائل و آخرون عن المسيب بن حزن قال لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي و ساق الحديث كما نقلناه عن الطبري و القرطبي ثم أنه زاد في الطنبور نعمة أخرى.

فقد روي عن ابن سعد وابن عساكر عن عليّ عليه السلام أنه قال أخبرني الرسول بموت أبي طالب فبكى و قال إذهب فغسله وكفّنه و واره غفر الله له ففعلت و جعل رسول الله يستغفر له أياماً و لا يخرج من بيته حتّى نزل عليه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية ثم ذكر الألويسي في آخر كلامه عن ابن مسعود أنه خرج النبي يوماً الى المقابر فجاء حتّى جلس الى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فصلّى ركعتين فقام اليه عمر فدعاه ثم دعانا فقال ما أبكاكم قلنا بكينا لبكائك قال أن القبر الذي جلست عنده قبر أمنة و أتي إستأذنت ربّي في زيارتها فأذن لي و إستأذنته في الإستغفار لها فلم يأذن لي و أنزل عليّ ما كان للنبي الخ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذاك الذي أبكاني انتهى.

ثم قال و لا يخفى أن الصحيح في سبب النزول هو الأول.
نعم خبر الإستئذان في الإستغفار لأمه و عدم الإذن جاء في رواية صحيحة لكن ليس فيها أن ذلك سبب النزول انتهى موضع الحاجة من كلامه.
و نظير ذلك ما رواه السيوطي في الدر المنثور و البيضاوي في تفسيره و الرازي في تفسيره و الحقي في روح البيان و غيرهم من مفسري العامة فإنهم قد أجمعوا و إتفقوا على أن الآية نزلت في أبي طالب أو أمنة أم النبي.
و قال بعضهم عبد الله اب النبي وقوله: **لَوْ كَانُوا أَوْلِيَّ قُرْبِي** إشارة الى أقرباء النبي أولاً و الى أقرباء المؤمنين ثانياً و العجب أنهم لم يتفقوا على شيء مثل إتفاقهم على هذا و لا سيما أبو طالب فإن أكثر تعرضاتهم له و أن الآية نزلت في أبي طالب لما مات على كفره وأنما أطلنا الكلام فيه بنقل رواياتهم لأن أبا طالب عليه السلام بزعمهم مات كافراً و لذلك منع الله النبي عن الإستغفار له و حيث إنجر البحث الى هذا المقام فالواجب علينا التكلم حول هذه القصة المختلفة المجعولة الناشئة عن عداوتهم لأمر المؤمنين عليهم السلام.

و عندنا أنَّ أبا طالب عليه السلام لا ذنب له إلا كونه حامياً لرسول الله و أعظم منه كونه أبا لأُمير المؤمنين عليه السلام و إلا فالآية بمعزلٍ عن هذه الأراجيف قطعاً فنقول مستعيناً بالله و متوكلاً عليه أنَّ ما ذكره في المقام باطلٌ من وجوه:

أحدها: أنَّ الأحاديث المذكورة في تفاسيرهم من المجعولات التي لا يقبلها العقل السليم و ذلك لأنَّ النَّاسَ قبل البعثة كانوا على دين المسيح عليه السلام رأسهم أقرباء النَّبي و قد روي أنَّ عبد المطلب كان من الأوصياء فكيف يحكم بكفر من مات قبل البعثة فلو فرضنا أنَّ كثيراً منهم أو أكثرهم في عهد الجاهلية كانوا فساقاً بل كفاراً كما هو كذلك لا يجوز لنا و لا لغيرنا أن يحكم بكفر الجميع و أنهم ماتوا عليه فإنَّ أقرباء النَّبي كانوا من المؤمنين الموحدين خرج عنهم من خرج بالدليل و الباقي داخل تحت الأصل و حيث أنَّ البحث يدور مدار أبي طالب و أمانة و عبد الله فنقول:

أما أمانة و عبد الله فأنهما ماتا قبل البعثة فإنَّ أمانة ماتت و قد مضى من سنِّ رسول الله خمس سنين أو أقلَّ أو أكثر و أما عبد الله فقد مات قبل ولادة النَّبي على الأشهر و من المسلَّم المقطوع به أنَّ الدين الإلهي الذي كان النَّاس مأمورين بإتباعه هو دين المسيح قبل الإسلام و حيث أنَّ أمانة و عبد الله ماتا قبل البعثة فلم يكونا مأمورين بمتابعة النَّبي الذي لم يولد أو ولد و هو صغير و عليه فإنَّ دَلَّ الدليل على أنَّهما ماتا على الكُفر و لم يتبعا دين المسيح فهو وإلا فلا و على المستدل الإثبات و إلا فالحكم بكفر من مات قبل البعثة كائناً من كان تحكُّم و بهتان و لا ينبغي لمن يدَّعي الإسلام و العقل، أن يحكم بكفر كلِّ من مات قبل البعثة ما لم يدل دليل على أنَّه مات كافراً فثبت و تحقَّق أنَّ أمانة و عبد الله لما ماتا قبل البعثة و كان الدين المرَضِي عند الله في عهدهما هو دين المسيح و لم يدل على أنَّهما تركاه و كفر به ماتا مسلمين مؤمنين و يجب على مدَّعي الكفر الإثبات و إذ ليس فليس و لا أقلَّ من السُّكوت و التَّوقف في

الحكم بالكفر والإيمان في حقّ من مات قبل البعثة فكيف يحكم الخصم بكفرهما وأنهما قد ماتا عليه ألم يعلم أنّ دين المسيح قبل النسخ باق على قوته هذا بالنسبة اليهما.

و أما أبو طالب فهو كما حيّاً بعد البعثة و نسخ الشريعة السابقة و مات قبل الهجرة و كان مأموراً باتباع النبي كغيره من الناس و أهل السنة يقولون بأنّه لم يؤمن بالله و برسوله و مات على كفره كما عرفت من كلماتهم و أحاديثهم فنزلت الآية في حقه و أما أهل الحقّ و هم أتباع أهل البيت أجمعوا و إتفقوا على إيمان أبي طالب تبعاً لأئمتهم فإنّ أهل البيت أدري بما في البيت إلا أنّه لم يكن متظاهراً به على رؤوس الأشهاد بل كان مختفياً به لنصرة النبي ﷺ كما هو مذكور مسطور في أخبار أهل البيت فكان حاله حال مؤمن آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه لمصلحة الدين و يدلّ على ما ذكرناه أشعار أبي طالب مصافاً الى الأخبار فمن الأشعار قوله:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم
فأصدع بأمرك ما عليك غضاضة
ودعوتني وزعمت أنك ناصح
وعرضت ديناً قد عرفت بأنّه
لولا المخافة أن يكون معرّة
وقال أيضاً:

يقولون لي دع نصر من جاء بالهدى
وغالب لنا غلاب كلّ مغالب
وسلم الينا أحمداً وأكفلن لنا
نبيّاً ولا تحفل بقول المعاتب
فقلت لهم الله ربّي وناصري
على كلّ باغٍ من لؤي بن غالب

وقال أيضاً:

حميت الرسول رسول الإله ببيض تلاً مثل البروق
أذب وأحمي رسول الإله حماية عم عليه شفيق
ولما أسلم حمزة بن عبد المطلب سر أبو طالب بإسلامه وأنشأ يقول:
صبراً أبا لعل علي دين أحمد وكن مظهراً للدين وفقت صابراً
وحط من أتى بالدين من عند ربّه بصدقٍ وحق لا تكن حمز كافراً
فقد سرنّي إذ قلت أنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصراً
فناد قريشاً بالذي قد أتته جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً
ولما حصن رسول الله الشعب كان أبو طالب يحرسه بالليل والنهار وهو
الذي يقول.

ألم تعلمونا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب
أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
وأن الذي علقت من كتابكم يكون لكم يوماً كراعية التعب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحضر الثرى ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب
وكان النبي إذا أخذ مضجعه ونامت العيون جاء أبو طالب فأنهضه عن
مضجعه وأضجع علياً مكانه وكل عليه ولده وولد أخيه فقال علياً يا
أبتاه أني مقتول ذات ليلة فقال أبو طالب:

إصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حي مصيره لشعوب
قد بلوناك والبلاء شديد لفداء التجيب وابن التجيب
لفداء الأعز ذي الحسب والثاقب والفناء الرحيب

وقال أيضاً:

أنا أمرني بالصبر في نصر أحمد والله ما قلت الذي قلت جازعاً
ولكنني أحببت أن تر نصرتي وتعلم أنني لم أزل لك طائعاً
وسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً

و الأشعار المروية عنه في مدح رسول الله كثيرة ولا سيما قصيدته المشهورة باللامية التي يقول فيها:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
الى آخر القصيدة و حيث أنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذا الفن أعرضنا عن ذكرها و ذكر غيرها ممّا يدلّ على إثبات المدعى صريحاً أو تلويحاً فهذا أبو طالب الذي يقول المعاند بأنّه مات على الكفر فإن كان الأمر كما ذكره الخصم فما معنى هذه الأشعار التي صرّح في كثير منها بأنّه رسول الله أو يقول هو فينا كموسى بن عمران و ما معنى قوله حميت الرسول رسول الإله، و قوله، أذب و أحمي رسول الإله الى آخر ما قال و كيف يصرّح الكافر في كلامه بأنّه رسول الإله هذا كلّ مضافاً الى حمايته عن رسول الله و ذبّه المشركين عنه و كيف يقول:

أنت الأمين أمين الله لا كذب والصادق القول لا لهو ولا لعب
أنت الرسول رسول الله نعلمه عليك تنزل من ذي الغرة الكتب
و لو كان كافراً فما الذي دعاه الى إنشاء هذه الأشعار و النصرة لرسول الله بقدر الإمكان أليس أبولهب من أعمام الرسول و قد فعل ما فعل أليس عباس و سائر أعمامه أحياء و لم ينصروه أصلاً بل خالفوه و نصروا أعداءه أمين الإنصاف أن يتهم الإنسان و لا سيما من يدعي الإسلام أبا طالب بالكفر و أنّ الله منع رسوله أن يستغفر له فأقض ما أنت قاض إن كنت من أهله و العجب كأ العجب من الألوسي الحنفي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأحاديث المجعولة نقلناها عنه و عن غيره حيث قال فلمّا تقارب لأبي طالب الموت نظر العباس اليه يحرك شفثيه فأصغى اليه بأذنه فقال يا بن أخي لقد قال أفي الكلمة التي أمرته بها فقال ^{صلى الله عليه} ~~وآله~~ لم أسمع قال و أحتج بهذا و نحوه من أبياته المتضمنة للإقرار بحقيقة ما جاء به و شدة حنوه عليه و نصرته له، الشيعة الذاهبون الى موته مؤمناً و قالوا أنّه المرؤي عن أهل البيت و أهل البيت أدري

و أنت تعلم قوة دليل الجماعة فالإعتماد على ما روي عن العباس دونه ممّا تضحك منه التكلّي و الأبيات على إنقطاع أسانديها ليس فيها النطق بالشهادتين و هو مدار فلك الإيمان و شدة الحنوة و النصرة ممّا لا ينكره أحد إلاّ أنّها بمعزلٍ عمّا نحن فيه و أخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت و أنّه لأوهن البيوت انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و نحن نقول كأنّ الألوسي لشدة تعصّبه و عناده صار من المجانين الذين لا يعلمون ما يقولون و ذلك لأنّه يقول نظر العباس اليه يحرك شفّته فأصغى اليه بأذنه فقال يا بن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فهذا الكلام إقرارٌ من الألوسي بأنّ أبا طالب مات مؤمناً بشهادة العباس.

ثمّ يقول بعد سطرين فالإعتماد على ما روي عن العباس و دونه ممّا تضحك منه التكلّي فيقال له أن كان الإعتماد على ما روي عن العباس كما تقول و تُقّ به فما معنى قولك و أخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت و المفروض أنّ أخبار الشيعة مصرّحة بأنّه مات مؤمناً كما نقلته عن العباس هذا أولاً.

ثانياً: أنّ الشيعة لم تحتجّ في إيمان أبي طالب به وبالأبيات فقط بل أنّ إيمانه في حياته و مماته من المسلّمات عندهم بحسب الأخبار الواردة عن أهل البيت و أرباب السير و قوله أنّ أخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت كلامٌ لا يصدر عن عاقل فضلاً عمّن يدّعي الإسلام و الإيمان بل هذا الكلام و أمثاله من التّعابير بالنسبة الى أهل البيت يدّل على خبث ذات القائل و عدم طهارة مولده.

و كيف يقول ولد الحلال أنّ أخبار أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت.

فأن كان الإسلام يقتضي هذا فعلى الإسلام السّلام و بعد اللّيتا و اللّتي.

نقول أيّها الألوسي أن كان أخبار أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت، فأين الأخبار التي أوثق منه في الإسلام حتّى نتمسك بها، أترى أنّ ما تروون عن

أحمد وإبن أبي شيبة و البخاري و مسلم و النسائي و إبن جرير و إبن المنذر و أبو هريرة و أنس و أمثالهم أوثق من أخبار أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً.

و في خاتمة البحث نقول إذا كان الغراب دليل قوم، سيهديهم سبيل الهالكين، و لنختم الكلام في المقام و أنما أطلنا الكلام لأنّ الدّفاع عن المظلوم واجب على كلّ من يقدر عليه و أبو طالب كان مظلوماً و قد ورث ذلك من إبنه أمير المؤمنين و الله تعالى يقضي بين العباد يوم القيامة و الحمد لله ربّ العالمين.

فقد ثبت و تحقّق إنّ الآية الشريفة أجنبية عمّا حملوها عليه و هو الحقّ الحقيق بالاتباع و هو المطلوب.

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ

كلمة ما في قوله: و مَا كَانَ لِلنّفي فكأنّه جواب عن سؤال فقدّر و هو أنّه قال بعض المسلمين نستغفر لموتانا كما إستغفر إبراهيم لأبيه فقال تعالى في جوابهم:

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ وَالْمُؤْمِنُ إِذَا وَعِدَ وَفَى بوعده فلَمَّا تَبَيَّنَ له أي لأبراهيم أنّه عدو الله أي لَمَّا ظَهَرَ له أنّه لم يؤمن تبرّأ منه و لم يستغفر له بعد التّبين و المعنى لا حجة لكم أيّها المؤمنون في إستغفار إبراهيم لأبيه فإنّ ذلك لم يكن إلّا عن عدة و اختلفوا في الواعد فقال بعضهم كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله و يخلع الإنداد فلَمَّا مات على الكفر علم إبراهيم أنّه عدو الله فتبرّأ منه.

و قال الآخرون كان الواعد إبراهيم أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له فلَمَّا مات مشركاً تبرّأ منه.

قال الشيخ في التبيان بعد نقله القولين والذي عندي وهو الأقوى أن أباه أظهر له الإيمان وصار إليه وكان وعده أن يستغفر له أن آمن فلما أظهر الإيمان استغفر له فأعلمه الله أن ما ظهر منه بخلاف ما يظنه، فتبرأ منه و يقوي ذلك قوله: **وَاعْفُ رُ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** ^(١).

أي فيما مضى ويجوز أن يكون أظهر الكفر بعد الإيمان فلما تبين ذلك تبرأ منه فأما من قال أن الوعد كان من إبراهيم فالسؤال باق لأن لقائل أن يقول ولم وعد كافراً أن يستغفر له فأن قلنا وعده بأن تستغفر له إن آمن، كان الرجوع الى الجواب الآخر انتهى كلامه رفع مقامه.

و في تفسير العياشي بأسناده عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد الله ما يقول الناس في قول الله عز وجل: **وَ مَا كَانَ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ قُلْتُ** يقولون إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال ليس هو هكذا أن إبراهيم وعده إن يسلم فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه انتهى.

و في حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما مات تبين أنه عدو لله فلم يستغفر له.

و في تفسير علي بن إبراهيم قوله: **وَ مَا كَانَ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ** قال قال إبراهيم لأبيه أن لم تعبد الأصنام أستغفر لك فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم وقد نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن القاضي أبوبكر بن العربي أنه قال تعلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى: **سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي** ^(٢) فأخبره الله أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبين الكفر منه فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافراً انتهى.

أقول أنظر الى عناد هذا القوم لأولاد الرسول وأقرباءه فأنهم لا يرضون أنفسهم في أبي طالب بأقل من الكفر وأنه مات عليه ولا أدري لم يصرون عليه، و

أَيُّ نَفْعٍ يَحْصُلُ لَهُمْ فِيهِ أَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ مَعَ أَنَّهُمْ إِنْتَفَقُوا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَّاهٍ حَلِيمٌ. فَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الدُّعَاءُ الَّذِي يَكْثُرُ الدُّعَاءُ وَقِيلَ أَنَّهُ الرَّحِيمُ بَعْبَادِ اللَّهِ أَنَّهُ الْمُؤْمِنُ وَقِيلَ أَنَّهُ الْمُؤْمِنُ بِلُغَةِ الْحَبْشَةِ وَالْأَقْوَالُ كَثِيرَةٌ وَالْأَقْوَى هُوَ الْأَوَّلُ وَأَنْ كَانَ لِكُلِّ مِنْهَا وَجْهٌ وَقَدْ نَقَلُوا عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغَفَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ الْمَتَأَوِّهِ ذَلِكَ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ، آه مِنَ النَّارِ قَبْلَ أَنْ لَا تَنْفَعَ آهٌ وَقَوْلُهُ: حَلِيمٌ أَيُّ كَثِيرِ الْحِلْمِ وَهُوَ الَّذِي يَصْفَحُ عَنِ الذُّنُوبِ وَيَصْبِرُ عَلَى الْأَذَى وَقِيلَ، الَّذِي لَمْ يِعَاقِبْ أَحَدًا إِلَّا فِي اللَّهِ وَلَمْ يَنْتَصِرْ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ. وَأَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: لِأَبِيهِ.

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ الْمُرَادُ بِهِ عَمَّهُ لِأَنَّ الْأَبَ يَطْلُقُ عَلَى الْعَمِّ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَبَاهُ الَّذِي وَلَدَهُ لِأَنَّ آبَاءَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَكُونُونَ إِلَّا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةً عَيْنٍ قَالُوا وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِأَبِيهِ فِي الْآيَةِ هُوَ عَمَّهُ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَ اتَّخَذْتُ أَصْنَامًا لِلَّهِ^(١) مَعَ أَنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ كَانَ تَارِخًا وَآذَرَ كَانَ عَمَّهُ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ هُنَاكَ وَأَمَّا فِي الْمَقَامِ فَلَا يَفْتَرِقُ الْحَالُ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

قِيلَ فِي وَجْهِهِ اتِّصَالُ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلُهَا هُوَ أَنَّهُ لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْإِسْتِغْفَارَ لِلْمَشْرِكِينَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَأْخُذَكُمْ بِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَذْلَكُمْ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّقُوهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ، مَاتَ قَوْمٌ كَانَ عَمَلُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ الْأَوَّلِ كِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَشَرَبِ الْخَمْرِ فَسَأَلَ قَوْمَ الرَّسُولِ بَعْدَ مَجِيئِ النَّسْخِ وَنَزُولِ الْفَرَائِضِ عَلَى ذَلِكَ فَنَزَلَتْ.

ضَبَّاهُ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



الْعُجْلُ
الْقَالَ

و قال الكرمانى، أسلم قومٌ من الأعراب فعملوا بما شاهدوا الرسول يفعلُه من الصَّلاة الى بيت المقدسّ و صيام أيام البيض ثم قدّموا عليه فوجدوه يصلي الى الكعبة و يصوم رمضان فقالوا يا رسول الله دنا بعدك بالضلال أأنك على أمرٍ و إنّنا على غيره فنزلت، و قيل خاف بعض المؤمنين من الإستغفار للمشرّكين دون إذنٍ من الله فنزلت الآية و كيف كان فمعنى الآية أنّ الله تعالى لا يحكم بضلال من عدل عن طريق الحقّ على وجه الدّم إلا بعد ان ينصب له على ذلك الدليل و الحجّة و أمّا بعد البيان فيحكم، والوجه فيه هو قبح العقاب بلا بيان، و على هذا فمن إستغفر للمشرّكين قبل نزول الآية و شرب الخمر قبل نزول الحكم بحرّمته و هكذا لإشكال فيه و لا دُمّ عليه و على هذا المعنى فقلوه: **لِيُضِلَّ** معناه ليحكم بضلاله.

أقول الظاهر أنّ الآية بعد بيان حكم عامّ و هو أنّ الله تعالى يجب عليه البيان قبل العقاب كما هو مقتضى العدل فلنقال أن يقول لا شك أنّ الله تعالى هدانا للإسلام بواسطة النبي فالنبي إمامٌ متّبع ما دام كونه حيّاً و أمّا بعد موته فمن الإمام فهل يجب على الله تعالى أن يبيّن للأمة ذلك أو لا يجب.

على الثّاني: لا يلزم العقاب يوم القيامة لأنّ الله تعالى لم يبيّن لنا الإمام و القدوة بعد الرسول لناخذ عنه أحكام ديننا كما هو مقتضى الآية و صريح حكم العقل.

على الأوّل: و هو وجوب التّعيين و التّبين كما هو الحقّ يثبت المطلوب لنا و نحكم ببطلان السّقيفة إذا عرفت هذا فنقول لا يبعد أن تكون الآية بصدد بيان هذا الأصل الأصيل و الرّكن الرّكين أعني به الإمامة و الخلافة بعد النبي ﷺ و ذلك لوضوح أنّ شرب الخمر مثلاً قبل تحرّمه من قبل الشّارع لا ذمّ فيه عقاب عليه و هذا لا يحتاج الى نزول الآية لأنّه من المقطوع به عقلاً ضرورة أنّ قاعدة قبح العتاب بلا بيان تكفي في هذه الموارد و لا يحتاج الى نصّ خاص من الشّارع و عليه فإختصاص الآية بأمثال هذه الموضوعات بعيد جدّاً و إذا

رُوبِيلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي رَأْسِ الْجَبَلِ إِلَى الْقَوْمِ أَنَا رُوبِيلُ الشَّفِيقِ عَلَيْكُمْ الرَّحِيمِ بِكُمْ إِلَيَّ رَبُّهُ قَدْ أَنْكَرْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ هَذَا سُؤَالَ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ أَخْبَرَكُمْ يُونُسُ نَبِيِّكُمْ وَرَسُولُ رَبِّكُمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ فِي سُؤَالَ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ رَسَلَهُ فَأَنْظَرُوا مَاذَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ فَأَفْزَعَهُمْ كَلَامُهُ فَوْقَ فِي قُلُوبِهِمْ تَحْقِيقَ نَزُولِ الْعَذَابِ فَأَجْفَلُوا (أَسْرَعُوا) نَحْوَ رُوبِيلِ وَقَالُوا لَهُ مَاذَا أَنْتَ مُشِيرٌ بِهِ عَلَيْنَا يَا رُوبِيلُ فَأَنْتَ رَجُلٌ عَالِمٌ حَكِيمٌ لَمْ نَزَلْ نَعْرِفُكَ بِالرِّقَّةِ عَلَيْنَا وَالرَّحْمَةُ لَنَا وَقَدْ بَلَّغْنَا مَا أَشْرَتْ بِهِ عَلَيَّ يُونُسُ فَمَرْنَا بِأَمْرِكَ وَأَشْرْنَا بِرَأْيِكَ فَقَالَ لَهُمْ رُوبِيلُ فَأَنْتَ أَرَى لَكُمْ وَأَشْرَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْظُرُوا وَتَعْمَدُوا وَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ أَنْ تَعْزِلُوا الْأَطْفَالَ عَنِ الْأُمَمَاتِ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ فِي طَرِيقِ الْأَوْدِيَةِ وَتَقْفُوا النِّسَاءَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَيَكُونُ هَذَا كُلُّهُ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَعَجَّوْا عَجِيجَ الْكَبِيرِ مِنْكُمْ وَالصَّغِيرِ بِالصَّارِخِ وَالْبَكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ وَالِإِسْتِغْفَارَ لَهُ وَأَرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَقُولُوا رَبَّنَا ظَلَمْنَا وَكَذَبْنَا نَبِيَّكَ وَتَبْنَا إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَأَنْ لَا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْمَعَذِّبِينَ فَأَقْبَلَ تَوْبَتَنَا وَأَرْحَمَنَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ثُمَّ لَا تَقْلُوا مِنَ الْبَكَاءِ وَالصَّارِخِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ حَتَّى تَوَارِيَ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ أَوْ يَكْشِفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ قَبْلَ ذَلِكَ فَأَجْمَعَ رَأْيَ الْقَوْمِ جَمِيعاً عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ رُوبِيلُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الَّذِي تَوَقَّعُوا الْعَذَابَ تَنَحَّى رُوبِيلُ عَنِ الْقَرْيَةِ حَيْثُ يَسْمَعُ صَرَخَهُمْ وَيَرَى الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَعَلَ قَوْمُ يُونُسَ مَا أَمَرَهُمْ رُوبِيلُ فَلَمَّا بَزَغَتِ الشَّمْسُ أَقْبَلَتْ رِيحٌ صَفْرَاءُ مَظْلَمَةٌ مُسْرِعَةٌ لَهَا صَرِيرٌ وَحَفِيفٌ فَلَمَّا رَأَاهَا وَعَجَّوْا

جميعاً بالصَّراخ والبكاء والتَّضرع إلى الله و تابوا إليه و أستغفروه
و صرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمَّهاتهم و عَجَّت سخال البهائم
تطلب الثَّدي و عَجَّت الأنعام تطلب الرِّعاف فلم يزالوا بذلك و يُونس و
تنوحا يسمعان صيحتهم و صراخهم و يدعُونَ الله عليهم بتغليظ
العذاب عليهم و رُوِيل في موضعه يسمع صراخهم و عجيجهم و
يرى ما نزل و هو يدعوا الله بكشف العذاب عنهم فلمَّا أن زالت
الشَّمس و فتحت أبواب السَّماء و غضب الرَّب تعالى رحمهم
الرَّحمن فاستجاب دعاءهم و قبل توبتهم و أقالهم عثرتهم و أوحى
إلى إسرأفيل أن أهبط إلى قوم يُونس فأنَّهم قد عَجَّوا إلِّي بالبكاء و
التَّضرع و تابوا إلِّي و أستغفروني فرحمتهم و تبت عليهم و أنا
التَّواب الرَّحيم أسرعُ إلى قبول توبة عبدي التَّائب من الذَّنوب و قد
كان عبدي يُونس و رسولي سألني نزول العذاب على قومه و قد
أنزلته عليهم و أنا الله أَحَقُّ من و في بعده و قد أنزلته عليهم ولم
يكن إشتراط يُونس حين سئلني أن أنزل عليهم العذاب أن أهلَّكم
فأهبط إليهم فأصرف عنهم ما قد نزل بهم من عذابي فقال إسرأفيل
يا ربَّ أنَّ عذابك قد بلغ أكنافهم و كادوا أن يهلكهم و ما أراه إلَّا قد
نزل بساحتهم فإلى أين أصرِّفه فقال الله كلاً إنِّي قد أمرت ملائكتي
أن يصرِّفوه ينزلوه عليهم حتَّى يأتيهم أمرى فيهم و عزيزتي
فأهبط يا إسرأفيل عليهم و أصرِّفه عنهم و أصرِّف به إلى الجبال
فأذلها به وليتَّها حتَّى تصير ملتئمَةً حديدًا جامدًا فهبط إسرأفيل
فنشر أجنحته فاستاق بها ذلك العذاب حتَّى ضرب بها تلك الجبال
التي أوحى الله إليه أن يصرِّفه إليها.

قال أبو جعفر عليه السلام و هي الجبال التي بناحية الموصل اليوم
فصارت حديدًا إلى يوم القيامة فلمَّا رأى قوم يُونس أنَّ العذاب قد

صرف عنهم هبوطا الى منازلهم من رؤوس الجبال وضمّوا اليهم نساؤهم وأولادهم وأموالهم وحمدوا الله على ما صرف عنهم وأصبح يونس و تنوحا يوم الخميس في موضعها الذي كانا فيه لا يشكان أن العذاب قد أنزل بهم وأهلكهم جميعاً لما خفيت أصواتهم عنهما فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشمس ينظران الى ما صار اليه القوم فلما دنوا من القوم وأستقبلتهم الحطابون والحماة والرعاة بأعناقهم ونظروا الى أهل القرية مطمئنين قال يونس لتنوحا يا تنوحا كذبني الوحي (أي بإعتقاد القوم) وكذبت وعدي لقومي لا وعزة ربّي لا يرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذبني الوحي فأطلق يونس هارباً على وجهه مغاضباً لربه ناحية بحر، أيلة، مستنكراً فراراً من أن يراه أحد من قومه فيقول له يا كذاب فلذلك قال الله: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ^(١) ورجع تنوحا الى القرية فلقى روبييل فقال يا تنوحا أيّ الرّأيين كان أصوب وأحقّ رأييما أو رأيك فقال له تنوحا بل رأيك كان أصوب ولقد كنت أشرت برأي العلماء والحكماء وقال تنوحا أما إنّي لم أزل أرى إنّي أفضل منك لزهدّي وفصل عبادتي حتّى إستبان فضلك لفصل علمك وما أعطاك الله من الحكمة مع التّقوى أفضل من الزّهد والعبادة بلا علم فأصطحبا فلم يزالا مقيمين مع قومهما ومضى يونس على وجهه مغاضباً فكان من قصّته ما أخبر الله في كتابه الى قوله: فآمنوا فمتّعناهم الى حين.

قال أبو عبيدة قلت لأبي جعفر عليه السلام كم كان غاب يونس عن قومه حتّى رجع اليهم بالنبوة والرّسالة فآمنوا به وصدّقوه قال عليه السلام أربعة أسابيع منها في ذهابه الى البحر وسبعاً في بطن الحوت و

سبعاً تحت الشجرة بالعراء و سبعاً منها في رجوعه الى قومه فقلت له و ما هذه الأسابيع شهوراً و أيام أو ساعات فقال يا أبا عبيدة أن العذاب آتاهم يوم الأربعاء في النصف من شوال و صرف عنهم من يومهم ذلك فأنطلق يونس مغاضباً فمضى يوم الخميس سبعة أيام في مسيره الى البحر و سبعة أيام في بطن الحوت و سبعة أيام تحت الشجرة بالعراء و سبعة أيام في رجوعه الى قومه فكان ذهابه و رجوعه ثمانية و عشرين يوماً ثم آتاهم فأمّنوا به و صدّقوه و أتبعوه فلذلك قال تعالى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

و قد روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما أظّل قوم يونس العذاب دعوا الله فصرفه عنهم قلت كيف ذلك قال عليه السلام كان في العلم أنه يصرفه عنهم إنتهى.

و عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام أن يونس لما آذاه قومه دعى الله فأصبحوا أول يوم من صفر، و أصبحوا اليوم الثاني و وجوههم سود الحديث.

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال و قد ذكر يوم عاشوراء، و هذا اليوم الذي تاب الله منه على قوم يونس إنتهى. و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ثقال عليه السلام لبث يونس في بطن حوت ثلاثة أيام و نادى في الظلمات ظلمة بطن الحوت و ظلمة الليل و ظلمة البحر لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ^(١) فاستجاب الله له فأخرجه الحوت الى الساحل ثم قذفه فألقاه الى الساحل و أنبت الله عليه شجرة من يقطين و هو القرع فكان يمضه و يستظل به و بورقه و كان تساقط شعره ورّق جلده

و كان يُونس يسيح و يذكر الله بالليل و النهار فلما أن قوى و إشتدّ بعث الله دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثم يبست فشق ذلك على يونس فظّل حزينا فأوحى الله اليه مالك حزينا يا يُونس قال يا ربّ هذه الشجرة التي كانت تنفعني سلّطت عليها دودة فبيست قال تعالى يا يونس أحزنت بشجرة لم تزرعها و لم تسقها و لم تعن بها أن يبست حين إستغنيت عنها و لم تحزن لأهل نينوى أكثر من مائة ألف أردت أن ينزل عليهم العذاب أن أهل نينوى آمنوا و اتّقوا فأرجع اليهم الحديث.

أقول الأحاديث نقلناها عن^(١) و لم نذكر جميع ما ذكره في الباب حذراً عن الإطناب إن شئت الإطلاع على أكثر ممّا ذكرناه فعليك بمراجعة المآخذ المذكورة و غيرها من كتب الأحاديث.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

أخبر الله في هذه الآية أنّه لو شاء و أراد إيمان جميع النّاس، لأمن من في الأرض جميعاً، و ذلك لأنّه تعالى قادر على كلّ شيء فهو يقدر على أن يكون الخلق على الإيمان و لكنّه لم يرد و لم يشاء ذلك قال تعالى: **إِنْ فُتِنَا نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**^(٢) ففي الآية دلالة على أنّ الله تعالى لم يشاء إيمان الجميع على سبيل القهر و أعمال القدرة لا أنّه تعالى لم يرد و لم يشاء الإيمان أصلاً بل شاء الإيمان على سبيل الإختيار.

و من المعلوم أنّه لا يكون في الجميع ففي الآية إخبار عن عموم قدرته و أنّه قادر على كلّ شيء و هو ممّا لا كلام فيه و في قوله: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى**

١- تفسير نور الثقلين ج ٢ و تفسير العياشي و تفسير البرهان

٢- سورة الشعراء آية ٤

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْغِي إِكْرَاهُهُمْ عَلَيْهِ لِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَيْهِ
يُرِيدُهُ لِأَنَّهُ يَنْفِي التَّكْلِيفَ وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِمَّا كَانَ يَلْحَقُهُ مِنَ التَّحَسُّرِ وَ
الْحَرَصِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ.

قال صاحب الكشف (ولو شاء ربك) مشيئة القسر والإلجاء لِأَمَنَ مَنْ فِي
الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا عَلَى وَجْهِ الإِحَاطَةِ وَ الشُّمُولِ مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيْمَانِ
مُطَبِّقِينَ عَلَيْهِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: أَقَانَتْ تُكْرَهُ النَّاسَ يَعْنِي
يَقْدِرُ عَلَى إِكْرَاهِهِمْ وَ إِضْطَرَّارِهِمْ إِلَى الْإِيْمَانِ هُوَ لَا أَنْتَ وَإِبْلَاءُ الْإِسْمِ حَرْفُ
الِاسْتِفْهَامِ لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّ الْإِكْرَاهَ مُمْكِنٌ مُقْدُورٌ عَلَيْهِ وَ أَمَّا الشُّأْنُ فِي الْمَكْرَهِ مِنْ
هُوَ، وَ مَا هُوَ إِلَّا وَحْدَهُ لَا يَشَارِكُ فِيهِ لِأَنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مَا
يُضْطَرُّونَ عِنْدَهُ إِلَى الْإِيْمَانِ وَ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ لِلْبَشَرِ أَنْتَهَى.

وَ قَالَ الرَّازِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بَيَّنَّ أَنَّ جَدَّ الرَّسُولِ فِي دُخُولِهِمْ فِي
الْإِيْمَانِ لَا يَنْفَعُ وَ مَبَالِغَتُهُ فِي تَقْرِيرِ الدَّلَائِلِ.

وَ الْجَوَابُ عَنِ السُّبُّهَاتِ لَا تَقِيدُ لِأَنَّ الْإِيْمَانِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَخْلِيْقِ اللَّهِ تَعَالَى
وَ مُشِيَّتِهِ وَ إِرْشَادِهِ وَ هِدَايَتِهِ فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَحْصُلِ الْإِيْمَانُ.

وَ الْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ الْإِيْمَانِ لَوْ كَانَ بِتَخْلِيْقِ اللَّهِ وَ جَدَّ الرَّسُولِ لَا يَنْفَعُ فِيهِ فَلَا
نَحْتَاجُ إِلَى الرَّسُولِ أَصْلًا إِذَ الْمَفْرُوضُ أَنَّ جَدَّهُ لَا يَنْفَعُ وَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَوْجُودُهُ
كَالْعَدَمِ فَعَلَى اللَّهِ تَخْلِيْقِ الْإِيْمَانِ فِي قَلْبٍ مِنْ يَشَاءُ وَ هَذَا مِمَّا لَا يَقُولُ بِهِ عَاقِلٌ
فَضْلًا عَنْ فَاضِلٍ وَ لَيْتَ شِعْرِي مَا الْمَرَادُ بِتَخْلِيْقِ الْإِيْمَانِ فِي الْعَبْدِ فَإِنْ كَانَ
الْمَرَادُ إِلْقَاءَ الْإِيْمَانِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ فَهُوَ مِمَّا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهُ مِنْ غَيْرِ رَسُولٍ لِأَنَّ
إِلْقَاءَ الْإِيْمَانِ فِي الْقَلْبِ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَةِ الرَّسُولِ وَ أَنْ كَانَ الْمَرَادُ بِهِ إِيجَادُ
الْإِيْمَانِ فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الْمَكُونَاتِ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِهِ الْخَلْقُ.

ثُمَّ قَالَ الرَّازِي إِنْ حُتِّجَ أَصْحَابُنَا عَلَى صَحَّةِ قَوْلِهِمْ بِأَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ بِمُشِيَّةِ
اللَّهِ تَعَالَى فَقَالُوا كَلِمَةً، لَوْ، تَقِيدُ إِنْتِفَاءَ الشَّيْءِ لِإِنْتِفَاءِ غَيْرِهِ فَقَوْلُهُ: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ

لَأَمِّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا يَقْتَضِي أَنَّهُ مَا حَصَلَتْ تِلْكَ الْمَشِيئَةُ وَمَا حَصَلَ إِيمَانُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَا أَرَادَ إِيمَانُ الْكُلِّ انْتَهَى.

وَأَجَابَ الْجَبَائِيَّ عَنْهُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَشِيئَةِ هُوَ مَشِيئَةُ الْإِلْجَاءِ أَيَّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُلْجِئَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ لَقَدَّرَ عَلَيْهِ وَلَصَّحَ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّ الصَّادِرَ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَفِيدُهُ فَائِدَةٌ.

ثُمَّ قَالَ الْجَبَائِيَّ وَمَعْنَى إِلْجَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَيَّاهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَهُمْ إِضْطِرَارًا أَنَّهُمْ لَوْ حَاولُوا تَرْكَهُ حَالَ اللَّهِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَعِنْدَ هَذَا لَا بَدْوَانَ يَفْعَلُوا مَا أُلْجِئُوا عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ مِنْ عِلْمِ مَنْ أَنَّهُ حَاولَ قَتْلَ مَالِكٍ فَأَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنْهُ قَهْرًا لَمْ يَكُنْ تَرْكُهُ لِذَلِكَ الْفِعْلِ سَبَبًا لِإِسْتِحْقَاقِ الْمَدْحِ وَالثَّوَابِ فَكَذَا هَاهُنَا انْتَهَى.

أَقُولُ هَذَا الْجَوَابَ قَدْ ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ بَعْدَ ذِكْرِهِ إِحْتِجَاجَ أَصْحَابِهِ ثُمَّ نَصَدَّيْ لِلْجَوَابِ عَنِ الْجَبَائِيَّ.

وَقَالَ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ ضَعِيفٌ وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهِ:

الأول: أَنَّ الْكَافِرَانَ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْكُفْرِ فَهَلْ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِيمَانِ أَوْ مَا كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ فَإِنَّ قَدْرَ عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْإِيمَانِ فَيَنْبِذُ يَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْكُفْرِ مُسْتَلْزِمَةً لِلْكَفْرِ فَإِذَا كَانَ خَالِقُ تِلْكَ الْقُدْرَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لَزِمَ أَنْ يَقَالَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِيهِ قُدْرَةً مُسْتَلْزِمَةً لِلْكَفْرِ فَوَجِبَ أَنْ يَقَالَ أَنَّهُ أَرَادَ مِنْهُ الْكُفْرَ إِنْ كَانَتْ الْقُدْرَةُ صَالِحَةً لِلضَّادِّينَ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْقَوْمِ فَرَجْحَانِ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ عَلَى الْآخَرِ أَنْ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَلَى الْمُرْجَحِ فَقَدْ حَصَلَ الرَّجْحَانُ لَا لِمُرْجَحٍ وَهَذَا بَاطِلٌ وَإِنْ تَوَقَّفَ عَلَى الْمُرْجَحِ أَمَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَبْدِ أَوْ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ كَانَ مِنَ الْعَبْدِ عَادَ التَّقْسِيمُ فِيهِ وَلَزِمَ التَّسْلُسُ وَهُوَ مُحَالٌ وَأَنْ كَانَ مِنَ اللَّهِ فَيَكُونُ مَجْمُوعَ تِلْكَ الْقُدْرَةِ مَعَ تِلْكَ الدَّاعِيَةِ مُوجِبًا لِذَلِكَ الْكُفْرِ فَإِذَا كَانَ خَالِقُ الْقُدْرَةِ وَالدَّاعِيَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَحِينَئِذٍ عَادَ الْإِلْزَامُ.

الثاني: أن قوله: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ** لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء لأن النبي ﷺ ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيد في الآخرة فبين الله تعالى أنه لا قدرة للرَسُول على تحصيل هذا الإيمان ثم قال: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا** فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النافع حتى يكون الكلام مستظماً فأما حمل اللفظ على مشيئة القهر والإلجاء فإنه لا يليق بهذا الموضع انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

و نحن نقول أمّا ما ذكره أولاً من أن الكافر أن كان قادراً على الكفر فهل كان قادراً على الإيمان أو ما كان قادراً عليه نقول في جوابه أنه قادر على الإيمان أيضاً كما أنه قادر على الكفر قوله فرجحان أحد الطرفين يحتاج الى المرجح و المرجح أمّا أن يكون من العبد أو من الله نقول أنه من العبد قوله عاد التقسيم فيه و لزم التسلسل.

نقول المرجح موجود و هو حكم العقل برجحان أحد الطرفين على الآخر فأين التسلسل ثم أين الترجيح بلا مرجح و بعبارة أخرى التسلسل موقوف على الترجيح بلا مرجح فإذا ثبت المرجح و هو حكم العقل باختيار الأصلح فلا يلزم التسلسل هذا أن قلنا بإستحالة الترجيح بلا مرجح و نحن نقول به بل نقول لا إشكال فيه و ذلك لأن نفس الترجيح لأحد الطرفين على الآخر بسبب العقل مرجح و أي مرجح أقوى من إختيار العقل أحد الطرفين و الذي نقول بإستحالة هو الترجيح بلا مرجح و أين هذا من ذلك و حيث أن الرازي لم يفرق بين الترجيح و الترجيح فقال ما قال و هذا هو الذي صار منشأ لخطأه و إشتباهه و كم زل أقدام العلم في هذا الميلان.

و أمّا ما ذكره ثانياً في جواب الجبائي من أن قوله و لو شاء ربك، لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء الى آخر ما قال فطريق من الكلام و ذلك لأن مشيئة

اللّه لا تخلو عن الإلجاء والاختيار وبعبارة أخرى قوله تعالى: **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا** اختياراً أو إضطراراً ولا ثالث لهما فإن كان اختياراً فهو تعالى شاء وأمر به ولم يحصل الإيمان من الكل وأن كان إضطراراً بأن يضطر العبد على الإيمان فهو وأن كان قادراً عليه إلا أنه لم يشاء ولم يرد الإيمان كذلك لأن الإيمان الأضطراري لا فائدة فيه فقوله لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء شطط من الكلام.

و محصل الكلام هو أن الله تعالى شاء الإيمان من العباد اختياراً منهم لا إضطراراً و حيث أن النبي كان حريصاً على إيمان الكل فقال تعالى تسلياً له ذلك لا يكون و لا يحصل منهم بالإختيار و لو شاء ربك لأمن من في الأرض جميعاً على سبيل الإضطرار و الإلجاء و لكنه لم يشاء و الدليل على ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك: **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** فالمعنى إنالم نكرهم عليه أفأنت تكرهمهم عليه و لو كان الإيمان من المكره مفيداً لأكرهناهم عليه ففي الآية دلالة على عدم جواز الإكراه و الإجبار في الدين و هذا هو الأصل في المقام:

قال الله تعالى: **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** (١).

دلّت الآية على عدم جواز الإكراه في الدين والدين هو الإيمان:

قال الله تعالى: **أَدْخُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَسَنَةِ** (٢).

و هو يدل على أن وظيفة النبي مجرد الدعوة الى الحق لا الإكراه و الإجبار عليه ظاهر لا خفاء فيه و ما كان لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ الإذن الأمر و كلمة، ما، نافية و المعنى ليس لنفس أن تؤمن إلا بأمر الله لها بالإيمان كما قال: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ**

الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ^(١) ولا يبعد أن يكون المراد بالإذن، العلم أي لا تؤمن إلا بعلم الله و على المعنيين فالآية لا تدل على أن العبد في إيمانه لا إختيار له بل تدل على أن الإيمان مأمور به فمن أطاع الخالق آمن به و من آمن به فقد أطاعه و أن الله تعالى عالم بمن آمن به قبل إيمانه بل قبل إيجاده و أمّا قوله: وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ أي يجعل العذاب على الذين لا يعقلون أو امره و نواهيه و قيل يجعل الكفر عليهم أي يحكم عليهم بالكفر وأنهم أهله ذمًا لهم.

و قال ابن عباس الرّجس الغضب و السّخط أي يجعل الله الغضب و السّخط عليهم و كيف كان فالمعنى واضح.

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ.

الخطاب للرسول و المراد جميع الأمة بل جميع الناس أمرهم الله تعالى بالنظر الى السموات و الأرض و ما فيها من عجائب الخلقة من مجيئ الليل و النهار و مجرى البحور و الأفلاك و الشمس و القمر و جميع الكواكب من السيارات و غيرها و نتاج الحيوان و خروج الزرع و الثمار و وقوف السموات و الأرض بغير عمادٍ و غيرها من الآيات العجيبة لأن كل ذلك تدبير يقتضي مدبراً لا يشبه الأشياء و لا تشبهه و من المعلوم أن المراد بالنظر في الآية و أشباهها ليس مجرد الرؤية بالعين بل المراد الفكر و الاعتبار.

و قال الرماني هو طلب الشئ من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين و كلمة، ما، في قوله: مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إستفهامية و المعنى أنظروا أي شئ فيهما و أمّا قوله: وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا

فيه القرآن في تفسير القرآن



الجلد الثاني

يُؤْمِنُونَ فَقِيلَ، مَا، لِلنَّفْيِ وَالْمَعْنَى مَا يَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً يَدْفَعُ الضَّرَرَ إِذَا لَمْ يَفَكَّرُوا فِيهَا وَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِهَا كَقَوْلِكَ وَمَا يَغْنِي عَنْكَ الْمَالُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَنْفَقْهُ فِي وَجْهِهِ.

وَقِيلَ، إِسْتَفْهَامِيَّةٌ وَالْمَعْنَى أَيُّ شَيْءٍ يَغْنِي عَنْهُمْ مِنْ إِجْتِلَابِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ إِذَا لَمْ يَسْتَدْلُوا بِهَا وَالنَّذْرُ جَمْعُ نَذِيرٍ وَهُوَ صَاحِبُ النَّذَارَةِ وَهِيَ إِعْلَامٌ بِمَوْضِعِ الْمَخَافَةِ لِيَقَعَ بِهِ السَّلَامَةُ وَقَالَ بَعْضُهُمُ النَّذْرُ جَمْعُ نَذِيرٍ أَمَّا مَصْدَرُ فَمَعْنَاهُ الْأَنْذَارَاتُ وَأَمَّا بِمَعْنَى مُنْذِرٍ فَمَعْنَاهُ الْمُنْذَرُونَ وَالرَّسَلُ وَفِي الْآيَةِ تَوْبِيخٌ لِحَاضِرِي رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكَيْفَ كَانَ فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ تَنْبِيهُ الْغَافِلِينَ وَكَثِيراً مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْحُضَّ عَلَى الْكُفَّارِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ^(٤).

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ

خَاطَبَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِلَفْظِ الْإِسْتِفْهَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ النَّفْيُ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ لَيْسَ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِهِمْ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ أَيُّ وَقَائِعِ اللَّهِ تَعَالَى فَهَمَّ كَمَا يَقَالُ أَيَّامُ الْعَرَبِ لَوْقَاتِهَا.

قال بعض المُفسّرين أنما قابل بين الأيام المنتظرة و الأيام الماضية في وقوع العذاب و الحسرة حين لا تنفع الندامة، قل يا محمّد، لهؤلاء الكفّار فانتظروا أني معكم من المنتظرين أي إنتظروا ما وعد الله به من العقاب فأني منتظراً لنزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد الله به و المقصود من الآية إنّا نعذبهم في المستقبل كما عذبنا من كان قبلهم في الماضي فإنّ حكم الأمثال واحد.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ.

بعدم إستحقاقهم العذاب بل يستحقّون الرّحمة لإيمانهم فكما أنّه تعالى أنجى الرّسل و المؤمنين في الأمم الماضية بعد نزول العذاب فكذلك في المستقبل فإنّ الملاك و هو الإيمان موجود فيهم أنّه تعالى خاطب نبيّه و قال:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

قيل أنّه خطاب لأهل مكّة و ظاهر الكلام أنّه خطاب لجميع المشركين و المعنى أنّ الرّسول يقول لهم إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبينه لكم إنّي لا أعبد الذين تعبدون و أنتم من دون الله كائناً ما كان و لكنّ أعبدُ الله الَّذي يَتَوَقَّيْكُمْ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قيل في قوله يتوّفاكم دلالة على البدء و هو الخلق و على الإعادة فكأنّه أشار الى أنّه يعبد الله الَّذي خلقكم و يتوّفاكم و يعيدكم و كثيراً ما صرّح في القرآن بهذه الأطوار الثلاثة و كان التّصريح بهذا.

الوصف لما فيه من التذكير بالموت و إرهاب النّفوس به و صيرورتهم الى الله بعده فهو الجديد بأن يخاف منه و يتّقى و يعبد لا الحجارة الّتي تعبدونها و أمرت أن أكون من المؤمنين المصدّقين بالله الموحّدين له المفرد له بالعبادة و

قبل معناه أن كنتم في شك من ديني و ممّا عليه، أثبت أم أتركه و أوافقكم، فلا تحدّثوا أنفسكم بالمحال و لا تشكوا في أمري و أقطعوا عني أطماعكم و أعلموا إنّي لا أعبد الذين تعبدون من دون الله و لا أختار الضلالة على الهدى كقوله: **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ^(١) إنتهى.

و قوله أمرت أن أكون أصله بأن أكون فحذف الجار.

وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

هذه الآية عطف على ما قبلها والتقدير أمرت أن أكون من المؤمنين و قيل لي **أَقِمَّ وَجْهَكَ** اختلفوا في، أن، هل هي مصدرية أو تفسيرية فمن قال بأن قوله: **وَأَنْ أَقِمَّ** معمولة تقوله و، أمرت، مراعي فيها المعنى لأن معنى قوله أن يكون، كن، من المؤمنين، فتكون، أن مصدرية صلتها الأمر و قد أجاز ذلك النحويون و من قال أن الجملة المقدرة فيها معنى القول فعلى قوله تكون أن تفسيرية و المعنى إستقم للدين و لا تحدّ عنه و كني بذلك عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين هكذا قيل.

و قوله: **حَنِيفًا** فهو حال من الضمير في أقم أو من المفعول و أجاز الزمخشري أن تكون حالاً من الدين و الحنف هو في الأصل ميل عن الضلال الى الإستقامة كما أن الجنف بالجيم ميل عن الإستقامة الى الضلال يقال تحنّف فلان أي تحرّى طريق الإستقامة و سمّت العرب كلّ من حجّ أو اختن حنيفاً تنبيهاً على أنه في دين إبراهيم.

قال بعض المفسرين معنى الكلام، أستقم بإقبالك على ما أمرت به من القيام بأعباء النبوّة و تحمّل أمر الشريعة ودعاء الخلق الى الله بوجهك إذ من أقبل على الشئ بوجهه يجمع همّته له فلم يضيع فيه، و قيل معناه أقم وجهك في الصلاة بالتوجّه نحو الكعبة و الإقامة نصب الشئ المنافي لإضجاعه.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَمَعْنَاهُ وَاضِحٌ وَلَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الشَّرْكِ الْمَنْهِي عَنْهُ فِي آيَةِ هُوَ الْخَفِيُّ مِنْهُ الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِالزَّيَاءِ لِأَنَّهُ يَنَافِي الْإِحْلَاصَ فَكَأَنَّهُ قَالَ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا مُخْلِصًا، وَأَتَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرْكَ الْجَلِّيَّ كَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لَا يَكُونُ فِي النَّبِيِّ قِطْعًا.

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ.

قِيلَ الْمَعْنَى، لَا تَدْعُ إِلَهًا كَمَا يَدْعُوا الْمُشْرِكُونَ الْوُثْنَ إِلَهًا، وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَدْعُ دَعَاءَ الْأَلْهَةِ فِي الْعِبَادَةِ بِدَعَاءِهِ وَمَعْنَى لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَا تَدْعُ غَيْرَ إِلَهًا وَأَتَمَّا قَالَ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ مَعَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ تَعَالَى لَا تَحْسُنُ وَلَا يَجُوزُ مُطْلَقًا لِأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ مَمَّنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ قَبِيحَةٌ عَقْلًا فَعِبَادَةُ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ أَقْبَحُ وَأَبْعَدُ مِنَ الشَّبْهِ هَكَذَا قِيلَ وَعِنْدِي وَجْهٌ آخَرُ.

وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ إِشَارَةٌ بَلْ كُنَايَةٌ عَنْ أَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ غَيْرِهِ تَعَالَى سِوَاهُ كَانَ مِنَ الْجَمَادَاتِ أَمْ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ إِلَى غَيْرِهِ.

أَمَّا الْجَمَادُ فَمَعْلُومٌ وَأَمَّا ذَوِي الْعُقُولِ مِثْلُ فِرْعَوْنَ وَنَمْرُودَ وَأَمْثَلِهِمَا فَأَنْتَهُمْ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَاقْعَا وَإِذَا كَانُوا كَذَلِكَ فَأَنْتَهُمْ عَاجِزُونَ فِي حَدِّ ذَوَاتِهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَأَيُّ نَفْعٍ فِي عِبَادَتِهِمْ وَأَيُّ ضَرٍّ فِي تَرْكِ عِبَادَتِهِمْ فَصَحَّ قَوْلُهُ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ كَأَنَّ مَا كَانَ لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ وَبِمَا حَقَّقْنَاهُ يَنْدَفِعُ الْإِشْكَالُ الْمَشْهُورُ وَهُوَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ تَضُرُّ قِطْعًا فَكَيْفَ قَالَ وَلَا يَضُرُّكَ.

وَحَاصِلُ الدَّفْعِ هُوَ أَنَّ تَرْكَهَا لَا يَضُرُّكَ لَا أَنَّ فِعْلَهَا لَا يَضُرُّكَ وَلَا يَنْفَعُكَ كَيْفَ وَيَلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ إِرْتِفَاعُ التَّقْيِضِينَ وَهُوَ مُحَالٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّفْعِ وَالضَّرِّ قِطْعًا فِي صُورَةِ إِتْحَادِ الْجَهَةِ نَعَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا مِنْ جِهَةٍ وَضَارًّا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ وَذَلِكَ لَأَنَّ الشَّرْكَ مِنْ أَعْظَمِ مَصَادِقِ
الظُّلْمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ^(١).

و لا شك أن من اتخذ إلهاً غير الله فهو مشرك و كل مشرك فهو ظالم فمن
فعل ذلك فهو ظالم و هو المطلوب.

قال المفسرون هذا الخطاب و أن كان متوجّهاً الى النبي ﷺ إلا أن المراد
به أمته.

أقول ما ذكره المفسرون في هذه الآية و نظائرها من أن الخطاب للنبي و
المراد أمته لا نفهم معناه فأن أرادوا من حملهم الآية على هذا المعنى هو
تعليق الشرط على المحال لو كان المراد شخص الرسول بمعنى أنه يستحيل
الشرك من الرسول فنقول في جوابهم أن وجود الشرك أو إثباته له منافٍ لمقام
رسالته مادام كونه رسولاً فهو صحيح إلا أن الآية ساكتة عنه بل الآية تقول أن
فعلت كذا كنت من الظالمين و حيث أنه لم يفعل فلا يكون منهم.

و أن أراد أن الشرك محال منه مع قطع النظر عن رسالته وعبارة أخرى هو
في نفسه محال في حقه عقلاً فهو يحتاج الى الإثبات فأن الشرك من البشر من
حيث هو هو ليس من المحالات العقلية.

نعم أن الرسول منزّه عنه لأن الله تعالى عصمه و حفظه من كل المعاصي
مادام كونه نبياً و هو لا يدل على أنه في حد نفسه مع قطع النظر عن العصمة لا
يقدر عليه أو أنه محال في حقه فالحق أن هذه الآية و أمثالها خطاب لجميع
الناس و لا شك أن النبي ﷺ منهم فحمل هذه الآيات على عمومها لا إشكال
فيه.

و محصل الكلام هو أَنَّ الآية حكمت و أثبتت الظلم للمشارك من أي شخص كان و التخصيص يحتاج الى الدليل و حيث أَنَّ الموضوع من أهم المسائل الإعتقادية و به يتضح مقام العصمة فلا بأس بالتكلم فيه إجمالاً اذ كثير من الناس يظنون أَنَّ معنى العصمة هو عدم القدرة على العصيان و ليس كذلك فَأَنَّ المعصوم يقدر على الذنب كغيره من البشر إِلَّا أَنَّ الله تعالى عصمه من الخطأ والزلل.

فنقول لا شك أَنَّ النبي ﷺ كان معصوماً من أول عمره الى آخره كما هو المختار أو بعد البعثة كما ذهب اليه قوم.

أو في إبلاغه أحكام الدين فقط كما إختاره شريعة قليلة و على أي التقدير فالعصمة ثابتة له و هذا مما لا كلام فيه إجمالاً ثم أَنَّ العصمة في العبد معناها حفظ الله إياه عن الخطأ.

قال الزاغب في المفردات عصمة الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم من صفاء الجوهر ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية و النفسية ثم بالضرورة و تثبت أقدامهم ثم بإنزال السكينة عليهم و بحفظ قلوبهم و بالتوفيق انتهى كلامه.

و قال الآخرون العصمة في الأنبياء هو أَنَّ الله تعالى أعطاهم قوة قدسية تمنعهم عن الخطأ و كيف كان ليس معنى العصمة عدم قدرتهم على المعصية و الخطأ اذ لو كان كذلك فلا فضل للمعصوم على غيره لأن المفروض أَنَّهُ لا يقدر على الخطأ و من كان كذلك فهو مجبول على الطاعة و أن شئت قلت خلقه الله غير قادرٍ على المعصية فترك العصيان ليس بإختياره لعدم قدرته عليه كان خارجاً عن القدرة و الإختيار لا مدح فيه و لذلك نقول أَنَّ الأنبياء و المعصومين أفضل من الملائكة لأن دواعي المعصية ليست موجودة في الملائكة بخلافها في الأنبياء حيث أَنَّهُا موجودة فيهم فالملك لا يزنئ مثلاً لعدم وجود الشهوة فيه و النبي لا يزنئ مع وجودها فيه بإختياره و الفرق

واضح فمن قال أنّ المعصوم لا يعصي بمقتضى طبعه البشري لم يعرف معنى العصمة قطعاً إذا علمت هذا فالمعصوم بمقتضى طبعه البشري يقدر على العصيان أية معصية كانت كغيره من أفراد البشر إلا أنه لا يعصي بإختياره وإرادته بسبب ما أودع الله تعالى فيه من القوة القدسية المانعة عن الخطأ أو أنه تعالى يحفظه بأي نحو شاء وأراد وأما أنه يكون مسلوب الإختيار فليس كذلك وهذا هو المستفاد من الآيات:

قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ** ^(١).

أي يحفظك الله عن أذاهم إياك:

قال الله تعالى: **وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ** ^(٣).

دلّت الآيات على أنّ العاصم هو الله ولا عاصم في الحقيقة غيره كذلك و عليه فحمل الآيات على ظواهرها لا إشكال فيه ولا ينافي عصمة النبي حتّى نحتاج الى التكلف ونقول الآية خطاب للنبي والمراد أمته ثم أنّ الآيات بهذه المضامين في القرآن كثيرة:

قال الله تعالى: **لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ^(٤).

قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ** ^(٥).

قال الله تعالى: **لِحَيْنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا** ^(٦).

قال الله تعالى: **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ** ^(٧).

قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** ^(٨).

قال الله تعالى: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** ^(٩).

١- المائدة = ٦٧

٢- يونس = ٢٧

٣- غافر = ٣٣

٤- الزمر = ٦٥

٥- الزعد = ٣٦

٦- الكهف = ٣٨

٧- غافر = ٤٢

٨- الجن = ٢٠

٩- آل عمران = ٦٤

و أمثال هذه الآيات كثيرة و لا يمكن حمل جميعها على ما ذكره من الخطاب للنبي و المراد أمته، فقله: أَنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أَشْرِكَ بِهِ يَأْبَى عن ذلك الحمل والحاصل هو أَنه تعالى نهى جميع الخلق عن الشُّرك و الظلم و الكذب و الخيانة و غيرها فرق في ذلك بين المعصوم و غيره و من قال أو يقول غيره فعليه بالإثبات.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطاب للنبي ظاهراً و لجميع الناس واقعاً و المعنى أن أحل بك الضر لأنَّ المسَّ الحقيقي لا يجوز عليه تعالى لأنَّ حقيقتها تكون بين الجسمين لكن لما أدخل الباء للتعدية جرى مجرى أن تقول يمسك من أمسه و أما اذا لم يتعدَّ فيكون كقوله: مَسَّنِيَ الضُّرُّ^(١) و المماساة و المطابقة و المجامعة نظائر و ضدها المباينة، و الكشف رفع الساتر المانع من الإدراك فكأنَّ الضُّرَّ هاهنا ساتر يمنع من إدراك الإنسان.

قال بعض المفسرين و أتى بالضُّر بلفظ المسَّ و في الخير بلفظ الإرادة فقال و أن يردك بخير، و طابق بين الضُّر و الخير مطابقةً معنويةً لا لفظيةً لأنَّ مقابل الضُّر النفع و مقابل الخير الشر ف جاءت لفظة الضُّر اللطف و أخصَّ من لفظة الشر و جاءت لفظة الخير أتمَّ من لفظة النفع و لفظة المسَّ أوجز من لفظة الإرادة و أنص على الإصابة و أنسب لقوله فلا كاشف له إلا هو و لفظ الإرادة أدل على الحصول في وقت الخطاب و في غيره و أنسب للفظ الخير و أن كان المسَّ و الإرادة معناه الإصابة و جاء جواب، أن يمسسك، بمفني عام و إيجاب و جاء جواب، إن يردك بنفي عام لأنَّ ما أراداه لا يردُّه رادَّ لا هو و لا غيره لأنَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

الجملة الثالثة

إرادته قديمة لا تتغير فلذلك لم يجيء التركيب فلا رادّ له إلا هو والمُس من حث هو فعل يوقعه ويرفعه بخلاف الإرادة فأنّها صفة ذات.

و جاء، فلا رادّ لفضله، سمي الخير فضلاً إشعاراً بأنّ الخيرات منه تعالى صادرة على سبيل الفضل والإحسان والتفضل ثمّ اتّسع في الإخبار عن الفضل والخير فقال يصيب به من يشاء من عباده ثمّ أخبر بالصفّتين الدالّتين على عدم المؤاخذه وهما الغفور الذي يستر ويصفح عن الذنوب والرحيم الذي رحمته سبقت غضبه انتهى.

أقول المُس في الأصل يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس وكُنّي به عن التّكاح تارةً فقليل مسّها وماسّها:

قال الله تعالى: **وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ** (١).

قال الله تعالى: **إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ** (٢).

و في قصّة مريم:

قال الله تعالى: **أَنْتَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** (٣).

و عن الجنّون أخرى:

قال الله تعالى: **الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** (٤).

و قد يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى:

قال الله تعالى: **وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أَلْتَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً** (٥).

قال الله تعالى: **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** (٦).

و الآيات كثيرة اذا عرفت معنى المُس حقيقةً و مجازاً فقد علمت أنّ المُس في الآية لا يراد به معناه الحقيقي فهو كناية عن حلول الضر والأذى.

٢- الأحزاب = ٤٩

٤- البقرة = ٢٧٥

٦- القمر = ٤٨

١- البقرة = ٢٣٧

٣- آل عمران = ٤٧

٥- البقرة = ٨٠

و من المعلوم أنه لا كاشف له إلا هو تعالى و لا يقدر على رفعه غيره كما أنه اذا أراد إصابة الخير فلا رادّ أي لا مانع له ممّا أراد فلا يقدر أحد على منعه ففي الآية إشارة بل دلالة على أنّ الضّر و النّفع بيده اذ لا مؤثّر في الوجود إلا هو.
 أرّمة الأمور طرّاً بيده و الكلّ مستمّدة من مدده و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا قوله: يُصِيبُ بِهِ أي بالخير من يشاء من عباده، قالوا المراد بالمشيئة هاهنا المصلحة و عليه فالمعنى أنه تعالى اذا رأى المصلحة في إصابة الخير الى عبده فلا يقدر أحد على صرفه عنه و هو أيضاً لا خلاف فيه لأنّ الخالق الموجد المالك لجميع ما سواه و هو على كلّ شيء قدير و هو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون قال الله تعالى وَ إِن يَفْسِدْ سَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١) ثم قال تعالى: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ معناه أنه غفار لكلّ ذنب فلا ييأس من ذلك أحد في حال تكليفه و الرّحيم معناه إنعامه على جميع خلقه.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.
 أمر الله نبيه في هذه الآية أن يقول لجميع الناس قد جاءكم الحق من ربكم، و المراد به هو الذي من عمل به من العباد نجا و ضده الباطل و هو الذي من عمل به هلك فمن عمل بالحق كان حكيماً و من عمل بالباطل كان سفيفاً قيل المراد بالحق هاهنا هو ما أتى به النبي من القرآن و الشرائع و الأحكام و غير ذلك من الآيات والدلالات و الحق تارة يقال و يراد به ما لا سبيل للبطلان اليه و تارة يقال و يراد به الثابت الذي لا يتغير و لا يتبدل.

ثالثة: يقال و يراد به المطابق للواقع و يقابله الباطل و هو الذي لا يطابق الواقع فقوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ يطلق على جميع هذه المعاني لأنّ ما

أتى به النبي أعني به الدين لا سبيل للبطلان اليه فأنَّ حلاله حلال الى يوم القيامة و حرامه كذلك فالدين هو الثابت الذي لا يتغير و لا يتبدل الى يوم القيامة و هو المطابق للواقع ونفس الأمر اذ لا يحتمل فيه الكذب قطعاً و لما كان كذلك فمن عمل به بإتيان الواجبات و ترك المحرمات فلا محالة يهتدي الى صراط المستقيم.

و من المعلوم أنَّ النفع عائدٌ الى العامل لأنَّ الإهتمام الى الكمال من أعظم المنافع و أحسن العوائد و الى ذلك المعنى أشار الله بقوله: **فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَنَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** و الدليل عليه هو أنَّ الله تعالى غني على الإطلاق لا يحتاج الى عبادة العبد اذ الإحتياج مساوٍ للإمكان و هو تعالى واجب الوجود و الرسول أيضاً لا يحتاج الى عبادة الأمة:

قال الله تعالى: **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**^(١).

قال الله تعالى: **وَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ**^(٢).

قال الله تعالى: **وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**^(٣).

و الأيات في الباب كثيرة فاذا كان نفع العمل لا يعود الى الله و الى الرسول فلا محالة يعود الى العامل به و هو المطلوب.

ثمَّ أنَّ هذا الكلام بعينه يجري فيمن لا يعمل و يعصي ربه لأنَّ الله تعالى لا تُضره معصية من عصاه و النبي كذلك اذ هو المبلغ للأحكام و الى هذا المعنى أشير بقوله: **وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** و المقصود أنَّ العاصي بعصيانه يضر بنفسه و هو معلوم.

قال أهل السنة أنَّ الهداية و الضلال واقعان بإرادة الله تعالى من العبد و أنَّ

من حكم له في الأزل بالإِهْتِدَاء فيقع ذلك و أن من حكم له بالضلال فكذلك و لا حيلة في ذلك.

وَأَنَا أَقُولُ قد مرّ نظير هذا الكلام منهم فيما مضى غير مرّة وأجبنا عنهم بما لا مزيد عليه و العجب منهم حيث لم يتدبروا في كلام الله تعالى حق التدبر فأَنَّ قوله: **فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** في الحقيقة ردُّ على مقاتلهم لأنَّ التَّاء في الإِهْتِدَاء إمَّا لِلطَّلَب و أمَّا لِلْقَبُول.

فعلى الأول: معنى الكلام فمن يطلب الهداية و الرِّشَاد فأنَّما طلبها لنفسه.

على الثاني: فمن قبل الهداية فقد قبلها لنفسه و المشهور أنَّها لِلطَّلَب و على التَّقْدِيرين لا يوافق الكلام مسلك الجبر و ذلك لأنَّ من حكم له في الأزل بالإِهْتِدَاء فلا معنى لقوله فمن إِهْتَدَى الخ في الدُّنْيَا و ذلك لأنَّه من تحصيل الحاصل و هكذا في جانب الضلالة و من المعلوم أنَّ الإِهْتِدَاء بإختيار العبد كما أنَّ الضلال بيده.

و أمَّا على ما ذهبوا اليه فهما خارجان عن قدرة العبد فلا معنى لقوله في آخر الآية و ما أنا عليكم بوكيل أليس معنى هذا الكلام أنَّ الرِّسُول ليس وكيلاً عليهم ليمنعهم من إعتقاد الباطل أو يجبرهم على الحق بل يجب عليهم النَّظَر لأنفسهم فمن لا إختيار له كيف ينظر لنفسه و هذا ظاهر.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.
أمر الله تعالى نبيّه بالصَّبْر و متابعة الوحي و لعلَّ المراد بالصَّبْر هو الصَّبْر على أذى المشركين في إنكارهم دعوته و إيذاءهم للنبي ﷺ باليد و اللسان و أمَّا أمره بالصَّبْر لأنَّه مفتاح الفرج و لذلك أمر الله جميع أنبياءه به فأنَّ إنكار المعاندين دعوة الأنبياء أو أذاهم لم يكن مختصاً برسول الله بل كان بجميع الأنبياء:

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا^(١)**.
و في حكاية عنهم:

قال الله تعالى: **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ آلِهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ^(٢)**.

قال الله تعالى: **وَ أَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(٣)**.
و الآيات كثيرة و أمّا متابعة الوحي و هو إلقاء المعنى في النفس على وجهٍ خفيٍّ فالمراد بها واضح لا خفاء فيه اذ في عدم متابعة الوحي يتحقق العصيان و المخالفة و النبي منزلة عنهما:

قال الله تعالى: **إِن تَبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ^(٤)**.
قال الله تعالى: **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ^(٥)**.

قال الله تعالى: **إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ^(٦)**.

قال الله تعالى: **وَ أَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ^(٧)**.

و محصل الكلام هو أنّ النبي في الأحكام تابع للوحي و قوله: **حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** معناه حتى يحكم الله تعالى بينك و بين من خالفك و أذاك يوم القيامة فإنه تعالى خير الحاكمين لأنه لا يظلم أحداً يخفى عليه شيء مما فعلوه من الشرك و النفاق و العناد و إيذاء الرسول و من أمن به هذا آخر الكلام في تفسير سورة يونس و الحمد لله رب العالمين.

* * *

- | | |
|-----------------|-------------------------|
| ١- الأنعام = ٣٤ | ٢- إبراهيم = ١٢ |
| ٣- هود = ١١٥ | ٤- سورة الأنعام آية ١٠٦ |
| ٥- الزخرف = ٤٣ | ٦- يونس = ١٥ |
| ٧- طه = ١٣ | |

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْزَكَاةُ أَكْبَرُ أُمُورِهِمْ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ خَبِيرٌ (١) أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَهِ إِلَهِكُمْ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

اللغة

أَيَاتُهُ، الأيات جمع أية وهي العلامة.
فُصِّلَتْ، التفصيل ضد الإجمال.

أَحْكَمْتُ، الإحكام بكسر الألف مصدر قولك، أَحْكَمَ إِحْكَامًا وهو منع الفعل عن الفساد.

جزء ١١

المجلد الثامن

خَيْرٍ، الْخَيْرِ الْعَلِيمِ.

يَشْتُونَ تَقُولُ تَنْتِيهِ عَنْ كَذَا أَيْ غَطَّيْتَهُ.

لِيَسْتَخْفُوا، إِلَّا سَتْخَفَاءَ طَلَبُ خَفَاءِ النَّفْسِ.

يَسْتَعْشُونَ مِنَ الْعَشِّ أَيْ يَتَّعْطُونَ ثِيَابَهُمْ وَ الْبَاقِي وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

الإعراب

كِتَابُ أَيِ هَذَا كِتَابٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُ الرَّ.

مِنْ لَدُنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً أَيْ كَائِنٌ مِنْ لَدُنْ، وَ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا وَ الْعَامِلُ فِيهِ فُضِّلَتْ بَنِيْتُ، لَدُنْ، وَ إِنْ أُضِيفَتْ لِأَنَّ عِلَّةَ بِنَاءِهَا خُرُوجُهَا مِنْ نَظِيرِهَا فَأَنْ، لَدُنْ، بِمَعْنَى عِنْدَ، وَ لَكِنْ هِيَ مَخْصُوصَةٌ بِمَلَاصِقَةِ الشَّيْءِ وَ شِدَّةِ مَقَارِبَتِهِ وَ عِنْدَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ بَلْ هِيَ لِلْقَرِيبِ وَ مَا بَعْدَ عَنْهُ وَ بِمَعْنَى الْمَلِكِ أَلَّا تَعْبُدُوا أَيْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا وَ فِي، أَنْ، ثَلَاثَةٌ أَوْجَهَ:

أَحَدُهَا: هِيَ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ.

الثَّانِي: أَنَّهَا نَاصِبَةٌ لِلْفِعْلِ وَ عَلَى الْوَجْهِينِ مَوْضِعُهَا الرِّفْعُ تَقْدِيرُهُ، هِيَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا فَيَكُونُ مَوْضِعُهَا جَزَاءً أَوْ نَصْبًا.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنْ تَكُونَ، أَنْ، بِمَعْنَى، أَيْ، فَلَا يَكُونُ لَهَا مَوْضِعٌ وَ لَا تَعْبُدُوا نَهْيٌ وَ مِنْهُ أَيْ مِنَ اللَّهِ وَ التَّقْدِيرُ نَذِيرٌ كَائِنٌ مِنْهُ فَلَمَّا قَدَّمَهُ صَارَ حَالًا وَ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِنَذِيرٍ وَ يَكُونُ التَّقْدِيرُ إِنَّنِي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنْ أَجْلِ عَذَابِهِ وَ أَنْ أَسْتَغْفِرُوا أَنْ، مَعْطُوفَةٌ عَلَى، أَنْ، الْأُولَى وَ هِيَ مِثْلُهَا فِيمَا ذَكَرَ إِنْ تَوَلَّوْا أَيْ يَتَوَلَّوْا يَشْتُونَ الْجُمْهُورُ عَلَى فَتْحِ الْبَاءِ وَ ضَمِّ النَّوْنِ وَ مَاضِيهِ، ثَنَى، وَ يَقْرَأُ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ بَضَمَ الْبَاءِ وَ مَاضِيهِ أَثْنَى وَ هُوَ ضَعِيفٌ أَلَّا حِينَ الْعَامِلِ فِي الظَّرْفِ مَحْذُوفٌ أَيْ أَلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَسْتَخْفُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِيَعْلَمَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير

الر

اختلف المفسرون في هذه الحروف التي في أوائل السور والحق أنها أسماء للسور وقد مر الكلام فيها في البقرة كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير والمعنى هذا كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، قيل أحكمت الآيات بالأمر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب.

وقيل أحكمت آياته من الباطل ثم فصلت بالحرام والحلال وقيل أحكمت آياته على وجه الجملة ثم فصلت أي بينت بذكرها آية.

أقول الإحكام الإتيان ومنع الفعل عن الفساد وقيل الإحكام النظم ومعنى قوله: **أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ** نظمت نظماً رضيعاً لا نقص فيه ولا خلل كالبناء المحكم وهو الموثق في الترصيف وعلى هذا فالهمزة في، أحكمت، ليست للتقل ولا يجوز أن تكون للتقل من حكم، بضم الكاف إذا صار حكيماً فالمعنى جعلت حكيمة كقولك تلك آيات الكتاب الحكيم على أحد التأويلين في قوله: الكتاب الحكيم.

وقيل من أحكمت الدابة إذا منعها من الجماع بوضع الحكمة عليها ومنه قول جرير:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم
أني أخاف عليكم أن أغضبا

وقال قتادة أي أحكمت من الباطل وعن أبي قتيبة، أحكمت أي إتقنت شبه ما يحكم من الأمور المتقنة الكاملة وبهذه الصفة كان القرآن في الأول ثم فصل بتقطيعه وتبيينه في أحكامه وأمر الرسول ﷺ فثم، على بابها وهذه طريقة الإحكام والتفصيل إذ الإحكام صفة ذاتية والتفصيل أنما هو بحسب من يفصل له والكتاب أجمعه محكم مفصل والإحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال أنما يقالان مع ما ذكرناه بإشتراك.

و قال صاحب الكشف، ثم فصلت كما تفصل القلائد بالدلائل من دلائل التوحيد و الأحكام و المواعظ و القصص أو جعلت فصولاً سورة سورة و أية أية و فرقت في التنزيل و لم تنزل جملة واحدة أو فصل بها ما يحتاج اليه العباد أي بين و لخص و قرئ أحكمت آياته ثم فصلت أي أحكمتها أنا ثم فصلتها في معنى ثم ليس معناها التراخي في الوقت و لكن في الحال كما تقول هي محكمه أحسن الإحكام ثم فضله أحسن التفصيل و فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل انتهى كلامه.

و أما قوله: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ قيل معناه من لدن حكيم عليم و لعل الوجه فيه هو أن الخبر العلم بالأشياء المعلومه من جهة الخبر و قيل الخبرة بضم الخاء المعرفة ببواطن الأمر.

و قال الراغب في المفردات بعد ما نقلناه عنه، أي عالمٌ بأخبار أعمالكم أو ببواطن أموركم و قيل خبير بمعنى مخبر انتهى.

أقول و عليه فمعنى الكلام من لدن حكيم عالم بأخبار أعمالكم أو ببواطن أموركم و كيف كان فالمعنى واضح لأنه تعالى حكيمٌ خبير على جميع التقادير.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ.

قال الزمخشري قوله ألا تعبدوا، مفعول له على معنى، لئلا تعبدوا أو تكون، أن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل، قال لا تعبدوا إلا الله أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذيرٌ و بشيرٌ، أي إنني لكم منه أي من الله تعالى نذيرٌ و بشيرٌ، نذيرٌ من العذاب و العقاب و بشيرٌ إلى الثواب:

قال الله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ

تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ^(١).

قال الله تعالى: فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ^(٢).

جاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثاني

قال الله تعالى: **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ^(٢).

قال الله تعالى: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ^(٣).

و الآيات الدالة على أَنَّ الرَسُولَ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ كَثِيرَةٌ وَ الْمَقْصُودُ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ فَأَتِي أَبْشِرْكُمْ بِالثَّوَابِ وَ أَنْ تَكْفُرُوا بِهِ فَأَتِي أَنْذِرْكُمْ وَ أَخُوفْكُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَ مَا عَلَى الرَسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ.

وَ أَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ

الواو للعطف و المعنى أَنْ لَا تَعْبُدُوا وَ أَنْ إِسْتَغْفِرُوا وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَ أَنْ إِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ أَيْ إِرْجِعُوا إِلَيْهِ فَأَنَّ التَّوْبَةَ هِيَ الرُّجُوعُ يُقَالُ تَابَ عَنْ ذَنْبِهِ إِذَا رَجَعَ عَنْهُ فَأَنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِيخْتَلَفُوا فِي مَتَاعِ الْحَسَنِ قِيلَ هُوَ الرِّضَا فِي الْمِسُورِ وَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَقْدُورِ.

و قيل هو حسن العمل و قطع الأمل.

و قيل هو النعمة الكافية مع الصحة و العافية.

و قيل هو الجلال الذي لا طلب فيه و لا تعب.

و قيل هو لزوم القناعة و توفيق الطاعة و قوله: **إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** أَيْ مَدَّةٌ مُّعَيَّنَةٌ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

و قال الزمخشري أَنَّهُ تَعَالَى يَطُولُ نَفْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَنَافِعٍ حَسَنَةٍ مُّرْضِيَةٍ مِنْ عِيشَةٍ وَاسِعَةٍ وَ نِعْمَةٍ مُّتَابَعَةٍ وَ أَنْمَا وَصَفَ الْمَتَاعَ بِالْحَسَنِ لِطَيْبِ عِيشِ الْمُؤْمِنِ بِرَجَاءِهِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ فِي ثَوَابِهِ وَ فَرَحِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَفْرُوضَاتِهِ وَ

السّرور بمواعيده و الكافر ليس في شيء من هذا و الاجل المسمى قيل هو أجل الموت و قيل هو يوم القيامة.

و قال الرّمخشري الى أن يتوّفاكم وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أَيَّ إِنَّ اللَّهَ تعالى يعطي في الآخرة كلّ من كان له فضل في العمل.

و الحقّ أنّه ترغيب في العمل لأنّه على مقداره يجازي صاحبه و أنّ الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

وَ إِنَّ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ و التّقدير، وأن تتولّوا، إلاّ أنّه حذف للتّضعيف و لذلك شدّه ابن كثير و قيلّ معناه، فقل أنّي أخاف

عليكم عذاب يوم كبير و هو يوم القيامة وصف ذلك اليوم بالكبير لعظم ما يكون فيه من الأهوال و المجازات لكلّ إنسان على قدر عمله.

أقول لا يبعد أن يكون الفعل على بابّه و أن يكون المراد به الغائبين الماضين و التّقدير قيل لهم أنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

المرجع المصير الى مثل الحال الأولى و قد ثبت أن كلّ شيء يرجع الى أصله:

قال الله تعالى: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ^(١).

قال الله تعالى: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ أَلْرُجْعَى^(٢).

قال الله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا إِنَّا يَرْجِعُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجِعُونَ^(٤).

قال الله تعالى: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ^(٥).

فضاء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الثامن

٢- العلق ٨
٤- الأنعام ٣٦

١- البقرة = ١٥٦
٣- مريم = ٤٠
٥- هود = ١٢٣

قال الله تعالى: وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١).

و في هذه الآية إشارة الى أمرين:

أحدهما: أَنَّ الرجوع اليه.

الثاني: أَنَّهُ تعالى قادر على كل شيء.

أما الأمر الأول: فهو من المسلّمات بل من البديهيات فَأَنَّ المخلوق تحت قدرة الخالق و حيث أَنَّ الخالق خلق الخلق و أوجدهم فلا يمكن للخلق الفرار من حكومته.

أما الأمر الثاني: و هو عموم قدرته فهو أيضاً ثابت عقلاً و نقلاً.

أما نقلاً فالآيات و الأخبار الواردة في الباب.

أما عقلاً فلأنه لو لم يكن قادراً على كل شيء فلا محالة يكون قادراً على بعض دون بعض و معنى عدم قدرته في البعض يرجع الى ضعفه و عجزه و العجز نقص و عيب فَأَنَّ كل ناقص فهو داخل في سلسلة الممكنات و المفروض أَنَّهُ تعالى واجب الوجود فكيف يكون عاجزاً ناقصاً.

ثانياً: أَنَّهُ محتاج في رفع نقصه الى غيره و كل محتاج فهو مخلوق فرضناه خالقاً فهو تعالى قادر على كل شيء عالم بكل شيء محيط بكل شيء فقدرته تتعلّق بكل مقدور كما أَنَّ علمه يتعلّق بكل معلوم و هو ممّا لا كلام فيه عند المحقّقين.

أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

أي يشنونها و يمدحونها على عداوة النّبي و قيل على الكفر و قيل أَنَّهُم يشنون صدورهم على ما كانوا عليه من النفاق و المأل واحد.

قيل نزلت الآية في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله و يحلف أَنَّهُ ليحبّه و يضمّر خلاف ما يظهر و قوله ليستخفوا منه، فالإستخفاء طلب خفاء

النفس و نظيره إستغشى والهاء فيه ترجع الى إسم الله أي ليستخفوا ما في صدورهم و ضمائرهم من الله.

وقيل عائدة الى الرسول أي ليستخفوا عن الرسول و لم يعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية و الرسول أيضاً كذلك بإذن الله تعالى.

أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ معناه أنهم كانوا يتغطون ثيابهم ثم يتفاوضون ما كانوا يدبرونه على النبي و على المؤمنين و يكتُمونه عن الناس فبين الله تعالى أنهم وقت ما يتغطون بثيابهم و يجعلونها غشاء فوقهم علم بما يسرون و ما يعلنون أنه عليهم بذات الصدور.

و حاصل المعنى أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء فهو عالم بسرائر المنافقين و ضمائرهم كما هو عالم بظواهرهم إلا أن المنافق لفاقه يظن أنه كما يقدر على أعمال التفاف بالنسبة الى أمثاله بسبب عدم وقوفهم على ضميره كذلك يقدر على الاستخفاء لله تعالى و لرسوله و ليس كذلك.

و محصل الكلام هو أنه لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم و إعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الإستخفاء:

قال الله تعالى: **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ**^(١).

قال الله تعالى: **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ**^(٢).

قال الله تعالى: **إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**^(٣).

قال الله تعالى: **وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ**^(٤).

و غيرها من الآيات و الدليل عليه من العقل هو أنه تعالى لو لم يعلم شيئاً ظاهراً كان أو باطناً يلزم منه الجهل بالنسبة الى ما لا يعلم و الجهل نقص و

٢- إبراهيم = ٣٨

٤- النمل = ٢٥

١- غافر = ١٩

٣- الأحزاب = ٥٤

النقص من شئون الممكن والواجب منزّه عنه فهو تعالى عالم بجميع الأشياء
 ظاهرها وباطنها كما أنّه قادر على جميع المقدورات وهذا أصل ثابت عقلاً و
 شرعاً هذا آخر الكلام في الجزء الحادي عشر وبه نختم الكلام في هذا الجزء و
 يتلوه الجزء الثاني عشر.



الفهرست

سورة الأنفال ٩

الآيات ٤١ الى ٤٦ ٩

اللغة ٩

الإعراب ١٠

التفسير ١١

الآيات ٤٧ الى ٥٦ ٣٤

اللغة ٣٥

الإعراب ٣٥

التفسير ٣٦

الآيات ٥٧ الى ٦٥ ٥٢

اللغة ٥٢

الإعراب ٥٣

التفسير ٥٤

الآيات ٦٦ الى ٧٦ ٦٧

اللغة ٦٨

الإعراب ٦٨

التفسير ٦٩

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١١

المجلد الثامن

سُورَةُ التَّوْبَةِ ٨٧

الآيات ١ الى ٦ ٨٧

اللُّغَةُ ٨٨

الإعراب ٨٨

التفسير ٨٩

الآيات ٧ الى ١٨ ١٠٨

اللُّغَةُ ١٠٩

الإعراب ١٠٩

التفسير ١١٠

الآيات ١٩ الى ٢٤ ١٣١

اللُّغَةُ ١٣١

الإعراب ١٣٢

التفسير ١٣٢

الآيات ٢٥ الى ٢٩ ١٥٢

اللُّغَةُ ١٥٢

الإعراب ١٥٣

التفسير ١٥٣

الآيات ٣٠ الى ٣٥ ١٧٦

اللُّغَةُ ١٧٦

الإعراب ١٧٧

التفسير ١٧٨

الآيات ٣٦ الى ٤٠ ٢٠٤

اللُّغَةُ ٢٠٥



٢٠٥	الإعراب.....
٢٠٦	التفسير.....
٢٤٩	الآيات ٤١ الى ٤٨.....
٢٥٠	اللغة.....
٢٥٠	الإعراب.....
٢٥٠	التفسير.....
٢٦٥	الآيات ٤٩ الى ٥٦.....
٢٦٥	اللغة.....
٢٦٦	الإعراب.....
٢٦٦	التفسير.....
٢٨١	الآيات ٥٧ الى ٦٣.....
٢٨١	اللغة.....
٢٨٢	الإعراب.....
٢٨٣	التفسير.....
٢٩٩	الآيات ٦٤ الى ٧٠.....
٣٠٠	اللغة.....
٣٠٠	الإعراب.....
٣٠١	التفسير.....
٣١٤	الآيات ٧١ الى ٧٨.....
٣١٥	اللغة.....
٣١٥	الإعراب.....
٣١٥	التفسير.....
٣٤١	الآيات ٧٩ الى ٨٥.....
٣٤٢	اللغة.....

٣٤٢	الإعراب.
٣٤٣	التفسير
٣٥٦	الآيات ٨٦ الى ٩٣
٣٥٧	اللغة
٣٥٧	الإعراب.
٣٥٧	التفسير
٣٧٣	الآيات ٩٤ الى ٩٩
٣٧٤	اللغة
٣٧٤	الإعراب.
٣٧٤	التفسير
٣٨٤	الآيات ١٠٠ الى ١٠٦
٣٨٥	اللغة
٣٨٥	الإعراب.
٣٨٥	التفسير
٤٠٩	الآيات ١٠٧ الى ١١٢
٤١٠	اللغة
٤١٠	الإعراب.
٤١١	التفسير
٤٢٦	الآيات ١١٣ الى ١٢٠
٤٢٧	اللغة
٤٢٧	الإعراب.
٤٢٨	التفسير
٤٥٨	الآيات ١٢١ الى ١٢٩
٤٥٩	اللغة

الإعراب.....	٤٥٩
التفسير.....	٤٥٩



سُورَةُ يُونُس..... ٤٧٣

الآيات ١ الى ١٠.....	٤٧٣
اللغة.....	٤٧٤
الإعراب.....	٤٧٤
التفسير.....	٤٧٥
الآيات ١١ الى ٢٠.....	٤٩٩
اللغة.....	٥٠٠
الإعراب.....	٥٠٠
التفسير.....	٥٠١
الآيات ٢١ الى ٢٦.....	٥٢٢
اللغة.....	٥٢٣
الإعراب.....	٥٢٣
التفسير.....	٥٢٤
الآيات ٢٧ الى ٣٦.....	٥٤٠
اللغة.....	٥٤١
الإعراب.....	٥٤١
التفسير.....	٥٤٢
الآيات ٣٧ الى ٤٤.....	٥٧٠
اللغة.....	٥٧٠

الأعراب.....	٥٧١
التفسير.....	٥٧١
الآية ٤٥.....	٥٨٩
الآيات ٤٦ الى ٥٦.....	٥٩٢
اللغة.....	٥٩٣
الإعراب.....	٥٩٣
التفسير.....	٥٩٣
الآيات ٥٧ الى ٦٥.....	٦٠٧
اللغة.....	٦٠٨
الإعراب.....	٦٠٨
التفسير.....	٦٠٨
الآيات ٦٦ الى ٧٣.....	٦٢٤
اللغة.....	٦٢٥
الإعراب.....	٦٢٥
التفسير.....	٦٢٥
الآيات ٧٤ الى ٨٣.....	٦٣٦
اللغة.....	٦٣٧
الإعراب.....	٦٣٧
التفسير.....	٦٣٧
الآيات ٨٤ الى ٩٣.....	٦٤٦
اللغة.....	٦٤٧
الإعراب.....	٦٤٧
التفسير.....	٦٤٨
الآيات ٩٤ الى ١٠٩.....	٦٦٩

٦٧٠	اللغة
٦٧١	الإعراب
٦٧١	التفسير



سورة هود.....٧٠٧

٧٠٧	الآيات ١ الى ٥
٧٠٧	اللغة
٧٠٨	الإعراب
٧٠٩	التفسير

